

# ميزوبوتاميا

مركز الدراسات والبحوث في العراق والشرق الأوسط - بغداد 2006

مجلة فصلية موحدة تحت إشراف الجمعية العراقية للدراسات  
عامة عن مركز دراسات الآلة العراقية

العدد  
9-8

أبريل 2006

4376  
مواضع



## خمسة آلاف عام من الدين العراقي



موسوعة الحقائق الدينية العراقية



الدين الكوراني  
الدين الماتوي

الاسلام القديم  
مذاهبهم  
أعقابهم  
تفصيلاتهم  
أولادهم

الاسلام القديم  
الاشعرية  
الحنفية  
الشافعية  
المالكية  
الحنبلية

الاسلام الصوفي  
الرحمانية  
القادرية  
الناكبة  
الشيخانية  
البرهانية

المسيحية  
الكنائس  
البروتستانتية  
اليهودية

# ميزوبوتاميا

العراقي الحقيقي، ليس بأصله وفصله، بل هو كل من انتمى للعراق واحب شعبه وأرضه وتاريخه..

# خمسة آلاف سنة من التدين العراقي

## بلاد النهرين

دورية موسوعية تعني باحياء الهوية الوطنية تصدر عن مركز دراسات الأمة العراقية

صاحب الامتياز ورئيس التحرير:

سليم مطر [www.salim-matar.com](http://www.salim-matar.com)

سكرتير التحرير : علي ثويني :

[thwanyali@hotmail.com](mailto:thwanyali@hotmail.com)

ساهم بالاشراف على هذه الموسوعة:

آيدن آقسو/ عشتار البرزنجي/ حيدر رضا

مدير مكتب بغداد : طارق كامل [tariq\\_963@yahoo.com](mailto:tariq_963@yahoo.com)

الاعلام : ازهار الاطرقجي

الترجمات : ماركيت كافية

## ساهم في هذه الموسوعة

فراس السواح / منى كريم/ آشور كيوركيس/ ادد.د. فاضل سوداني/ عشتار البرزنجي / عامر السيد نور / زينب السامرائي / علي الداوقي/ الشيخ جعفر السبحاني/نادية عمر جاسم /معد فياض /جاسم محمد طوزلو/لمياء صافي /حنا بطاطو/ د. ميسون كاظم الدليمي/ عادل باقر البغدادي /د. رشيد الخيون /سمير حلبي/مصطفى أربيلي /آلاء البدري/ آزاد علي النقشبندي /د. محمد سعيد كتانة/طارق حمدي الأعظمي/وليد عبد الله/منير عتيبة /أحمد تمام/خلود الدايني/سلمان هادي آل طعمة/الشيخ فريد الدين آيدن/محمد بياتلي/ابراهيم داود الداود/الشيخ بديع الزمان النورسي/خالد توما /وداد العاني/ محمود الزيباوي /علي سالم النجفي /د. احمد جمعة /زينب الطالباني /خليلة الازدي /سميرة فادي /د. علي ثويني /حامد نعيم /حيدر رضا /اسعد علي السنجاري /د.فاطمة حسن الشبكي /نادر ساسون خضر /بسام الكرزون /غانم جواد /عقيل عيدان/ماجد السامرائي /قاسم محمد جبار/السيد محمد حسين فضل الله /نهاد خياطة

مواقع الانترنت التي تم الاستفادة منها:

<http://www.rafed.net/> شركة رافد

<http://ar.wikipedia.org/> الموسوعة الحرة

[www.islamonline.net/](http://www.islamonline.net/) اسلام اونلاين

التصميم الاولي واختيار الصور وتنسيق المواضيع: سليم مطر

تصميم الغلاف: علي ثويني

التصميم الداخلي: أثير جواد / انتصار جعفر

المراسلة والكتابة للمجلة على ايميلات المشرفين على المجلة يمكن مطالعة جميع اعداد المجلة على صفحات

الانترنت في الموقعين التاليين:

[www.mesopotamia4374.com](http://www.mesopotamia4374.com)

[www.salim-matar.com](http://www.salim-matar.com)

المقالات تعبر عن رأي اصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

## توضيح

هذه المجلة ومعها (مركز دراسات الامة العراقية) لا تتلقى أي دعم من اية جهة او شخصية، وهي تعتمد حتى الآن على الصرف الذاتي، لكنها سوف تتقدم بطلبات دعم من المؤسسات السويسرية والاوروبية والعربية المعنية بالثقافة. لهذا فهي تدعو كل الجهات والشخصيات العراقية التي تتفق مع مشروع احياء الهوية العراقية، ان تبادر الى تقديم الدعم الممكن. علما باننا نتقبل الدعم من اية جهة او شخصية مهما كانت بشرط عدم معاداتها لمبادئ الهوية العراقية وعدم تدخلها في سياسة المجلة والمركز.

## الى كل من يهمه الامر

نظرا للوضع المالي الصعب الذي تمر به هذه المجلة، والذي يهدد حتى استمراريتها، بسبب امتناع الجهات العراقية المختلفة عن دعمها، فأنا ندعو كل المؤسسات والشخصيات والجهات الراغبة بوضع اعلاناتها، الى المساهمة بدعم المجلة من خلال نشر اعلاناتهم على صفحات (ميزوبوتاميا)، بشرط ان تكون ذات قيمة معلوماتية مقبولة.

## الفهرست

- كلمة الموسوعة: الله هو المحبة والتسامح
- مدخل فكري تاريخي: توحيد الماضي أساساً لتوحيد الحاضر
- الفصل الاول: الأديان العراقية المنقرضة ديانة الخصب والديانة المانوية**
  - اسطورة الخليفة العراقية
  - قراءة عامة في الاساطير العراقية
  - يوم الحجة - حجتو- عيد الربيع العراقي
  - عقيدة المهدي المنتظر لدى العراقيين القدماء
  - عذابات (تموز)
  - المانوية البابلية.. أساس التصوف العراقي
- الفصل الثاني: الاسلام الشيعي العراقي**
  - الاسلام الشيعي العراقي
  - شخصيات شيعية تاريخية:
  - الامام محمد المهدي (ع) / الامام موسى الكاظم (ع) / الشريف الرضي / الشيخ المفيد / العلامة الحلي / ابو الحسن الاربيلي
  - شخصيات نسوية:
  - نرجس النصرانية (رض) ام الامام المهدي (ع) / آمنة بنت الإمام الكاظم (ع) / آمنة البغدادية / آمنة الهبائية / الشهيدة آمنة الصدر (بنت الهدى .)
  - شخصيات معاصرة:
  - السيد محمد باقر الصدر / السيد محمد صادق الصدر / السيد محسن الحكيم / السيد علي السيستاني / السيد محمد حسين فضل الله / الشيخ عبد الزهرة الكعبي
  - المراكز الثقافية الشيعية
  - دول شيعية: الدولة المشعشعية في الاحواز وجنوب العراق
  - معالم مقدسة: ضريح الامام علي (ع) في النجف الاشرف
  - فئات الوطن: التركمان الشيعية، المجتمع والسياسة..
  - الفيلية.. عراقيون شيعية..
  - دراسات: شيعية العراق، الدور السياسي
- الفصل الثالث / الاسلام السني العراقي**
  - الاسلام السني العراقي
  - مذاهب العراقيين: المذهب الحنفي/ المذهب الشافعي
  - من تاريخ المذاهب السنية لدى أهل العراق
  - شخصيات: ابن الجوزي.. المثقف الاصيل والعالم الكبير..
  - شخصيات معاصرة :
  - السيد عبدالله باشا الاحمدلي ابن الجنوب ونقيب أشرف أربيل..

- الشهيد عبد العزيز البدرى داعية التقريب بين المذاهب الإسلامية  
- معالم: مساجد الموصل/ مساجد اربيل  
- فنات عراقية / من تاريخ الاسلام بين تركمان كركوك..  
- دراسات / نشوء الحركة الإسلامية السنية في العراق

آلاء البدرى  
آزاد علي النقشبندى  
د - محمد سعيد كتانة  
طارق حمدي الأعظمي

## الفصل الرابع / الاسلام الصوفي العراقي

- الاسلام الصوفي العراقي  
- شخصيات صوفية:  
- النقرى.. شيخ التصوف..  
- رابعة العدوية، بصرية، هام بها المؤرخون والمتصوفة..  
- أحمد الرفاعي: العمل شرط "الطريقة"  
- الامام عبد القادر الكيلاني  
- العرفاني العراقي التركماني (فضولى البغدادي)  
- خالد البغدادي، ابن السليماني وشيخ الطريقة النقشبندية  
- مناطق: تكايا المتصوفة في خانتين..  
- طوائف صوفية: طائفة الكاكانية العلوية الصوفية  
- نصوص صوفية: مناجات صوفية كردية بالعربية  
هذا الألم، أثقل بمراتب من لذة الوصال  
- نص أدبي تصوفي: رقصة الوجد  
- سليم مطر

## الفصل الخامس / عقائد اسلامية عراقية لم يعد لها وجود في العراق

- المعتزلة  
- الاشعرية  
- اخوان الصفا  
- المذهب الاسماعيلي  
- القرامطة  
- مذهب النصيرية (علوية سورية)  
- الاباضية  
- خالد توما  
- وداد العاني  
- محمود الزيباوي  
- علي سالم النجفي  
- د. احمد جمعة  
- زينب الطلبناني  
- خلية الازدي

## الفصل السادس / المعتقدات الدينية العراقية الاخرى

- المسيحية العراقية  
- الكنائس والأديرة العراقية  
- الصابنة المندائيون  
- حول اصل الصابنة المندائيين  
- اليزيدية  
- الشبك  
- يهود العراق  
- اليهود العراقيون في اسرائيل  
- مشروع توطين اليهود في العراق  
- سميرة فادي  
- د. علي ثويني  
- حامد نعيم  
- حيدر رضا  
- اسعد علي السنجاري  
- د. فاطمة حسن الشبكي  
- نادر ساسون خضر  
- نادر ساسون خضر  
- بسام الكرزون

## الفصل السابع / الملف التحليلي التسامح والحوار بين المذاهب والاديان..

- توقيع ميثاق شرف سني شيعي  
- التسامح الديني في العقلية العراقية  
- العلمانية المؤمنة نظام للحكم في العراق  
- التسامح الديني مطلب إنساني  
- في ظلال مدينة الإمام المهدي  
- من المسؤول عن الخطاب الطائفي في العراق ؟  
- الحوار بين المذاهب والاديان مطلب اسلامي..  
- جوهر الإسلام جوهر المسيحية: مسلم يقرأ الإنجيل  
- د. علي ثويني  
- غاتم جواد  
- عقيل عيدان  
- ماجد السامرائي  
- قاسم محمد جبار  
- السيد محمد حسين فضل الله  
- نهاد خياطة



**كلمة الموسوعة**  
**الله هو المحبة والتسامح..**  
**بالمحبة يحيا الانسان.. وبالتسامح تحيا الاديان..**

سليم مطر - جنيف



**المحبة والتسامح لدى شيخ التصوف (ابن عربي)..**

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه دان  
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان  
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن  
أدين بدين الحب أتى توجّهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

**(وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) (القرآن الكريم)**

من الواضح من هذا القول الكريم، ان الله خلقنا مختلفين بالمعتقدات وبالألسن، ليس لكي نتباغض، بل لكي نتعارف. ان كلمة (التعارف) مشتقة من (المعرفة)، فلكي (نتعارف) مع ابناء جماعة ما، علينا أن (نتعرف) عليها. فالمعرفة هي أساس التعارف. والجهل أساس التباغض.

على هذا الاساس بالضبط قامت موسوعتنا.

ان من اهم مشاكل العقلية العراقية (نعني بالعقلية، مزيج الثقافتين الشعبية والنخبوية)، انها لم تتزود بالمعرفة الكافية لتنوعات الطيف العراقي. والمسؤولية الاولى طبعا تتحملها النخب الحداثية، منذ عصر الافندية اوائل القرن العشرين، وحتى الآن. لقد اصرت هذه النخب، وخصوصا تياراتها السياسية وصفوتها الجامعية، على تجنب التعرف التفصيلي بتنوعات الامة العراقية، دينياً ومذهبياً واقوامياً. وظلت عملية دراسة واقع الفئات العراقية المختلفة، خاضعة لمبادرات فردية محدودة جداً.

بل بلغ الاهمال لدى نخبنا، انها رفضت حتى ترجمة ما كتبه الاجانب عنا. لقد اختبصت نخبنا العريضة، بالتركيز على نقل وترجمة نتاجات المجتمعات الغربية من ثقافة ومعلومات وأفكار، بحيث اصبح مثقفنا يعلم عن تلك المجتمعات اضعاف اضعاف ما يعلمه عن مجتمعه العراقي وفيسفائه الجميل.

أما النخب العراقية ذات الاتجاهات القومية والدينية، فأنها للأسف، لم ترى من المجتمع العراقي سوى الفئة التي تنتمي اليها عقائدياً. **العروبيون** مثلاً، ركزوا كل جهودهم وما امتلكوه من اجهزة الدولة العراقية خلال سنوات طويلة، من اجل التعرف والتعريف بكل شاردة وواردة تخص الشعوب العربية الشقيقة، من ادغال الصومال حتى شواطئ مالطا، مع التجاهل التام، بل حتى الاحتقار والاستخفاف، بالفئات العراقية غير

الناطقة بالعربي. رداً على العروبيين، مارس القوميون من الفئات الأخرى، نفس حالة التعصب الثقافي القومي والتجاهل التام للتنوع الوطني. كذلك الأحزاب الدينية العراقية **لم تخرج** من هذا السياق. فأُصار كل تيار ديني، ركزوا جهودهم الثقافية للتعرف والتعريف بأبناء طائفتهم وحدها، مع التجاهل التام، بل ربما الاحتقار والبغض للطوائف الأخرى.

ثم بعد كل هذا التجهيل والتشويه الذي عانت وتعاني منه العقلية العراقية، منذ أكثر من قرن وحتى الآن، هنالك من يستغرب ما يحدث لنا من كوارث بعد خروج عفرية التعصب والتجاهل من قمقمه! أليس ما نعيشه الآن من حقد ودم، ما هو إلا حصيلة طبيعية لذلك التجهيل والتجاهل المعرفي الذي مارسه وتمارسه نخبنا الطيبة، منذ أجيال وأجيال؟! \*

\*\*\*

ان الدارس للوضع الديني العراقي، يمكنه تسجيل الملاحظات التالية:

- ان جميع الأديان والمذاهب العراقية، تشترك بالاساس (الساموي التوحيدي)، إذ تتفق على الإيمان بـ (الله) (جل) ووحداية الخالق.

- ان جميع الأديان والمذاهب العراقية، تشترك بأساس اخلاقي اجتماعي متقارب، في امور اساسية مثل تقديس حياة الانسان والحفاظ على كرامته ومساعدة المحتاج ورعاية المسنين والاطفال وحرمة العائلة وضرورة السلام الاجتماعي والنظافة والتعلم، وغيرها من الامور..

- ان الجزء الاعظم من المكونات الدينية العراقية، قد نشأ في العراق، أو على الأقل في منطقة الشرق الاوسط. فليس لدينا أي دين أو مذهب قادم من مناطق عالمية بعيدة. حتى الأديان والمذاهب التي لم تنشأ أساساً في العراق، فأنها تطبعت منذ قرون طويلة بالوضع العراقي. فمثلاً، صحيح ان الاسلام نشأ في الحجاز، لكنه عندما بلغ العراق، أدخل فيه العراقيون خزينهم المعرفي وطوعوه حسب بينتهم، إذ في البصرة والكوفة وبغداد، نشأت المذاهب الشيعية والسنية العراقية المعروفة. كذلك بالنسبة للمسيحية، فرغم انها نشأت في فلسطين، الا أن أهل العراق أوجدوا فيها مذهبهم النسطوري الخاص بهم. حتى المذهبيين (الكاثوليك) و(البروتستانت)، رغم انهما من منشأ أوروبي، إلا أن مسيحي العراق قد تقبلتهما باعتبارهما جزءاً من المسيحية (الفلسطينية).

ثم ان غالبية المذاهب الاسلامية والأديان الأخرى المنتشرة في الوطن، قد نشأت أساساً فيه، مثل الكاكاوية واليزيدية والشبكية، والصابنية. بل اليهودية، عندما دخلت الى العراق في العصر البابلي، كانت ديناً بدائياً شفاهياً، ثم في بابل اتخذت طابعها الكتابي وأبدعت توراتها وتلمودها، بالاعتماد على الميراث الديني والاسطوري العراقي.

\*\*\*

### توضيح معاني الرموز الدينية



- رمز الصليب: ان رمز الصليب، متداول في الحضارة العراقية قبل المسيحية بقرون طويلة. وهو عموماً يرمز الى شجرة الحياة والخصب. فالصليب بحقيقته متكون من جذع وغصنين. وقد تعمق رمز الخصب، هذا بمفهوم صلب السيد المسيح، حيث سقى بدمائه شجرة الايمان والخلاص.

- رمز الدرفش الصابئي، وهو عبارة عن صليب معلق عليه قميص ابيض يعتقد انه للنبي يحيى (ع). في كل الاحوال فإنه يجمع بين خصب الصليب ونقاء الثوب الابيض رمز الايمان والطهر.

- رمز النجمات والمضلعات الثمانية: ان رمز النجمة الثمانية ارتبط لدى العراقيين القدماء، بـ (عشتار) الهة الخصب والانوثة. وهذه النجمة عادة هي (نجمة الزهرة) **ويسمونها العراقيون** (نجمة الصبح) حيث تبرز عند الفجر. قد يكون اختيارها رمزاً لعشتار، **لأنها** تجلب انوار الصباح وتوقظ الانسان ليتنشط وينتج الحياة. وقد

انتقل تقديس (الزهرة) الى شيعة العراق، حيث اطلقوا على السيدة فاطمة(ع) بنت النبي محمد(ص) لقب (فاطمة الزهراء).. بالنسبة للمضلع المثلث، الذي قد تنبأه اليهود أولاً ثم اصبح الآن رمزاً عربياً، فإنه يعود لنفس أصل النجمة الثمانية.

- رمز الهلال: وهو ايضا رمز ديني شائع في الاعمال الفنية العراقية، ويرمز الى (سين) اله القمر، اله النور الانوثي وأسرار السحر والحكمة الالهية. وقد انتقل هذا الرمز الى الاسلام، وصاد استعماله بصورة رسمية زمن الدولة العثمانية، وأصبح رمزاً اسلامياً مقابلاً للصليب المسيحي.

- رمز الشمس: وهو رمز الاله(شمس) اله الشمس ونور الحق والحقيقة. وهذا الرمز منتشر بكثرة في المنحوتات العراقية، وقد اصبح شعار الجمهورية العراقية بعد عام 1958.

- رمز الطاووس اليزيدي، وهو رمز يعبر لديهم عن (طاووس ملك) أي (الملك جبريل) الذي يعتبرونه رئيس الملائكة. لكن الطاووس عموماً هو ايضاً رمز(اخصابي) واسم طاووس له علاقة بأسم(تموز) اله الخصب الذكوري العراقي.

\* \* \*

### الاحصائيات الدينية والمذهبية

ان موضوع الاحصائيات الدينية والمذهبية في العراق، شائك وحساس، لأسباب سياسية معروفة. فالدولة العراقية منذ بداياتها، ومعها كذلك النخب السياسية والجامعية، تجنبت موضوع الاحصائيات، بحجة انه يثير الحساسيات ويفرق بين العراقيين. وهذا كما يبدو سبباً معقولاً، ولكن السبب الاعمق يكمن في تجنب كشف الحقيقة للبقاء على نظام التعصب الطائفي هو المهيمن على الدولة. ثم ان جميع دول العالم واعرقها ديمقراطية وعلمانية تقوم بعملية احصاء رسمية وعلمية للتكوين الديني والمذهبي في مجتمعاتها، مثلما تقوم باحصاء جميع الخصوصيات الاخرى، مثل نسبة النساء والاطفال والريف والمدينة واصحاب الشهادات والمهن والعزب والمطلقون، والعديد العديد من المعلومات الاجتماعية التي تخدم امور الدراسة والمعرفة وسبل تطوير المجتمع.

لكن رغم عدم وجود احصائيات رسمية لمجتمعنا يعتمد عليها، الا ان هنالك احصائيات تقريبية انجزها الانكليز في اوائل القرن العشرين، كذلك التقديرات التقريبية التي تعتمد على نسبة السكان في المناطق التي يكثر فيها ابناء الدين او المذهب المعين. نؤكد ان هذه الارقام التي نوردها تقريبية ومتفق عليها عموماً في جميع الدراسات التي تناولت المجتمع العراقي:

- المسلمون: حوالي 90%. وينقسمون الى:

مسلمون شيعة، حوالي 55% من مجموع سكان العراق، غالبيتهم الساحقة من العرب، مع نسبة من الفيلية والتركمان والشبك.

مسلمون سنة حوالي 35% من مجموع سكان العراق، بالتناصف تقريباً بين الاكراد والعرب، مع نسبة مهمة من التركمان السنة.(نصف التركمان سنة، ونصفهم شيعة). ويتوزعون بين حنفية وشافعية. وتسود بين الاكراد الطريقتان الصوفيتان القادرية والنقشبندية.

اما العشرة بالمئة المتبقية من العراقيين، فهي تشمل باقي الاديان، المسيح والصابئة واليزيدية، اما اليهود فقد غادروا جميعهم العراق.

## مدخل فكري تاريخي توحيد التاريخ اساساً لتوحيد الحاضر

ميزوبوتاميا - جنيف



**التشابه الواضح بين مآذنة الملوية وبرج بابل والزقورة، دليل على ديمومة الترابط بين المراحل الدينية العراقية**

طيلة تاريخ العراق منذ العهد الحضاري الاول قبل اكثر من خمسة آلاف عام، ومنذ تبلور الحس الديني لدى العراقيين، ظلت الوحدة الدينية سائدة بينهم كما الوحدة اللغوية والسكانية والثقافية. ان هذا التوحد الحضاري لدى العراقيين طيلة تاريخهم الطويل، لم يكن نتيجة ارادة الزعيم الفلاني ولا القوى الفلانية، بل يعود بكل بساطة الى العامل (البيئي الجغرافي)! ان وجود نهري دجلة والفرات اللذان يصبان في سهل منبسّط محاط بجبال وهضاب من كل النواحي تفصله وتميزه عن الأوطان المحيطة: زاغروس من الشرق تفصله عن ايران وعموم آسيا، وطوروس من الشمال تفصله عن القفقاس والاناضول وباقي اوربا. وهضبة الشام من الغرب تفصله عن الشام ومصر، والصحراء العربية من الجنوب تفصله عن الجزيرة العربية.

ان الوجود البشري في العراق يرقى الى عشرات الالاف من السنين، حيث بدأ الانسان العراقي يزاول الزراعة بحدود (9000) قبل الميلاد، وعاش تطوراً كبيراً حوالي سنة 5500 ق.م في قرية (جرمو) في شمالي العراق في اواسط العصر الحجري الحديث. ان البدايات الاولى الواضحة للحضارة في العراق بدأت في حدود (5000) قبل الميلاد، حيث ابتدئ العراقيون فن التعدين والدولاب والخزف والاجر المفخور والعربة ذات العجلة، وكذلك المحراث ثم السفن الشراعية وفن النحت. كذلك ظهرت اولى المدن ومعها المباني العامة والمعابد. عرفت تلك الفترة بأسماء المدن والقرى والمواقع التي تم اكتشافها فيها من قبل الآثاريين، مثل: (فترة حسونة) ثم (فترة سامراء) و(فترة حلف) و(فترة العبيد) و(فترة الوركاء) وأخيراً (فترة جمدة نصر).

طبعاً كان الدين الاساس الروحي الذي استعان به الانسان العراقي لكي ينظم علاقته مع ذاته ومع المجتمع ومع الوجود بأكمله. وهذا التنظيم الروحي الديني شكل الاساس لكي يبتدع كل هذه المكتشفات الحضارية الاولى. ويمكن تقسيم التاريخ الحضاري للعراق الى المراحل الخمسة التالية:

### **اولاً / مرحلة حضارة العراق القديم:**

عرف طور الوركاء (3500 ق.م) بالعهد الشبيه بالكتابي، لكن الكتابة الحقيقية (المسمارية) قد أرسيت قواعدها تماماً خلال الطور الذي أعقبه وهو (جمدة نصر) في حدود سنة 3000 ق.م

وقد دامت هذه المرحلة الحضارية الاولى ما يقرب الثلاثة آلاف عام، حيث بدأت بإنشاق الحضارة السومرية في الجنوب في الالف الرابع قبل الميلاد، ثم اعقبها الجماعات الناطقة بالسامية بسلالتها المختلفة، الاكدية والبابلية والآشورية. بالاضافة الى اللغة الموحدة بلهجاتها البابلية والآشورية، فإن هذه المرحلة تميزت ايضا بالدين الموحد السائد في الشمال والجنوب طيلة عشرات القرون. وهذا الدين العراقي قائم على اساس (عبادة الكواكب) وما تتضمنه من معتقدات واساطير والهة متعددة ممثلة للكواكب ومسؤولة عن حياة الانسان والطبيعة. وهذا الدين العراقي شكل اساس (نظام الابراج وعلم التنجيم) الذي ساد العالم كله ولا زال حتى الآن يتبع نظام الاشهر العراقية حيث البرج الأول هو (الحمل) في (21 آذار) اول يوم في السنة العراقية حيث انبثاق الربيع والخصوبة والميلاد. ان هذه الديمومة (الحضارية - اللغوية - الدينية) لدى العراقيين متأتية من طبيعة ارض النهرين وقدرتها على هضم الاقوام الجديدة واستيعاب ثقافتها المختلفة وصهرها في روح ومياه النهرين الخالدين وحضارتها الأصيلة.

### ثانياً / المرحلة الآرامية - المسيحية:

بعد سقوط بابل عام (539 ق.م) انتهت آخر الدول العراقية الوطنية واصبح النهرين ساحة صراع القوى العظمى: الايرانيون والاعريق والرومان، حتى تمكن اخيرا الفرس الساسانيون من فرض سيطرتهم ابتداء من القرن الثالث حتى القرن السابع، حيث الفتح العربي الاسلامي. طيلة اكثر من (11) قرن ظل العراق محكوما من دول تختلف عنه دينيا ولغويا. رغم محاولات الايرانيون خلال قرون السيطرة من فرض لغتهم الفارسية وديانتهم الزرادشتية الا ان العراقيين ظلوا على ديانتهم البابلية ولغتهم الآرامية. منذ قبل الميلاد تمكنت اللغة الآرامية ان تصبح لغة العراقيين السائدة وكذلك لغة سوريا.

بعد القرن الاول الميلادي بدأت المسيحية السورية تنتشر في شمال النهرين وباقي العراق حتى اصبحت في القرن الثالث الميلادي ديانة الاغلبية الساحقة من السكان، وانتقل العراقيون بالتدريج من عبادة الكواكب الى الديانة المسيحية الجديدة. انتشرت الكنائس والاديرة النسطورية من نينوى حتى ميسان والاحواز والبحرين وقطرايا (امارة قطر الحالية). تعتبر النسطورية العراقية اول طائفة مسيحية خرجت عن سيطرة الكنيسة الرسمية التابعة لملك بيزنطا في القسطنطينية. وهذا اكبر دليل على حاجة العراقيين الى تمييز هويتهم واستقلاليتهم الدينية واللغوية الخاصة بهم. منذ القرن الرابع الميلادي بدأ مذهب (نسطور) يشيع بين العراقيين حتى اصبحت مذهب الكنيسة العراقية التي سميت رسمياً بـ (كنيسة بابل)، ولكن المؤرخين الغربيين يسمونها احيانا عن خبث مقصود بـ (كنيسة فارس) باعتبار العراق كان خاضعا لفارس! هكذا اذن انتقل العراقيون بالتدريج من ديانة الكواكب الى المسيحية النسطورية التي اصبحت تمثل اكثر من 90 % من السكان، مع اقلية مختلفة من المذهب اليعقوبي السوري واليهود والصابئة، بالاضافة الى أتباع الديانة المانوية نسبة الى (النبي ماني البابلي) الذي ظهر في القرن الرابع في جنوب العراق وسط الصابئة والفسنة كعب دينية بلغته السريانية العراقية.

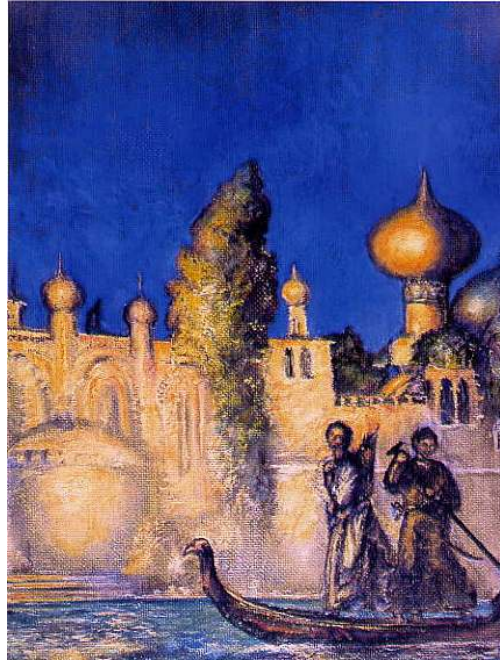




رمز الانوثة والخصب في العراق القديم

### ثالثاً / المرحلة العربية - الاسلامية:

في اواسط القرن السابع خرجت الجيوش العربية الاسلامية من الجزيرة العربية واسقطت الامبراطورية الفارسية التي كانت تهيمن على العراق وايران واجزاء من افغانستان وآسيا التركستانية الوسطى. وتم كذلك طرد الدولة البيزنطية من سوريا ومصر ثم بلغت الجيوش الاسلامية شمال افريقيا وعبرت حتى اسبانيا. في اواسط القرن السابع الميلادي دخلت الجيوش الاسلامية الى العراق فوجدت امامها حوالي سبعة ملايين من السكان العراقيين باغلبيتهم الساحقة من المسيحيين النساطرة مع اقلية من الصابئة واليهود والمناوية، بالإضافة الى بعض المجوس من الاداريين (الدهاقنة) والعسكريين الإيرانيين الذين كان الكثير منهم من اصول تركستانية. وكانت لغة جميع العراقيين هي اللغة السريانية العراقية (النبطية). لقد دخل الاسلام العراق على انه منقذ للناس من السيطرة الايرانية والاضطهاد الذين مارسه رجال الدين المجوس ضد الكنيسة العراقية والذي راح ضحيته الآلاف من المسيحيين العراقيين. وتكمن قوة الاسلام انه منح الفرصة لشعوب البلدان المفتوحة بالتخلص من حالة التبعية والخضوع للقوى الاجنبية، ومنح الفرصة للأشترار بالحكم والشعور بالانتماء للدولة الاسلامية الحاكمة وذلك من خلال تبني الاسلام والتطوع في الجيوش الفاتحة والمشاركة في ادارات الدولة الجديدة والتمتع بالمغانم والمزايا العديدة. ان ترك السلطة العربية الاسلامية الباب مفتوحا لجميع ابناء البلدان المفتوحة من اجل الدخول في الاسلام والمشاركة بالحكم، جعل الاغلبية الساحقة من هذه الشعوب تدخل الى الاسلام لتشارك في ادارة الدولة الجديدة، بل حتى الاستحواذ عليها، حيث تمكنت جميع الشعوب الاصلية بعد تبني الاسلام من السيطرة على فروع الدولة الاسلامية في اوطانها.



ومنذ القرن الثامن، وبعد ثورات وتمردات لا تحصى تمكن العراقيون من تكوين الدولة العباسية وجعل عاصمتها في بغداد وسط العراق قرب (بابل) عاصمتهم التاريخية التي لم ينسوها رغم خرابها قبل الف عام وبقيت حية في حكاياتهم واساطيرهم التي ادخلوها الى المسيحية ثم الى الاسلام. في بغداد قاد العراقيون اكبر واطول نهضة حضارية عالمية مازجين كعاداتهم ما ورثوه من اسلافهم مع ميراثات الشعوب الاخرى من اغريقية وفارسية وهندية وشامية ومصرية وغيرها، حتى اصبحت بغداد، مثل سالفاتها بابل، عاصمة الارض التي تتفاعل فيها اللغات والاديان والافكار وتتزوج بها جميع الاجناس البيضاء والصفراء والسوداء من تجار وعبيد ومرترقة وطالبي علم ومغامرين حالمين.

وكما حاول العراقيون سابقا ان يميزوا هويتهم ويفرضوا خصوصيتهم الروحية عن الديانة المسيحية الجديدة من خلال تبنيهم للمذهب النسطوري، كرروا نفس الحالة بعد سيادة الاسلام من خلال تبنيهم وصنعهم للمذهب الشيعي الذي حمل الكثير من خصوصيات الميراث الروحي العراقي القديم والنسطوري. وهذا ايضا تأكيد تاريخي آخر على تمسك العراقيين بخصوصيتهم الروحية والحضارية.

#### رابعاً / المرحلة المغولية - العثمانية:

كالعادة تكررت دورة التاريخ، وبدأت الجماعات الرعوية الآسيوية والسامية البدوية (العربية) تمارس دورها التخريبي مستغلة الانحطاط السياسي والروحي الذي بدأ يتغلغل في اوصال الدولة والمجتمع. تمكن الآسيويون التركستان خصوصا من لعب دورا مميزا لأنهم اكثر من باقي الشعوب ظلوا محافظين على طبيعتهم الرعوية المحاربة وسط سهول وهضاب آسيا الوسطى. يتوجب التنبيه الى ان هذه الجماعات التركستانية لم تلعب دورا تخريبيا اول الأمر كما يصر على قول ذلك التاريخ القومي العربي، بل ان هؤلاء التركستان (أي اسلاف التركمان) قد لعبوا دورا دفاعيا عن الدولة العباسية ازاء المخاطر الخارجية والداخلية، ودخلوا في النسيج العراقي سكانيا وحضاريا وبرز منهم الكثير من المصلحين المعروفين الذين خدموا الحضارة العراقية مثل (نظام الملك) ومدارسه النظامية. من المعروف ان العباسيين هم الذين جلبوا الجماعات التركستانية المحاربة واستعانوا بهم بعد ان فقد العنصر العربي روحه البدوية المحاربة وذاب كعادة من سبقه، في رفاهية حضارة النهرين. وحتى هذه الموجات التركستانية البدوية كانت تواجه بنفس المصير المحتم، فما إن تستقر سرعان ما تفقد روحها البدوية الحربية وتذوب في تلافيف الحضارة العراقية، لتفسح المجال لموجة آسيوية جديدة، تركستانية او كردية او ايرانية، حتى بلغ هذا الاجتياح الآسيوي ذروته بالموجة المغولية التي سيطرت على آسيا واسقطت بغداد في القرن الثالث عشر على يد هولاكو. استمر الآسيويون يسيطرون على العراق حيث قام تيمورلنك مرة اخرى بتدمير بغداد في القرن الخامس عشر.

واستمرت القبائل التركمانية بالسيطرة على العراق وتكوين الدويلات، حتى تمكن بعدهم العثمانيون القادمون من الاناضول (تركيا الحالية) من فرض سيطرتهم في القرن السادس عشر. ابتداءاً من هذه الفترة تحول العراق الى ساحة صراع دامية بين الدولة العثمانية (السنية) والدولة الايرانية الصفوية (الشيعية)، واثّر هذا كثيراً على الشعب العراقي وفاقم من انقسامه المذهبي سني (عثماني!) وشيعي (ايراني!)



#### خامساً / المرحلة الحديثة:

بعد ثورة شعبية عنيفة قام بها العراقيون ضد الاستعمار الانكليزي تأسست الدولة العراقية الحديثة عام (1921) التي جمعت الولايات العثمانية الثلاثة: بغداد والبصرة والموصل. وهذه الولايات الثلاثة تمثل بلاد النهرين كما اوجدت في التاريخ منذ القدم، مع اختلافات معينة بالحدود مع ايران(عبادان) وكذلك سوريا(منطقة الجزيرة) وتركيا.

للأسف بعد طرد العثمانيين على يد الانكليز بعد الحرب العالمية الاولى، اتخذ الانقسام المذهبي بعداً دولياً واضحاً من خلال تكوين دولة عراقية منحازة الى ابناء المذهب السني. ظلت الملكية بنظام شبه برلماني ومتقلب حتى تم اسقاطه على يد مجموعة من الضباط الاحرار التي اعلنت الجمهورية في تموز 1958. بعد سلسلة من الانقلابات والتصفيات الدموية تمكن (حزب البعث) من استلام السلطة عام 1968. وكان صدام حسين احد عناصر النظام المهمة وظل دوره يتنامى حتى اعلن نفسه رئيساً للجمهورية عام 1980 بعد تصفية دموية للعشرات من قادة الحزب الكبار. والبقية معروفة من حرب ايران ثم حرب الخليج وحتى الآن...

#### أدياننا التوحيدية تنمة لأدياننا القديمة..





من المعلوم ان العراقيين القدماء بكل مسمياتهم (سومريون وبابليون وآشوريون)، كان يعتقدون نفس الدين، والذي يقوم على اساس (تقديس عملية الاخصاب في الطبيعة) والمرتبطة بعبادة الآلهة الممثلة للكواكب السبعة المعروفة وقتذاك: (الشمس والقمر والزهرة وزحل وعطارد والمشتري والمريخ). والعراقيون هم اول من ابداع ما يسمى بـ (علم الابراج) أي الابراج الاثني عشر المقسمة على اشهر السنة، ابتداءً من شهر نيسان وبرجه الحمل، وهو برج اله الخصب والذكورة (تموز) ويعتبر اول شهر من السنة العراقية، وفيه يخرج تموز من موته (الشتوي) في اعماق الظلمات في اول الربيع لتخصيب الارض. وقد صنع العراقيون الاوثان التي تمثل هذه الاله النجمية، حيث كل اله يمثل طاقة معينة، مثل تموز طاقة الذكورة، وعشتار طاقة الانوثة، وايل طاقة الخلق العظمى حيث هو زعيم الالهة.

من بين التشويهاات الكبرى التي تعرض لها تاريخ العراق وعموم البلدان الشرقمتوسطية (العربية)، هي كتابة التاريخ الديني من وجهة نظر توراثية عرقية تفصل تماماً بين الاديان السماوية (اليهودية والمسيحية والاسلام) والميراث الديني السابق الذي كان سائداً في اوطاننا خلال آلاف الاعوام. ثمة اتفاق غير معلن بين العلمانيين والمنتدئين على تجاهل حقيقة التاريخ الديني المتواصل والمشارك بين جميع ادياننا. ان عدم ادراك هذه الحقيقة كان مدفوعاً بغايات أيولوجية استعمارية من قبل المؤسسات الاستشرافية والصهيونية من اجل تقسيم شعوب المنطقة الى جماعات دينية وطائفية متصارعة ومتنافسة لأنها تجهل القاسم التاريخي والروحي المشترك بين معتقداتها. يكفينا مثال الحركة الصهيونية كأكبر دليل على النجاح في اصطناع (امة ودولة) بالاعتماد على تضخيم الخصوصية اليهودية وفصلها تماماً عن تاريخ وحضارة المنطقة. ان هذا الجهل بحقيقة الميراث المشترك بين أدياننا ومذاهبنا أدى الى تعميق الخلاف، بين ابناء هذه المعتقدات، كذلك بين التيارين (العلماني والديني). لقد تجاهل العلمانيون حقيقة العمق الحضاري التاريخي لوجود الاديان في منطقتنا، بسبب اعتمادهم السطحي على التحليل (العلمي المادي)، حيث ساد الاعتقاد بأن ادياننا ومذاهبنا امور تاريخية مؤقتة وطارئة يكفي تجاهلها واحتقارها حتى يتم الغائها وتناسيها!!

ثمة سؤال منطقي يطرح نفسه: هل يمكن الحديث عن اية فكرة او دين او معتقد من دون الحديث عن طبيعة الزمان والمكان التي نشأت فيه؟ فهل يمكن مثلاً فصل تاريخ نشوء الهندوسية عن طبيعة الهند وتاريخها وميراثاتها السابقة للهندوسية. نفس الشيء بالنسبة للتاوية الصينية او البوذية، وغيرها من الاديان. فكيف حصل انه تم فصل الاديان السماوية عن ميراثات منطقتنا التي نشأت فيها؟ بل الانكى من هذا، تم اعتبار الديانة اليهودية هي الاساس الذي انبثقت منه باقي الاديان، واعتبار كل الميراثات الدينية الشامية والعراقية والمصرية، مشرقة ووثنية وميتة ولم تشكل أي اساس في الاديان السماوية.. وهذا يعني بكل بساطة ان تراثنا الديني والروحي الحالي ليس له أي علاقة بميراثاتنا الوطنية الاصلية.

منذ القرن الماضي قد بدأ المؤرخون الغربيون يعيدون النظر تماماً بالميراث اليهودي وحكاياته الاسطورية التي لم يتم العثور لها حتى الآن على اية اشارة او دليل بين هذا الكم الهائل من المكتشفات الأثرية للحضارات العراقية والشامية والمصرية. النتيجة المعقولة التي تم شبه الاتفاق عليها حتى من قبل علماء اسرائيل، ان حكايات التوراة عن ممالك اليهود وملوكهم وانبيائهم ومغامراتهم الخارقة، ماهي الا حكايات شعبية تم توارثها وتضخيمها من جيل الى آخر، كما يحدث لكل اساطير الشعوب. لنا على هذا نماذج السير الشعبية العربية مثل عنتر بن شداد والوزير سالم والظاهر بيبرس، وغيرها. لكن ميزة اساطير التوراة ان اليهود استطاعوا ان يصفوا عليها القدسية من خلال مزجها مع الاساطير الدينية العراقية اثناء كتابتهم للتوراة في بابل.

رغم هذه الحقيقة التي باتت معروفة منذ اوائل هذا القرن، والتي تبناها حتى يهود معروفين مثل عالم النفس (فرويد) في كتابه الشهير (موسى والتوحيد)، الا انه حتى الآن لم يتم تبنيها وتطويرها من قبل الناطقين بالعربية بسبب الموانع القومية والسلفية. صحيح ان هنالك الكثير مما ترجم وكتب عن الاديان المصرية والشامية والعراقية، الا ان الحديث عن العلاقة بين تلك الاديان الاولى والاديان السماوية، ظلت محدودة وحتى مقموعة. منذ اواخر السبعينات بدأت تظهر بعض المحاولات الجادة الجريئة في هذا المجال، الا انه حتى الآن لا زالت محاولات محدودة لم تأخذ طابعها السائد والمعروف بين المثقفين وعموم المتعلمين.

ان أي معتقد لا يمكنه ان ينبثق ويتطور ويستمر الا لأنه يلبي حاجة روحية تاريخية للمجتمع الذي ينبثق فيه وكذلك المجتمعات التي ينتشر فيها. وعندما تتغير ظروف المجتمع وتختلف حاجته فأن ذلك المعتقد اما ان يبقى متحجرا فيضمز ويموت كما حدث لكثير من الاديان والمعتقدات في التاريخ وآخرها الشيعوية، او انه يمتلك ديناميكية خاصة تساعد على التقوُّل حسب الظروف والحاجات الجديدة، كما هو حال الاديان الكبرى الشائعة حاليا في العالم منذ قرون عديدة، مثل الاسلام والمسيحية والبوذية والهندوسية وغيرها، والتي تعيش ازمانا داخلية مستمرة لكي تواكب متغيرات الحياة السريعة والعاصفة.

على هذا الأساس يمكننا دراسة التاريخ الديني للعراق ولعموم الشرق الاوسط والعالم العربي (الشرقمتوسطي) وبأديانه السماوية المعروفة (اليهودية والمسيحية والإسلام) بكل تنوعاتها المذهبية والفقهية. يمكن تقسيم التاريخ الديني لمنطقتنا الى مرحلتين متداخلتين: المرحلة الوثنية التعددية، المرحلة العرفانية التوحيدية.



### الثنائية التوحيدية

ان الميراث الديني العراقي والشامي (بالإضافة الى الميراث المصري، كما سنبين فيما بعد) هو الأساس الذي إنبثقت منه الاديان السماوية. ان ميراث هذه المنطقة مشترك ومتشابه الى حد بعيد بسبب التشابه الحضاري واللغوي منذ فجر التاريخ، والمتأني من التداخل الجغرافي بين العراق والشام حتى انهما شكلا منطقة شبه موحدة اطلق عليها فيما بعد تسمية (الهلال الخصيب)، ونحن نفضل تسمية (منطقة المشرق).

ان تعدد اسماء الآلهة ووجود الاصنام في ديانة المشرق، برر الاعتقاد السائد بأنها ديانة (وثنية تعددية). لكنها بحقيقتها العميقة ليست بهذه الدرجة من الوثنية والتعددية. ان هذه المرحلة تحمل الكثير من الملامح الأساسية التي شكلت فيما بعد المرحلة العرفانية (التوحيدية) التالية. ليست بالصدفة ابدا ان المعتقدات (السماوية التوحيدية) نشأت في منطقتنا وليس في الهند مثلا او الصين او اوربا. لأن هذه الديانة التوحيدية ما كانت تنبثق الا بعد أن هبأت لها المرحلة الدينية (الوثنية) السابقة التي كانت سائدة.

ان ما سميت بالديانة الوثنية هي اقرب الى المعتقد (الحلوي) الذي يؤمن بأن (روح الأله) تحل وتدخل في كل مكونات الوجود، كما يسري غذاء الشجرة من الجذور والجذع الى الاغصان والاوراق. مثلما كل ورقة هي جزء من الشجرة، كذلك البشر والطبيعة كل منها تمثل جزءا من الأله الخالق الكلي. وما اسماء الآلهة الا اسماء اغصان شجرة الوجود هذه. ويمكن وصف هذه الديانة بأنها اقرب الى (الثنائية التوحيدية)، أي وجود الأيمان بوجود قوتين مختلفتين متكاملتين يشتركان بغاية الهية واحدة:

### اولا- ثنائية (المادة والروح):

ينقسم الوجود الى الطبيعة المادية المرئية المحسوسة المتمثلة بالارض بما فيها من بيئة وحيوان وإنسان، ثم الروح الالهية الكلية القدرة والمسؤولة عن منح الحياة لتلك الطبيعة المادية. ان كل شيء مادي في الوجود له روحه الالهية الخالدة المسؤولة عنه التي تمنحه طاقة الحياة. بما ان الوجود المادي متنوع ويتكون مما لا يحصى من الاشياء المختلفة القيمة والحجم والفائدة والذكاء فان الوجود الروحي الالهي هو الآخر منقسم الى نفس التنوع. أي ان مملكة الانسان على الارض مماثلة لمملكة الآلهة في السماء. لهذا فإنه في الأساطير العراقية يكثر الحديث عن (مجمع الآلهة) الذي تسود بين اعضائه نوعا من (الديمقراطية

التقليدية) حيث تسيطر النخبة على الأغلبية الضعيفة ثم يسيطر الاله الكلي على النخبة. مثلما في مملكة الانسان، هنالك (الملك الكلي) وحوله الكثير من المراتب والدرجات والوظائف من وزراء وإمراء وحكام وقضاة ومحاربين وجلادين، كذلك في ملكوت السماء (الاله الكلي) الذي سماه السومريون (ايا او انليل) وسماه الساميون عموما (ايل، ايليا) بمعنى (العالى) ومنه مشتقات (علي، اله، الله). هنالك ايضا (آلهة) تابعة عديدة لا تحصى لكل منها اختصاصه ومسؤوليته عن مظاهر الحياة الكبيرة والصغيرة، من الذكور والانوثة والموت والنور والضجر والفرح وغيرها. هذه الصورة تشبه كثيرا ما هو معروف في الاديان التوحيدية حيث هنالك الرب الجليل الاعلى ومعه الملائكة المتنوعي المراتب والاختصاصات، مثل جبرائيل حامل الوصايا والرسائل وعزرائيل قابض الارواح، وعدد هائل من الملائكة والانبياء والقديسين لكل منهم له اهميته وتأثيره على الطبيعة وعلى الانسان. لكي تتضح حقيقة تلك الاديان القديمة يمكننا ان نستبدل تسمية (اله) بتسمية روح او ملاك او نبي او قديس او إمام شفيع.



**ظل العراق دائما يميل الى الامتداد نحو سواحل الشام**

كثيرا ما يميل بعض المؤرخين الى اطلاق تسمية (عبادة الكواكب) على هذه الديانة المشرقية، بسبب التأكيد على دور الكواكب (الآلهة) في هذه الديانة. والحقيقة أنه بسبب علاقة سكان الهلال الخصيب المباشرة مع السماء حيث لا زال الناس حتى الآن ينامون تحت السماء في معظم ليالي السنة. هذا الاتصال اليومي مع السماء خلق متابعة ومعرفة تفصيلية بالكواكب والنجوم. لقد برع العراقيون خصوصا في علم الفلك وحساباته الدقيقة، ورصدوا تحركات الكواكب السبعة المعروفة حينذاك: الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل. لقد لاحظوا ان هذه الكواكب لها تأثير على نشاطات الطبيعة والانسان، منها مثلا علاقة القمر بظاهرة المد والجزر وتنوع النباتات وكذلك العادة الشهرية لدى المرأة. على هذا الاساس فأنهم اعتبروا هذه الكواكب تجليات الهية تساهم بالتحكم بالطبيعة والانسان، أي أن هنالك نوعا من النظام الكوني الذي يجعل كل شيء في الكون يؤثر في باقي الاشياء ويتأثر بها. لقد اطلق العلم الحديث على هذا النظام تسمية (الساعة الفلكية).

اعتبر القدماء كل كوكب يمثل قوى الهية معينة، مثلا الشمس (الاله شمش) يمثل قوة النور والحق والعدالة، فهو مثلا الذي منح (حمورابي) شريعته. اما كوكب الزهرة فهي الالهة (عشتار) نجمة الصباح والخصوبة والانوثة. اما القمر (سين) فهو اله المشاعر والحدس والتأثيرات السحرية.. الخ. على هذا الأساس تم تقسيم الأسبوع الى سبعة ايام، حيث يمثل كل يوم احد الكواكب.

بناء على المراقبة الطويلة قسموا السنة الى 12 شهر، وكل شهر يسيطر فيه كوكب معين مع مجموعة نجوم تؤثر في الاحداث وفي مواليد ذلك الشهر. من هذا نشأ علم التنجيم ونظام الابراج الشخصية، الذي يشكل جزءا اساسيا من ديانة اهل العراق وكذلك الشام. لقد شاع علم الأبراج فيما بعد في مصر ثم في ايران والهند وفي باقي العالم. لا زال حتى الآن تقديس الكواكب السبعة والابراج الاثني عشر واضحا في الكثير من المذاهب الاسلامية مثل الاسماعيلية والدرزية والعلوية، بالاضافة الى الصابنية واليزيدية...



### ثانياً- ثنائية (الأنوثة والذكورة):

رغم هذا التعدد الكبير في أسماء الآله والفوضى التي توحى بها الأساطير المتداولة عن تلك الأديان فإن جوهر الديانة المشرقية يتلخص بكلمة واحدة هي ((الإخصاب)). بمعنى أن الوجود بأكمله يتكون من طرفين أو طاقتين أو جوهرين متكاملين هما: روح الأنوثة الممثلة بالآلهة المعروفة (عشتار - أي العشيرة والوفيرة والكثيرة) التي سميت أرنيبا بالسومري وعزة بالعربي. ثم روح الذكورة الممثلة بالآله (تموز - أي ابن المياه وجالبها باللغة السومرية) وتناوبت عليه أسماء عدة مثل نبو وحدد، وفي الشام ساد اسمه (بعل). أن الحياة لا تنبثق إلا بإتحاد هذين الطرفين من خلال عملية الإخصاب. الأسطورة العراقية تحدثنا عن ثور الهي يقف في أعالي النهر وتتدفق منه سوانل الخصب في الأرض كما تتدفق سوانل الذكر في أنثاه! إذن فأن فعل (الإخصاب) ليس فعلاً جنسياً ثانوياً مثل كل أفعال الطبيعة الأخرى، بل هو الفعل الأساسي والأول الذي منه تنبثق الحياة بكل أشكالها النباتية والحيوانية والإنسانية. أنه نقيض فعل الموت والقحط والجفاف. حسب هذه المعتقد أن الأرض بكل مكوناتها الطبيعية والحيوانية هي مركز الأنوثة، وأن السماء هي مركز الذكورة. لكي تتخصب الحياة على الأرض يتوجب على السماء أن تبعث لها طاقتها الذكورية المتمثلة بمياه الأمطار والانهار وما يصاحبها من بروق ورعود ورياح وأنوار. لهذا فأن آله الكون الأكبر (إيل - الله) يبعث في مطلع كل ربيع ابنه أو ملاكه أو تجليه (تموز) ليخصب (عشتار) لكي تستمر الحياة بدورتها. على هذا الأساس تم اعتبار مطلع الربيع (أول نيسان، نيسان بالأكدي أي العلامة، حيث تظهر علامات الخصب) بداية السنة الجديدة ومولد أول الأبراج (الحمل).

هنالك التباس معروف لدى الباحثين حول طبيعة عشتار، فهي تارة إلهة حب وخصب، وتارة أخرى هي إلهة حرب ودمار؟ السبب الحقيقي يعود إلى أن عشتار تبحث عن خصب الذكورة ليس في المياه وحدها بل خصوصاً في الدماء التي هي جوهر الحياة وحاملة روح الإخصاب. لهذا فأن (حمورابي) يصفها في شريعته: ((سيدة المعارك والحروب.. تجنل المحاربين وتسقي الأرض بدمائهم..)). أن المرأة تتخصب بعد نزف دماء الحيض، وعندما تلد كذلك تنزف الدم، وهذا الواقع منح لرمز الدم هذا الدور الإخصابي. من هنا أتت عادة تقديم القرابين (كبش الفداء) الذي لا زال شائعاً في الأديان التوحيدية.

لقد لاحظ المشارقة أنه وسط الصيف واشتداد الحرارة تنقطع الأمطار وتجف الأنهار وتتيبس النباتات ويخيم شبح القحط على الحياة. عللوا ذلك بموت آله الذكورة تموز بعد تلقيه طعنة من خنزير بري وابتلاعه من قبل آلهة القحط والموت (ارشيكغال) في أعماق ظلمات الأرض. لهذا السبب أطلقوا تسمية (تموز) على هذا الشهر اللهب. وتكرر دورة الحياة والموت، الإخصاب والجفاف، هذه كل عام. أن الإنسان عنصر فعال في عملية الإخصاب هذه، لأنه بتناسله وزراعته وتدجينه للحيوانات يشارك الآله سلطته الإخصابية. يستمر الناس طيلة العام بتقديس الآلهة عشتار وتقديم القرابين لها والصلوات للآله الأكبر (إيل) من أجل أن تهبط عشتار إلى الأعماق وتتخذ تموز وتعيده من جديد إلى الأرض ليخصبها في مطلع الربيع.

إذن، من بين كل العدد الهائل من أسماء الآلهة المشرقية، يمكن تمييز ثلاثة أسماء كبرى فاعلة وحاسمة في الوجود: (إيل) رب السماء والآله الأكبر والحاكم الكلي، ثم (تموز أو بعل) رسول السماء وآله الذكورة



ومخصب الحياة، ثم (عشتار) الهة الانوثة والامومة والطبيعة والحياة والمشاعر. ان هذا الثلاثي الالهي نجده في كل ديانات الهلال الخصيب، مع اختلاف الاسماء، حسب اختلاف المناطق والدول والسلالات. بل حتى في مصر التي كانت حضارتها متداخلة الى حد بعيد مع حضارة الكنعانيين خصوصا ثم العراقيين، فأنها في القرون الأخيرة قد كونت ثلاثيها الالهي: جب (الاب) واوزيريس (الابن) وايزيس (اخته وزوجته). ان ثنائيتي (الروح والمادة) و(الأنوثة والذكورة) المتكاملتين، تتحكم بهما ثنائية تناقضية كبرى وحاسمة، هي ثنائية (الخير والشر) او(النور والظلمة)، لكن هذه الثنائية التناقضية تتركز حول ثنائية(الاخصاب الحياة - الجفاف الموت). هنالك قوى الخير والخصب التي ذكرناها اعلاه ولكن ايضا هناك قوى الموت والشر التي تتمثل بأسماء مثل (ارشيكلغال وموت) آلهة العالم السفلي. كذلك فأن الموتى غير المدفونين بشكل لائق والذين لم يتم بأسمهم تقديم العطاءات للفقراء، فأن ارواحهم تتحول الى شريرة وتؤدي الاحياء، ومنهم شاعت معتقدات (الجن) وكذلك (الطناطنل في العراقي).



**كأس النهرين، يعبر عن تقديس العراقيين لفكرة الخصب، حيث كانوا يدركون انه لولا نهر دجلة والفرات لما انبثقت الحياة وتكونت البلاد**

### الميراث المصري والمرحلة العرفانية التوحيدية

ان منطقة(شرق المتوسط) (العالم السامي الحامي) أي ما نسميه حاليا(العالم العربي)، قد بدأت تفقد قواها الحضارية والعسكرية والسياسية امام الزخم الهائل لإجتياحات الشعوب الرعوية الآرية (بدو آسيا) #. منذ الألف الثاني ق.م بدأت هذه القبائل الرعوية الجامحة تخرج من مناطقها في اواسط آسيا مستخدمة اخطر آلة حربية لم تعرف من قبل:(الحصان)!! بعد الف عام من الكفاح والغزوات والإجتياحات تمكنت هذه الشعوب اليافعة ان تفرض وجودها وسلطانها في المناطق المجاورة للمشرق الشامي العراقي: ايران والقفقاس والأناضول، وكذلك في مناطق الساحل الغربي من البحر المتوسط أي في اوربا: الاغريق ثم الرومان. منذ الألف الاول ق.م بدأ العراق يفقد قدرته على الصمود ازاء ضغوطات هؤلاء الرعاة المحاربين، الميديين من الشرق والأرمن والأناضوليين من الشمال، مدعومين بالحصان ألتهم الفعالة! ان الذي زاد بالطين بلة انه في نفس هذه الحقبة بدأت القبائل البدوية في بادية الشام والجزيرة العربية تستخدم الجمل كآلة حربية صحراوية جبارة تساعد على التنقل والغزو.(أول مرة يتم ذكر اسم العرب في التاريخ، كان في الوثائق الآشورية في القرن الثامن ق.م مع ذكر الجمل معهم)!!

كل هذه الضغوطات مع ظروف البيئة وغدر النهرين وطوفاناتهما المدمرة وما تسببه من خراب وطواعين، ادت الى انهك الدولة والمجتمع وتفاقم الانحطاط الحضاري والروحي وانتشار الانقسامات والصراعات الداخلية: السلالة الشمالية الآشورية ضد السلالة الجنوبية الكلدانية، وحروب اقليمية مدمرة: اجتياحات العراقيون للشام ثم لمصر. حتى انتهى هذا الانحدار والانحطاط بالسقوط التام لجميع الدول الوطنية في المنطقة ابتداءً من القرن السادس ق.م: العراق والشام ومصر، وآخرها الدولة القرطاجية في شمال افريقيا.

لقد تمكنت القوى الآرية الجديدة (ايرانية ويونانية ثم رومانية وبعدها بيزنطية) ان تفرض سيطرتها التامة خلال اكثر من الف عام، حتى الفتح الاسلامي في القرن السابع. يمكن تشبيه هذه الحقبة بأواخر الدولة العباسية حيث بدأ الانحطاط بحروب داخلية وانقسامات اقليمية وتغلغل آسيوي (تركستاني وايراني) وكذلك اوربي صليبي، وانتهت بالاجتياح المغولي ثم السيطرة العثمانية على كامل المنطقة لعدة قرون.

مع هذا الانحطاط الحضاري والروحي ثم السقوط السياسي العسكري والخضوع لهؤلاء الغزاة الجدد، دخلت المنطقة تيارات فكرية دينية جديدة: ايرانية وهندية واغريقية ورومانية، امتزجت كلها وذابت في ديانة الخصب والكواكب الأصلية لتنبثق منها ديانة جديدة فيها الكثير من الروحانيات الآسيوية والمنطق الاغريقي الروماني مع جوهر ديانة الخصب والكواكب الاصلية.

من الصعب الحديث عن المشرق العراقي الشامي من دون الحديث عن مصر. صحيح ان التفاعل الحضاري بين العراق والشام كان من القوة بحيث انه خلق طبقة التاريخ شبه وحدة حضارية روحية لغوية رغم الفوارق السياسية، الا ان مصر كان لها دائما حضورا سياسيا وعسكريا مهما في الشام. كذلك ان الهجرات الشامية الى مصر لم تتوقف طبقة التاريخ، حتى يصح القول بأن اغلب سكان مصر من الناحية العرقية ماهم الا مزيج من العنصرين، الشامي(الشامي ثم العربي) والحامي(السوداني والليبي).

ان منطقة الشام لعبت دائما مركز استقطاب وصهر للحضارتين العراقية والمصرية، بحكم الموقع الوسطي للشام بين هذين البلدين. من اكبر الأمثلة، اكتشاف الابجدية من قبل الشاميين (الالف الأول ق.م) من خلال الجمع الأبداعي للكتابتين المسمارية والهيروغليفية. مع الزمن اخذ دور الشاميين الوسطي الجامع يمارس تأثيره من كل النواحي، وخصوصا من الناحية الروحية الدينية. أي من خلال الجمع التلقائي الطبيعي بين الديانتين العراقية والمصرية، لتنتج (العرفانية التوحيدية) التي انبثقت منها المسيحية ثم الاسلام.

منذ القرن الثالث ق.م بدأ (الشرقيمتوسطيون) يستعيدون توازنهم بالتدريج بعد النكسة التاريخية الخطيرة. امام ضعفهم العسكري السياسي وشعورهم بالقدرية ازاء جبروت الاحتلال الاجنبي، بدأوا يعوضون عن خضوعهم بتنمية قواهم الروحية والثقافية. مراكز حضارية شرقيمتوسطية عديدة راحت تنبثق هنا وهناك: الاسكندرية على الساحل المصري، وانطاكية على الساحل السوري، والرها ونصيبين في شمال الرافدين. كان الشاميون هم الأكثر نشاطا وقدرة ابداعية بحكم موقعهم الجغرافي الساحلي وتمرسهم منذ القدم على التجارة والتنقل والتغلغل في كل شواطى البحر المتوسط، حتى انتشرت الجاليات السورية في كل مكان وبرزت العناصر الشامية في روما في جميع المجالات الثقافية والعسكرية والدينية.

ان العرفانية هذه التي انبثقت في المنطقة، ماهي الا حصيلة التقاء وانصهار دام قرون بين الديانتين المصرية والعراقية في ارض الشام. بالحققة، وكما بينا سابقا، ان الديانة العراقية عموما لم تهتم كثيرا بالحياة الأخرى بل ركزت على دور الآلهة العليا في قيادة الحياة المادية وخلق الخير والخصب والوفرة للبشر في هذه الحياة. حتى خلود الانسان لم يتم حياة اخرى مفترضة بل نفس الحياة الحالية من خلال الأسهم بعمل الخير وخلق خصب الحياة بالزواج وانجاب الأبناء وتشييد الصروح الكبرى.. الخ. ان اسطورة كلكامش التي تعتبر(الكتاب المقدس) للعراقيين وعموم المشاركة خلال عدة آلاف من السنين، قد اختصرت هذا الأيمان بالعبارات التالية:

((لقد قدرت الآلهة الفناء للإنسان.. واستأثرت بخلود الحياة.. فإملاً بطنك بملذات الطعام.. وإبتهج ما شئت ليل نهار.. فهذا هو نصيبنا من الدنيا)).

يمكن القول ان الديانة العراقية (والشامية) تقريبا ديانة(دهرية دنيوية) متشائمة جدا إزاء مصير الإنسان ما بعد موته: عالم الظلمات والفناء وما تحت الارض حيث تقطن الآلهة الشريرة. ثمة اشارات غير واضحة عن امكانية تحول بعض البشر النادرين الى نجوم خالدة تضيء الكون. بينما الديانة المصرية فهي تكاد ان تكون العكس. انها ديانة تؤكد كثيرا على الخلود في الحياة الأخرى ووجود عالم (يشبه الجنة) لا يدخله البشر الا بعد الحساب و(كيل اعمالهم في ميزان). لهذا فان علاقة المصري مع الموت والمقابر ظلت حتى الآن اقل مقتنا ورعبا، ولهذا ايضا لعبت الأهرام دورا كبيرا في هذه الحضارة من اجل اقامة الملوك بانتظار يوم الحساب!

على هذا الأساس يتبين الخطأ الكبير الذي وقع فيه معظم مؤرخي اليهودية، عندما اعتقدوا انها متأثرة بالديانة المصرية، اعتمادا على ادعاءات التوراة نفسها بأن المؤسس الأسطوري الأول لليهودية (موسى) قد عاش في مصر. والحققة ان اليهودية(التوراتية) خالية تماما من جوهر الديانة المصرية: (الإيمان بالحياة الأخرى ويوم الحساب). وبنفس الوقت فإن هذه اليهودية تحمل جوهر الديانة العراقية: (الإيمان بالحياة الدنيا

فقط والاعتماد على رب سماوي جبار بانتظار المسيح المنقذ). هذا هو الفرق الحاسم بين اليهودية وباقي الأديان العرفانية التوحيدية وبالذات المسيحية التي تبنت بصورة كبيرة جوهر الديانة المصرية (كما سنرى).

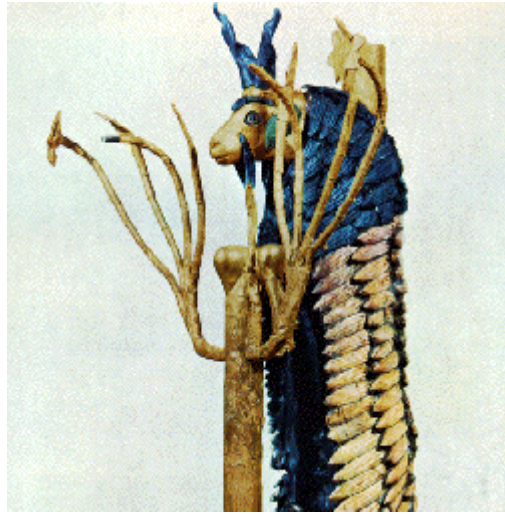


ان العرفانية التي نشأت اولاً في الشام، كانت هي ديانة الجمع العبقري بين ديانة (الخصب والرب المنقذ) العراقية وديانة (الحياة الأخرى ويوم الحساب والجنة الخالدة) المصرية. النقطة المهمة التي تلاحظ في (العرفانية) ان الرب المنقذ (تموز او البعل) لم يهبط كالعادة من اجل انقاذ (الحياة) الدنيا ونشر الخصب لكي يشبع البشر وتسير الحياة، بل من اجل انقاذ (الانسان) من هذه الحياة الدنيا التي تمثل ظلمة البدن وانحطاط الروح! ان الابن المنقذ (النبي والمهدي المنتظر) يأتي من اجل رفع الانسان الى (الحياة العليا الآخرة عالم النور والخلود) التي سبق ان هبط منها مع سقوط السلف الأول (آدم وحواء) من الجنة الى الارض. بشيء من التبسيطة يمكن تحديد العرفانية كالتالي: (المسيح المنقذ المخصب العراقي الشامي + يوم الحساب والحياة الأخرى المصرية)!

منذ القرن الثالث ق.م بدأ هذا التيار الروحي الجديد يتجلى وينتشر بين شعوب شرق المتوسط، وقد شاعت عنه الكثير من التسميات حسب المكان والطائفة، مثل: الهرمزية المصرية، الأفلاطونية الجديدة، العيسانية الفلسطينية. رغم ان تسمية (الغنوصية) اليونانية هي التي شاعت عن هذا التيار، الا ان التسمية الحقيقية الاصلية هي (المنداعية) الآرامية وتعني العرفانية بالعربي. مازالت هذه التسمية يحملها صابئة العراق (المنداية). هذه العرفانية بصورة مختصرة وكما تتضح من تسميتها هي عكس المعتقد (اللا ادري) الذي يؤمن بأن حقائق الوجود معقدة والانسان غير قادر على معرفتها. بينما (المنداعية العرفانية) تؤمن بأن الانسان قادر على معرفة حقائق الوجود واكتشاف الخالق ليس بالعقل والبحث اللامجدي، بل بالمشاعر والحدس والايمان الواقف والكلي. تؤمن هذه الغنوصية بأن الوجود ينقسم الى ثنائي الخير والشر، النور والظلمة. الخير هو الاصل وهو روعي لا مادي ولا بدني ويتمثل بالنور والسماء ومقر الله رب الخير، اما الشر فهو كل شيء مادي بدني ويتمثل بالكثافة والارض والظلمة مقر الشيطان رب الشر. وان الانسان بحقيقته واعماقه هو جزء من قوة الخير والنور، ولكن روحه سقطت على الارض، كما سقط آدم بسبب معصيته، من الجنة عالم النور والحياة العليا، الى الارض والحياة الدنيا.

بعد سقطة الروح القدس رمز الأم والانوثة والحياة تلقفها البدن رمز الشر والكثافة وملذات الحياة ومغرياتها (الشيطان) من اجل منعها من العودة الى سماء الانوار رمز الاب والرب. لهذا فإن الله الأب يبعث ابنه أي بعض من روحه ونوره ليتجسد على الارض ويفدي نفسه من اجل التعويض عن خطايا البشر وخلصهم من هيمنة قوى المادة والشر وعودتهم الى عالم النور والجنة ملكوت الله. وهذا بالضبط اساس التثليث في المسيحية الاب، والابن عيسى، وروح القدس الأم مريم. وهذا التثليث العرفاني المسيحي هو وريث للتثليث الكنعاني - العراقي المعروف: الآله الاكبر (ايل او مردوخ)، والابن (تموز او بعل)، والأم روح الخصب والانوثة (عشتار او عناة). اسطورة موت تموز في موسم الصيف والقحط ثم عودته من جديد بواسطة عشتار الى الحياة في الربيع، لا تختلف عن الرؤية العرفانية المسيحية عن صلب المسيح وانبعثته. ليس صدفة ابدا ان الاحتفال بيوم (قيامه المسيح) يتم في اول الربيع في نهاية نيسان، حيث ظل اهل الشام والعراق يحتفلون خلال آلاف الاعوام بعودة تموز جالبا الخصب والربيع في اول نيسان (الذي يصادف حسب

التقويم العراقي في 21 آذار الحالي)، وهو نفس عيد الفصح أي عندما تفصح وتضيء الحياة في الربيع. لقد انتقل عيد انبعث تموز الربيعي المشرقي الى الشعوب المجاورة بأسم عيد نيروز (بعد الاحتلال الإيراني للعراق).



### اليهودية بداية أم خاتمة؟

ثمة فكرة تاريخية خاطئة فرضت نفسها لأسباب عديدة، تعتقد بأن (اليهودية) تمثل قطعة تامة مع الماضي (الوثني التعددي) وانها تمثل ولادة مرحلة جديدة من الميراث الديني التوحيدي. لكن الدلائل التاريخية تشير الى العكس تماما: ان اليهودية هي (خاتمة) لمرحلة (الوثنية) السابقة. صحيح انها شكليا تخلصت من تقديس (الأصنام)، لكنها لم تتخلص من التعددية، كما يعترف بذلك كل من بحث في اليهودية. هنالك الآلهة (يهوى) وهنالك ايضا الآلهة (ايل). ثم ان الأهم من كل هذا ان اليهودية تعتبر ان (يهوى) ربها القومي الخاص بها، وهذا يعني انها تقر بأن لكل قوم الههم الخاص، وهذا ينسف تماما فكرة التجريد والتوحيد المبنية اساسا على الاعتقاد بوجود (رب واحد) لكل الأمم ولكل الكون. وهذه الفكرة المطلقة لم تتوضح الا فيما بعد في (العرفانية التوحيدية) وبالذات في (المسيحية).

ان التأسيس الفعلي لليهودية بدأ في بابل (القرن السابع ق.م) حيث بدأت الجاليات الفلسطينية المسبية في بابل بكتابة (التوراة) أي ميراثها الشعبي (كلمة توراة بالعربي هي تراث!). لقد ظلت فلسطين، وخصوصا جنوبها الصحراوي (منطقة يهودا التي وقعت تحت نفوذ بعض القبائل البدوية التي تسمى عبرانيين) ساحة صراع دامي لبسط النفوذ بين القوتين المتخاصمتين العراقية والمصرية. كثيرا ما تعرض هؤلاء الفلسطينيون للعقاب والسبي لتعاونهم مع المصريين. لهذا تكثر في الاجزاء البابلية من التوراة تلك الحكايات التي لا تخلوا من (النفاق والتزلف) للعراقيين ضد خصومهم المصريين: قصة ابراهيم وسارة مع الفرعون، ثم يوسف وزليخة، ثم موسى والفرعون. بل ان قصة نوح مع ولديه سام وحام وخلق الجنسين الابيض والأسود، يمكن وضعها في هذا السياق العنصري ضد المصريين (ابناء حام!). من اكثر الأمثلة طرافة على رغبة هؤلاء المنفيين الفلسطينيين للتقرب من العراقيين، انهم ابتدعوا فكرة جدهم (ابراهيم) الذي نزح من (اور الكلدانيين) وكذلك زوجته سارة من نفس الأصل. ولكي يميزوا انفسهم عن (القبائل البدوية) رغم انهم هم انفسهم من اصول بدوية، قالوا بحكاية اسماعيل (جد البدو) وامه هاجر الجارية المصرية!! وللتعويض عن حالة الخضوع التي ظل يعاني منها هؤلاء المنفيين امام اهل بابل، فإن التوراة لا تخلو من الحكايات البطولية والمفاخر الاسطورية: بطولات داود وشمشون وامبراطورية سليمان ومغامرته الشهيرة مع بلقيس. اما من الناحية الدينية فأنهم اقتبسوا الكثير من الميراث العراقي ومعتقداته الدينية: اقتبسوا يوم (السبت) الذي كان يوم عطلة ونهاية الأسبوع لدى العراقيين. اقتبسوا فكرة الخليقة والآله الاكبر وآدم وحواء والجنة والطوفان وعيد الفصح (عيد الربيع) والكثير من المعتقدات والطقوس والأزياء. (يعتقد ان عادة الختان بتأثير مصري). ثم انه في بابل بدأت تشيع تسمية (يهود) نسبة الى منطقة (يهودا) الجنوبية وكذلك (بنو اسرائيل) نسبة الى المنطقة الشمالية.



بعد اقل من قرن على وجودهم في بابل سقطت آخر دولة عراقية على يد الايرانيين في القرن السادس(ق.م). نتيجة لتعاون الجالية اليهودية مع الفاتحين فأنهم نالوا مكافاتهم بأن تم مساعدتهم على العودة الى فلسطين وتسليمهم السلطان كممثلين للدولة الأيرانية. لم تعد الى فلسطين الا اقلية ظنيلة من الغلاة والتابعين تماما للسلطة الجديدة، وفضلت الأغلبية البقاء في بابل. واستمرت الجالية اليهودية العراقية كمركز اساسي للنتاج الثقافي اليهودي حتى زمن العباسيين وحتى نزوحهم في منتصف القرن العشرين.

شكلت المجموعة اليهودية العائدة الى فلسطين النخبة القيادية التي جهدت بكل ما تمتلك من سلطان وتأثير من اجل فرض مذهبها اليهودي (البابلي) على السكان الاصليين الذين كانوا محتفظين بميراثهم الديني الكنعاني. تتحدث المصادر اليهودية عن السياسة الاستبدادية والعنفية التي مورست ضد السكان الاصليين من اجل اجبارهم على اعتناق اليهودية البابلية (النقية والصحيحة!!) ومكافحة الديانة الكنعانية(البعلية) الاصلية. في فلسطين استمروا باكمال التوراة واخذ الحرية للحديث عن البابليين بصورة سلبية وعن بابل التي (بلبلت لسان البشر) والتي دمرها الاله لأنها أدت اليهود!!

ان هاتين التجربتين (روح المنفى البابلي ثم التبعية للمحتلين الأيرانيين من اجل تمثيلهم في فلسطين) حددت منذ البدء جوهر التوراة واخلاقيتها. الكاتب الأسرائيلي المتمرد (اسرائيل شاحاك) لخص تاريخ الاخلاق التوراتية كالتالي: من ناحية كره كل الناس غير اليهود(غويوم) وخصوصا الفلاحين لأنهم النقيض التام للمنفين بسبب ارتباط الزراعة المباشر بالأرض. من ناحية ثانية تقدير الحكام والمتنفذين والأغنياء والتقرب لهم مهما كانوا اجنب وغرباء عن اليهودية ودعم طغيانهم ضد شعوبهم. حسب (شاحاك) هذه خصال تاريخ الجماعات اليهودية في كل مكان وزمان من دون استثناء.

نضيف نحن الى ذلك، أن (اليهودية) لم تعبر فقط عن(روح المنفى وكره الناس والتبعية للحكام) التي كان يحملها المؤسسون الأوائل، بل هي خصوصا عبرت عن موت مرحلة كاملة عاشتها منطقة المشرق خلال آلاف الأعوام. هنا يكمن سر عظمة اليهودية وسر هذا التأثير السحري الذي مارسته على شعوب المنطقة بحيث تم اعتبارها(خطأ) أساس الأديان التوحيدية. ان الصدفة التاريخية مكنت اليهودية من معاشة آخر زفرات الحضارة العراقية وعموم الحضارة المشرقية التي دامت اكثر من ثلاثة آلاف عام شبه مستمرة. تمكنت التوراة بكل براعة ومأساوية ان تعبر عن خلاصة هذه الحضارة وهذه المرحلة التاريخية التأسيسية الكبرى، بكل آلام احتضارها وخيباتها ولعناتها ونكساتها وخياناتها. ان الصور المأساوية الفنية العميقة والصادقة السائدة في نصوص التوراة، لم تعبر عن معانات اليهود قدما عبرت عن معاناة جميع شعوب المشرق وشعورهم بالآثم لأنهم خانوا ذواتهم ولم يتمكنوا من الحفاظ على سلطنتهم وانحدروا الى اسفل مراتب الانحطاط. هنا يكمن سلطان وقديسية هذا الكتاب الديني الكبير.



### المسيحية ذروة الديانة العرفانية

ان كشوفات وثائق مغارة قمران في فلسطين، اثبتت بصورة قاطعة العلاقة المباشرة بين المسيحية والطائفة العيسانية الروحانية التي كانت نشطة في فلسطين اثناء ظهور السيد المسيح، وان احد رموزها المعروفة هو

(يوحنا المعمدان) الذي عمد المسيح. يعتقد ان اتباعه فيما بعد قد هجروا فلسطين نحو العراق حتى بلغوا جنوبه واستقروا هناك، وهم (الصابئة المندائيون).

من المعروف ان الديانة المسيحية قد نشأت اولاً في مجتمع فلسطين الذي سيطرت عليه الديانة اليهودية منذ القرن السادس قبل الميلاد بعد سقوط بابل على يد الفرس وجعلهم لبعض يهود بابل حكاماً على فلسطين. منذ ذلك الوقت بدأت اليهودية (البابلية) تفرض سيطرتها الرسمية على فلسطين وخصوصاً بين النخب الحاكمة والمستفيدة، بينما كانت تنتشر بين الشعب، بالإضافة الى اليهودية، معتقدات عديدة عيسانية وبعلية تتفق على تقديس ديانة الخصب. اما بالنسبة للمسيحية، فلأنها نشأت في مجتمع فلسطيني تحكمه اليهودية (المتحالفة مع الرومان)، مما جعلها تتبنى الكثير من مقدسات التورات وانبيائها واساطيرها التاريخية كغطاء رسمي. لكن هذه المسيحية، على عكس اليهودية، انبثقت بين الفلسطينيين الفقراء واهل الحرف، أي بين الناس الشعبيين الحاملين حقاً وحقيقة للميراث الديني الكنعاني السائد منذ آلاف الأعوام. يصح القول ان المسيحية انت كرد فعل فلسطيني للتمرد على الاخلاق التوراتية الحاكمة والعودة الى الميراث الديني الكنعاني الانساني المنفتح على كل البشرية.

ان السيد المسيح (ع) هو الذي حل محل اله الخصب، الذي بعثه الله ليتجسد كأنسان ثم يخوض تجربة العذاب والتضحية من اجل خلاص البشرية. ان شخصية وحياة المسيح مليئة بدلالات الخصوبة: انه شاب مات في الثلاثينات من عمره، يقهر عناصر الطبيعة فتراه يمشي على الماء ويزجر الريح ويهديء العاصفة ويشفي المرضى وله قوة التسلط على كل ماهو شر. وهو مخصب إذ يكثر الخبز والسمك ويحول الماء الى خمر ويتألم ويعاني ويموت ثم يقوم من الموت لتعاد هذه الامثلة كل عام. انه يهب الناس جسده ودمه (خذوا فكلوا هذا هو جسدي.. اشربوا كلكم فهذا هو دمي..) (انجيل متي - 26) فيأكل المسيحيون جسده (الخبز) ويشربون دمه (النبيذ)، ثم (تخصب) ارواحهم بالايمان ويحصلون على الخلاص في الجنة الموعودة (حيث الخصب والاخضرار الأبديين). وليس بالصدفة ابدا ان يتم الاحتفال بيوم قيامة المسيح أي عودته للحياة بعد صلبه في اول الربيع حيث قيامة اله الذكورة تموز اوبعل.

اما الهه الخصب حسب الاساطير الكنعانية فهي عذراء بتول ولها اسم (رحم) وهي ام مضحية حنونة تدافع عن ابنها بعل وتقاتل الهه القحط (موت) وهي التي تقوم بدفن بعل وتنوح عليه وتشيّد له هيكل. وهذه كلها صفات السيدة (مريم البتول) ام المسيح. الجدير بالذكر، ان المسيحيين الاوائل حتى بعد انتشار المسيحية لم يفكروا باختيار أي دور لأم المسيح (مريم) ولم تذكرها الاناجيل الرسمية الا بصورة عابرة. لقد تم الاكتفاء بأستخدام عبارة تجريدية عامة (الروح القدس) للتعويض عن (الهه الطبيعة الانثوية). يبدو ان هذا التعبير لم يستطع ان يجسد بدرجة كافية الصورة المطلوبة، فلذلك فأن المسيحيين السوريين فضلوا ان يستعيدوا دور (مريم) الذي كان منسياً، حيث عادت وتبوأ مركز الصدارة كأُم الاله. كان دور مريم وكيفية النظر اليها احد اسباب انشقاقات الكنيسة الاولى وخاصة آراء القديسين نسطور واطيخا.

ان ديانة الخصب المشرقية ظلت شائعة حتى انبثاق المسيحية ثم انتشارها بين السكان الذين انتقلوا مباشرة من تقديس الهه الخصب (بعل او تموز) الى تقديس السيد المسيح. ان الهه الخصب والذكورة لدى الكنعانيين يلقب بـ (بعل) وتعني (السيد والزوج المخصب) كما في العربية. كذلك حمل لقب (ادون) بالآرامي بمعنى (الذي يدين) او السيد المسيطر ومنها كلمة (دين) بمعنى (الخضوع) للرب. وعندما سيطر الاغريق على سوريا اضافوا كعادتهم حرف السين فشاعت تسمية (دونيس). اما اللقب الشخصي لهذه الالهه فهو (هدد او حدد) بمعنى (القوي) فيقال (بعل حدد). اما الهه الطبيعة والانوثة فهي لدى الكنعانيين (عشتروت او عنات).

يبدو ان اليهودية رغم انها ديانة (عراقية - فلسطينية)، لكنها لم تكن ديانة تاريخية تلقائية شعبية بل قامت بصورة واعية مصطنعة بين مسيحيي بابل على أساس تجميع عدة ميراثات مناطقية وقبائلية مختلفة. لذلك فأن هذه اليهودية عبرت بصورة مشتتة ومتقطعة عن ديانة الخصب من خلال عدة حكايات وعدة آلهه متداخلة الاسماء والافعال: الهه السماء والأب الاول، حمل اسماء ايل ويهوا وابراهيم ويعقوب. الهه الذكورة والخصب، حمل اسماء آدم وموسى وداود وسليمان. الهه الانوثة والطبيعة، حملت اسماء حواء وسارا وبلقيس. اما المسيحية، فأنها مثلت نوعاً من العودة الى ديانة الخصب الشعبية الاصلية التي فشل اليهود بقمعها وتحريفها، من خلال تبني (التثليث الالهي): الاب والابن والروح القدس.

رغم روحانية وعرفانية الديانة المسيحية الا انها رغما عنها عبرت عن ظروف المرحلة التي نشأت فيها، ومتطلبات الشعوب الشرقيمتوسطية التي رعتها ونشرتها. انها تحولت الى وسيلة لهذه الشعوب من اجل التعويض عن خنوعهم السياسي وفقدانهم للاستقلال الوطني. لقد تمكن المبشرون الشاميون من نشر ديانتهم

هذه في عموم البحر المتوسط حتى فرضوها على محتليهم واصبحت الديانة الرسمية للدولة الرومانية. بينما تمكن المبشرون العراقيون من نشر المسيحية النسطورية في عموم الامبراطورية الايرانية وآسيا حتى الصين، ولا زالت حتى الآن الطائفة السريانية النسطورية في منطقة مالاربو في الهند. ان اكبر دلائل استخدام المسيحية من قبل المشاركة العراقيين والشاميين كوسيلة للتعويض عن خضوعهم السياسي، انهم تمكنوا من فرضهم لغتهم الآرامية السريانية لتكون لغة الكنائس في بلدانهم. بل ان العراقيين تمكنوا من جعل الآرامية (السريانية) لغة الثقافة الاولى في الامبراطورية الايرانية، وعزل اللغة البهلوية الفارسية لتبقى محصورة بالبلاط الساساني والكهنوت الزرادشتي!

ان المسيحية ظلت خلال القرون الاولى خاصة بشعوب العالم الشرقي المتوسطي لأنها عبرت عن تطلعاتهم الروحية والوطنية. بالإضافة الى دور الشاميين الذين اسسوا كنيستهم الوطنية اليعقوبية، والعراقيين الذين اسسوا كنيستهم الوطنية (النسطورية)، كذلك اسس المصريون كنيستهم القبطية وقدموا الى المسيحية القديس انطون اول مؤسس للرهبنة ونظام الاديرة. اما بالنسبة لشمال افريقيا فقد انتشرت المسيحية على كل الضفاف، وقدمت هذه الشعوب الى المسيحية ابروس الليبي اشهر الهراطقة والقديس اوغسطين الجزائري اول فلاسفة المسيحية بالإضافة الى الدوناتية اول حركة ثورية مسيحية.



### ديانة الخصب العرفانية في معتقدات المنطقة

ان الإسلام قد ورث هذه الديانة العرفانية التوحيدية من خلال احتوائه على اساسياتها: ((النبى المنقذ الحامل لرسالة الرب من اجل انقاذ البشر من كفرهم وخضوعهم لغرائز الحياة الدنيا واغواءات شيطانها، من خلال العمل الصالح يفدي الانسان روحه وينقيها من آثام الدنيا لتصعد الى الرب الرحيم بانتظار يوم الحساب والانتقال الى الحياة الأخرى وجنة الخلود)).

هذا هو الجوهر الروحي الديني للأسلام. لكن ظروف المرحلة، أي قرون الاحتلال الاجنبي التي ظلت تعاني منها شعوب المنطقة، فرضت على الأسلام جوانب عملية وحياتية وسياسية. ان ميزة الاسلام عن العرفانية والمسيحية انه لم يتوجه فقط للإنسان كفرد، بل انه ايضا توجه الى الشعوب والأوطان والدول من اجل ان تبني نظاما جديدا اكثر عدلا وكرامة. ان هذه الميزة الجديدة فرضتها حاجة شعوب المنطقة من اجل التحرر والكرامة الوطنية. ان المسيحية شكلت الاساس لتنقية الروح ودفعها الى الصبر والأمل (في الحياة الأخرى). اما الأسلام فإنه أعاد من جديد المعادلة السابقة: الديانة العراقية التي تقدس الحياة الدنيا والديانة المصرية التي تقدس الحياة الأخرى. ان افضل قول ماثور يعبر عن هذه الفكرة الاسلامية الجديدة وينسب الى الامام علي (ع): ((اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)). ان الأسلام لم يمزج بين الديانتين العراقية والمصرية كما فعلت العرفانية، بل جمع بينهما بصورة متجاوزة بحيث يبقى على ماهية كل منهما من دون حذف او اختصار.

لكن العرفانية بشكلها الروحاني المسيحي بقيت واضحة كما هي في الكثير من التيارات والطوائف الإسلامية: المتصوفة لدى السنة وفي الكثير من المعتقدات الشيعية، حيث التأكيد على وضاعة الحياة الدنيا وتقديس الحياة الأخرى. بالإضافة الى التعلق بشخصية المخلص المنقذ (المهدي المنتظر).

من المعروف ان الميراثات الشعبية بطبيعتها تلقائية يحكمها منطق الزمن والشعور الباطني الجمعي بالاضافة الى تأثير الصراعات السياسية وموازين القوى وتدخلات الافراد. لهذا فأننا كثيرا ما نواجه تكرار للشخصيات والاحداث وتناقض الاخبار احيانا. يجب الاخذ بنظر الاعتبار المحصلة العامة الوسطية لمجموع تفاصيل هذا الميراث. مثلا، رغم ان السيد المسيح يمثل بصورة كافية اله الخصب، الا ان الشعب لم يكتفى بهذا الرمز بل بحث عن شخصية اضافية لها نكهتها وخصوصيتها لكي تعبر عن (بعل) القديم. ان (مار جرجيس) هو اكثر القديسين الشاميين شعبية بين المسيحيين، وقد انتشر اسمه في كل انحاء العالم المسيحي، بأسم (جورج، جرجس، جرجي، غيورغي...)، ودلالة الخصب تكمن في معنى الاسم نفسه، فأن (مار) الآرامية بمعنى (السيد أي الأمر) ثم اسم (جرجيس اوجورج) ذا الاصل السامي واليوناني ومعناه (حارث الأرض). والحكاية المسيحية المعروفة عن هذه الشخصية الاسطورية، انه من مدينة اللد الفلسطينية وانه صارع التنين من اجل انقاذ ابنة الملك المسيحية. وهذه الاسطورة شبيهة جدا بالأسطورة البابلية السورية عن صراع مردوخ (اله الخصب) ضد تعامة (الهة العماء والموت) الممثلة بتنين، وكذلك شخصية كلكامش وصراعه مع وحش الغاب من اجل الخلود. شخصية مارجرجيس تستبدل ايضا بشخصية (مار الياس)، وهي تكرار شخصية الآله (ايليا - العالي).

اما عند المسلمين فهناك شخصية (الخضر) او (خضر الياس) التي تحمل معنى الخصب والأخضرار. (الخضر) يذكره القرآن على انه شخصية تقية تفوق النبي موسى علما (سورة الكهف - الآيات (65 - 82)). اما المتصوفة المسلمون فأنهم يرتبطون بعلاقة حميمة خاصة به فهو يرشدهم ويلهمهم، وابن عربي في (فتوحات مكية) يروي عن لقاءاته العديدة مع الخضر. ويظهر في بعض التصاوير الشعبية وهو يقتل الوحش. وقد اقتبس الاتراك العثمانيون شخصية خضر الياس بأسم (خدرلس). حتى الدوائر الرسمية العثمانية اختارت يوم (23 نيسان) الذي هو عيد (بعل) الربيعي لكي يكون يوم بداية الاعمال العسكرية والبحرية والادارية. وينشد الفلاحون في فلسطين الاغنية التالية: ((ياسيدي خضر الاخضر... اسقي زرعنا الاخضر... ياسيدي يا مارالياس... اسقي زرعنا الياس)).

اما لدى المسلمين الشيعة فأن معتقد الخصب له حضور متميز واساسي يجعل من التشيع قريب الى المسيحية الى حد بعيد. الشيعة يقدسون الخضر اكثر من أي ولي آخر، وهناك تداخل بين اسم الخضر واسم (علي) الذي هو نفسه اسم (ايليا - الله). هنالك حكايات تنسب للامام علي قوله انه نفسه (ايليا) المذكور في التوراة. (مناقب آل ابي طالب - ج 2 ص 93). يبدو ان شخصية (الامام علي) وما يحيط بها من اساطير عن خلوده ووجوده حتى قبل آدم وخوضه لتجارب عديدة مع الانبياء المعروفين، جعلت منه اقرب الى شخصية الآله الأب، اما ابنه (الشهيد الحسين) فأنه يتطابق الى حد كبير مع شخصية اله الخصب تموز والمسيح المصلوب الذي يخصب الارض بدمه. والشيعة هم الذين اصفوا على شخصية (السيدة فاطمة بنت الرسول) قدسية خاصة تشبه شخصية مريم العذراء، فهي (فاطمة البتول) وزوجة الامام علي وام الشهيد الحسين (عليهم السلام) وصانعة المعجزات (بتولا كلمة سامية اطلقت على عشتار وعلى مريم!!). ومثلما ينتظر المسيحيون عودة المسيح الذي سيقودهم الى الخلاص، فأن المسلمين ينتظرون ايضا المسيح المنقذ. بالنسبة للشيعة يضاف الى المسيح الامام علي والامام المهدي المنتظر صاحب الزمان.



ان هذا المدخل التاريخي يبتغي التأسيس لعملية مراجعة شاملة لتاريخ العراق (وعوموم المشرق)، الذي كتب بواسطة المنهج القومي العرقي التوراتي الاستشراقي الذي مزق ميراثنا الحضاري والديني وبعثه الى مراحل اجنبية منفصلة لايربطها أي رابط. ان تمزق شعب العراق (وشعوب المشرق) الى معسكرات طائفية

وعرقية وسياسية (علمانية ودينية) مشتتة وخاضعة لحكومات اقلوية منعزلة، متأت من تمزيق تاريخ بلادنا الوطني الى تواريخ منفصلة. اننا بحاجة ماسة لإعادة كتابة كل تاريخنا وميراثنا الوطني، تحت شعار: توحيد التاريخ هو اساس توحيد الحاضر...

- نعتذر للقراء عن عدم تسجيلنا للمصادر بالصورة الأكاديمية المطلوبة، لأننا تركنا هذا الأمر لحين توسيعنا لهذه الدراسة ككتاب نعد لإصداره. وهذه بعض من المصادر التي تم الإعتماد عليها:
- فايز مقدسي - الأصول الكنعانية للمسيحية - الابجدية للنشر - دمشق 1996 (انه افضل كتاب عن الاصول السورية للمسيحية).
  - جورج طرابيشي - نظرية العقل - دار الساقى - لندن 1996. (اننا نعتبر هذا الكتاب تأسيسى ورائد في مجال تاريخ الفكر العربي، لكنه للأسف حتى الآن لم ينل حقه من السمعة والتعريف).
  - حداد، مجاعص - بعل هداد - دار امواج - بيروت 1993.
  - فاضل علي - من سومر الى التوراة - سينا - القاهرة 1989.
  - مرغريت روثن - علوم البابليين - وزارة الثقافة - بغداد 1980.
  - انيس فريجة - دراسات في التاريخ - جروس برس - لبنان 1991.
  - يوسف حوراني - البنية الذهنية الحضارية - دار النهار - بيروت 1972.
  - فراس السواح - الحدث التوراتي - دار المنارة - دمشق 1989
  - Jean Bottéro, *Initiation à l'Orient ancien*, Editions du Seuil, Paris 1992
  - Israël Shahak, *Histoire juive - Religion* - -
  - *juive, Le poids de trois millénaires*, Paris 1996
  - Chaire de l'I.M.A. - *L'Orient ancien et nous*, Editions Albin Michel, Paris 1996 - -
  - George ROUX, *La Mésopotamie*, Editions du Seuil, Paris 1985. - -
  - مارتن برنال - اثينا السوداء - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة 1997.
  - محمد الجابري - بنية العقل العربي - المركز الثقافي - الدار البيضاء 1986.
  - فيليب حتي - تاريخ سوريا - دار الثقافة - بيروت 1972.
  - ارنولد توينبي - تاريخ البشرية - الاهلية - بيروت 1988.
  - جميل صليبا - تاريخ الفلسفة العربية - دار الكتاب - بيروت 1981.
  - رؤوف عباس - مصر وعالم البحر المتوسط - دار الفكر - القاهرة 1986.
  - مصطفى نشار - نحو تاريخ جديد للفلسفة القديمة - وكالة زووم - القاهرة 1992.
  - مصطفى غالب - الحركات الباطنية في الإسلام - دار الاندلس - بيروت.
  - فرانكفورت، ولسن، جاكبسون - ما قبل الفلسفة - المؤسسة العربية - بيروت 1982.
  - سيد احمد القمني - الأسطورة والتراث - دار سيناء - القاهرة 1993.
  - جفري بارندر - المعتقدات الدينية لدى الشعوب - مدبولي - القاهرة 1996.
  - يوسف غنيم - نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق - الوراق - لندن 1997.
  - الكتاب المقدس - دار المشرق - بيروت 1986.
  - الزة زايبرت - رمز الراعي في بلاد الرافدين - دار العربي - دمشق 1988.
  - ثريا منقوش - التوحيد في تطوره التاريخي - دار الطليعة - بيروت 1977.
  - السير ولس بدج - الديانة الفرعونية - المنارات - عمان 1985.
  - جيمس فريزر - ادونيس او تموز - المؤسسة العربية - بيروت 1928.
  - سيغموند فرويد - موسى والتوحيد - دار الطليعة - بيروت 1986.

( )



## الفصل الاول الاديان العراقية المنقرضة ديانة الخصب والديانة المانوية



رسم من العراق القديم يمثل خلق الانسان الاول (آدم) بواسطة الالهة (أتوناكي)

### ديانة الخصب

الديانة العراقية القديمة (عبادة الكواكب)، مثل جميع الاديان القديمة، تقوم على اساس الاسطورة. ويمكن تعريف الاسطورة بكل بساطة: انها الحكاية التي تتناول القوى الالهية ونشاطاتها وعلاقتها بالانسان، أي يكون ابطالها من الآلهة. فمثلا اسطورة كلكامش، رغم ان كلكامش انسان (ملك)، الا ان الاسطورة تؤكد على انه (نصفه اله ونصفه انسان). بالاضافة الى ان جميع الاحداث والبطولات الخارقة التي يقوم بها كلكامش، تتحدث عن علاقته بالآلهة وكذلك من اجل التوصل الى حلول لمعضلات دينية كبرى، وعلى رأسها معظلة (خلود الانسان). اما الحكاية العادية فأنها تتناول عادة الانسان وعلاقته بالحياة وباقي الوجود. وحتى لو كانت احداثها خارقة وغير واقعية، فأنها تبقى ضمن الواقع الانساني والاسئلة الحياتية.

ان الديانة العراقية، لم تنتج كتابا واحدا محددا يعبر بصورة مكثفة عن عقيدتها الدينية، على غرار الانجيل والقرآن. بل ان الانسان العراقي، خلال حوالي ثلاثة آلاف عام (بين الالف الثالث حتى بضعة قرون قبل الميلاد)، انتج كمية هائلة من النصوص الاسطورية الدينية التي عبر فيها عن مختلف جوانب عقيدته، مثل ماهية الآلهة ووظائفها وخلق الكون وخلق الانسان والموت والخلود وسر الخصب وتجدد الحياة، وغيرها العديد من الاسئلة الوجودية المحيرة التي طرحتها جميع الاديان. بل يمكن القول ان الانسان العراقي، هو أول من خلق مفهوم (الشريعة) أي (القانون الديني). ان (قوانين حمورابي) الشهيرة، لم تصدر بأسم الملك - الانسان، بل صدرت باسم (الاله شمش - شمس) التي نراها على المسلة يمنح القوانين الى حمورابي.

في هذا الفصل نحاول الاطلاع على هذه الاساطير الدينية العراقية والتعرف على معانيها وتأثيراتها، ليس فقط على عصرها، بل ما تركته من تأثيرات على الاديان السماوية التي اتت بعدها، وخصوصا في اليهودية ثم الصابئية والمسيحية والاسلام..



تتخذ أساطير الخلق والتكوين مكان المركز والبؤرة في أي منظومة ميثولوجية. فهي التي تتحدث عن أصل الكون وكيف ظهر العالم إلى الوجود، وعن أصل الآلهة وأنسابها ومراتبها وعلائقها مع بعضها بعضاً. وهذا ما سوف نلتفت إليه فيما يلي، متخذين من ميثولوجيا التكوين الرافدينية نموذجاً. في الأساطير السومرية، وهي أول الأساطير المدونة في تاريخ الحضارة الإنسانية، تبدأ عملية خلق وتكوين العالم انطلاقاً من مادة بدنية أزلية هي المياه الأولى، التي دعاها السومريون «نمو». ففي أعماق هذه المياه تشكلت بذرة الكون الأولى على هيئة جبل قبته هي السماء، وقاعدته هي الأرض، وكانا ملتصقين. بعد ذلك أخذ الهواء بالتشكل في داخل هذه الكتلة اليابسة، الأمر الذي أحدث فجوة في داخلها. وكلما أخذ الهواء بالتزايد والتمدد كلما توسعت هذه الفجوة، إلى أن باعدت بين الأرض المنبسطة وقبة السماء التي تغطيها من كل جهاتها. ثم أن هذا العنصر الغازي الذي يملأ المسافة بين الأرض والسماء أنتج القمر والشمس وبقية الأجرام المضيئة. وكان من نتيجة فصل السماء عن الأرض إتاحة الشروط المناسبة لظهور الحياة الطبيعية والكائنات الحية.

ولكن العقل الأسطوري لم يكن يعالج الأمور بهذه الطريقة العلمية التي بسطناها، بل بلغته الخاصة التي تحول الظواهر الكونية والطبيعية إلى شخصيات إلهية. ففي البدء، على ما نفهم من شذرات نصوص سومرية لم تصلنا كاملة، كانت الإلهة نمو، المياه الأولى. ثم إن هذه الإلهة البدنية أنجبت ولداً وبناتاً، الأول هو «آن» إله السماء المذكر، والثانية هي «كي» إلهة الأرض المؤنثة. وكان الاثنان ملتصقين ببعضهما بعضاً في كتلة تهيم في الأعماق المائية. ثم إن أن تزوج كي وأنجبا بكرهما إله الهواء إنليل الذي باعد بينهما ورفع السماء نحو الأعلى وبسط الأرض تحتها. بعد ذلك أنجب إنليل إله القمر «نانا»، وإله القمر أنجب إله الشمس «أوتو». وبعد ذلك انطلقت عملية التكوين التدريجي، عن طريق زواج الآلهة وتناسلها.

بعد أن أخذ الكون شكله وانتظمت دورة النهار والليل وحركة الفصول؛ وبعد أن أخرجت الأرض زرعها وشجرها وتفجرت ينابيعها؛ وبعد أن ظهرت الحيوانات بأنواعها، صار المسرح مهيناً لظهور الإنسان، الذي ترى الأسطورة السومرية أنه خلق لكي يحمل عبء العمل ويرفعه عن كاهل الآلهة. فقبل ظهور الإنسان على الأرض كان الآلهة يقومون بكل الأعمال التي تحفظ حياتهم وتيسر معاشهم، من فلاحة وزراعة وحصاد، وما

إليها. ولكنهم تعبوا من ذلك ورفعوا عقيرتهم بالشكوى إلى إله الماء والحكمة «إنكي»، عله يجد لهم مخرجاً. ولكنه، وهو المضطجع في الأعماق المائية، لم تصله شكواهم، فمضوا إلى أمه الإلهة نمو، المياه البدئية التي أنجبت الجيل الأول من الآلهة، لتكون واسطتهم إليه. فمضت إليه قائلة:

أي بني، انهض من مضجعتك، واصنع أمراً حكيماً.  
اجعل للآلهة عبيداً يخدمونهم ويقومون بأودهم.  
فتأمل إنكي ملياً في الأمر، ثم دعا الحرفيين الإلهيين المهرة ليقوموا بتشكيل البشر انطلاقاً من عجينة من طين، وقال لأمه نمو:  
إن الكائنات التي ارتأيت خلقها ستوجد،  
وسوف نصنعها على شبه الآلهة.  
اغرفي حفنة من طين من فوق مياه الأعماق،  
وأعطيها للحرفيين الإلهيين ليعجنوا الطين ويكتفوه.  
وبعد ذلك قومي أنت بتشكيل الأعضاء،  
بمعونة ننماخ، الأم - الأرض.  
عندها ستقف إلى جانبك ربات الولادة،  
وتقدّرين للمولود الجديد يا أماه مصيره،  
وتعلق ننماخ عليه صورة الآلهة  
إنه الإنسان.



هذا وتكرر قصة خلق الإنسان في نص سومري آخر يتحدث عن خلق إله الماشية «لهار» وإلهة الحبوب «أشنان» لإطعام الآلهة التي لا تشبع، والتي كانت في مطلع الأزمان أشبه بالإنسان البدائي:

كالشجر عندما خلقوا في الماضي البعيد،  
لم يعرف الآلهة أكل الخبز،  
لا ولم يعرفوا لبس الثياب،  
بل التقطوا النباتات بأفواههم،  
ومدوا رؤوسهم لشرب الماء من الجداول.  
في تلك الأيام، وفي «دولكوج» بيت الآلهة،  
في حجرة الخلق، جرى خلق لهار وأشنان،  
ومما أنتج لهار وأشنان،  
أكل الآتوناكي ولم يكتفوا،  
ومن الحظائر المقدسة شربوا اللبن،  
ولكنهم أيضاً لم يرتووا  
لذا، ومن أجل العناية بطيبات حظائرهما،  
جرى خلق الإنسان.



لقد تحدثت الأساطير السومرية عن خلق البشر الأوائل دفعة واحدة، ولكن الأساطير البابلية اللاحقة تحدثت عن خلق زوجين أوليين تناسل منهما بقية الجنس البشري. وقد جرى خلق هذين الزوجين من عجينة طينية ممزوجة بدم إله (أو أكثر) تم تقديمه قرباناً لعملية الخلق. وكما هو الحال في الميثولوجيا السومرية، فإن الإله إنكي (أو إيا، كما يدعو البابليون). نقرأ في نص لم يصلنا كاملاً ما يلي:

عندما خلق الآلهة في مجتمعهم كل الأشياء،  
بعد أن شكلوا الأرض وكونوا السماء؛  
بعد أن أخرجوا للوجود الكائنات الحية؛  
قام إيا بخلق زوجين شابين،  
وأعلى من شأنهما فوق جميع المخلوقات.  
وفي نص آخر نجد الآلهة وقد تعبوا من عناء الكدح والعمل، يستعطفون الأم - الأرض «مامي» (أو ننتو)  
لكي تخلق لهم كائنات تحمل عنهم نير العمل:  
«أنت عون الآلهة، مامي، أيتها الحكيمة.  
أنت الرحم الأم أيتها الخالقة.  
اخلقي لنا الإنسان فيحمل العبء،  
ويأخذ عن الآلهة عناء العمل.  
فتحت ننتو فمها وقالت للآلهة الكبار:  
«لن يكون لي أن أنجز ذلك وحدي،  
ولكن بمعونة إنكي سوف يُخلق الإنسان،  
الذي سوف يخشى الآلهة ويعبدها.  
فليعطني إنكي طينا أعجبه وأسويه بشراً».  
فتح إنكي فمه قانلاً للآلهة العظام:  
«في الأول والسابع والخامس عشر من الشهر،  
سوف أجهز مكاناً طهوراً،  
وسيدبح هناك أحد الآلهة.  
عندها فليتعمد بدمه بقية الآلهة،  
وبلحمه ودمائه سوف تعجن ننتو طيناً.  
إله وإنسان معاً،  
سيتحدان في الطين إلى الأبد.  
ولدينا نص بابلي ثالث يقدم نفس القصة مع تنويعات طفيفة:  
بعد أن شكلت الأرض وسويت،  
بعد أن تحددت مصائر الأرض والسماء،  
بعد أن استقرت شطآن دجلة والفرات،  
عندها، الآلهة الكبار أنو وإنليل وإيا،  
وبقية الآلهة المبجلين،  
جلسوا جميعاً في مجلسهم المقدس،  
وتذكروا ما قاموا به من أعمال الخلق:  
«أما وقد حددنا مصائر السماء والأرض،  
وجرت القنوتات في مجاريها،  
واستقرت شطآن دجلة والفرات؛  
ماذا نستطيع بعد أن نفعل؟  
ماذا نستطيع بعد أن نخلق؟»  
ثم توجه الحضور من الآلهة المبجلين،  
توجهوا بالقول إلى إنليل:  
«لنذب بعض آلهة الحرف،

ومن دمانهم فلنخلق الإنسان،  
فنوكله بخدمة الآلهة على مر الأزمان.  
سنضع في يديه السلة والمعول،  
فيبني للآلهة هياكل مقدسة تليق بمقامهم،  
ويسقي الأرض بأقاليمها الأربعة،  
ويُخرج من جوفها الخيرات الوافرة،  
ويستخرج الماء العذب ويحتفل بأعياد الآلهة.  
سنخلق زوجين ويكون اسمهما:  
أوليجار وألجار»



انكي (اله الارض والسماء) ومنبع النهرين يمنح الخصب والحكمة الى تموز وعشتار

على أن أجمل النصوص البابلية الأسطورية قد وصلنا منقوشاً على سبعة ألواح فخارية، وهو يحمل عنوان «إينوما إيش» أي «عندما في الأعالي»، وهي الجملة الاستهلالية التي ابتدأ بها. فعندما في الأعالي، لم يكن هنالك سماء، وفي الأسفل لم يكن هنالك أرض، لم يكن في الوجود سوى المياه الأولى ممثلة في ثلاثة آلهة مائية هم «تيامة» ماء المحيط البدني المالح، التي أنجبت الماء العذب «أبسو» وتزوجته، وابنهما «ممو» الضباب المنتشر فوقهما. وكان هؤلاء الثلاثة يعيشون في تمازج وتناغم، وصمت وسكون مطلق. انطلاقاً من هذه المادة المائية الهيولية ابتدأ الخلق والتكوين، عندما أنجب الآلهة الثلاثة الجيل الثاني من الآلهة:

عندما في الأعالي لم يكن هنالك سماء،  
وفي الأسفل لم يكن هنالك أرض.  
لم يكن من الآلهة سوى أبسو أبوهم،  
وممو، وتيامة التي حملت بهم جميعاً،  
يمزجون أمواهم معاً.  
قبل أن تتشكل المراعي وسبخات القصب،  
قبل أن يظهر للوجود الآلهة الآخرون،  
قبل أن تُمنح لهم أسماؤهم وتُرسَم أقدارهم.  
في ذلك الزمان خلق الآلهة الثلاثة في أعماقهم  
«لخمو» و«لخامو» ومنحوا لهما اسميهما

ومن لخمو ولخامو تناسل الجيل الثاني من الآلهة البدنية، وصولاً إلى أنو وابنه إيا الذي صار سيداً لآبائه وأسلافه بسبب قوته وحكمته وسعة إدراكه. ولكن الجيل الجديد من الآلهة كان كثير النشاط والحركة. وبما أنهم ما زالوا في جوف المياه البدنية، فإن هذه الحركة أقلقَت الآلهة القديمة الميالة إلى الراحة والسكون، فاقترح أبسو على تيامة القضاء على الآلهة الشابة، وأيده في ذلك مممو:

فتح أبسو فمه قانلاً لتيامة بصوت مرتفع:

«لقد غدا سلوكهم مؤلماً لي.

في النهار لا أستطيع راحة وفي الليل لا يحلو لي رقاء.

لندمرنهم ونضع حداً لفعالهم،

فيخيم الصمت، ونخذل عندها للنوم»

فلما سمعت منه ذلك،

ثار غضبها وصاحت بزوجها:

«لماذا ندمر من وهبناهم نحن الحياة؛

إن سلوكهم لمؤلم حقاً، ولكن دعونا نلجأ إلى اللين»

ثم نطق ممو ناصحاً أبسو،

وفي غير صالح الآلهة جاءت نصيحة ممو:

«نعم يا والدي، دمرهم وخلصنا من فوضاهم،

لكي تستريح في النهار وترقد في الليل»

غير أن ما دار بين المتآمرين قد وصل بشكل ما إلى الآلهة الشابة التي تجهزت للمعركة وعينت إيا قائداً عليها. وعندما التقى الطرفان قام إيا بقتل أبسو وأسر ممو. وفوق أبسو - الماء العذب - أقام مسكناً له، ومنذ ذلك الوقت صار إلهاً للماء العذب الباطني، يمسك بممو الأسير بحبل، أي بالرطوبة والضباب الملازمين للماء أنى وجد.

ولكن المعركة لم تُحسم بعد، وكان على الآلهة الشابة خوض معركة فاصلة بقيادة ابن لالّه إيا، بكره الذي دعاه مردوخ، والذي كان أعظم آلهة الجيل الثالث من الآلهة:

تخلب الأبواب قامته، تلمع كالبرق عيناه،

يخطو بعنفوان ورجولة، إنه زعيم منذ البداية.

بفن بديع تشكلت أعضاؤه،

لا تدركه الأفهام، ولا يحيط به خيال.

أربعة كانت آذانه، أربعة كانت عيونه،

تنوهج النيران كلما تحركت شفتاه.

كان الأعلى بين الآلهة وما لهيبته من نظير،

هائلة أعضاؤه، سامقة قامته.

ثم خلق آتو الرياح الأربعة وسيرها،

وأسلم قيادها لسيد الجماعة،

لمردوخ الذي أحدث بها الأمواج فاضطربت لها تيامة؛

قلقه صارت، تجول على غير هدى.

أتت بأسلحة لا تقاوم؛ أفاع هائلة

حادة أسنانها، مريعة أنيابها،

ملئت أجسادها سماً بدل الدم.

أتت بتنانين ضارية تبعث الهلع،

توجتها بهالة من الرعب وألبستها جلال الآلهة.

أحد عشر نوعاً من الوحوش أظهرت إلى الوجود،

ومن الجيل الأول من الآلهة الغاضبة في مجلسها،

اختارت الإله كينغو ووضعته أمام جيشها قائداً».



الثور المجنح، رمز القوة والفحولة والاله آشور

وصلت أنباء الاستعدادات الجديدة أسماع الآلهة الشابة، فمضى جدهم أنشار يبحث عن قائد يتصدى للإلهة الغضبي وحشدها، ولكن الجميع تقاعس عن المهمة إلا مردوخ الذي جاء إلى أنشار في عدة الحرب الكاملة وانتصب أمامه معلناً عن قبوله لمنصب القيادة. فدعا أنشار الآلهة إلى مأدبة فشرّبوا وأكلوا حتى نسوا مخاوفهم، ولمردوخ البطل أسلموا مصائرهم، وأعطوه أعلى قوة إلهية وهي قوة الكلمة الخالقة. ولكي يتأكدوا من قوة كلمته جاؤوا إليه بثوب وضعوه في وسطهم وقالوا له:

سلطانك أيها الرب هو الأقوى بين الآلهة.  
ليفن الثوب بكلمة من فمك،  
وليرجع سيرته الأولى بكلمة أخرى.  
فأمر مردوخ بفناء الثوب فزال،  
ثم أمر به فعاد ثانية.  
فلما رأى أبأوه الآلهة قوة كلمته،  
ابتهجوا وأعطوه ولأعهم: مردوخ ملكاً.  
وها هو يستعد للمعركة:  
صنع قوساً وأعلنه سلاحاً له،  
جعل للسهام رؤوساً مسنونة وشد لقوسه وترأ؛  
رفع الهراوة وأمسكها بيمينه؛  
وربط القوس والجعبة إلى جنبه،  
ثم أرسل البرق أمامه،  
وملأ جسده بالشعلة اللاهبة.  
صنع شبكة يوقع بها تيامة،  
وصرّف الرياح الأربعة ثمسك بأطرافها لاحتواء تيامة.  
أطلق فيضان المطر، سلاحه الهائل،  
ثم اعتلى مركبة لا تُقهر، مركبة العاصفة؛  
وقد حفت به الآلهة، حفت به الآلهة؛  
وقد تدافعت حوله الآلهة، تدافع أبأوه الآلهة.  
وعندما التقى الجمعان دعا مردوخ تيامة إلى منازل فردية بينهما  
تقدما من بعضهما، تيامة ومردوخ أحكم الآلهة؛

اشتبكاً في قتال فردي والتحماً في عراك مميت.  
نشر الرب شبكته واحتواها في داخلها،  
وفي وجهها أفلت الرياح الشيطانية التي تهب وراعه،  
وعندما فتحت فمها لا ابتلاعه،  
دفع في فمها الرياح الشيطانية فلم تقدر على إطباقه،  
وامتلاً جوفها بالرياح الصاخبة،  
فبطنها منتفخ وفمها فاغر على اتساعه.  
ثم أطلق الرب من سهامه واحداً مزق أعماقها،  
تغلغل في الحشا وشرطر منها القلب.  
فلما تهاوت أمامه أجهز على حياتها؛  
طرح جثتها أرضاً واعتلى عليها؛  
وقف على جزئها الخلفي،  
وبهراوته العتية فصل رأسها،  
وقطع شرايين دمانها،  
التي بعثرتها ريح الشمال إلى الأماكن المجهولة.  
ثم اتكأ الرب يتفحص جثتها المسجاة،  
ليصنع من جسدها أشياء رائعة؛  
شقها نصفين فانفتحت كما الصدفة،  
ثم نزع شبكته عنها وقد تحولت إلى سماء وأرض.



اله السماء(أنو) يمنح شمس الحياة الى البشر

بعد ذلك يعمد مردوخ إلى خلق هينات ومظاهر الطبيعة من جسد تيامة القتيلة، فمن لعابها صنع الضباب والغيوم المحملة بالمطر، ومن رأسها صنع التلال، ومن ثدييها الجبال، وفجر من أعماقها المياه فاندفع من عينيها نهراً دجلة والفرات. ومن جزئها العلوي صنع النجوم والسيارات، قسّم الوقت فرسم خط السموت وحدود السنة التي قسمها إلى أشهر وأيام. أمر القمر بالسطوع وأوكله بالليل وبشهور السنة، وخلق الشمس التي تحدد الأيام. بعد ذلك أنبت من الأرض الزرع والشجر، ولم يبق سوى خلق الإنسان. وكما كان الأمر في الأسطورة السومرية القديمة، فقد كان لا بد من التضحية بأحد الآلهة ليُصنع من دمه الإنسان. وهنا يؤتى إليه بالآله كينغو زوج تيامة، والمتهم بتحريضها على شن الحرب، فقطعت شرايين دمانه، ومن دمانه قام إيا بخلق البشر الذين أسكنهم مردوخ مدينة بابل التي رفع بنيانها أمهر الحرفيين الإلهيين، فأوكل البشر بالعمل وحرر الآلهة من عبئه. بعد الانتهاء من كل ذلك اجتمع كل الآلهة في معبد مردوخ الذي بنوه في بابل واحتفلوا بانتهاء أعمال الخلق والتكوين، وأعلنوا لمردوخ خمسين اسماً مقدساً، يشف كل واحد منها عن صفة من صفاته أو فاعلية من فاعلياته التي تظال الأرض والسماء.

## المراجع:

- 1- .New York, 1961 ,S.N. Kramer Surerian Mythology, Harper and Row
- 2- .Chicago, 1970 ,Alexander Heidel, the Babylonian Genesis, Phoenix
- 3- Ancient Near ,E.A. Speseir, Akkadian Myths and Epics, in: J. Pritchard  
.Eastern Texts, New Jersey, 1969
- 4- .Mesopotamia, Oxford, 1989 Stephanie Dalley, Myths from

## قراءة عامة في الاساطير العراقية

منى كريم



عشتار المهيمنة أمامها تموز ومعه الوعول رمز الفحولة  
(تموز يولد في نيسان أول الربيع وبرجه هو الحمل أو الوعل) ..

في فترة السلالة السومرية تعددت الآلهة لدرجة أن أصبح لكل شيء إله ولكل ولاية آلهة. فمثلا هنالك إلهة الأرض والانوثة (انيني العذراء), إله الشفع (نكرساج), إله الفيضانات (تنجرسو), إله الزرع والذكورة (تموز أو أبو), إله القمر (سين), ... وكانوا يعتقدون أن السماء ممتلئة بالملائكة والأرواح والشياطين, كما أنهم كانوا يتقربون من المعابد الممتلئة بالآلهة عن طريق الأزواج والطعام والمال.

وتصف إحدى الأساطير السومرية كيف علمت آلهة الحكمة آداب الحكمة لأريدو جميع العلوم, ولم تخف عنه من أسرارها إلا سرا واحدا - هو سر الحياة الأبدية التي لا تنتهي بالموت. وتقول أسطورة أخرى أن الآلهة خلقت الإنسان منعما سعيدا, لكنه أذنب واركب الخطايا بإرادته الحرة, فأرسل عليه طوفان عظيم عقابا له على فعله, فأهلك الناس كافة ولم ينج منه إلا رجل واحد هو تجتوج الحانك, وإن تجتوج هذا خسر الحياة الخالدة لأنه أكل فاكهة شجرة محرمة.

أما قناعة البشر (أبناء أرض سومر) بالأسطورة الإلهية فقد كانوا بكامل الإيمان بها ودون أي احتجاج, ولكن عندما زاد الأمر بالنسبة للكهنة الذين يتحدثون باسم الآلهة فيقومون بطلب المزيد من المال والطعام... ثار بعض الأشخاص مثل أورو كاجينا ولوثر من بعده, فأخذوا ينددون بنهمهم وجشعهم, ويتهمونهم بالرشوة في توزيع العدالة, وبأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزون بها الزراع والصيادين ثمرة كدهم..

وهذا النص التالي دعاء تضرع به الملك جوديا للآلهة (بو) و يقول فيه:

ملكتي, أيتها الأم التي شيدت لكش.. إن الذين تلحظينهم بعينيك ينالون العزة والسلطان, والعابد الذي تنظرين إليه تطول حياته, أنا ليس لي أم - فأنت أُمي, وليس لي أب - فأنت أبي... إن عندك علم الخير, أنت التي وهبتي أنفاس الحياة, وسأقيم في كنفك أعظمك وأمجذك, وأحتمي بحماك يا أماه.



## أسطورة الخلق العراقية زمن سومر

إن أسطورة الخلق هي مثال جيد على الخيال الأسطوري السومري وواحدة من أطول القصائد القصصية السومرية الموجودة. إذ يتكون النص من 466 سطرا حفظ منها 375 سطرا بشكل كامل أو جزئي. يبدأ الشاعر بترتيلة يحمدها فيها الإله انكي باعتباره الإله الذي يراقب الكون والموكل بأمور الخصب وتكاثر الأغنام والماشية. ثم تلي ذلك أنشودة في تمجيد الذات قيلت على لسان انكي نفسه توضح علاقته بالآلهة العظيمة الأخرى في سومر مثل أنو وإنليل ومنتو. تتبعها أنشودة أخرى في تمجيد الذات أيضا يمتدح فيها انكي قدرة كلمته على نشر أسباب الخير والرخاء في البلاد ويشيد فيها أيضا بعظمة معبده المسمى (ابزو) ثم يصف رحلته الممتعة في أهوار سومر في قاربه (ماركور) الذي أسماه (وعل ابزو)، وهي رحلة نتج عنها أن قامت بلدان مكان (عمان) ودلمون (البحرين) وملوخوا (الهند) بإرسال السفن المحملة بالبضائع للإله السومري أنليل في نفر. وبعد ثغرة في النص نجد الإله انكي في قاربه مرة أخرى وهو يقوم بنشر أسباب الخير في الكون (وبتقرير المصائر) للبلدان ابتداء وقبل كل شيء ببلاد سومر فرفع من قدرها باعتبارها أرضا مختارة مقدسة ذات نواميس إلهية لا تمس وهي بلاد اتخذ الآلهة مساكن فيها. ثم بارك انكي أسرابها وقطعانها ومعابدها ومزاراتها. وبعد أن ينتهي من سومر ينتقل الإله انكي إلى مدينة أور فيسبغ عليها نعمه وخيراته ثم يتوجه إلى الجنوب نحو ملوخوا ودلمون ويفعل الشيء نفسه من أجلها. لكنه على النقيض من ذلك ينزل لبلاد سومر. أما في الغرب وهي المنطقة التي عرفها السومريون بأسم (مارتو) فيقدم الإله انكي إلى سكانها البدو هدية مناسبة هي الماشية.

بعد أن فرغ انكي من تقرير المصائر لسومر والبلدان المجاورة لها ينصرف إلى انجاز سلسلة من الأعمال الحيوية للأرض وخصوبتها وقدرتها على الانتاج. فملأ النهرين العظيمين دجلة والفرات بالمياه العذبة وأوكل مهمة الإشراف عليها إلى الإله ENBILULU و ملأ الأهوار بالأسماك والبردي وعين عليها إلها قال عنه الشاعر السومري، إنه (كان يحب السمك). ثم اتجه انكي بعد ذلك إلى البحر حيث أقام له معبدا هناك أسماه (ابسو أو ابزو) (بمعنى مياه العمق). ونصب الإلهة نانشة مشرفة عليه. وأخيرا دعا الإله انكي المطر لينهمر على الأرض وأوكل مهمة الإشراف عليه وتنظيمه إلى أشكور إله العواصف. ثم تذكر الأسطورة أن الإله انكي توجه بعد ذلك لتفقد احتياجات الأرض فأولى عناية خاصة بالمحراث والفدان والحقل الممهّد المنظم ويخلق الحبوب والخضروات على اختلاف أنواعها وأصنافها وأنه نصب الإله اشكان مشرفا عليها. ثم أوجد المعول والآجر وجعل الإله ف مشرفا عليهما. وأخيرا فإنه أرسى الأسس وصف الآجر وبنى البيت وجعله تحت إشراف إله البناء. ثم توجه الإله انكي إلى السهول العالية فغطاها بالنباتات وضاعف ماشيتها ونصب الإله سموكان مشرفا عليها. ووضع مرابط الغنم وحظائرها وأمدها بالسمن واللبن وأقام عليها الإله دموزي. ثم قام بعد ذلك بتحديد حدود المدن والبلدان بأحجار خاصة مميزة وعهد مهمة تنظيمها إلى الشمس أوتو. وأخيرا فإنه جعل فن الحياكة من نصيب المرأة ونصب إلهة النسيج صششخص مسؤولة عن تلك الحرفة.



الوعل المقدس، رمز (تموز) إله الخصوبة والذكورة..

## الأسطورة العراقية زمن بابل

إن الحضارة البابلية هي أكثر الحضارات الزاخرة بالأساطير في نظري وخاصة تلك الأساطير التي تتعلق بالآلهة بابل التي يبلغ عددها 65.500 إله!! كما أن هذه الآلهة في الغالب ما تكون إمتدادا لآلهة السومريين, لذلك أختارت الآلهة عشتار نموذجا للآله الأسطورة:

### عشتار (الآلهة):

لأن عشتار - ولها مسميات أخرى كعشتروت اليهود وإستارثي وافرديتي اليونان وفينوس سومر وإيزيس مصر , فكل مسمى يرمز لعشتار بالنسبة لأمة من الأمم - أكثر الإلهات ذكرا وتأثيرا فأني سأذكرها كنموذج الآلهة المكسورة (كإمرأة). عشتار إله للخصب والحرب والجمال والإزدهار والحب والربيع والرحمة والأمومة وإلهة العاهرات والأمهات, وهي العذراء المقدسة والأم العذراء. لقد عرضت عشتار بكل عظمتها الزواج على جلجامش, لكنه رفض بحجة أنه لا يثق بها, أليست هي التي أغوت أسدا , ثم قتلتها? وقصة عشتار وتموز - أو كما تقول الأسطورة السومرية فينوس وأدونيس - حيث تقول الحكاية أن تموز وهو ابن الإله العظيم (إي) كان يرعى غنما تحت الشجرة العظيمة إريد (التي تغطي الأرض كلها بظلها) وبينما هو يرعاها إذ شغفت بحبه عشتار وأختارته زوجا لها في شبابه , ولكن خنزيرا برياً قتل تموز فهوى تموز ككل الموتى لل- (أرالو) (الجحيم) وحيث كان الجحيم تحت حكم إرشكجال (أخت عشتار) التي تغار منها. فتحنن عشتار ثم تعترم الذهاب للجحيم لتعيد الحياة لتموز, وذلك بغسل جروحه في مياه إحدى العيون الشافية.

وعندما تقف عند باب الجحيم تطلب الدخول, وكما هو القرار القديم الذي ينص بأن لا أحد يدخل الجحيم إلا العراة, قامت عشتار بخلع شيء مما تلبسه كلما دخلت من بوابة, ولكن عندما رأتها إرشكجال غضبت وأمرت نمتار بحبس عشتار وتسليط كل الأمراض عليها. وبينما عشتار في الجحيم أسيرة يتوقف كل شيء على الأرض فتحس الآلهة بهذا الأمر, فتأمر إرشكجال بإطلاق سراح عشتار فتخضع للأمر لكن عشتار ترفض الخروج دون حبيبها تموز, فيجانب طلبها, وتعود عشتار للأرض فتعود الأرض إلى ما كانت عليه.

### قصة الخلق العراقية زمن بابل

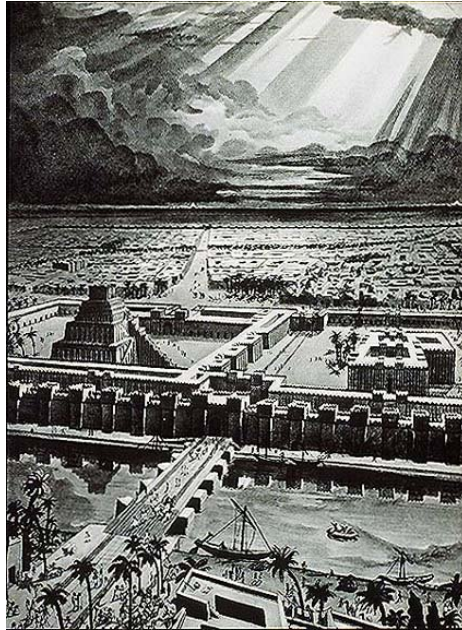
تعتبر أسطورة الخليقة البابلية المعروفة بفاتحتها اينوما - إيليش (عندما في العلا) من أهم المؤلفات الشعرية التي عرضت تفصيلا لمسألة خلق الكون حسب المعتقدات الدينية لسكان وادي الرافدين. وقد اصطلح المعنيون بالدراسات المسمارية على تسميتها بأسماء أخرى مشابهة تقريبا مثل (قصة الخليقة) و (ملحمة الخليقة) و (ألواح الخليقة السبعة).

كتبت أسطورة الخليقة البابلية شعرا على سبعة ألواح و يروي مجموع أبياتها 900 بيت (سطر) دون احتساب الأجزاء المفقودة من اللوح الخامس. ولذلك يمكن القول أن القصيدة بشكلها الكامل كانت تناهز ألف بيت شعر. ونظرا لأهميتها من الوجهة الدينية, باعتبارها تتضمن الأفكار والمعتقدات الأساسية الخاصة بخلق الكون والإنسان في بلاد وادي الرافدين. فقد كانت القصيدة تنشد, وربما يجري تمثيل أحداثها أيضا , في عيد رأس السنة البابلية وهو عيد اكيثو. وبالرغم من هذه الأهمية التي تمثلها أسطورة الخليقة البابلية , إلا أنها كقصيدة لا ترقى في أسلوبها وفي صورها إلى مستوى قصائد بابلية أخرى نخص بالذكر منها ملحمة جلجامش. ولا يعرف على وجه اليقين الزمن الذي ألفت فيه هذه القصيدة لأول مرة, ولكن المتفق عليه بين الباحثين أن آخر جمع وتأليف لها حدث في أواخر العصر البابلي (1500 - 1400 ق. م, أي ربما في العصر الكوشي) علما بأن القصيدة تستمد كثيرا من الآلهة وخلق الكون والإنسان من أطول سومرية تعود إلى زمن أقدم من هذا التاريخ بعدة قرون. ويشخص بدور البطل في أسطورة الخليقة البابلية الإله مردوخ كبير الآلهة بابل, أما الآشوريون فأنهم جعلوا من إلههم القومي آشور بطلا لهذه الأسطورة.

تقول الأسطورة أن الكونية بدأت من أبسو (مياه العمق, العذبة) وزوجته تيامة (المياه المالحة - البحر) ونتيجة الامتزاج بينهما خرج الكثير من الآلهة كلخمو ولخامو ثم انصار وكيشار. إلى أن بلغوا 500,56 إله. ملؤوا الكون لدرجة أن جدهم أبيسو لم يستطع أن يشعر من ضجتهم بالنوم والراحة. فقام الجد وفقا لخطة ممو وزيره بالعزم على قتلهم, وعندما علم أحفاد الآلهة بذلك استشاروا ايا (انكى السومري) إله المعرفة



والحكمة, فقال لهم: شلوا حركة أبسو ثم أقتلوه ففعلوا ما قاله وارتاحوا, وعندما علمت تيامة بمقتل زوجها قررت الانتقام له فحضرت جيشا كبيرا برئاسة كنكو الذي عينته قائدا للجيش وزوجا لها. ولما وصل الأمر للآلهة الفتية ارتعدوا مما سمعوه عن قوة الجيش , فهم أيا باستشارة الجد انشار الذي نصحه بمواجهة تيامة, لكنه جبن, فطلب من إله السماء أنو فعل ذلك, لكنه أيضا فشل رغم عظمتة. حينها اجتمع الآلهة الفتية واختاروا مردوخ أقوى وأعظم الآلهة كي يقوم بالمهمة وأعطوه القوة السحرية التي تحطم الكواكب , ثم هموا لمحاربة تيامة وقتلها بل شطرها لنصفين صنع منهما الأرض والسماء وقتل كنكو الذي خلق الإنسان من دمه.



### أسطورة قصة الطوفان العراقية زمن بابل

تقول أسطورة الطوفان البابلية أن الآلهة كانت مثل البشر تعمل وتعاني شقاء كبيرا , ذات يوم تعب الآلهة كثيرا وقد قرروا الذهاب للبطل , الحاجب القديم إنليل في معبده وإعلان الحرب عليه , ولما رأى حارس المعبد ذلك أيقظ سيده إنليل , فتساءل إنليل عن سبب الحضور وأرسل الحارس ليسأل الآلهة عن سبب إعلانهم الحرب عليه فأجابوه أنهم تعبوا ويريدون أن يأتوا ببشر يحلون مكانهم ويوفرون لهم الراحة بدل من المشقة فاجتمع إنليل والآلهة وآلهات النسل (الوالدات) حيث قرروا خلق الإنسان من الطين وذلك من خلال ذبح آلهة ومزج لحمها ودمها بالطين ولتكن صوت الطبل - روح الإله - روح للإنسان. بعد سنين انزعج الإله من ضجيج البشر فأمر بقطع المؤن عن الناس وبحبس المطر ولتعصف الرياح الأرض وليقمع الإنسان. وكان هناك إلهين عظيمين واحد منهم هو الذي أمر بالطوفان الذي سينزل على البشر والإله الآخر الذي نبه الفقير النجار فقال له ابني سفينة لك ولأهلك لتبقيك على قيد الحياة ففعل النجار ما أمره الإله , وهكذا استطاع الإنسان أن يبقى على قيد الحياة بحماية الإله.



في يوم الربيع تتمكن عشتار (الهة الانوثة) من تخليص تموز (اله الذكوره) من العالم السفلي، ليعود الى الحياة ويخصب عشتار ويجلب الى الارض الربيع والخضرة

كان الإعتقاد السائد أن سبب إنبعاث الطبيعة في نيسان(الذي يصادف حالياً يوم 21 آذار، وهو يوم المنقلب الربيعي، وتبناه الأيرانيون بأسم عيد نيروز). هو يوم خروج (تموز،اله الخصب والذكورة) إلى الأرض بعد صراعه مع الآلهة الشريرة ثم انتصاره عليها، وزواجه من الإلهة (عشتار،آلهة الانوثة والخصب). ان انبعاث الحياة المتمثلة ببداية الربيع، وقد سُمّي هذا العيد بالسومرية " خجيتي زيغوركو" (الحجة الصغيرة) أي (العيد الصغير).. أما بالأكديّة(البابلية الآشورية) فكان يسمّى "ريش- شاتين" أي رأس السنة... وعلمياً يعتبر اليوم شهر نيسان البداية الحقيقية لدورة الحياة الطبيعية على الأرض كونه في نيسان تبدأ الطبيعة بالتجدد والإنبعاث، وليس في كانون الثاني.

وفي المدن العراقية (بابل، نينوى وباقي المدن...)، اعتبرت ملحمة "إينوما إيليش"(عندما في العُلى)، التلاوة الطقسية المُجسّدة لخلود سيّد الآلهة، وخلق الحياة. وكانت تُتلى في معبد الإله مردوخ (إيساغيل = البيت الشامخ) في اليوم الرابع من "أكيتو" التي كانت تدوم طوال إثني عشر يوماً بعد ليلة إستواء الليل بالنهار.

### البرنامج الاحتفالي

كانت احتفالات رأس السنة العراقية (البابلية - الآشورية) (أكيتو - حجتو) تقام بدءاً من أوّل ليلة الإعتدال الربيعي (تساوي الليل مع النهار)، وتتخللها الصلوات والتمثيلات الدينية الضخمة على شكل مهرجانات سنوية يشارك فيها الشعب من كافة الطبقات، فيما يستعمل الكهنة نماذج تمثل الآلهة، كمجرّد وسيلة تعبير ليس إلا، وكانت احتفالات أكيتو تجري وفقاً للبرنامج التالي:

1- من اليوم الأوّل إلى الثالث: تطهير النفوس؛ في هذه الفترة يقوم كاهن الإيساغيل(بيت مردوخ) بتلاوة طقوس حزينة، بمشاركة كهنة المعبد، ويرد عليهم المشاركون من الشعب بترانيم باكية تعبّر عن خوف الإنسان من المجهول، لذلك يتّجه الكاهن الاعلى كلّ صباح إلى الإيساغيل لطلب الغفران من مردوخ، راجياً إياه حماية بابل، مدينته المقدّسة وسُمّيت هذه الصلاة: سرّ إيساغيل.

2- اليوم الرابع: في الصباح، يسير كلّ شيء كما في الأيام الثلاثة الأولى، وفي المساء كانت تُتلى ملحمة الخلق "إينوما إيليش" (عندما في العُلى) بالكامل، لتحكي عن بدء الكون وتكوّن الفصول وإتحاد قوّة كافة الآلهة في الإله مردوخ بعد انتصاره على التّنين تيامات وتعتبر تلاوة هذه الملحمة، تحضيراً لطقوس خضوع ملك بابل أمام مردوخ، في اليوم الخامس من أكيتو.

3- اليوم الخامس: يوم الخضوع لملك بابل أمام الإله مردوخ، حيث سيدخل الملك الإيساغيليا برفقة الكهنة، ويتجهون نحو المذبح، فيدنو الكاهن الأعلى للإيساغيليا من الملك آخذاً دور الإله مردوخ، ويبدأ بتجريدته من حلّيه وصولجانه وحلّيه تاجه، ثم يصفع الملك بقوة حيث يركع الأخير ويبدأ بتلاوة الغفران وإعلان خضوعه لمردوخ قائلاً: " أنا لم أخطيء يا سيّد الكون، ولم أهمل أبداً جبروتك السماوي..." ويردّ عليه الكاهن بدور مردوخ: " لا تخف ممّا يقوله مردوخ، فسوف يسمع صلواتك ويوسّع سلطانك، ويزيد عظمة مُلكك..."

وبعدها يقف الملك فيعيد إليه الكاهن حلّيه وتاجه ثم يصفعه مرّة أخرى بقوة على أمل أن يذرف الملك دموعه، لأنّ ذلك سيعبّر عن المزيد من الخشوع لمردوخ والإجلال لسلطانه. وعندما يقوم الكاهن بإعادة التاج إلى الملك، إنّما يعني ذلك تجديد السلطة من الإله مردوخ، وبذلك سيعتبر نيسان تجديداً ليس للطبيعة وللحياة فحسب، بل لنظام الدولة كذلك. وهكذا ستجعل هذه المراسيم أعظم وأرهب الشخصيات في ذلك الزمان (ملوك بابل ونيينوى)، ترضخ للإله الأعظم، وتعيش لحظة تواضع مع عامّة الشعب من كافة الطبقات، مما سيؤدّي إلى تضرّعاتٍ يشارك بها الشعب بأكمله، ليثبت إيمانه أمام جبروت الله... وبعد نزوله إلى بيته الأرضي (بابل)، وتجديده لسلطان ملكها، يبيت الإله مردوخ في "جبل العالم السفلي"، وهو برجٌ مؤلف من 7 طوابق، عُرف في التوراة ببرج بابل، وفيه بيت مردوخ، أو "إيساغيليا" (كما سيسكن الله في "جبل" حسب التوراة، مزامير: 74: 2). ففي هذا اليوم من تقليد آكيتو يكون الإله مردوخ قد دخل بيته وبفاجأ بالآلهة التي سيتعارك معها ويؤسّر في الجبل، بانتظار وصول ابنه الإله نابو الذي سينقذه من "العدم" ويُعيد مجده.

4- اليوم السادس: وصول الإله نابو، برفقة أعوانه من الآلهة الشجعان القادمون من نيبور وأوروك وكيش وأريدو (مدن في جنوب العراق الحالي)، بواسطة المراكب، (كانت الآلهة المرافقة لنابو متمثلة بتمثال رمزية توضع في مراكب صُنعت خصيصاً لهذه الذكرى)... وهنا يبدأ الشعب بالسير بأعداد هائلة وراء الملك باتجاه الإيساغيليا حيث مردوخ الأسير، مرنمين أغنية مطلعها: "هوذا القادم من بعيد ليعيد المجد إلى أبينا الأسير".

5- اليوم السابع: نابو يحرّر الإله مردوخ في اليوم الثالث من الأسر، حيث كانت الآلهة الشريرة قد أغلقت باباً كبيراً وراء مردوخ بعيد دخوله بيته، وتعارك مردوخ معها، لحين مجيء نابو الذي سيكسر الباب الصلب، وتبدأ معركة بين الفريقين ينتهي بها الأمر إلى انتصار الإله نابو وتحرير مردوخ.

6- اليوم الثامن: بعد تحرير الإله مردوخ، تجمّع تماثيل الآلهة، في غرفة الأقدار (أوبشو أو كينا)، حيث من المتوقع أن تجتمع الآلهة لتقرّر مصير مردوخ، وينتهي الأمر بتجميع قوى جميع هذه الآلهة لتوهّب مجدداً إلى الإله مردوخ وهنا يأتي الملك راجياً كلا من الآلهة للسير مع مردوخ إكراماً له، وهذا التقليد يدلّ على خضوع كافة الآلهة إلى سيدها مردوخ، الوحيد في مرتبته.

7 - اليوم التاسع: يسير موكب النصر إلى "بيت آكيتي"، وهو المكان الذي يُحتفل به بانتصار مردوخ - في بدء الخليقة - على التنتين تيامات (آلهة المياه السفلى) ويقع "بيت آكيتي" (يسميه آشوريّو نينوى "بيت إكربي" إي "بيت الصلاة" بالآشورية القديمة) على بعد حوالي 200 متر خارج سور المدينة، حيث الأشجار الغريبة المزينة، والمسقية بعناية فائقة لتليق بمستوى الإله الذي يُعتبر واهب الحياة في الطبيعة ويعبّر هذا التقليد (موكب النصر) عن مشاركة عامّة الشعب بالفرحة بتجدد سلطان مردوخ (آشور)، وتدمير قوى الشر التي كادت أن تتحكّم بالحياة منذ البدء.

8- اليوم العاشر: بعد الوصول إلى "بيت آكيتي"، يبدأ الإله مردوخ بالاحتفال مع آلهة العالمين العلوي والسفلي (توضع تماثيل الآلهة حول طاولة كبيرة، بشبه وليمة) ويعود إلى قلب المدينة للاحتفال بزواجه من الآلهة "عشتار" في المساء، حيث تتحد الأرض مع السماء. وتطابقاً مع زواج الآلهة، يطبّق هذا الزواج على الأرض كذلك، فيقوم الملك بتمثيل هذا الزواج مع كبرى كاهنات الإيساغيليا حيث يجلسان سوياً على العرش أمام الشعب ويبدآن بتبادل الأشعار الخاصة بهذه المناسبة، على أنّ هذا الحب هو الذي سيولد الحياة في الربيع.

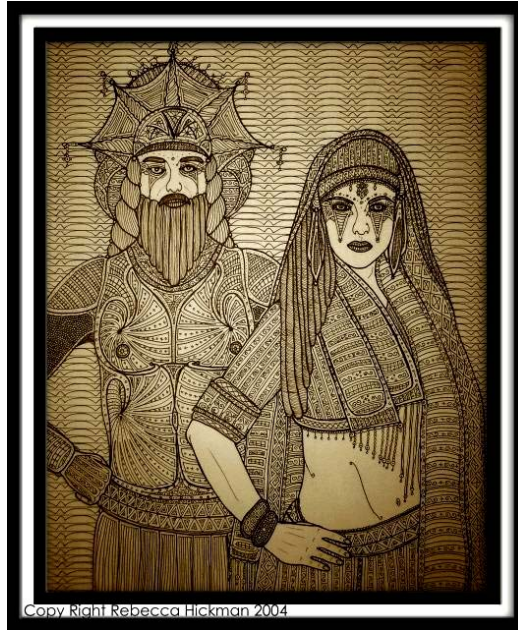


- 9- اليوم الحادي عشر: في هذا اليوم تعود الآلهة برفقة سيدها مردوخ (آشور) لتجتمع في بيت الأقدار (أوبشو أوكينا) الذي اجتمعت فيه في اليوم الثامن للمرة الأولى، إنما هذه المرة تجتمع لتقرير مصير الشعب، شعب مردوخ (بلاد النهرين). وفي الفلسفة القديمة في بلاد النهرين يعتبر الخلق بشكل عام، تعهداً بين الأرض والسماء على أن يخدم الإنسان الآلهة حتى مماته، وبالتالي لا تكمل سعادة الآلهة إلا بسعادة الإنسان الذي يخدمها لذا سيكون مصير الإنسان السعادة ولكن شرط أن يخدم الآلهة... إذا سيقرّر مردوخ مع الآلهة عهداً جديداً لبابل ويصعد عائداً إلى بيته العلوي (السماء).
- 10- اليوم الثاني عشر: وهو اليوم الأخير من أكيثو، حيث تعود الآلهة إلى معبد سيدها مردوخ، (تعاد تماثيل الآلهة إلى المعبد) وتعود الحياة اليومية إلى بابل ونيوى... وباقي المدن العراقية.

### المراجع:

- "بابل والكتاب المقدس"، فريديريك ديلليتس – ترجمة إيرينا داوود، دمشق 1987
- "The Histories", By Herodotus
- "They Wrote On Clay", By Edward Chierra, University Of Chicago - 1938
- "Unger's Bible Hnadbook", By Merril F.Unger, Chicago – 1967
- "Everyday Life in Babylon and Nineveh", By G.Conteneau
- "Ancient Near East Texts Relating the Old Testament", By James Prichard





تموز وعشتار. ان العراقيين أول من أوجد فكرة المخلص المنتظر، حيث ظلوا ينتظرون مطلع كل ربيع عودة الاله (تموز) من عالم الموت، ليخصب عشتار ويجلب لهم الربيع والحياة في سومر نشأت فكرة المخلص وتطورت من جيل الى جيل لتصبح المهدي المنتظر.

يقول البعض أن فكرة المهدي المنتظر لم تكن مبنية على عقيدة ولا أدلة علمية، إنما إختلقها بعض الرجال المنتفعين وتسربت إلى الأجيال اللاحقة، وهذه النظرية لا علاقة لها بالإسلام أو التشيع إنما نشأت لاحقا وبعد وفاة الحسن العسكري وهناك مؤشرات إلى دور السلطات العباسية في إختلاق هذه الأسطورة لتخدير الشيعة. وسأحاول هنا اثبات أن هذا القول مغلوط كليا، فعقيدة المهدي قائمة منذ التاريخ الأول. وأول من نادى بها وثبتها هم السومريون ومهديهم المخلص هو إيليا ثم من بعده حفيده الإله دو مو سين (تموز) وهو أيضا مخلص العراقيين (الآشوريين والبابليين والأكديين)، سوى أنه يظهر مرة بإسم إيل وأخرى بإسم بعل، الخ. والسينيون (اليزيديون) وهم الديانة الباقية من ذلك الزمن السومري السحيق لازالوا يؤمنون بهذا المخلص ويتنظروه وإن بإسم (خضر الياس). والمنداء (الصابئة) الديانة الثانية بالقدم بعد السينيين (وهي نشأت في منتصف الألف الثالثة ق. م) تؤمن بمهدي منتظر وهو السيد سيتيل (الإله سيت) وهو شيت ابن آدم وغالبا ما يرد إسمه بصفته العينية (عازيمون) التي تعني ابن الإله. ومخلص اليهود حسب آخر سفر في العهد القديم (سفر ملاخي) هو إيليا، الذي ينتظروه إلى اليوم. ومخلص المسيحيين هو المسيح ذاته، وهو عينه مخلص الإسلام السني (حيث ينتظرون ظهوره بصحبة الأعور الدجال)، بينما مخلص الإسلام الشيعي هو الإمام الثاني عشر الحسن العسكري.

ومن هنا، فعقيدة المهدي المخلص هي عقيدة لازمت التدين العراقي منذ بواكيره. أو منذ سبعة آلاف عام على الأقل. وهي إحدى المسلمات الرئيسية التي يمثل نقضها نقض الإيمان ذاته، لكل الديانات السماوية تقريبا. وللمتابع حرية الخيار أما أن يصدق مسلمات هذه الديانات وإجماعها على المهدي المخلص، أو يكذبها.

المهدي رافق المخيلة العراقية منذ وعيها الأول. وقد ظهر بأسماء عديدة منها: يس، ياسين، سث، شيت، زوس، دوموزي، عجل، سنبل، هلال، عازيمون، أمانونيل، مار جي يس (جرجيس)، مقة، خضر، إله الظلام.. الخ. أما متى نحتاجه، أو متى نتوقع ظهوره، فهذا برسم الغيب. لكننا، ومن مراجعة التاريخ عموما نشخص حالتين، يبرز فيهما الحديث عن المهدي أو لنقلها بصورة أعم المبعوث المخلص.

اللحظة الأولى: هي لحظة ولادة منظور فلسفي ومن ثم حضاري جديد. وفي هذا المساق يقع الرسول محمد والمسيح. سوى أن كفة المسيح المخلصية تعلو على كفته الرسالية، لسبب واحد، وهو أنه قتل (ألغى من

الوجود المحسوس) ضحية رسالته. ونحن السوريون وخصوصا شعب شنعار، عادة ما ننتصر إلى الضحية الطبية أكثر منا للقائد الطيب. فرسالة محمد أكثر تفصيلا في محتواها الاجتماعي. لكن ولكون الرسول نجح، فلا مجال للحن عليه، أو الرثاء لحالته كما حدث مع المسيح.

اللحظة الثانية: هي لحظة إنتكاس الحضارة. وهنا فلا بد ويبرز من يحاول إعادتها إلى سابق مجدها. وإنتكاس الحضارة ليس بالأمر الهين. لذا، فمن يأخذ على عاتقه محاولة إنهاضها فقد وضع روحه على أكفه. وهو قد ينجح ويبقى على قيد الحياة؛ فيكون وضعه كوضع الرسول محمد (ص). وقد يقتل دون مسعاه، فسيخلد كمخلص من نوع المسيح حتى وإن نجح مسعاه على يد تابعة بعد حين. وعلى خلفية هاتين اللحظتين، ظهر مخلصو العراق: نابونيد وحزقيال وجوديا وسرجون العظيم، الخ. لكن تاريخ العراق تحدث عن مخلصين تميزا بقصة فائقة الغرابة. وقصتهما أما لا علاقة لها بإنهيار الحضارة أو قيام حضارة جديدة. أو لها علاقة، لكنها تحدثت عن معايير حضارية سابقة لم نفهمها كلياً بعد. وهذين المخلصين هما الإلهين السومريين (إيليا) و (سين). والرمز الكوني لكلا هذين الإلهين هو كوكب القمر. والإله إيليا ورد أول الأمر في الرقيمات الطينية باسم (لو) الذي يعني: الإله الذي ذبح، الإنسان الأول، الضعيف. ثم تسهل أكديا لينطق على شكل: (وي لاه) والذي يذكر المنظور الأكدي أن ذبح فخلط دمه ولحمه مع الطين ليصنع منه الإنسان الحالي (متون سومر ص 86 و 160 وغيره من كتب التراث) ثم تسهل لفظياً أيضاً فأصبح ينطق بشكل (نيل يا) أو (إيليا) و(عليان) و (امانو نيل). و(امانو نيل) هو بالمناسبة إسم السيد المسيح ويعني (استجب يا إيل) بينما إيليا هو الإسم الصحيح للإمام علي (ع).

وقد أسر الإله إيليا في منطقة الآسو (الأهوار) بعد حرب مع جيوش الأم تعامة التي أحدثت فتنة بين الآلهة، ثم أقتيد إلى بابل وذبح بقرار من الآلهة، ليصنع منه الإنسان الذي سيتحمل عن الآلة عبء العمل والعناء. وهكذا ذبح إيليا ونتيجة إستقامت حياة الآلهة حيث من دمه صنع الإنسان الذي خلصها من العمل والكدر. لكن الآلهة سرعان ما ندمت على قتله، لذا بكته كثيراً وتأسفت معتبرة إياه ذهاب مغدورا. هل كانت قصة (وي لاه) حقيقية وفاجعية بهذا الشكل؟ أم هي حادثة عابرة تفخمت مع الزمن؟ أو هي حادثة من الخيال؟ كل هذا لا يهم، أزاء قوة حبكها وشدة إستثارته لأحزان شنعار وآرام على مر العصور. حتى لقد صار إسم الإله (وي لاه!) صرخة للتوجع والوجد والحزن، ولازمة تبدأ بها المناعي والأغاني على السواء في شنعار وآرام.

ومعلوم أن الحزن هو أحد المكانين المجهولة التي لا بد للنفس البشرية أن تستنهضها دورياً لتستقيم طبيعتها. وربما لهذا السبب نحن بحاجة أحيانا إلى ما يثير أحزاننا في اليقظة، وإلا فسنستدع الحزن في الحلم لنبكي. ونحن نستطرد الأغاني الحزينة أكثر من الراقصة. وربما كان الآلهة السورية على طبيعة مخلوقهم. أي هم مثلنا وأيضاً بحاجة إلى الحزن. لذا جعلوا إيليا رمزا لهذا الحزن، أو إنهم حقا إكتشفوا مظلوميته، لذا بكوه وفي كل مرة يكون يتصارخون بأحد أسمائه (وي لاه، يا ويل، يا نيل) وكأنهم يطلبون عفوه أو يستنجدوه أن يرفع عنهم عذاب الشعور بالذنب تجاهه. أو كأنهم يرجوه أن يعود إلى الحياة لينصروه، أو يعذرهم، أو ينقذهم (يخلصهم) من عذاب النفس الذي يعانوه جراء جريرتهم بحقه. والعزيز المظلوم لا ينسى. وذو الجريرة الظالم الشاعر بجريرته، يتمنى لو عاد المظلوم إلى الحياة ثانية لينصفه أو يفديه ولو بنفسه. ويتراكم الزمن، فيتحول تمنى عودة المظلوم إلى رجاء تتوق النفس الظالمة للخلاص به. فيندب المظلوم ليظهر ويأتي معه الخلاص.

لذا شبه العراقيون إيليا بنسغ النبات الذي يسري في العروق صاعداً إلى الأوراق، كما شبّهوه أيضاً بحبة الحنطة عند بذارها حيث تخرج من الأرض ثم تنمو ثم تصفر وتموت ثم تبذر من جديد، أي الدورة ما بين العالم الأسفل المحجوب وعالم النمو المعلوم. وشبّهوه بالإله أبو إله النبات عموماً حيث تنبت وتموت وتنبت. وبالنشور الذي يذهب صباحاً إلى المرعى ويعود مساءً إلى مأواه، وبالدورة ما بين الأرض وما خلفها من المجهول وعالم السماء النير المعلوم، تلك الدورة التي يمثلها القمر وغيره من الكواكب. أي صار المظلوم المغدور علة غادره، ومخلصه من عذاب جريرته. وبالمحصلة النهائية صار للمخلوق إمكانية للخلاص.



الندبة تستمر، وتستمر، إنتظاراً لذلك العود والخلاص. فتنعقد أشكالها ومضامينها، حتى أصبحنا نرى هذه الندبة تظهر كإشارة لعذاب النفس ولأزمة للتوَجُّع (يا ويلي!) والشعر ومعينا على الشدائد بندبة الشنعاريون الجنوبيون بالكلمة (يا علي!). لكن الغريب في فاجعة الإله إيليا، أنها تتجدد بين الحين والآخر أما عينيا بأشخاص حقيقيين عاشوا في شنعار وماتوا لأجله، أو أسطورياً حين يستبد اليأس، ولا بد من الحزن فيستذكرون قصة إيليا ويبكون ويستغيثون، عسى ولعل الحال تتغير.

وحسب التراث العراقي الأسطوري فالشخص الثاني الذي جرى عليه ما جرى على إيليا، هو ابنه أو حفيده الإله سين أو كما تعودنا على تسميته: الإله تموز (دو مو سين) التي تعني الإله الإبن سين. وقد طغت فاجعة الإله سين على فاجعة إيليا. ولهذا بكاه الشنعاريون قرونا وقرونا، حتى أيام النبي حزقيال (القرن السادس ق. م) حين ذكر في الإصحاح الثامن من سفره، أن: (ووجدت نساءً يبكين على تموز). لكن التجسيد الأكبر في قصة الإله المخلص حدثت في القرن السابع الميلادي. وحين أقول تجسيد فهذا إيمان شخصي مني. وللقارئ الكريم أن يستخدم أي توصيف آخر. أو ليقول أنه ليس تجسيد وإنما حدث مصادفة.



**عراقيون يأمنون معبدهم (الزقورة) (رسم عالمي حديث)**

ففي العام 658م، جاء إلى كوثى (الكوفة) الإمام إيلي بن أبي طالب فغدرَ به وقتل. وقد لا أجزم بسبب هجره لموطنه مكة والمدينة وتوجهه إلى كوثى. هل هو حقاً إفتراض كثرة الناصر والمعين في العراق، وهو المعروف بالحصافة والفراسة وبما يكفي لمطالعة محيطه، أم إنه سار دون علمه يدفعه قدره، الذي هو قدر إيليل المخلص الأول. المهم إنه جاء إثر فتنة كبرى لم تكن المرأة بمعزل عنها. وبالمناسبة فأبو بكر إستهدف فتنة الردة وخلص الإسلام منها ونجح، بينما الإمام علي إستهدف الفتنة الكبرى لكن إستشهد. ونحن نخلد أبا بكر كقائد بينما الإمام علي كمخلص.

وفي هذا التجسيد أو التكرار نجد تطابق الإسمين الإله المخلص إيليا والإمام المخلص إيليا. ونجد أن الفتنة التي قتلت الأول جاءت من تعامة، والفتنة التي أودت بحياة الإمام إيليا سببتها العامة، التي قتلت الخليفة عثمان. وإيليا الإله وإيليا الإمام ليسا أبناء بابل، وإنما ساقهما قدرهما إليها. لكن هذا التجسيد أو التكرار، يبقى أقل حرفية من تجسيد فاجعة الإله المخلص سين في فاجعة الإمام الذي نشد الخلاص لأمتة، الحسين.

ولا مراعاة في الاختلاف بين معنى إسم إله سين ومعنى إسم الحسين، حيث الأول هو إسم القمر، بينما الثاني من الحسن والقمر مثال الحسن أيضا. لكن الصدفة جمعت بين اللفظين بحيث جعلت نطقهما يكاد يكون واحدا، خصوصا في لسان شنعار - مسرح فاجعتهما. فالتقارب بين (إله سين) و(الحسين) في لهجات شنعار هو كالتقارب بين الإسمين الأهواز والأحواز، حيث تتبادل الهاء والحاء النطق دائما. وسين هو ابن أو حفيد الإله إيليا. والحسين هو ابن الإمام إيليا. والإله سين هو أول من حمل هذا الإسم بين الآلهة الشنعارية، وفيما بعد تولدت أسماء من إضافة إسم أو صفة إلى إسمه. موسين، سينياء الخ. ولم يطلق إسم الحسين على أحد من العرب قبل ابن الإمام علي (ع). ومن أطلقه عليه هو شخص لا يشك أحد بنبوءته ألا وهو الرسول محمد (ص). فكان النبي ألهم بالإسم الغريب على جزيرة العرب وقتها، وأطلقه على حفيده، كمقدمة إخبارية لكون هذا الحفيد، هو النسخة الثانية (أو البشرية) من إله سين. وإله سين وهو سليل آلهة، لو شاء لإعتزل شؤون الدنيا، وجاءه المجد والغنى وهو في مقره. والحسين سليل إمامة ونبوة، لو شاء لإعتزل شؤون الدنيا والسياسة وأتاه المجد والغنى وهو في بيته.

وقد إختارت آلهة شنعار الإله سين وإستدعته لينقذ عشتار من ورطتها وهي في العالم الأسفل، فذهب ضحية ذلك الإنقاذ. والحسين إستدعاه ذات الشعب الشنعاري، لإنقاذ الأمة من بقية الفتنة، فراح ضحية رسالته. وقبل رحيله إلى مكان قتله رأى الإله سين حلما بأن الآلهة تدعوه أن يقدم إليها على عجل، وقص الحلم على أخته الإلهة كشتينا التي تكنى أحيانا بالإسم (بي ليلي) الذي يعني: الحزينة. والحسين أيضا وقبل رحيله إلى كربلاتو رأى حلما بأن جده رسول الله يناديه بالقول: (العجلة العجلة يا حسين!) فقص الحلم على أخته زينب، التي تلقب وإلى اليوم بالحزينة. ناهيك عن عدم غرابة الإسم ليلي عن الحسين حيث هو إسم إحدى زوجاته.

والحزينة أخت سين، فسرت الحلم وقالت له إنك مقتول، ومع ذلك شجعتة على الرحيل، لأنه قدره الذي لن يفلت منه. وزينب أيضا فسرت الحلم وقالت لأخيها إنك مقتول، ومع ذلك شجعتة على الرحيل إلى قدر أراده له الله.

وقد جاء الإله سين إلى بابل في شهر سين (تموز) وإعتقلته عفاريت الشر ومنعت عنه الأكل والشرب حتى مقتله بعد أيام. ومقتله كان في شهر سين (تموز) وفي يوم سين (الإثنين) وفي بابل. (ويوم الإثنين يعني يوم القمر ومنه جاء الإسم موندي). وهو المصير ذاته الذي لاقاه الحسين، الذي قتل ممنوعا من الماء والزاد وفي شهر تموز وفي يوم الإثنين، وفي كربلاتو التي يعني إسمها (ضاحية بابل الجنوبية) وعشتار حين أدركت خذلانها لسين وتوريطها له، بكت وصرخت نادبة: (ويلاه ويلاه! ويلي عليك يا ولدي وأخي سين! لقد إختلط دمك بالتراب وعفر وجهك الأرض، يا فتيات! مزقن جيوبكن وألطنن صدوركن، لقد قتل الفتى سين، يا فتى يا سين! يا فتى يا سين!) (فراس السواح لغز عشتار وغيره) وبقيت صرختها حتى زمن النبي حزقيال (ق 7 ق.م). وهي العبارات ذاتها نصا وروحا التي يرددوها الشنعاريون حتى اليوم ومنذ شعورهم بجريرة خذلانهم للحسين (ع).

وقد نعي إله سين لأكثر من أربعة آلاف عام، أو هو أكثر شخص نعي في تاريخ شنعار القديم. وها هو الحسين يعني منذ 1400 سنة، ولا زال.

وحين لا نجزم بشخصانية الإلهين إيليل وسين، فنحن أمام حالة ترافق التاريخ البشري وهي ظهور مخلصين حقيقيين بين الفينة والفينة. أو تكرار تجسيد حالة المخلص الإله إيليا على البشر. فمن يجزم بأن هذا التكرار إنتهى؟ ومن يجزم أن لا يأتي مخلص أيا كان، ليجسد شخصانية الإله إيليا ؟

وهذا التجسيد الشبه تام ما بين سين والحسين، هل هو مصادفة عابرة أم به سر نجهله؟! والتجسيد الشبه تام ما بين إيليا الإله وإيليا الإمام، تبعه، تجسيد أكثر كمالات بين الإله سين (ابن إيليا الإله) والحسين (ابن إيليا الإمام). ولم يبق على أن يكون التجسيد تاما كاملا كل الكمال، إلا أن يأتي شخص من مثل الحسين ولكن يمؤهل (اللاموت) أي إنه يحمل مؤهل التغلب على التلف العضوي. وحين يظهر شخص لم يمت، أو هو مات وسيعود يبعث، وله ذات الصفات التي في الحسين، عندها سيكون سين قد بعث من جديد. أما أن يكون هذا الشخص هو أحد أحفاد الحسين أو غيره، فهذا ما لا علاقة لنا به.





تموز اله الخصب والذكورة، وخلفه وعلين ونخلة، للتعبير عن امتلاكه للخصب والخضرة والحياة..

يعتبر موت وقيامته الإله (تموز) ((دموزي)) أحد الطقوس التراجيدية المهمة بسماته الاسطورية والطقوسية والفلسفية، فهو الخزين التراجيدي في روح انسان وادي الرافدين. ولحجم الاضطهاد والعذاب الذي تعرض له الإله ((دموزي) - (تموز)) وعلاقة حبيبته الآلهة (عينانا) - (عشتار) ودورها الملتبس بهذا الموت المأساوي أدى الى أن تمتلئ الميثولوجيا والآداب السومرية والبابلية بمناحات واساطير وملاحم وطقوس تعزية خاصة بمآسي آلهة الخصب الشهيرة هذه وغيابها عن الحياة، ومن ثم قيامتها من جديد، ويعتبر كل هذا حتى الآن من أرقى وأغنى ما كتب في ميثولوجيا شعوب وادي الرافدين.

ومن خلال هذه القصائد والاساطير والطقوس تكتفت معرفتنا عن إختطاف إله الذكورة والاختصاب (دموزي)، من قبل شياطين العالم الاسفل ونواح الهة (الانوثة) (عينانا - عشتار) على (ذكرها - زوجها وحبيبها وأخيها) بعد أن سلمته هي للموت. لكن هذه الآلهة أرادت أن تكفر عن خطئها، فبدون (تموز) لا يتم أي إخصاب بمختلف أشكاله سواء في الطبيعة أو بين البشر، وهذا يعني القحط والجفاف وفناء الحياة، مما دفعها للهبوط الى عالم الموت للبحث عنه وتحمل المآسي والصعوبات التي رافقت رحلتها. وتعبيرا عن ضرورة الخصب في الكون مارس شعب النهرين الحزن الجماعي على (دموزي) السومري - (تموز) البابلي و مشاركة الآلهة (عينانا) - (عشتار) في مصابها على حبيبها أو نصفها الآخر. ويعد هذا الطقس نقض طقس الزواج المقدس، ولكنه مكمل له في ذات الوقت. فعندما سلمت الآلهة (عينانا) السومرية الإله (دموزي) كبديل لها، فإن الآلهة (عشتار) في النسخة البابلية هي التي هبطت من جديد لإنقاذه ويعد هذا إنقاذاً لحياة الكائنات والطبيعة وكل ما يمت بصلة بالخصب.

وقد بدأت مأساة الإله (تموز) عندما وقع بين أيدي شياطين (الجالا) وهي مخلوقات لاتعرف الرحمة وتقتات على الطين (انتم العفاريت الذين لا أم لهم ولا أب ولا إخت ولا زوجة ولا ولد / الذين يرفرفون حائمين في السماء والارض مثل رؤساء الحرس / انتم العفاريت الذين يتشبثون بجانب الانسان / الذين لا يعرفون ما الفضل ولا يعرفون الخير و الشر /) وتنفيذا لتطبيق قاموا بشد وثاقه في الحال وعذبوه تمهيدا لنزوله في جحيم الموت، وبعد توصلات كثيره من قبله لجميع الآلهة لمساعدته، و توصلاته الى صهره إله الشمس:

(ايه أوتو، أنا صديقك، أنا الفتى الذي تعرفه / إتخذت إختك زوجا / إستبدلتني لأكون عوضا منها في العالم الاسفل / إيه أوتو، أنت القاضي العدل، لاتدعني أموت، / غير يدي / بدل صورتي / دعني أفلت من شياطيني، فلا يمسكوا بي، / مثل حية ساجال سوف اجتاز مروج الروابي / سوف أنقل روحي الى بيت اختي جشت نانا). ويستجيب (إله الشمس أوتو) لإنقاذه ويحوله الى ثعبان يختفي في الحقول. ظل الإله المنفي (تموز) مطارداً، بدون سقف يحميه أو زاوية يركن اليها، مامن دكة يتكأ عليها، مامن باب يصد عنه الريح، ما من مكان يحتمي فيه. منفي، مطارد وحيد هو، لا يملك سوى جذوة روحه، هو ومصيره. هذا الإله المنفي سيد البلاد المعذب. ويبقى هانما حتى يصل الى بيت اخته، وعندما تراه تصدر نواح مر، نواح لا مثيل له

لأنها كعرافة ترى نهايته المستقبلية الاليمة: (جشتي نانا حدثت في أخيها،/ خدشت وجنتيها، مزقت فمها / ..... شقت ثيابها / صدر عنها نواح مر على السيد المعذب / أواد يا أخي، أواد، أيها الفتى الذي لم تكن أيامه طويلة / أواد يا أخي الفتى الذي لزوج له ولا ولد / أواد يا أخي الفتى الذي لاصديق له ولارفيق / أواد يا أخي الفتى الذي لا يجلب العزاء لأمه /)

وأثناء نوم الاله الهارب من قتلته، يرى كابوسا مخيفا له دلالاته الرمزية كما يحدثنا الشاعر السومري - البابلي بكلمات شعرية معبرة و موجزة وذات بعد تراجيدي، فمن خلال اللقطة الخاطفة ذات الايقاع السريع كما في السينما المعاصرة، يكتف لنا الشاعر الصورة الدرامية التي تعبر عن مأساوية النهاية الحتمية لمصير الاله (استيقظ، كان حلما / اضطرب، كان رؤيا،/ فرك عينيه، انتابه دوار).

وكما يرى الاله في حلمه فان الأسل يتكاثر من حوله فقط هناك حزمة من القصب تحني راسها امامه. وعلى منواه المقدس لايسكب ماء، وطاسة اللبن المقدسة المعلقة الى وتد تسقط وتنكسر، ومحجنة (عصا) الراعي (دموزي) تختفي، وبازا يممسك حملا ببرائثنه، وماشية الاله تجرجر لحاها اللازوردية على التراب وتذب على الارض بقوائم ملتوية. ومامن لبن يسكب والطاسة محطمة. (دموزي) لن يعيش الهدوء بعد الآن، فحظيرة الغنم في مهب الريح.

ان رموز هذا الحلم تدلل جميعها على صفات الاله باعتباره راعيا، ولذلك فان الشاعر استخدم كلمات مكثفة الصورة وترمز لطبيعة مثل هذه الحياة. وحلم الاله يظهر لنا الحالة التراجيدية والحزن الذي يلف شغاف قلبه. وعندما تبدأ (جشتي نانا) بتأويل حلم أخيها وتفسيره يكون التأويل أكثر رعبا وتراجيدية من الحلم ذاته. حيث تنبئه بان الاسل الذي يلتف من حوله هو سفاحون سينقضون عليه والأشرار سوف يربعونه وحظيرة الغنم سوف تغدو خرابا. ولكن تمسك الاله (دموزي) - (تموز) بالحياة يدفعه الى الاختباء في مكان سري آخر لايعلم به سوى اخته بعد ان يستحلفها ألا تدلهم على مكان مخبئه، (سوف اختبئ بين النباتات الكبيرة، لاتقولني اين أنا / سوف اختبئ بين أخايد " أراي "، لاتقولني اين أنا) فتعده بذلك. (إذا قلت اين مخبوك، فلتاكنني كلابك).

لكن شياطين الجلا يتشاورون فيما بينهم عن مكان اختبأوه (من ذا الذي يرى انسانا تملكه الخوف يعيش بسلام / ألا، فلنمتنع عن الذهاب الى بيت صديقه، وعن الذهاب الى بيت صهره/ فلنمضي باحثين عن الراعي في بيت جشتي نانا) وعندما يصلون الى هناك يعذبونها من اجل ان تدلهم عليه، لكن دون جدوى (دلينا أين يختبأ أخوك، قالوا لها، لكنها لم تدلهم،/ جاءوا بالسماء قريبا منها، ووضعوا الارض في حجرها، لكنها لم تدلهم./ جاءوا بالأرض قريبا مزقوها، لكنها لم تدلهم، / جاءوا بها قريبا.. بعثروها فوق ملابسها، لكنها لم تدلهم / صبوا في حجرها قاراً، لكنها لم تدلهم / لم يجدوا (دموزي) في بيت جشتي نانا /) وهكذا تفي أخت الاله بوعدها. إلا ان (تموز) يشعر بالذنب بسبب الآلام التي عانتها اخته (إن اختبأت في المدن، أكون جلبت نهاية لأختي./) فيسمح لمطارديه ان يمسكوا به بطريقة ما. وعندما يتم هذا يشعر بالخوف من الموت فيتوسل الاله أوتو من جديد كي يحيله الى غزال، غير ان الشياطين الاشرار لديهم مهمة تنفيذ قانون العالم الاسفل ولا بد ان يجدوه فيطاردونهم يفلت ايضاً منهم وهو دلالة على الصراع بين قوى الاخصاب وقوى الموت. وفي الختام يمسون به وهو مختبئ في حظيرته في الصحراء. يعذبونه من اجل ان يرسلوه الى عالم الموت الابدى. وبهذا يتحقق كابوسه. لكن اخته تقوم بالتضحية الكبرى عندما تعرض على شياطينه ان تحل محله في عالم اللاعودة كبديل عنه. وعقابا لـ(دموزي) الذي حاول الهرب من قدر العقاب يتم الحكم عليه بان يقيم نصف سنة في عالم الاموات وتأخذ أخته مكانه في النصف الثاني. وعند موت (دموزي) يعم الجفاف في الكون. عندها يمتلأ قلب الالهة (عينانا) - (عشتار) حزنا على حبيبها فتصاب بالندم على كونها هي السبب لهذا الجفاف والخراب الذي عم مدينتها، بتسليمها اله الخصب الى الموت. فيبدأ شعب وادي الرافدين بممارسة طقوس الحزن مع آلهته (عينانا)، وطقس الندم الجمعي على الاله (دموزي) - (تموز) حتى تتم قيامته من جديد، عندها يبدأ الخصب في الربيع والصيف بعد الموت والجفاف وهكذا تبدأ دورة الحياة.



### عشتار مسلحة بقوى الطبيعة وتسيطر على وحش الفحولة

ومن خلال هذه الوقائع السردية لموت وقيامه الاله يمكننا القول بان: الاختلاف الجوهرى لهذا الطقس يكمن في كونه يعالج فكرة اساسية وهي الصراع المستميت بين الحياة والموت اضافة الى التطرق لبعض المشاكل الانسانية الاخرى مثل الدهاء والمكر في التخلص من الاعداء، والغيرة والتضحية والحب العميق بين الاخت والاخ، وقد لاحظنا تنوع المكان الذي حدثت فيه الاحداث، كالمعبد ومجمع الالهة والحقول والصحارى وعالم الموت. التباين في سلوك ومصائر الشخصيات، وقد اتسمت شخصية الاله (تموز) واخته جشتي نانا بالتمسك برباط الاخوة القدسي والحنان والرفقة مما اضى عليهما بعدا انسانيا عميقا.

كم تبدو معاناة الاله (دموزي) - (تموز) متشابهة في الكثير من فصولها مع عذابات الانسان العراقي في جحيمة المعاصر سواء كان في فيافي وسهوب وطنه أم في منفاه.

### المانوية البابلية.. أساس التصوف العراقي

سليم مطر - جنيف



لا يمكن وضع المانوية ضمن اديان العراق القديم، بل هي ديانة نشأت في القرن الثالث الميلادي، اي في المرحلة الثانية من تاريخ العراق، ونعني بها المرحلة الآرامية المسيحية. لكننا فضلنا الحديث عنها ضمن

نفس الفصل، لأنها ديانة عراقية أصيلة انبثقت من احضان المندانية العراقية، وظلت نشطة حتى العصر الاسلامي، حيث تركت آثارها الواضحة في التصوف العراقي.

تعتبر (المانوية) واحدة من أبرز الأمثلة على التغريب والتشويه اللذين تمت بهما كتابة تاريخ المنطقة العربية ، خصوصاً بالنسبة إلى الحقبة « الآرامية السريانية » التي وحدت ثقافياً ولغوياً العراق والشام (بلاد الهلال الخصيب) خلال الألف عام التي سبقت الفتح العربي الإسلامي. ومن المثير للعجب إتفاق جميع المؤرخين العرب والأجانب على اعتبار « المانوية » ديناً آرياً فارسياً ، رغم جميع الشواهد التي تدحض تماماً مثل هذا الرأي ، وتبين بصورة قاطعة أن هذا الدين عراقي الموطن ، مؤسسه رجل بابلي ، واللغة التي نطق وكتب بها هي السريانية ، لغة أهل العراق والشام خلال عدة قرون قبل الفتح العربي ، والتراث الديني الذي نهل منه هو التراث السامي: البابلي العرفاني المسيحي.

يبدو أن السبب الأول لهذا التشويه التاريخي مرتبط بالفكرة الخاطئة التي تعتبر أجنبياً ، كل تراث الحقبة التي سبقت الفتح العربي الإسلامي. فهو تراث فارسي فيما يخص العراق ، وإغريقي روماني فيما يخص الشام ومصر وشمال أفريقيا. لأنه خلال هذه الحقبة كانت المنطقة خاضعة للسيطرة الفارسية بالنسبة إلى العراق ، والإغريقية الرومانية بالنسبة إلى باقي المنطقة. إن التشويه الذي تعرض له تاريخ (المانوية) مثال ساطع على التجاهل والتشويه الشاملين اللذين تعرضت لهما جميع تفاصيل التراث السابق للفتح العربي: التراث العرفاني (الغنوصي) واليهودي والمسيحي والصابني والمانوي والهرمزي ، كذلك جميع الابداعات الثقافية واللغوية والحضارية في مجالات الفنون والعلوم والفلسفة واللغات والآداب السريانية والقبطية. إذ تم احتساب تراث هذه الحقبة على تراث الدول التي كانت مسيطرة على المنطقة.

بعد سقوط بابل في (539) قبل الميلاد على يد الفرس الأخمينيين بسط الإيرانيون نفوذهم على بلاد الرافدين حتى القرن السابع ، أي ما يقرب من 11 قرناً. تخلل هذه الحقبة ثورات وتمردات فاشلة قام بها العراقيون ، بالإضافة إلى حروب طاحنة بين الإيرانيين من جهة والاعريق والرومان من جهة ثانية للسيطرة على العراق. وقد تمكن الاعريق والرومان من انتزاع العراق من الفرس عدة مرات وفرض سيطرتهم عليه مدة عقود وقرون متقطعة ، لينتزع الفرس منهم من جديد. وهذه الحقبة تشبه إلى حد بعيد الحقبة التي أعقبت سقوط الدولة العباسية ونشوب الصراع بين الأتراك والفرس للسيطرة على العراق. ظروف نشوء المانوية

خلال هذه القرون الطويلة تمكن أهل الرافدين من الحفاظ على هويتهم السكانية والثقافية والدينية المتميزة عن إيران. وظل الانتماء السامي هو السائد وظلت اللغة الآرامية أولاً ثم فرعها السرياني منتشرين بين العراقيين ، بل ان العراقيين فرضوا لغتهم السريانية لتكون لغة الثقافة الأولى في الامبراطورية الإيرانية نفسها بحيث فضلت اللغة الفارسية (البهلوية) استعمال الأبجدية السريانية ، والتخلي عن نظام الكتابة المسمارية الذي سبق ان اقتبسوه أيضاً من أهل الرافدين. ثم إن العراقيين ظلوا بعيدين عن الإيمان بالدين الزرادشتي الذي كان الدين القومي والرسمي للإيرانيين. حافظ العراقيون على ديانتهم السامية - البابلية الموروثة والقائمة على عبادة الآلهة الممثلة للكواكب وقوى الطبيعة والمنقسمة عموماً إلى ثنائية قوى الخير والنور وقوى الشر والظلام. علماً أن هذه الثنائية البابلية هي التي اثرت في الإيرانيين وديانتهم الزرادشتية ، وليس العكس كما توهم عادة المؤرخون. كان هناك أيضاً تواجد مهم لطوائف يهودية نشطة في انحاء الرافدين ، منذ جلبهم من فلسطين على يد الكلدانيين. ومع انبثاق المسيحية في بلاد الشام في القرن الأول الميلادي ، بدأ بالتدريج تتسرب إلى العراق من القسم الشمالي (الرها ونصيبين) ثم نينوى وكرخاسلوخ (الاسم السرياني لكركوك الحالية) حتى ولاية بابل ومنها إلى ولاية ميسان في الجنوب (وكانت تشمل كذلك البصرة والأهواز). وكانت هذه المسيحية مصحوبة بتيارات عرفانية غنوصية وهرمزية صوفية ، قادمة من الشام ومصر، مع بعض التأثيرات الإغريقية. وبدأت تتشكل طوائف مسيحية عدة في شمال ووسط بلاد الرافدين ، بالإضافة إلى الصابنة في الجنوب الذين مزجوا المسيحية بالعرفانية مع أصول الدين البابلي.

### ديانة عراقية

في مثل تلك الظروف السائدة في العراق في القرن الثالث الميلادي نشأ الدين المانوي، حيث اشتق من اسم رجل بابلي أعلن النبوة يدعى (ماني). جميع المصادر التاريخية فارسية وعربية وغربية تتفق على القصة التالية لسيرة هذا النبي: « ولد ماني عام 216 ميلادي في إحدى قرى ولاية بابل وكان دينه بابلي (وثني) ، وفي سن الرابعة رحل أبوه إلى إحدى قرى ولاية ميسان في جنوب العراق. هناك نشأ (ماني) على الدين



الصابني. وفي سن الشباب أخذ (ماني) ينتقل في أنحاء الرافدين واستقر في بابل. أعلن (ماني) نبوته وتكوينه للدين (المانوي) الذي انتشر خلال أقل من قرن من الصين حتى أسبانيا وبلاد الغال... » (لمزيد من التفاصيل راجع الموسوعة الكونية الفرنسية - جزء 11 - ص 646).

لكن مشكلة تحديد هوية هذا الدين وصانعه (ماني) , تبدأ عند الحديث عن الشعب والحضارة اللذين ينتمي إليهما. بكل بساطة تم اعتباره إيرانياً فارسياً لأنه ظهر في بلاد الرافدين بينما كانت تابعة للإمبراطورية الإيرانية. مثلما تم اعتبار المسيح وتراث المسيحية جزءاً من تاريخ روما , لأن المسيحية نشأت في الشام في ظل السيطرة الرومانية!

جميع تفاصيل تاريخ المانوية تثبت بلا جدال عراقية هذا الدين وعلاقته المباشرة بما سبق وبما لحق من تاريخ العراق الفكري والديني حتى نهاية العصر العباسي. ويمكن تقديم المبررات التالية للبرهان على هذه الحقيقة:

1- ثمة تبرير عرقي فارسي طالما تمسك به المؤرخون الإيرانيون والعرب والأجانب قائم على الشك بأن النبي (ماني) ربما يعود بأصوله من ناحية أمه أو أبيه إلى الفرس وبالذات إلى العائلة الملكية الأخمينية. لكن جميع الشواهد التاريخية تثبت أن هذا النبي ينتمي عرقياً بصورة أكيدة إلى سكان العراق. قد يمكن الافتراض أن أمه فارسية , لكن بعض المصادر تذكر أن اسمها « مريم ». أما أبوه فلا يمكن أن يكون فارسياً , وذلك لعدة أسباب: أن اسمه (فاتك) , وهذا الاسم لا يمكن أن يكون فارسياً لأنه اسم سامي عراقي , (من فعل فتك) ومستخدم حتى الآن في العراق. ثم إن اسم (ماني) هو أيضاً ليس اسماً فارسياً , إنما هو اسم سامي كذلك , لفظه العربي (أماني) وهو من (التمني) واللقب الذي كان يُعرف به هو (ماني حيا) أي (ماني الحي) , ومنه أتى المصطلح اللاتيني لهذا الدين (Manicheisme) أي (ماني - حيا-سيم).

2- إن الزرادشتية كانت الدين القومي لجميع الإيرانيين, بينما عائلة (ماني) مثل باقي العراقيين كانت على الديانة البابلية أولاً عندما كانت تقطن بابل , ثم بعد الاستقرار في ميسان اعتنقت هذه العائلة الديانة الصابنية , وهي طائفة منتشرة حتى الآن في جنوب العراق - بما فيه الأهواز- , ثم إن جميع الباحثين يعترفون بأن علاقة المانوية بالزردشتية ضئيلة جداً , ولم تدخل بعض التسميات الإيرانية إلى المانوية إلا بعد انتشارها في إيران وترجمة كتب (ماني) السريانية إلى اللغة البهلوية. علماً أن المانوية قد اقتبست الكثير من المسميات من جميع الشعوب التي وصلتها , فمثلاً في آسيا والصين أطلق (ماني) على نفسه لقب (بوذا الحي). وغداً واضحاً أن المانوية كانت متأثرة أساساً بالدين المسيحي , وبالذات بالأفكار الثنوية للقديس السرياني (بن ديسان) الذي دعا إلى نوع من المسيحية الثنوية , بالإضافة إلى المعتقدات البابلية والسامية السائدة. لقد استخدم (ماني) أساساً أسماء ملائكة اقتبسها من البيئة السريانية , مثل جبرائيل ورفائيل وميخائيل وإسراييل , بالإضافة إلى يعقوب نبي العهد القديم. واعتبر (ماني) نفسه خاتم الأنبياء والروح القدس التي تحدث عنها المسيح.

إن (الثنوية) التي اعتقدت بها المانوية لم تكن إيرانية , كما تصور خطأ الكثيرين من المؤرخين , بل هي أساس المعتقدات البابلية والسامية. يكفي معاينة أديان السومريين والساميين لإدراك أن هناك دائماً آلهة للخير والنور بأسماء متنوعة مثل (تموز وبعل وشمش وإيل ومردوخ وأشور) تقابل آلهة الشر مثل (نرجال وأريشكيغال وإيرامروت). وثنائية الخير والشر هذه وجدت تعبيرها في الأديان السامية السماوية من خلال مفهوم الله رمز الخلق والخير والنور, والشيطان رمز الشر والخطيئة والظلام. (راجع السواح - مغامرة العقل - ص 197).

3- 3- المؤرخون قاطبة يتفقون على أن (ماني) ولد وعاش في بابل وميسان , وكانت لغته الأم ولغة كتبه وإنجيله المعروف هي اللغة السريانية , وقد ترجمت جميع كتبه فيما بعد باللغات الفارسية والتركية (الايغورية) واليونانية واللاتينية والقبطية. وبدأ بنشر دينه أساساً بين سكان الرافدين. يمكن الاستشهاد بماني نفسه وهو يحدد بدقة وبعبارة صريحة غير قابلة لسوء الفهم , إنتماءه إلى أرض بابل وتمايز دينه عن باقي الأديان: « إن الحكمة والمناقب لم يزل يأتي بها رسل الله بين زمن وآخر, فكان مجيئها في زمن على يد الرسول (بوذا) إلى بلاد الهند , وفي زمن على يد (زرادشت) إلى أرض فارس , وفي زمن على يد (عيسى) إلى أرض المغرب (الشام). ثم نزل هذا الوحي وجاءت النبوة في هذا الزمن الأخير على يدي أنا (ماني) رسول إله الحق إلى أرض بابل... » (راجع - إيران في عهد الساسانيين - ص 172). ثم إن الأكثر

من كل هذا , إصرار (ماني) على جعل بابل مقر الكنيسة الأم ومركز المرجعية الدينية والحوزة العلمية لجميع الطوائف المانوية في العالم , وبقي هذا التقديس الخاص لبابل لدى المانويين حتى نهايتهم بعد ألف عام.



### احتقار الحياة

يمكن اعتبار المانوية أساس التصوف , فهي دين (غنوصي - عرفاني) متطرف في الزهد والتنسك وتقديس الموت واحتقار ماديات الحياة. قد تكون المانوية التي نشأت في العراق تعبيراً عن ردة فعل سلبية ومتشائمة إزاء الظروف القاسية التي عاشها العراقيون بسبب السيطرة الفارسية وفشل ثوراتهم ودمار الرافدين بعد تحول البلد الى ساحة للحروب الدائمة بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية. ثم الشعور بالخيبة والحسرة على ضياع أمجاد بابل القديمة وفقدان الامل بأية قدرة على الخلاص إلا بالزهد وتجنب ملذات الحياة.

الفكرة الاساسية للمانوية يمكن ايرادها باختصار كالتالي: إن الله هو الخير والنور, والشيطان هو الخطيئة والظلام. جميع الأشياء المادية من أرض ونبات وحيوان وأجساد هي جزء من قوى الخطيئة والظلام , وجميع الأشياء الروحية من حلم وعقل وخيال هي جزء من قوى الخير والنور. إذن على الإنسان التواق إلى الخير والخلود في حدائق النور (الجنة) أن يحتقر الجسد وجميع ماديات الوجود , بالامتناع عن: الجنس والخمر واللحم , وتجنب جميع الخطايا. وقد يصل الأمر إلى حد احتقار الحياة ونبذ الجسد وتفضيل الموت , من أجل تخليص الروح والنور من سجن الجسد والظلام. واعتبر (ماني) أن روح الانسان المنيرة تتعذب على الجسد , صليب الظلام , مثلما تعذب (عيشو زاهي) (عيسى الزاهي) على صليبه.

إن الخطيئة ترتكب بثلاث وسائل: القلب (النية) والفم (الكلمة) واليد (الفعل). لهذا فإن وصايا (ماني) كانت: « لا ترتكب الخطيئة , لا تتجب , لا تملك , لا تزرع ولا تحصد , لا تأكل لحماً ولا تشرب خمراً » . طبعاً مثل هذه الوصايا لا يستوجب تطبيقها من قبل جميع أتباع المانوية , إنما فقط من قبل النخبة الدينية المنقسمة إلى أربع مراتب: 12 حواريون , و72 شماسون , و360 عقلاء , ثم الصديقون غير محدودي العدد. أما باقي المجتمع فيطلق عليهم (السماعون) الذين يلتزمون فقط بالصلاة أربع مرات يومياً , والسجود 12 مرة كل صلاة , والصوم شهر كامل كل عام في نيسان , ودفع العشر والزكاة وتقديم الغذاء للصديقين.

تعتمد المانوية على كتب (ماني) المليئة بالشروحات والحكايات والأساطير المعقدة والمفصلة جداً. الأسطورة المانوية عن تكوين الخليقة تشبه إلى حد بعيد الأسطورة السومرية - البابلية المعروفة « حينوما عاليش » (حينما عالياً , أو حينما في الأعالي) , لكن أسماء الآلهة السامية القديمة تستبدل بها أسماء سريانية ومسيحية محدثة. مذهب التثليث في المسيحية (الأب والأبن والروح القدس) يستبدل (ماني) به « العظيم الأول » و « أم الحياة » , علماً أن هذا التثليث موجود في جميع الأديان البابلية والسامية , ولكن بأسماء مختلفة (مثلاً في قصة الخليقة البابلية هناك أبسو- الأب , وممو - الأبن , وتعامة - الأم) (راجع السواح - مغامرة العقل). والطريف أن فكرة (تناسخ الأرواح) التي اقتبسها (ماني) من البوذية , حورها تماماً بما يتلاءم مع عقيدته الخاصة. ليس أي انسان يموت تنتقل روحه تلقائياً إلى إنسان آخر, إنما يعتمد ذلك على كونه خاطئاً أم لا. لأن تكرار الحياة يعتبر نوعاً من العقاب. فالإنسان النقي المؤمن تذهب روحه مباشرة إلى حدائق النور جنان الله , أما الإنسان الخاطيء فيعاقبه الله بانتقال روحه إلى إنسان آخر ليعيش حياة أخرى وأخرى حتى يصبح نقياً ومؤمناً , فيتوقف التناسخ وتذهب روحه إلى جنة الخلود.

## تاريخ ماني والمانوية

ولد (ماني) في 14 نيسان (أبريل) عام 216 ميلادية , قرب (المدان) التي كانت مركز ولاية بابل والعاصمة الثانية للإمبراطورية الإيرانية. ولهذا يطلق على هذا النبي لقب (ماني البابلي) , ويقول عنه المؤرخون العرب والمسلمون: « نبي الله الذي أتى من بابل » (راجع فهرست ابن النديم).

عندما كان (ماني) في سن الرابعة , رحل به والده (فاتك) إلى قرية في ولاية ميسان جنوب العراق. ويبدو أن قرار الرحيل قد اتخذته الأب بعد أن تلقى ثلاث مرات نداءات إلهية بينما كان يتعبد في إحدى المعابد البابلية , تدعوه إلى الرحيل إلى ميسان وكذلك تجنب الخمر واللحم والجنس. في ميسان اعتنق (فاتك) دين الصابئة الذين يتكلمون لهجة آرامية قريبة إلى السريانية. وكان هذا الدين سائداً في جنوب العراق قبل هيمنة المسيحية , ويسميه العرب كذلك (دين المغتسل) بسبب تقديسهم لعملية التطهر بالماء. وهو دين مزج بين روحانيات العرفانية والمسيحية (الشامية) مع رموز عبادة الكواكب البابلية , ويرتبط باسم النبي يحيى أو (يوحنا المعمدان) (المزيد من المعلومات راجع الثقافة الجديدة- 248- ص25).

بقي (ماني) صابئاً حتى سن الواحدة والعشرين , بعدها بدأ تأثره مباشرة بالمسيحية وخصوصاً بالتجربة الحياتية للسيد المسيح وعذابات صليبه. وتذكر التقاليد المانوية أنه في سن الرابعة والعشرين , في 23 نيسان 240م. تلقى (ماني) رسالة النبوة من الله بواسطة الملاك (توأم - توأم) , على أنه هو (الروح القدس) الذي بشر به النبي عيسى. حينها بدأ (ماني) يعلن أنه (نبي النور) و (المنير العظيم المبعوث من الله) , نتيجة هذا تم طرده من الطائفة الصابئية.

رحل (ماني) مع أبيه وإثنين من أصحابه إلى بابل , منها قام بأول رحلة عبر بلاد فارس ثم إلى الهند وبعدها إلى بالوشستان , حيث عاين ودرس الأديان السائدة من زرادشتية وبوذية وهندوسية. بعد عامين (242م) عاد (ماني) إلى ميسان بحراً عبر الخليج. وتذكر المصادر التاريخية أن ثمة قبائل عربية قادمة من عمان كانت متنفذة حينذاك في ميسان تحت سيطرة الحكم الفارسي (راجع إيران في عهد الساسانيين - ص75). هناك شاعت الظروف , أن يخوض (ماني) تجربة مشهودة مكنته من فرض تأثيره على حاكم ولاية ميسان الفارسي (مهرشام) وكسبه إلى جانب المانوية. وكان (مهر شام) هذا أيضاً شقيقاً للإمبراطور الإيراني (شاهبور) , حيث توسط لدى أخيه ليُسمح لـ (ماني) بنشر دينه دون مضايقة. ومن المعروف عن (ماني) أنه بالإضافة إلى شخصيته النبوية , فإنه كان طبيباً ونقاشاً ورساماً وكتّاباً ومترجماً. وهو النبي الوحيد الذي قام بنفسه بكتابة إنجيليه وباقي كتبه المعروفة التي تزيد على سبعة , بينها كتاب مزين برسوم توضيحية ملونة , يعتقد أنها شكلت الأساس الأول لاتبثاق فن النممة العراقي العربي ثم الفارسي والتركستاني (راجع الموسوعة الكونية - المصدر نفسه).

بدأ (ماني) بتكوين كنيسته في بابل وأطلق عليها (كنيسة النور) , وانتشرت الكنائس أولاً في بلاد الرافدين: ميسان والأهواز وبابل ونيوى وكركوك. لكن (ماني) لم يكتف بحدود الرافدين بل اعتبر نفسه (عيسى المخلص للإنسانية جمعاء) , وأنه (خاتم الأنبياء) , ويقول في هذا الخصوص: « ندائي يتجه نحو الغرب وكذلك نحو الشرق , وهو يسمع بجميع اللغات وفي جميع المدن. كنيستي تفوق الكنائس السابقة , لأن تلك الكنائس قد اختيرت لبلدان ومدن محددة , بينما كنيستي أتت لجميع البلدان , وإنجيلي يبتغي جميع الأوطان.. » (الموسوعة - المصدر نفسه). لهذا بدأ (ماني) يبعث تلامذته (الحواريين) الاثني عشر إلى جميع بقاع الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية لنشر الدعوة الجديدة. فبعث أولاً إلى الشام ومصر, ثلاثة من حواربيه , توما وهرمس وعدي. وخلال أقل من قرن انتشرت المانوية في مختلف بقاع الأرض , من شواطئ المحيط الهادي والهند والصين والتبت وسيبيريا وتركستان وإيران ثم جميع الضفاف الشرقية للمتوسط حتى إيبيريا وإيطاليا وبلاد الغال. لقد وجدت آثار معابد وكتابات ورسوم هذا الدين في جميع هذه البقاع, وأهم الوثائق وجدت في جنوب مصر (الفيوم) مكتوبة باللغة القبطية. يبدو أن المانوية كانت لها الانتشار خصوصاً بين الطوائف المسيحية بسبب علاقتها المباشرة معها. ومن أهم الذين تحدثوا عنها هو القديس (أوغسطين القرطاجي) الذي اعتنقها لعدة سنوات قبل أن يصبح فيلسوف المسيحية الأول.



في تاريخ غير محدود بصورة تامة , بين (274-277) ميلادية , تم صلب (ماني) على أحد أبواب مدينة بيت العابات (جندشاپور) في الأهواز , تم ذلك بقرار من الامبراطور الفارسي (برهام الأول) لأسباب سياسية طبعاً وبعد تحول (بابل) إلى مركز لدين عالمي واحتمال استعادتها من جديد لأمجادها السابقة , وما يشكله هذا من خطر على النفوذ الايراني. كذلك خوف رجال الدين الزرادشتيين الذين نقموا على (ماني) بسبب تأثيره المتزايد. لقد عذب (ماني) وصلب وقطعت أطرافه ثم احرقت جثته ونثر رماده. لكن المانويين ظلوا يعتقدون بصعوده إلى السماء مثل السيد المسيح , ويعتبرون هذا اليوم مقدساً يصومون خلاله ثلاثين يوماً في شهر نيسان.

الضربات التالية تلقته المانوية على يد الرومان. في عام 445م أعلن البابا (ليون العظيم) قراره بتحريم نشاط المانوية. وفي عام 527م قرر الامبراطور (جوستان) الحكم بالاعدام على جميع أتباع المانوية. لكن الكثير من المؤرخين الأوروبيين يعتقدون أن المانوية ظلت حية في أوروبا بأشكال خفية متعددة , خصوصاً بين الطوائف المسيحية السرية المؤمنة بالتصوف والروحانيات والطقوس السحرية والتي تعتمد في إيمانها على الأفكار الثنوية (Ledualisme).

في القرن الخامس حدث أول انشقاق في الكنيسة المانوية , حيث تم انفصال الطوائف المانوية في اسيا الوسطى (تركستان ومنغوليا) , ورفضوا تبعيتهم لكنيسة (بابل) وكونوا كنيستهم القومية. ثم اعقب ذلك انشقاق الكنيسة المانوية في بلاد فارس , وذلك بتكوين فرع قومي مستقل عن بابل , حمل اسم (المزدكية) نسبة الى مؤسسها (مزدك) الفارسي. يبدو أن هذه الطائفة ابتعدت عن المانوية بالاقتراب أكثر ناحية (الزردشتية) , مع ميول « ثورية واشتراكية ». ربما لهذا السبب خلط معظم المؤرخين المسلمين والعرب بين المانوية (العراقية) والمزدكية (الايرانية) , علماً أن طائفة (المزدكية) , أثناء نفوذها في الدولة الايرانية , قامت باضطهادات ومذابح معروفة ضد المسيحية والمانوية في بلاد الرافدين , مما أدى إلى هجرة الكثير من المسيحيين والمانويين العراقيين إلى بلاد تركستان (الصغد) وتكوين جاليات مانوية مسيحية نسطورية نشطت بنشر الثقافة السريانية البابلية.

إن الهروب المستمر للمانوية من العراق والمشرق , وخصوصاً أثناء اضطهادات الفترة العباسية أدى إلى تزايدهم في أواسط اسيا التركية المنغولية. في عام 745 كون الأتراك دولتهم (الأوغرية) على حدود الصين في منغوليا الشمالية. كان أحد ملوكهم يسمى (بوقي خان) اعتنق المانوية وجعلها الدين الرسمي للدولة. من خلالها وصلت المانوية إلى الصين فشيئت المعابد المانوية إلى جانب المعابد البوذية , حتى وصلت إلى روسيا وسيبيريا. لكن نهاية الدولة التركية الأوغرية عام 817 على يد القرغيز أدى الى نهاية المانوية في آسيا. ويُعتقد أنها استمرت في تركستان الصينية حتى القرن الثالث عشر, ومع اجتياح المغول بقيادة جنكيز خان تم القضاء التام على المانوية. لكن الأثر الكبير الذي تركه هذا الدين في شعوب آسيا يتمثل في تبنيهم للأبجدية المانوية (السريانية) في كتاباتهم الأوغرية التركية , بالإضافة إلى تأثيرات ثقافية ودينية لا تحصى.



كانت القبائل السامية (العربية) النازحة قبل الإسلام , تندمج طبيعياً مع أهل الرافدين وتتبني الأديان السائدة, مثل اليهودية والصابئية والمسيحية والمانوية. يذكر أن عمر بن عدي ملك الحيرة العربي كان من أنصار المانوية وحمايتها المعروفين. يتحدث المؤرخ الإسلامي (ابن قتيبة) عن وجود المانوية في مكة قبل الإسلام: « وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة ». علماً أن تسمية (زنديق) قد شاعت في الفترة الإسلامية بمعنى (المانوي). لقد اقتبس العرب هذه التسمية من الفرس , الذين كانوا منذ قرون يطلقونها على المانوية بمعنى (المنحرفين عن الدين) , وهناك من يعتقد أنها ربما كانت مشتقة من (صديق) السريانية وتعني رجل الدين المانوي (للمزيد من التفاصيل عن المانوية والإسلام , راجع - التاريخ الإسلامي - فاروق عمر- ص193,213).

يبدو أن الفتح العربي لم يضعف المانوية , بل على العكس منحها بعض الزخم , بسبب كثرة اتباع المانوية في العراق بعد هجرة الأعداد الكبيرة منهم من الشاميين والمصريين إلى العراق بعد حكم الإعدام الذي كان قد أصدره الرومان بحقهم. ثم إن الإسلام في أول الأمر لم يكن موقفه واضحاً من المانوية , وقد اعتبرها في البدء من أديان أهل الكتاب. في العصر الأموي تمتع أتباع المانوية ببعض الحرية , خصوصاً في زمن الخليفة (الوليد الثاني -743-744). وتذكر المصادر العربية أنه بين 754-775م كان (إمام الكنيسة المانوية) في أفريقيا هو أبا هلال الديهوري. ومما ساعد على نشاط المانوية في العصر الأموي استخدام الكثير من أتباعها كتاباً في الدواوين في العراق بدل المجوس الفرس , وذلك بعد قرار تعريب الدواوين في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي , بعد أن كانت باللغة الفارسية. ويبدو أن الاستعانة بأتباع المانوية في الدواوين وسع المجال أمامهم وركز أهميتهم. (نموذج ساطع لسوء فهم المؤرخين العرب , عندما يستغرب مؤرخ « قومي! » مثل عبد العزيز الدوري هذا التحول نحو المانوية في الدواوين الأموية , لأنه لا يدرك أن الزرادشتيين فرس ولا يتقنون غير الفارسية , أما اتباع المانوية فأنهم عراقيون فكانوا يتقنون العربية القريبة من السريانية , لغتهم الأصلية. ولهذا تم استخدامهم في عملية تعريب الدواوين) (راجع - الدوري - الجذور التاريخية للشعبوية - ص22).

رغم تزايد الاضطهاد ضد المانوية في الفترة العباسية باسم مكافحة الزندقة والمثنوية والإلحاد والدهرية والمجون , إلا أن أتباعها كانوا نشيطين خصوصاً في المجال الفكري , وشكلوا الحلقات الثقافية التي يطلق عليها « إخوان الصدق » (لاحظ التشابه مع « إخوان الصفا »). ويصف الجاحظ نوعية كتبهم بأنها: « أجود ما تكون ورقاً يكتب عليه بالحبر الأسود البراق ويستجد له الخط ». ويذكر المؤرخون المسلمون أسماء لا تحصى من المثقفين الذين اتهموا بالزندقة (المانوية) في هذه الفترة. (قد يمكن تشبيه تهمة المانوية والزندقة بتهمة الشيوعية والماركسية التي سادت العصر الحديث). وقد شملت هذه التهمة كتاباً وشعراء مثل: صالح ابن عبد القدوس , بشار بن برد , أبو النواس , أبو العتاهية , حماد الرواية , عبد الله بن المقفع.. وغيرهم. وقد حكم بالموت على الكثير من هؤلاء المثقفين بسبب هذه التهمة. وهذا النشاط المانوي دفع الكثير من المثقفين المسلمين إلى تأليف الكتب للرد عليها وتفنيدها , مثل: واصل بن عطاء , الجاحظ , أبو محمد بن الحكم , الجبائي , النوبختي , المسعودي , الرازي , الرقي... وغيرهم (راجع فاروق عمر - المصدر نفسه).

يعتبر الخليفة العباسي (المهدي) (775-785) , أول من أعلن الحرب ضد المانوية وجميع التيارات الفكرية المعارضة باسم مكافحة الزندقة , حتى سمي (قصاب الزنادقة). وقد أنشأ من أجل ذلك (ديوان الزنادقة) بقيادة (عريف الزنادقة). وكان اتباع المانوية يجبرون على المثول أمام القاضي , ثم يصبغ المتهم على صورة (ماني) ويذبح طائراً , ذلك لأن المانوية تحرم ذبح الحيوان. وفي حالة رفضه التوبة فإنه يحكم بالموت. وقد أوصى المهدي ولده الهادي طالباً منه الاستمرار في محاربة المانوية , قائلاً: « إنني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين ». وفي أواخر العهد العباسي توسعت تهمة (الزندقة) حتى وصلت على يد الإمام الغزالي إلى كل محاولة اجتهادية تخالف المذاهب السلفية وتحرف عنها في التفسير (راجع فاروق عمر - المصدر نفسه). واستمر الاضطهاد وتعاضم مع الخليفة (المقتدر) (908-932) , وحسب (فهرست ابن النديم) , أنه في أواخر القرن العاشر الميلادي , قد هبط عدد رموز المانوية في بغداد من 300 شخص إلى 5 أشخاص فقط. بسبب اضطهاد العباسيين اضطرب الكثير من اتباع المانوية إلى الهروب من العراق إلى خراسان وكردستان وتركستان (ربما يكون اليزيديون في شمال العراق من بقايا المانوية الذين هربوا من اضطهاد العباسيين).





### خاتم الانبياء

من الخصال الكبيرة التي تميز بها الاسلام والمسلمون الأوائل هي القدرة على استيعاب معارف ومعتقدات الشعوب التي بدأ ينتشر بينها الاسلام. فمن المعروف أن الحضارة العربية الإسلامية بنت عظمتها من انفتاحها أولاً على تراث الشعوب التي أسلمت واستعربت , خصوصاً حضارات بلاد الرافدين والشام ومصر وشمال أفريقيا. ففي العراق مثلاً , بالإضافة إلى تراث المسيحية النسطورية والصابنية واليهودية , لعبت المانوية دوراً كبيراً في نقل الكثير من المعتقدات البابلية والعرفانية الصوفية إلى الحضارة العربية الإسلامية. يكفي ملاحظة التشابه الكبير بين الفلسفات الإشرافية والصوفية العربية الإسلامية وبين المانوية , ليس صدف أن التصوف نشأ في حواضر العراق , البصرة والكوفة وبغداد , لأن الكثير من أتباع المانوية الذين تحولوا إلى الاسلام نقلوا معهم معتقداتهم الإشرافية والصوفية البابلية ومزجوها بالإسلام. طبعاً هذا لا ينفي التأثيرات المباشرة للمسيحية والعرفانية الشامية المصرية , بالإضافة إلى المجوسية الإيرانية والأفكار اليونانية. ومن التشابهات الواضحة بين المانوية والإسلام , أن (ماني) ادعى أنه النبي المخلص الذي بشر به المسيح وأنه (خاتم الانبياء). بالإضافة إلى تشابهات أخرى مثل تحريم الخمر , والصيام 30 يوماً , والوضوء بالماء أو التراب , والركوع أثناء الصلاة , وتفصيل وصف الجنة والنار ويوم القيامة والحساب وعبور الصراط المستقيم. كذلك وجوب مساهمة أتباع المانوية (السماعين) بدفع جزء من أموالهم (عشر) و(زكاة) لرجال المانويين (الصديقين).

ويمكن الافتراض أن المانوية قد لعبت دوراً مهماً في تكوين الكثير من الطوائف الصوفية والباطنية , مثل الاسماعيلية والعلوية والدرزية. أما بالنسبة إلى تشابه المانوية مع المذهب الشيعي , فإنها تبدو قوية بحكم انبثاق التشيع في اراض الرافدين حيث كانت المانوية نشيطة. إن الكثير من أتباع المانوية (وكذلك النسطوريين) دخلوا المذهب الشيعي بحكم اشتراكهم مع باقي العراقيين في معارضة الحكمين الأموي ثم العباسي. يمكن ملاحظة هذا التشابه في مسألة الأئمة الإثني عشر (حورايو ماني كانوا كذلك 12, مثل السيد المسيح). بالإضافة إلى الميول العرفانية والإشرافية في المذهب الشيعي القريبة جداً من إشراقيات المانوية. ثم إن مفهوم « الاستشهاد » وتضحية (ماني) بحياته من أجل إخلاص ملته , له تشابه كبير مع تبجيل الشيعة لذكرى استشهاد الإمام الحسين (ع) وتضحيته بحياته من أجل تقويم الإسلام. ويبدو أن طقوس الاحتفال بذكرى كربلاء وأيام عاشوراء تتشابه مع طقوس احتفال المانوية بذكرى استشهاد ماني وصلبه , وهذه بدورها لا تبتعد كثيراً عن طقوس الاحتفال بصلب المسيح , وقبلها لدى سكان العراق والشام بذكرى موت تموز (بعل) وعودته إلى حياة الخلود. ثم ان التشابه الأهم من ذلك بين الشيعة والمانوية , إختيار (الحلة) ثم (النجف) التي هي جزء من أرض بابل التاريخية , لتكون مركز الشيعة في العالم والمنطقة المقدسة ومقر الحوزة العلمية كما اختار المانويون وقبلهم أهل الرافدين (بابل) لتكون المركز المقدس لديانة أسلافهم.

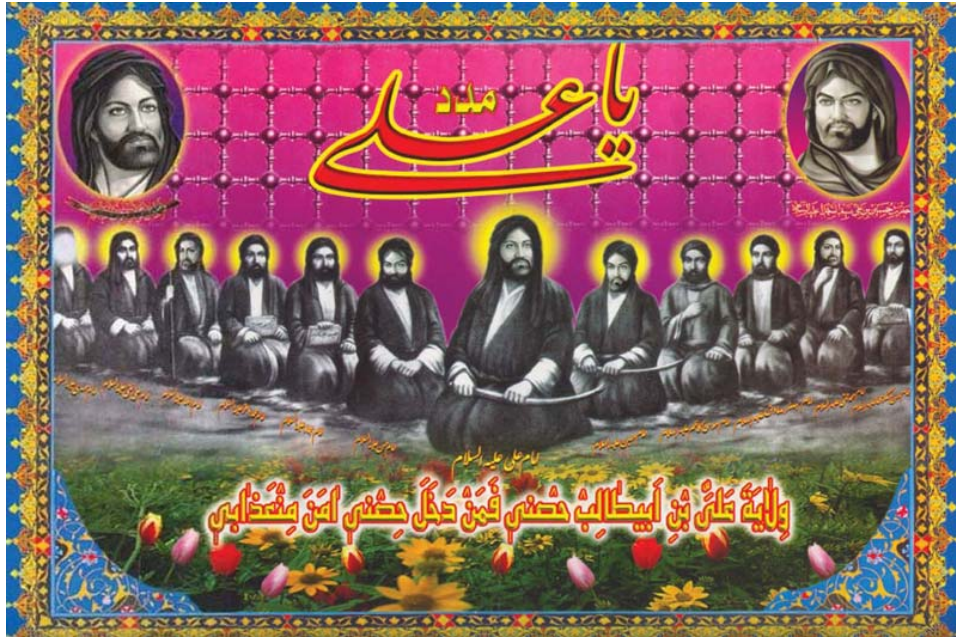
## المصادر المعروفة عن المانوية:

- 1- الرسائل الجدلية للقدّيس أغسطين (354-430) التي دحض فيها هذه العقائد المانوية باعتبارها من الهرطقات.
- 2- الرسائل الجدلية للقدّيس تيتوس البستري ضد المانويين.
- 3- الصيغ اليونانية اللاتينية التي كان يستغفر بها المانويون المنتقلون للمسيحية.
- 4- المواعظ السريانية التي كتبها (سيفي الانطاقي) وعددها 133 موعظة.
- 5- كتاب الأسقف السرياني (تيودور بركونائي).
- 6- ابن النديم في الفهرست.
- 7- البيروني في آثاره الباقية.
- 8- نصوص مانوية باللغة الفهلوية والصغدية والصينية اكتشفتها البعثات الألمانية والإنجليزية والفرنسية في التركستان الصينية في القرن العشرين.
- 9- نصوص مانوية باللغة القبطية كتبت على أوراق البردي اكتشفت في أوائل هذا القرن في مصر.
- 10 - إيران في عهد الساسانيين (ص 169-170. تأليف آرثر كريستنسن. ترجمة د. يحيى الخشاب. الألف كتاب الثاني. الهيئة المصرية للكتاب).

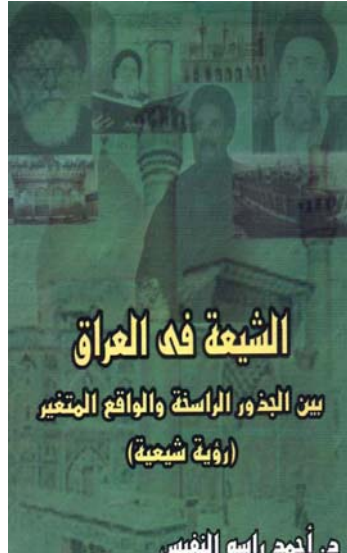
## الفصل الثاني: الاسلام الشيعي العراقي

### الفصل الثاني الاسلام الشيعي العراقي

عشتار البرزنجي - هلسنكي



يمكن القول بكل يقين، ان التشيع الحقيقي في التاريخ هو عراقي الهوية. صحيح ان بذور التشيع بمعناه السياسي العمومي والمحدود جدا قد بدأ في المدينة المنورة حول الامام علي(ع) اثناء الجدل حول من هو الأحق بالخلافة.. لكن التشيع بمعناه الشعبي والروحي والفكري والمذهبي والطقوسي قد تأسس في العراق وصنعه العراقيون، لا غيرهم. لقد بدأ هذا التشيع الحقيقي في اول الأمر كنوع من التعاطف والتشيع حول الامام علي(ع) لانه اختار العراق (الكوفة) كي يكون مركز الخلافة الاسلامية، بالتضاد من الأمويين الذين قد اختاروا بلاد الشام(دمشق). وقد تعزز هذا التعاطف مع الامام علي(ع) الى نوع من الانتماء الى شخصيته وافكاره، بعد مقتله وقيام الأمويين بالانتقام من العراقيين واذلالهم وقمع ثوراتهم، خصوصاً على يد الحجاج وغيره من الولاة الأمويين. ثم انتقل هذا التعاطف والتشيع الى مرحلة اعمق حيث اتخذ بعداً طقوسياً شعبياً شبه ديني بعد واقعة كربلاء ومقتل الامام الحسين(ع) وصحبه الابرار. هنالك من يقول ان العراقيين بحسبهم الاسطوري الديني الموروث من ايام بابل وآشور هم الذين أضفوا على واقعة كربلاء هذه القيمة القدسية التاريخية. وقد حل استشهاد الامام الحسين محل استشهاد السيد المسيح وقبله تموز اله الخصب. ثم استمر هذا الاشتغال العراقي على التشيع من خلال تقديس الأئمة وأحفاد علي وفاطمة (ع) بصورة طقوسية وسياسية عبر الثورات ضد الدولة الاموية وقيادة كل الفئات والشعوب التي عانت من العنصرية والقمع الاموي. وقد بلغ هذا التمرد العراقي(الشيعي) ذروته بنجاح الحركة العباسية التي كانت شيعية الأساس، لكنها انقلبت عليهم بعد استلام السلطة. ليست صدفة ابداً أن العراقيين بعد انتصارهم على الأمويين اصروا على ان تكون بلادهم مركز الخلافة الاسلامية، فاصبحت بغداد عاصمة الخلافة لخمس قرون. واستمر اشتغال العراقيون على التشيع حتى نقلوه من مرحلة التعاطف الشخصي والانتماء السياسي والايمان الطقوسي، الى مرحلة متقدمة جدا هي مرحلة صنع الافكار والمذاهب. ففي بغداد نشأت غالبية الافكار والمذاهب الشيعية، مثل الجعفرية والاسماعيلية واخوان الصفا والقرمطية وغيرها. وليس بالصدفة ابدا ان يصر شيعة العراق على ان تكون مرجعية شيعة العالم اجمع في بلادهم وبالذات في النجف وريثة بابل عاصمتهم الابدية.



## العقيدة

يعتمد الشيعة في عقيدتهم على أن النبي محمد(ص) قد نص في حياته حسب ما يفهموه من الأحاديث المتواترة والموثقة في حديث الغدير على أن الإمام والخليفة من بعده هو علي بن أبي طالب(ع): فقد قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) واعتبروا هذا التعيين نصا وتبليغا من الرسول عليه السلام على خلافة علي بن أبي طالب على جميع المسلمين بعد الرسول مباشرة. ويأخذ الشيعة بالمذهب الفقهي الجعفري الذي ينسب للإمام جعفر الصادق والذي تم الاعتراف به من قبل الجامع الأزهر.

يعتمد الشيعة في علومهم وفي تلقي الدين على ما تم توارثه من أنمة آل البيت، وينكرون الاحتجاج من غيرهم كالصحاباء. ولا يؤمن الشيعة بعدالة جميع الصحابة وبذلك فإنهم لا يصححون كثيرا مما صح عند أهل السنة في كتب الحديث السنية من أمثال صحيح البخاري أو صحيح مسلم. إلا أن لهم في ذلك مصادر أخرى متعددة من كتب الحديث أمثال كتاب من لا يحضره الفقيه و كتاب الاستبصار وكتاب الكافي للإمام الكليني وغيره. فالشيعة هم القائلون بوجوب الإمامة والعصمة، ووجوب النص من الله سبحانه وتعالى على الإمام (ع) بواسطة النبي (ص)، حيث نصّ على ولاية علي بن أبي طالب (ع) يوم الغدير.

### أصول الدين عند الشيعة

- أصول الدين لا يجوز فيها التقليد , بل على كل مكلف أن يعرفها بأدلتها وهي اعتقاد وإيمان:
- التوحيد: وهو أن يعرف الانسان إلها خلقه, وأوجده من العدم وبيده كل شئ, فالخلق , والرزق والاعطاء والمنع, والاماته , والاحياء , والصحة , والمرض, كلها تحت ارادته (انما امره اذا اراد شيئا يقول له كن فيكون) وهو الله جل جلاله.
- العدل: ان الله جل جلاله عادل لا يظلم احدا ولا يفعل ما ينافي الحكمة, فكل خلق أو رزق أو عطاء او منع , صدر عنه هو لمصالح , وان لم نعلم بها , كما ان الطبيب اذا داوى احد بدواء علمنا ان فيه الصلاح , وان لم نكن نعرف وجه الصلاح في ذلك الدواء.
- النبوة: وهو الايمان بنبوة نبي آخر الزمان الرسول الكريم محمد ابن عبد الله (ص) واتباعه واجب كما قال الله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم (ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) صدق الله العلي العظيم
- الإمامة: تؤمن فرق الشيعة كافة بوجود إمام يرث العلم عن النبي محمد (ص) و هو المسؤول عن قيادة الأمة الإسلامية بتكليف من الله عز و جل , ففي الاعتقاد الشيعي ان الله تعالى لن يترك الأمة الإسلامية بدون قائد مكلف.
- المعاد: ان الله تعالى يحيي الانسان بعد موته ليجزى المحسن بما احسن و يجزي المسيئ بما اساء فمن امن وعمل الصالحات , يجزيه الله بالجنة, ومن كفر وعمل السيئات , يجزيه بجهم.



### فروع الدين عند الشيعة التي يمكن فيها التقليد:

الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج، الخمس، الجهاد، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، الولاء لأولياء الله، البراء من أعداء الله

### مناطق الانتشار

يتركز تواجد الشيعة الإثنا عشرية بنسبة كبيرة في العراق، كذلك في إيران وأذربيجان والبحرين، وبنسبة مهمة في كل من الكويت ولبنان وفي مناطق عدة كالكطيف والأحساء والمدينة المنورة في المملكة العربية السعودية وفي مسقط و الباطنة في سلطنة عمان، وباقي دول الخليج الفارسي و باكستان وأفغانستان والهند وفي دول آسيا الوسطى. ويتواجد الشيعة الإسماعيلية في نجران في المملكة العربية السعودية والهند , أما الشيعة الزيدية فيتركز تواجدهم في اليمن. ويتواجد العلويون في منطقتي تركيا و سوريا.



الشيخ شلتوت امام الازهر في مصر، من اكبر دعاة التقارب بين السنة والشيعة، وكان يردد (انا سني واحب الشيعة)

### الخلاف السني الشيعي

يعود تاريخ الخلاف الذي يعرف اليوم بالخلاف السني-الشيوعي في أصوله إلى خلاف سياسي ظهر مع عصر الخلفاء الأربعة المعروفين عند السنة بالخلفاء الراشدين، وهو يدور اليوم بشكل رئيسي حول إمامة علي بن أبي طالب و أحقيته بالخلافة والنزاع الذي دار بين علي و معاوية من جهة و علي و أصحاب الجمل من جهة أخرى بعد فتنة مقتل عثمان. إلا أن هذا الخلاف ما لبث ان تعمق بعد ذلك وخاصة بعد ما لقي الشيعة على يد الحكام الأمويين والعباسيين والذين بذلوا كل ما يستطيعون لتضييق الخناق على أئمة الشيعة وأتباعهم مما زاد من الهوة بين الحكم و الشيعة و زاد من احساس الفرق الشيعية بالظلم.

و رغم أن الخلاف بدأ سياسيا وعقائديا يتناول مسألة الإمامة وأحقية الخلافة إلا أنه تحول بعد ذلك الى خلاف عقائدي و فقهي أعمق عندما ترسخت نظرية الإمامة الشيعية والتي تعتقد أن الإيمان بإمامة آل البيت من أصول الدين وظهور المذاهب الفقهية الأخرى المخالفة. و كان الشيعة يخطنون أبو بكر و عمر و ليس معاوية وحده (كان الكثير من أئمة أهل السنة يؤيدون نظرة الشيعة في تخطئة معاوية في خروجه على علي بن أبي طالب).

كما إن بعض الفكر الشيعي كالإسماعيلي تطور فيما بعد بتبني مجموعة الأفكار العرفانية مما أبعد أكثر عن طرق الفقهاء المسلمين إلى أن تشكلت فرق الصوفية ضمن أهل السنة و التي نافست الشيعة الإسماعيلية على تبني الأفكار العرفانية.

فرق الشيعة: أنقسم الشيعة الى عدة مذاهب فرعية و فرق أساسية من أهمها واكبرها (الجعفرية، اي الاثنى عشرية) في العراق وإيران وباكستان ولبنان والسعودية والخليج العربي، كذلك (النصيرية أو العلوية) في سوريا وتركيا، ثم (السبعية الإسماعيلية) في سوريا وباكستان، ثم (الزيدية) في اليمن..

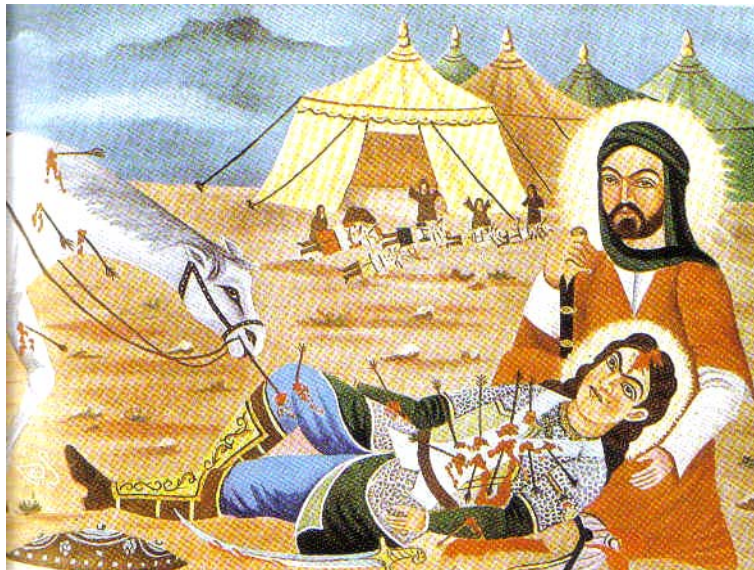
تعتبر الشيعة الإمامية أو الإثنى عشرية المذهب السائد لدى شيعة العراق. هو أكبر المذاهب الشيعية، يسمى أيضا بالجعفرية نسبة إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق سادس أئمة الشيعة، يؤمن الإثنى عشرية بوجود اثني عشر إماما معصوما ومنصوصا على كل واحد منهم بالإمامة من سابقه. هؤلاء الأئمة يبدأون بعلي بن ابي طالب وينتهون بـ محمد بن الحسن العسكري (المهدي المنتظر) الذي ولد في أواسط القرن الثالث الهجري، ويعتقدون انه غاب وما زال حيا وسيخرج "ليملأ الدنيا عدلا وقسطا".

### **وأنقسمت مدارس الإثنى عشرية إلى: الأصولية، الإخبارية، الشيخية**

هذا وتعد المدرسة الشيعية الأصولية من أكبر تلك المدارس وينتسب لها أكثر علماء الشيعة المعاصرين وأهم حوزات تلك المدرسة حوزتي النجف في العراق ثم تليها قم في إيران. و من ابرز مراجع الطائفة الشيعية المعاصرين آية الله العظمى محمد حسين فضل الله و آية الله السيد علي السيستاني و آية الله السيد علي الخامنئي و آية الله السيد الشيرازي و آية الله الميرزا جواد التبريزي راجع رجال الدين الشيعة.

### **الشيعة الاصولية و الشيعة الاخبارية**

الإمامية الاصوليون وهم معظم شيعة العالم و مراجعهم معروفين منهم السيد الخامنئي السيد فضل الله والسيد السيستاني والشيخ الفاضل لنكراني والشيخ مكارم الشيرازي...الخ. الشيعة الإمامية الاصولية تقول بالاجتهاد والتقليد وان مصادر التشريع عندهم اربعة 1- القرآن 2- السنة 3- الاجماع 4- العقل. أما الإمامية الاخباريون يقولون بالاجتهاد والتقليد ولكن يجوزون تقليد الميت من البداية وهي مسألة خلافية بين الفقهاء ومن مراجعهم الشيخ امين زين الدين المتوفى حديثاً في النجف الاشرف رحمة الله عليه وان مصادر التشريع عندهم 1- القرآن 2- السنة، وعندهم ان الايات والاحاديث كافية لاستنباط الاحكام وهذا ما يتفق عليه جميع الشيعة الاصولية والاخبارية والنتيجة ان الاخباريون والاصوليون في طريقة استنباط الاحكام واحدة وهي الاجتهاد. ان الاصولية والاخبارية متفقان في اصول الدين (لا غلو) وفروعه.



### **أئمة الإثنى عشرية (المعصومين)**

الإمام المعصوم عند الشيعة هو أحد الأئمة الإثنى عشر من نسل الإمام الأول علي بن أبي طالب الذين توارثوا العلم والحكمة عن النبي محمد (ص) و علي بن أبي طالب (ع) , و هم أئمة معصومين في التبليغ عصمة الأنبياء , و كلامهم تشريعي يعتبر بمثابة الحديث النبوي في تفسير الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية. و بهذا يشمل كتب الحديث عند الشيعة: حديث النبي (ص) الذي قد يكون منقولاً من ألسنة الأئمة أو أحاديث الأئمة أنفسهم أيضاً:

- 1- علي بن أبي طالب (المرتضى) مدة إمامته 30 سنة (632 – 661) (مرقده في العراق - النجف)
- 2- الحسن بن علي (المجتبي) مدة إمامته 10 سنوات (661–669) (مرقده في سوريا)
- 3- الحسين بن علي (الشهيد) مدة إمامته 11 سنة (669–680) (مرقده في العراق - كربلاء)
- 4- علي بن الحسين (السجاد) مدة إمامته 35 سنة (680 – 713) (مرقده في العراق)
- 5- محمد الباقر مدة إمامته 19 سنة (713–743)
- 6- جعفر الصادق مدة إمامته 34 سنة (743–765)
- 7- موسى الكاظم مدة إمامته 35 سنة (765–799) (مرقده في العراق - بغداد)
- 8- علي الرضا مدة إمامته 20 سنة (799–818)
- 9- محمد الجواد مدة إمامته 17 سنة (818–835)
- 10- علي الهادي مدة إمامته 33 عاماً (835–868) (مرقده في العراق - سامراء)
- 11- الحسن العسكري مدة إمامته 6 سنوات (868–874) (مرقده في العراق - سامراء)
- 12- محمد المهدي مدة إمامته ممتدة، وهو حي ومرتبظ الظهور (874 –...)(مولده وغيبته في العراق - سامراء)

### شخصيات شيعية تاريخية

- الامام محمد المهدي(ع)/ الامام موسى الكاظم(ع)/ الشريف الرضي/ الشيخ المفيد / العلامة الحلي/ ابو الحسن الاربيلي  
عامر السيد نور - ديالى

اخترنا بعض الشخصيات الشيعية المقدسة والتي تعتبر أما عراقية الهوية أو من وطن آخر لكنها عاشت وأبدعت في العراق.

الامام محمد المهدي (عج)



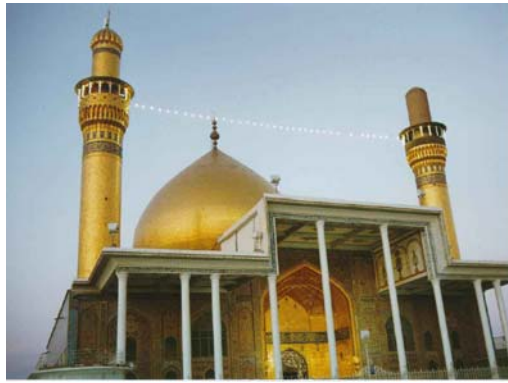
يعتقد المسلمون على مر العصور أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل بيت النبي محمد بن عبدالله من ولد علي بن أبي طالب يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك الإسلامية بعد أن تملأ الدنيا ظلماً و جوراً ويسمى بالمهدي , و يواكب ذلك خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام.

### المهدي عند السنة

يعتقد أهل السنة بأنه سيظهر في آخر الزمان رجل من أهل البيت النبوي يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك الإسلامية ويسمى بالمهدي ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأتى بالمهدي في بعض صلواته , وأنه لم يولد.

### المهدي عند الشيعة

يعتقد الشيعة الإثنا عشرية بأن محمد المهدي هو آخر أئمة إثني عشر الذي تولى الإمامة بعد أبيه الإمام الحسن العسكري ولد المهدي في 15 من شعبان عام 255 هجري أي 874 ميلادي في مدينة سامراء شمال العراق و أمه نرجس زوجة الإمام العسكري عليه السلام. له غيبتان الأولى هي الغيبة الصغرى وكانت مدتها 74 سنة، وبدأت عام 260 هجري امتدت حتى عام 329 هجري وكان اتصال المسلمين الشيعة به عن طريق سفرانه وهم: عثمان بن سعيد. محمد بن عثمان. الحسين بن روح. علي بن محمد السمرى..



الامامين علي الهادي وولده الحسن العسكري (ع) من أهم معالم مدينة سامراء وفيها ايضا مشهد صاحب الزمان الامام المهدي (عج)

أما الغيبة الثانية فهي الغيبة الكبرى بدأت عام 329 هجري، بعد وفاة آخر سفير من سفرانه عليه السلام و غيبته واحتجابه لأمر أراده الله. ويعتقد الشيعة أن مثل عمره وحياته كمثال عمر وحياة عيسى والخضر عليهما السلام بإعجاز إلهي. ومن علامات ظهوره آخر الزمان خروج الدجال , خروج السفيناني ,إنتشار الجور والظلم في الأمة , و إقبال الرايات السود من قبل خراسان. وورد في بعض أحاديث الأئمة المذكورة في كتب الحديث مثل كتاب بحار الأنوار للعلامة المجلسي تكون عودة القائم أولا ثم تليها عودة الإمام الحسين ابن علي (ع).

### الأمام موسى الكاظم (ع)

الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق هو تاسع أئمة أهل البيت عليهم السلام حسب ما يؤمن به الشيعة الإثنا عشرية. كنيته أبو إبراهيم و أبو الحسن، ولقبه الكاظم والعبد الصالح، وأمه حميدة وتكنى لأولوة. ولد ب الأبواء موضع بين مكة والمدينة في السابع من صفر سنة 128 هجري. تنقسم حياته لمرحلتين، مرحلة ما قبل الإمامة ومرحلة إمامته وهي طويلة. استمرت 35 عاماً من سنة 148 هجري إلى 183 هجري، بذل فيها مختلف الجهود في الحفاظ على الإسلام الأصيل ونشره وعدم الاستسلام لحكام عهده، لذلك زج في السجون مرات عديدة.

وقد واصل الإمام سيرة أبيه في نشر العلم والتعاليم الإسلامية الحقّة وتوعية الأمة وهدايتها. ونشأ على يديه الكثير من التلاميذ من العلماء والرواة، ولكن النظام العباسي الذي كان يخشى من انتشار الوعي الإسلامي الأصيل، ومن اتساع شخصية الإمام واجه الإمام وأصحابه بمختلف الضغوط المشددة حيث سجن بعض



أصحابه أمثال ابن أبي عمير، فقتل الكثير من العلويين وشرّد الكثير منهم في الأقطار، وأوعز إلى بعض الشعراء في النيل من أهل البيت عليهم السلام، ولكن الإمام كان يواصل مهمته التعليمية في الدفاع عن أهل البيت عليهم السلام، لذلك كان يصرح بالحق، وتوعية الأمة بالحقائق التي حاول أعداء أهل البيت إخفاءها، حتى في محضر حكام عصره.

فمن ذلك ما ذكره الزمخشري في ربيع الأبرار: "أن هارون كان يقول لموسى خذ (فدكاً) وهو يمتنع، فلما ألح عليه، قال: ما أخذها إلا بحدودها، قال: وما حدودها، قال: الحد الأول عدن، فتغيّر وجه الرشيد وقال: والحد الثاني؟ قال: سمرقند، فأربد وجهه قال: والحد الثالث؟ قال: أفريقيا، فاسودّ وجهه، قال: والحد الرابع؟ قال: سيف البحر مما يلي الخزر وأرمينيا. فقال هارون: فلم يبق لنا شيء، فتحوّل في مجلسي، فقال موسى: قد أعلمتك إن أن حددتها لم تردّها، فعند ذلك عزم على قتله واستكفى أمره" وهو يشير بذلك إلى أن مطالبة فاطمة الزهراء (ع) بفدك هي مطالبة بحق الإمام أمير المؤمنين (ع) بالخلافة التي نصّ عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا مما أدى إلى اغتصابها.



وروى الخطيب البغدادي قال: "بعث موسى بن جعفر عليه السلام إلى الرشيد من الحبس رسالة كانت أنه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلا انقضى عنك معه يوم من الرخاء، حتى نفضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبتلون". لذلك فإن النظام ألقى القبض عليه وأودعه السجن، لمرات عديدة، وفي آخرها دس إليه السمّ واستشهد في السجن.

استشهد بالسمّ بأمر من هارون الرشيد في سجنه سنة 183 هجري في بغداد وعمره 55 عاماً، بعد أن قضى 15 عاماً في السجن لا يخرج منه حتى يدخل إلى آخر، ودفن في مدينة قرب بغداد سميت بالكاظمية. ومن كلماته وحكمه قوله عليه السلام: "تعجب الجاهل من العاقل أكثر من تعجب العاقل من الجاهل". "المؤمن مثل كفتي ميزان: كلما زيد في إيمانه زيد في بلانه". "زكاة الجسد صيام النوافل".

## الشريف الرضي.. أديب كبير وحقق نهج البلاغة



في سنة (359هـ = 970م) ببغداد ولد محمد بن الحسين بن موسى، الملقب بالشريف الأجل، والشريف الرضي حيث كان نقيباً للأشراف. وينتهي نسبه من طرفيه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وفي بغداد عاش وتعلم ونبغ وأشعر، وبها أيضاً توفي.

كان فاضلاً عالماً شاعراً مبرزاً، وكانت له هبة وجلالة، وفيه ورع وعصمة، عالي الهممة، شريف النفس، لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة، وكان عفيفاً شريفاً ملتزماً بالدين وأحكامه.

وبجانب الشعر للشريف الرضي تأليف عديدة منها: المتشابه في القرآن، وحقائق التنزيل، وتفسير القرآن، والمجازات للآثار النبوية، وتعليق خلاف الفقهاء، ونهج البلاغة وكتاب مجازات القرآن، والزيادات في شعر أبي تمام، وانتخاب شعر ابن الحجاج، وهذا الإنتاج معلم على غزارة علمه وتبحره في العربية وعلومها. الشريف الرضي.. شاعراً

نظم الشريف الرضي الشعر في عهد الطفولة، وهو لم يبلغ عشر سنين؛ فأجاد ونظم في جميع فنون الشعر، وجاء محلقاً في سماء الشعر محرزاً قصب السبق. وأجاد في جميع أغراض الشعر العربي؛ وهذا ما يدل على غزارة مادته. كان ينظم قصائده بمنحة نفسانية قلما تؤثر بها العوامل الخارجية. وامتاز الرضي بأن شعره على كثرته يلبس ثوب الجودة والملاحة وهذا قلما يتفق لشاعر مكثّر، بل لم يتفق لغيره.

وشعر الرضي صاف وجميل في كل الفنون. فهو عندما يهجو لا يستخدم الألفاظ النابية والكلمات المقذعة، وعندما يتغزل فليس كغيره، ولكن بأدب جم وبسمو أبعد عن كثير مما يتعاطاه الشعراء من الألفاظ الغرامية.

### ومن غزلياته قوله:

يا ليلة النقيح هلا عدت ثانية سقى زمانك هطال من الديم  
ماض من العيش لا يغدى بذلت له كرائم المال من خيل ومن نعم  
وظبية من ضباء الإنس عاطلة تستوقف العين بين الخمص والهضم  
لو أنها بفناء البيت سائحة لصدتها وابتدعت الصيد في الحرم  
قعدت منها بلا رقيب ولا حذر على الذي نام على ليلي ولم أنم  
بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى يلفنا الشوق من فرع إلى قدم

وكانت وفاة الرضي يوم (6 من محرم 406 = 1 يوليو 1015م) في بغداد حيث دفن.

### نهج البلاغة

ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم  
ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم



الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون. ولا يحصى نعماءه العادون. ولا يؤدى حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن. الذي ليس لصفته حدٌ محدود ولا نعت موجود. ولا وقت معدود ولا أجل ممدود. فطر الخلاق بقدرته. ونشر الرياح برحمته. ووثد بالصخور ميدان أرضه. أول الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به. وكمال التصديق به توحيده. وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة. فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه. ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله. ومن جهله فقد أشار إليه. ومن أشار إليه فقد حدّه. ومن حدّه فقد عدّه. ومن قال فيم فقد ضمّنه. ومن قال علام فقد أخلّى منه. كأنن لا عن حدث موجود لا عن عدم. مع كل شئ لا بمقارنة. وغير كل شئ لا بمزايلة. فاعل لا بمعنى الحركات والآلة. بصير إذ لا منظور إليه من خلقه. متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده. أنشأ الخلق إنشاءً. وابتدأه ابتداءً. بلا روية أجالها. ولا تجربة استفادها. ولا حركة أحدثها. ولا همامة نفس اضطرب فيها. أحال الأشياء لأوقاتها. ولأم بين مختلفاتها. وعرّز غرائزها وألزمها أشباحها عالماً بها قبل ابتدائها محيطاً بحدودها وانتهاؤها. عارفاً بقرائننا وأحنائها. ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء وشقّ الأرجاء وسكّك الهواء. فأجرى فيها ماء متلاطماً تياره، متراً كما زخاره. حملة على متن الرياح العاصفة، والززع القاصفة. فأمرها برده، وسلطها على شده، وقرنها إلى حده. الهواء من تحتها فتق، والماء من فوقها دفيق. ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها وأدام مربها. وأعصف مجراها، وأبعد منشأها. فأمرها بتصفيق الماء الزخار، وإثارة موج البحار. فمخضته مخض السقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء. ترد أوله إلى آخره، وساجيه إلى مائره. حتى عبّ عابه، ورمى بالزبد ركامه فرفعه في هواء منفق، وجو منفق. فسوى منه سبع سموات جعل سفلاهنّ موجاً مكفوفاً وعليهنّ سقفاً محفوظاً. وسمكاً مرفوعاً. بغير عمد يدعمها، ولا دسار ينظمها. ثم زينها بزينة الكواكب، وضياء الثواقب. وأجرى فيها سراجاً مستطيراً، وقمرأ منيراً. في فلك دائر، وسقف سائر، ورقيم مائر ثم فتق ما بين السموات العلا. فملأهنّ أطواراً من ملائكته منهم سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، وصافون لا يتزايلون ومسبحون لا يسأمون. لا يغشاهم نوم العين. ولا سهو العقول. ولا فترة الأبدان. ولا غفلة النسيان. ومنهم أمناء على وحيه، وألسنة إلى رسله، ومختلفون بقضائه وأمره. ومنهم الحفظة لعباده والسدنة لأبواب جنانه. ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسة دونه أبصارهم. متلقون تحته بأجنحتهم. مضروبة بينهم وبين من دونهم العزة وأستار القدرة. لا يتوهمون ربهم بالتصوير. ولا يجرون عليه صفات المصنوعين. ولا يحذونه بالأماكن. ولا يشيرون إليه بالنظائر.



الشيخ المفيد

وينقل صاحب الأعيان أن الشيخ المفيد ترعرع في كنف والده الذي لم نعرف من أخباره سوى كونه معلماً في مدينة واسط في العراق ولذلك كان يكنى ولده بابن المعلم وما أن تجاوز المفيد سني الطفولة وأتقن مبادئ القراءة والكتابة حتى انحدر به أبوه وهو صبي إلى بغداد حاضرة العلم ومهوى أفئدة المتعلمين فسارع إلى حضور مجلس درس الشيخ أبي عبد الله الحسين بن علي المعروف بالجعل بمنزله بدرب رباح ثم قرأ على أبي ياسر غلام أبي الجيش بباب خراسان وفي أثناء قراءته على أبي ياسر اقترح عليه أستاذه هذا أن يكثر التردد على مجلس المتكلم الشهيد علي بن عيسى الرماني المعتزلي ففعل ويحدثنا المفيد في زيارته الأولى للرماني فيقول: دخلت عليه والمجلس غاص بأهله وقعدت حيث انتهى بي المجلس فلما خف الناس قربت منه فدخل عليه داخل وطل الحديث بينهما فقال الرجل لعلي بن عيسى ما تقول في يوم الغدير والغار، فقال أما خبر الغار فدراية وأما خبر الغدير فرواية والدراية لا توجب ما توجبه الرواية وانصرف فقلت أيها الشيخ مسألة فقال هات مسألتك فقلت ما تقول في من قاتل الإمام العادل قال يكون كافراً ثم استدرك فقال فاسق فقلت ما تقول في أمير المؤمنين علي أبي طالب (ع) قال: إمام فقلت ما تقول في يوم الجمل وطلحة والزبير فقال تابا فقلت أما خبر الجمل فدراية وأما خبر التوبة فرواية فقال كنت حاضراً وقد سألتني البصري فقلت نعم، رواية برواية ودراية بدراية فقال بمن تعرف فقلت اعرف بابن المعلم وقرأ على الشيخ أبي عبد الله الجعل فقال موضعك ودخل منزله وخرج ومعه ورقة قد كتبها والصقها فقال لي أوصل هذه الرقعة إلى أبي عبد الله فجئت بها إليه فقرأها ولم يزل يضحك بينه وبين نفسه ثم قال: ايش جرى لك في مجلسه فقد وصاني بك ولقبك المفيد فذكرت المجلس بقصته. وهكذا بدأ هذا الصبي الطموح بتسليق سُلّم العلم والمعرفة ويزاحم بركبتيه الصغيرتين محافل العلماء وعمالقة العقول في عصره ليصبح رمزاً من رموز العلماء الذين تميزوا ببصماتهم العلمية على التراث الإسلامي. أما مصنفاً فكان (رضوان الله عليه) كثير التصنيف حتى أن صاحب نقد الرجال يقول: كان فقيهاً متقدماً فيه حسن خاطر دقيق الفطنة حاضر الجواب قريب من مأتي مصنف كبار وصغار.

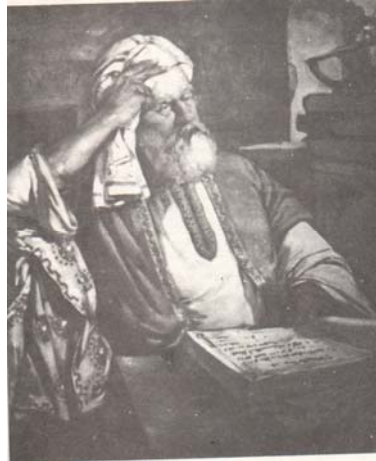
### الشيخ المفيد والدولة البويهية

لقد عاش الشيخ المفيد ابان قيام الدولة البويهية بعد انكماش الدولة العباسية وحاول أن يعمل بكل ما يمتلك من قوة في كسب الاطراف السياسية بجانيه لصالح المذهب الاثنى عشري وعندما تولى بنو بويه شؤون السلطة في بغداد حظي هذا الشيخ بسبب تشيع بني بويه بما لم يحظ به غيره من امثاله من ضروب الاعزاز والتقدير والجلالة العظيمة في الدولة البويهية فكانت له صولة عظيمة بسبب عضد الدولة كما كانت له وجاهة عند ملوك الاطراف لميل كثير من أهل ذلك الزمان إلى التشيع وبلغ من احترام عضد الدولة له انه كان يزوره في داره ويعوده اذا مرض وعلى الرغم من كل هذه الوجاهة والجلالة فقد اضطرت السلطات الحاكمة - قمعاً للفتن الطائفية والاضطرابات المذهبية إلى نفيه مرتين إلى خارج بغداد حيث بعث بهاء الدولة عميد الجيوش أبا علي بن أستاذ هرمز إلى العراق ليدبر امره فوصل إلى بغداد فزينت له وقمع المفسدين



ومنع السنة والشيعة من إظهار مذاهبهم ونفى بعد ذلك ابن المعلم فقيه الإمامية فاستقام البلد ونفى الشيخ المفيد من قبل الدولة في سنة 398هـ كما يذكره صاحب الأعيان السيد حسن الأمين عندما جرت في عاشر شهر فتنة بين الكرخ والفقهاء بقطيعة الربيع وكان السبب أن بعض أهل البصرة قصد أبا عبد الله محمد بن محمد بن النعمان المعروف بابن المعلم وكان فقيه الشيعة في مسجده بدرب رباح وتعرض به تعرضاً امتعض منه أصحابه فثاروا واستنفروا أهل الكرخ ونشأت من ذلك فتنة عظيمة وبلغ ذلك الخليفة فأنفذ الخول الذين على بابهم لمعاونة أهل السنة فبلغ الخبر إلى عميد الجيوش فسار ودخل بغداد فراسل أبا عبد الله ابن المعلم فقيه الشيعة بأن يخرج عن البلد ولا يساكنه ووكل به فخرج في ليلة الأحد لسبع بقين من رمضان فسأل علي بن مزيد في ابن المعلم فرد. وكان الشيخ المفيد ذا مكانة مرموقة بين العلماء وذا دور بارز في المجامع العلمية وكانت شخصيته وشهرته وصلت إلى المخالف والمؤلف بحيث قلما تجد من لم يذكره من المؤرخين والمترجمين وساق لفيف من المؤرخين خلال الترجمة كلمات الاطراء وجمل الثناء بما لا مزيد عليه وانساق لفيف آخر منهم من وحي عواطفهم فاندفعت اقلامهم نحو الطعن والشتيم والتشهير ووصف المؤرخون حياته الخاصة وصفاته الشخصية فذكروا من جملة ما ذكروا منه (كان شيخاً ربعة نحيفاً اسمر كثير الصدقات عظيم الخشوع كثير الصلاة والصوم حسن اللباس كثير التقشف والتخشع والاكباب على طلب العلم وكان لا ينام من الليل إلا هجعة ثم يقوم يصلي أو يطالع أو يتلو القرآن).

### العلامة الحلي



ولد الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي المعروف بالعلامة الحلي في 29 رمضان سنة 648 هـ في مدينة الحلة.

لقد ولد العلامة في أسرة علمية وقد بدأ بتحصيل العلم منذ طفولته وقد تعلم الأدب العربي والمقدمات و العلوم العصرية في الحلة عند أبيه و سائر علماء المنطقة الكبار، وكذلك عند خاله المحقق الحلي وابن عم أمه الشيخ نجيب الدين يحيى بن سعيد والسيد أحمد بن طاوس ورضي الدين علي بن طاوس و الحكيم المشهور ابن ميثم البحراني مؤلف شرح نهج البلاغة. أكمل المقدمات ونال درجة الاجتهاد و لم يبلغ سن التكليف و منذ ذلك الوقت اشتهر بنبوغه و ذكائه و فضله و كانت له البشارة بمستقبل زاهر.

### شخصيته العلمية

لقد كان العلامة من أعاجيب الدهر ألف في الفقه و الأصول و الكلام و المنطق و الفلسفة و الرجال و غيرها و له من الآثار في حدود 100 كتاب طبع بعض منها والتي يكفي أحدها كتذكرة الفقهاء للدلالة على نبوغه. تتلمذ في الفقه على خاله المحقق الحلي و في الفلسفة و المنطق على الخواجة نصير الدين الطوسي و درس الفقه السني على علماء السنة. للعلامة ما يقرب من مائة مؤلف وكتاب منها:

- الإرشاد - تبصرة المتعلمين - القواعد - التحرير- تذكرة الفقهاء - مختلف الشيعة - المنتهى - شرح التجريد - منهاج الاستقامة - تلخيص الكشاف.  
توفي العلامة الحلي في 11 محرم سنة 726 هـ بعد عمر حافل بالجهد والسعي في إحياء الشريعة واكتساب الكمال وقبره في النجف الأشرف بجوار الرواق المطهر للإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

### أبو الحسن الإريلي



هو أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الإريلي من علماء القرن السابع الهجري.

يكفي لبيان المقام العلمي لعلي بن عيسى الإريلي مثل هذا الأثر القيم و هو كتاب كشف الغمة و الذي يبين إحاطته بالأحاديث والسيرة والتاريخ والكلام والعلوم المختلفة ومن ذلك أن علماء الشيعة لم يذكروا هذا الرجل الكبير إلا بالثناء، بل إن الفضل بن روزبهان - العالم المتعصب من أهل السنة و الذي كتب كتاباً للرد على العلامة الحلي - عندما كان يصل إلى اسم الإريلي يقول بأنه قد اتفق الإمامية على أن علي بن عيسى الإريلي من أكبر علمائهم و أن آثاره لا تبلى أبداً. وهو أهل للثقة والاعتماد في النقل وكتب الشيخ جمال الدين أحمد الحلي في كشف الغمة للإريلي هذه الأبيات:  
ألا قل لجامع هذا الكتاب يمينا\*\*\* لقد نلت أقصى المراد  
وأظهرت من فضل آل الرسول \*\*\* بتأليفه ما يسوء الأعداي

#### مؤلفاته:

1 - كشف الغمة في معرفة الأئمة عليهم السلام.  
و هذا الكتاب قل نظيره في هذا المجال والذي ورد فيه بحوث في أصول الدين حول العصمة والولاية وإثبات مذهب التشيع ويشتمل أيضاً على البحوث الأدبية والتاريخية ولقد أتم المؤلف هذا الكتاب سنة 687 للهجرة. وبالنظر إلى قيمة وأهمية هذا الكتاب فإن عدداً من العلماء بعد الإريلي قاموا بترجمة هذا الكتاب مراراً وتحت عناوين مختلفة حتى يتسنى للناطقين باللغة الفارسية التعرف أكثر فأكثر على فضائل وتاريخ حياة أئمتهم عليهم السلام.

من مؤلفاته: المقامات - ديوان في الشعر - كتاب الطيف.  
وله رسائل أخرى كثيرة في موضوعات مختلفة.  
وفاته

بعد عمر حافل في سبيل إعلاء راية التشيع ودع علي بن عيسى الإريلي في سنة 693 للهجرة وقد دفن جسده الشريف في مدينة بغداد وفي داره التي كان يسكنها وأصبح قبره مزاراً لعشاق آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين. وقد بقي قبره قروناً عديدة، و لكن وللأسف فقد ضاع واندثر قبره في القرن الرابع عشر الهجري أثناء التغييرات في مدينة بغداد.

نرجس النصرانية(رض) ام الامام المهدي(ع)..



(السيدة نرجس) (رض) التي هي ام الامام المنتظر، هذه السيدة الجليلة هي (مسيحية) ومن سلالة حوارى المسيح (شمعون). وقصتها فيها الكثير من الغموض، إذ يبدو انه حتى اسمها لا تتفق الحكايات عليه، فقد تنوعت أسماء السيدة (نرجس) وتعددت حسب تنوع الحكايات، فكان من أسمائها: مريم، حكيمة، صقيل، سبيكة، سوسن، حديثه، ريحانة، خمط، ويعتقد ان اسمها الحقيقي هو: ((ملিকে))!! وهذا لا يدل على انها رومية، بل هذا اسم مسيحي شامي! ولعل هذا يدل، كما يظن البعض، بأنها في الحقيقة ليست من بيزنطة، وان صفة(رومي) يطلق على طائفة(الروم) المسيحية الشامية التي مازالت موجودة حتى الآن. الحكاية الرسمية تقول بأنها ابنة (يشوعاً بن قيصر)، إمبراطور الروم(الدولة البيزنطية)، وتنتمي من جهة الأم إلى (شمعون) أي سمعان أو السميع، وصي السيد المسيح (ع) وأحد حواريه. قيل انها ولدت في(القسطنطينية) عاصمة الامبراطورية وذلك قبل عام (240 هـ.(نهاية القرن التاسع الميلادي). وتنوع الحكايات في التفاصيل، بعضها يقول بأنها وهي في بلادها حلمت بالسيد المسيح (ع) يبشرها بأنها ستزوج بالامام الحسن العسكري(ع) لتنجب منه الامام المهدي(ع)، لهذا فأنها هاجرت متكررة مع عدد من وصائفها متجهة الى العراق بحثاً عن زوجها الامام الموعود، لكنها تعرضت للأسر.

ثم حكاية اخرى تقول، ان (نرجس) وقعت في أسر المسلمين بعد معركة جرت بين المسلمين وبين قومها الروم في مدينة تدعى (عمورية)، انتهت المعركة بانتصار كبير للمسلمين، ووقع عدد كبير من الروم أسرى جيء بهم إلى بغداد. بينما هنالك حكاية اخرى قريبة، تذكر أنها رأت في المنام محمداً (ص) نبي المسلمين يخطبها من المسيح (ع) ووصيه شمعون (رض) لولده الإمام الحسن العسكري (ع) ووافق شمعون ووافقت هي. وقد تعلق قلبها بالإمام (ع) بعد هذا المنام وهي ببلاد الروم، وهو (ع) في سامراء، إلى أن شاء الله تعالى أن يوجه أبوها جيشاً إلى العراق لمحاربة المسلمين، وأن تكون هي في ذلك الجيش متكررة فيه بزي الخدم، وأن تقع في الأسر. هكذا إذن أصبحت غنيمة تابعة لـ شيخ من المسلمين عرضها للبيع، ولكنها كانت تمتنع عن الظهور لتعرض للبيع، وترفض أن يلمسها أو يمسه أحد من الراغبين في الشراء، رغم كثرة الراغبين لشراءها لما رأوا فيها من العفة والحياء. وسبب امتناعها يعود الى معرفتها بأن مبعوث زوجها الموعود الذي حلمت به لا بد ان يأتي يوماً ليشتريها ويعتقها من هذه العبودية.

وتقول الحكايات انه في هذه الاثناء وجه الإمام الهادي (ع)، أحد خاصته من سامراء إلى بغداد مع رسالة منه (ع) باللغة الرومية(اليونانية)، وأوصاه بتسليم هذه الرسالة الى فتاة اسيرة جليلة في سوق النخاسة، وقد وصف له بالتفاصيل طبيعة المكان وشكل الفتاة. بعد أن وصف للرسول المكان والشيخ البائع والأسيرة الجليلة، وحملها

مائتين وعشرين ديناراً، ليدفعها ثمناً لمالكها. هنالك في بغداد في سوق العبيد ناول المبعوث كتاب الامام الهادي(ع) الى الفتاة التي كانت ترفض بأباء ان يقترب منها أي احد. حينما قرأت الرسالة انخرطت بالبكاء وراحت تصرخ مهددة بالانتحار إن لم يوافق النخاس على بيعها الى ذلك المبعوث. فساوم الرسول الشيخ البائع، حتى توقف عند الثمن الذي أرسله الإمام الهادي (ع) فدفعه إليه، ونقلها بتجليل واحترام إلى سامراء. فلما دخلت على الإمام الهادي (ع) رحب بها كثيراً، ثم بشرها بولد يولد لها من ابنه (ابي محمد العسكري) (ع) يملك الدنيا شرقاً وغرباً ويملاً الأرض قسطاً وعدلاً. ثم بعد ذلك أودعها عند أخته " حكيمه " بنت الإمام الجواد (ع) لتعلمها الفرائض والأحكام، فبقيت عندها أياماً. بعدها وهبها الإمام الهادي (ع) ابنه الإمام الحسن العسكري (ع) فتزوجها الإمام (ع)، وهي في مقتبل العمر وربيع الشباب.

كانت هذه العائلة العلوية المقدسة تعيش في ظروف قاسية بسبب الخلافات مع أبناء عموماتهم من السلالة العباسية العراقية الحاكمة. لهذا كانت هذه العائلة تعيش في عاصمة الخلافة (سامراء) بصورة اجبارية لكي تبقى تحت رقابة عيون الخليفة. وحسب الحكايات كان قادة السلطة يعرفون بأن هنالك طفل سيولد من هذه العائلة المنفية وسيكون هو(المهدي المنتظر)، وانه سيشكل خطراً جسيماً عليهم. لهذا كانت هذه السلطة تحاول ان تمنع ولادة مثل هذا الطفل.



وتقول الحكايات بأن السيدة نرجس(رض) حين حملت بالمهدي (ع)، خفي حملها على أكثر النساء اللواتي كن قريبات منها. شاء الله لها أن تكون أمّاً لأكرم مولود، حارت به الظنون وضلّت به العقول. حلت ليلة النصف من شهر شعبان سنة 255 للهجرة، فطلب الإمام الحسن العسكري من عمته السيدة حكيمه أن تلازم «نرجس» في تلك الليلة ولا تفارقها. فقد شاعت العناية الإلهية أن تكون هذه الليلة المباركة، ليلة الخامس عشر من شعبان، هي الليلة الموعودة، لولادة المنتظر الموعود، ووضعت «نرجس» وليدها المبارك، تحيطه العناية برعايتها، وتحف الملائكة بمهده. وأسماء أبوه - إنفاذ لمشئته الله - محمداً المهدي.

هكذا إذن ولدت الإمام المهدي المنتظر (ع) في تلك الظروف الشديدة السرية. لكن قد أُلقي القبض عليها، فوُضعت تحت الرقابة الصارمة لفترات طويلة خوفاً من أن تلد الإمام المنتظر (ع). لكنها بعون الله تمكنت من ولادة الطفل المقدس (ع) في مدينة سامراء في سَحَر (15) شعبان، وذلك عام (255 هـ). تميّزت السيدة نرجس بصفات متعددة، منها: الشجاعة، والحكمة، والصمود، والكتمان، والمثالية. توفيت السيدة نرجس (رض) في سامراء ودفنت هناك مع زوجها الإمام العسكري (ع)، ولم يُحدّد لنا التاريخ الزمن الدقيق لوفااتها. مع العلم أن الإمام الحسن العسكري (ع) قد توفي مقتولاً بالسُّم في سنة (260 هـ). (وكانت سن الأبن الذي هو الامام المهدي (ع) خمس سنوات، حيث بقي في كنف جده وامه السيدة نرجس.

## المصادر

ان اهم المصادر التي تناولت حكاية الامام المهدي(ع) وهي بمعظمها سنية:

- صحيح البخاري ج 4.

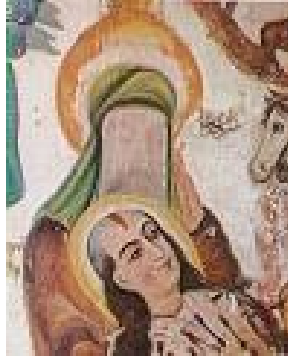
- كتاب بدء الخلق.

- باب نزول عيسى (ع).



- صحيح مسلم ج 8.
- مسند أبي داود: كتاب المهدي.
- سنن الترمذي ج 2.
- سنن المصطفى ج 2.
- ينابيع المودة للقندوزي الحنفي.
- شرح النهج لابن أبي الحديد.

### آمنة بنت الإمام الكاظم (ع)



من ربّات العبادة والصلاح، والزهد والتقوى، كانت من طبقة الأشراف.  
حكى خادم روضتها أنّه كان يسمع عندها قراءة القرآن في الليل، وينسب إليها المشهد المعروف باسمها  
بمصر بالقرافة الصغرى.  
وروى سادن روضتها: أنّ رجلاً جاء بعشرين رطلاً من الزيت، وعاهد الخادم أن يوقدها في ليلة واحدة،  
فجعله الخادم في القناديل، فلم يوقد منه شيء، فتعجّب الخادم من ذلك، ورآها في المنام فقالت له: يا فقيه ردّ  
عليه زيتَه واسأله من أين اكتسبه، فأبّا لا نقبل إلا الطيّب.  
فلما أصبح جاء إلى الرجل الذي أعطاه الزيت وقال له: خذُ زيتك.  
فقال: لم أخذه ؟  
فقال: إنّهُ لم يوقد منه شيء، ورأيتها في المنام فقالت: لا تقبل إلا الطيّب.  
فقال صدّقتُ السيّدة، إني رجل مكّاس.  
فقال: قفْ وخذه



### آمنة البغدادية

العلوية آمنة بنت أبي محمد الشريف قریش البغدادي، ينتهي نسبها إلى الإمام الحسين (ع). عالمة، فاضلة، محدّثة، فقيهة، من أكابر النساء المؤمنات في مطلع القرن السابع للهجرة في بغداد. ولدت في بغداد، وقرأت على أبيها الشريف قریش البغدادي المتوفى سنة 620هـ، ثم حضرت على الشيخ أبي طالب المبارك بن علي الصيرفي البغدادي، وقرأت عليه كتاب فضل الكوفة تأليف أبي عبدالله محمد بن علي الحسيني الشجري المتوفى سنة 455هـ. وقد قرأت معها هذا الكتاب أمّها شرف النساء بنت أبي طالب وأختها فاطمة، وقرأه معها أيضاً أخوها محمد، وكتب أبوهم في آخره بلاغ القراءة بتاريخ 560هـ، وتوجد هذه النسخة النفيسة من هذا الكتاب في المكتبة الظاهرية بدمشق، وعُثِّها مصوّرة في مكتبة أمير المؤمنين عليه السلام في مدينة النجف الأشرف.

### آمنة البهبهانية



آمنة بيگم بنت المولى محمد باقر بن محمد أكمل البهبهاني الحائري. ولدت في كربلاء حدود سنة 1160هـ، وتوفيت فيها حدود سنة 1243هـ، ودفنت عند نجلها السيد محمد المجاهد المتوفى سنة 1242هـ في المقبرة الخاصة المجاورة لمدرسة البقعة في سوق التجار فيما بين الحرمين. عالمة، فاضلة، مجتهدة، من أفقه نساء عصرها، متكلمة، واعظة، أصولية، محققة، محدّثة جليّة، ذات سند قوي، مؤلفة، كثيرة الزهد، عظيمة الورع. ولدت ونشأت في كربلاء، وأخذت المقدّمات وفنون الأدب وعلوم العربية على أعلام اسرتها، وتخرّجت في الفقه والأصول والحديث على والدها المؤسس المجدد الوحيد البهبهاني الحائري المتوفى سنة 1205هـ. ولما بلغت سنّ الرشد تزوّجت ابن عمّتها السيّد علي الطباطبائي الحائري المتوفى سنة 1231هـ صاحب كتاب الرياض، ورزقت منه ولدان: السيّد محمد المجاهد المتوفى سنة 1242هـ والسيّد مهدي الطباطبائي الحائري المتوفى سنة 1250هـ. ذكرها السيّد محسن الأمين في كتابه أعيان الشيعة في ذيل ترجمة ولدها السيّد محمد المجاهد قائلاً: لصاحب الترجمة أخ اسمه السيّد محمد مهدي أصغر منه كان أيضاً عالماً جليلاً، أمهما بنت الآغا البهبهاني وكانت

عالمة فقيهة.

ونقل السيّد حسن الأمين - فيما استدركه على أعيان والده - عن الاستاذ عبدالحسين الصالحي في كتابه المخطوط رياحين الشيعة عدداً من مؤلفاتها قائلاً: ولها مؤلفات في الفقه والأصول منها: مبحث الحيض من كتاب الرياض لزوجها السيّد علي الطباطبائي الحائري، ورسالة في النفاس، وكتاب الطهارة وغيرها. وكلها موجودة في مكتبة آل صاحب الرياض في كربلاء.

### الشهيدة آمنة الصدر (بنت الهدى)



فتحت آمنة الصدر عينيها، على قباب الكاظمين «ع» الذهبية، في يوم من أيام عام 1937م (1357هـ)، وسميت آمنة تيمناً بأسم أم الرسول الأكرم محمد(ص). والدها، هو الفقيه المحقق آية الله السيد حيدر الصدر، وهو من ابرز العلماء المسلمين في العراق، وما لبث والدها ان ترك فراغاً في قلبها - وهي لمّا تزل طفلة تحبو ببرائها على الارض - برحيله لدار الخلود، فجهدت امها الفاضلة «اخت المرجع المحقق الشيخ محمد رضا آل ياسين»، واخواها السيدان اسماعيل ومحمد في أن يحيا عن قلبها المفجوع هذه الذكرى المؤلمة. وقد أبدى عمها المجاهد السيد محمد الصدر - وهو احد المشاركين في ثورة العشرين العارمة ضد الاحتلال البريطاني للعراق - اهتماماً بها وبأخويها، وشجعهم على مواصلة دراساتهم، سواء في البيت - كالفئة الذكية آمنة - أو في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، كأخويها السيدين اسماعيل ومحمد.. وأصبح هم هذه الفتاة الرسالية، تحرير النساء من قيود الجهل والسطحية، فبدأت رحلتها المباركة، وهي لمّا تزل يافعة..

تم اختيار السيدة آمنة الصدر في عام 1967، لتكون المشرفة على مدارس الزهراء «عليها السلام» في الكاظمية. وقد اصدرت عدة كتب قصصية ودينية وشعرية. من شعرها:

قسما وان ملئ الطريق\*\*\*بما يعيق السير قدما  
قسماً وان جهد الزمان\*\*\*كي يثبط فيّ عزما  
أو حاول الدهر الخؤون\*\*\*بأن يريش إليّ سهما  
وتفاعلت شتى الظروف\*\*\*تكيل آلاماً وهما  
فتراكمت سحب الهموم\*\*\*بأفق فكري فبادلهما  
لن انتني عما أروم\*\*\*وإن غدت قدماي تُدمى  
كلا، ولن أدع الجهاد\*\*\*فغايتي أعلى وأسمى  
استشهادها

بحكم كونها شقيقة المرجع الكبير السيد الشهيد آية الله العظمى محمد باقر الصدر، مؤسس الحركة الإسلامية في العراق، فانها قد عاشت كل الاحداث التي مرّ بها الشعب العراقي، ابتداء من عام 1972، حينما اودع النظام الجائر شقيقها السيد الشهيد مستشفى مدينة الكوفة - بعد اعتقاله - مقيداً إلى سريره بسلاسل حديدية.

وهتفت السيدة الشهيذة مكبرة في مرقد الإمام علي «عليه السلام»، عام 1979، بعد ان اعتقل جلاوزة النظام السيد الشهيد قائلة: «الظليمة.. الظليمة.. أيها الناس، هذا مرجعكم قد اعتقل»، ودوى صوتها هادراً وهي تخاطب مدير أمن النجف المجرم أبو سعد وجلاوزته: «الناس الآن نيام، لكنهم لن يبقوا نياماً، ولا بدّ للشعب أن يستقيظ من سباته ويهب من نومه». وعلى اثر ذلك انطلقت التظاهرات، في النجف الاشرف أولاً، وفي أغلب انحاء العراق ثانياً، استجابة لاستغاثة السيدة الشهيذة.. وأطلق النظام سراح السيد الشهيد، ولكنه وضعه تحت الإقامة الجبرية، مع شقيقته الفاضلة، واستمرت الإقامة فترة عشرة أشهر تقريباً، عانى فيها البيت الكريم الأمرين من الأذى والإضطهاد، إذ كانوا قد حوصروا بشكل تام، من قبل أزلام السلطة، وسجلت الشهيذة معاناتها في كتاب «أيام المحنة».. وفي 5 نيسان 1980م، اعتقل المرجع الشهيد الصدر، مع شقيقته الفاضلة، وأودعا أحد سجون بغداد، حيث أعدموا بشكل فجيع، بعد ثلاثة أيام.. ولم تنتن «بنت الهدى» ولم تتراجع، وبرّت بقسمها الذي قطعت على نفسها، وحققت أملها، الذي أعلنته لإحدى تلميذاتها بقولها: «إنّ حياتي من حياة أخي، وسوف تنتهي مع حياته إن شاء الله»..

### شخصيات معاصرة

علي الداوقى - كركوك

هنا شخصيات شيعية معاصرة، أما أنها عراقية الهوية، أو أنها عاشت وأبدعت في العراق..

### آية الله السيد محمد باقر الصدر



آية الله السيد محمد باقر الصدر مفكر وفيلسوف إسلامي ومرجع ديني شيعي عراقي.

ولد السيد محمد باقر الصدر في مدينة الكاظمية في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة 1353 هجري (1935 ميلادي). فقد السيد الصدر والده وعمره أربع سنوات إذ توفى السيد حيدر الصدر عن عمر يناهز الثامنة والأربعين، وقد تولى الإشراف عليه بعد فقدان والده أخيه السيد إسماعيل الصدر. تعلم القراءة والكتابة وتلقى جانباً من الدراسة في مدارس منتدى النشر الابتدائية، في مدينة الكاظمية وهو صغير السن وكان موضع إعجاب الأساتذة والطلاب لشدة ذكائه ونبوغه المبكر، وقد درس أكثر كتب السطوح العالية دون أستاذ. ابتداء السيد الصدر دراسته لمقدمات العلوم بالكاظمية وهو في سن العاشرة. وبدأ بدراسة المنطق وهو في سن الحادية عشرة من عمره، وفي نفس الفترة كتب رسالة في المنطق، وكانت له بعض الإشكالات على الكتب المنطقية. في بداية الثانية عشرة من عمره بدأ بدراسة كتاب معالم الأصول عند أخيه السيد إسماعيل الصدر، وكان يعترض على صاحب المعالم، فقال له أخوه: إن هذه الاعتراضات هي نفسها التي اعترض بها صاحب كفاية الأصول على صاحب المعالم.



في سنة 1365 هجري (1946 ميلادي) هاجر السيد محمد الصدر من الكاظمية المقدسة إلى النجف الأشرف؛ لإكمال دراسته، وتتلّمذ عند شخصيتين بارزتين من أهل العلم البارزين في المذهب الشيعي وهما: آية الله الشيخ محمد رضا آل ياسين، وآية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي، وأنهى دراسته الفقهية عام 1379 هجري (1959 ميلادي) و الأصولية عام 1378 هجري (1958 ميلادي) عند آية الله السيد الخوئي. نال السيد درجة الاجتهاد وهو في أواخر العقد الثاني من عمره، وبدأ في إلقاء دروسه وهو لم يتجاوز الخمس وعشرون عاماً، فقد بدأ بتدريس الدورة الأولى في علم الأصول في جمادي الآخرة عام 1378 هجري (1958 ميلادي) وأنهاها في ربيع الأول عام 1391 هجري (1971 ميلادي)، وشرع بتدريس الدورة الثانية في العشرين من رجب من نفس السنة، كما بدأ بتدريس البحث الخارج في الفقه على نهج العروة الوثقى في سنة 1381 هجري (1961 ميلادي).

تصدى السيد الصدر بشكل فلسفي وفكري لما تتعرض له الساحة العراقية في الخمسينات من اشتداد الحركة الشيوعية. من ناحية أخرى أصدر فتوى بحرمة الانتماء لحزب البعث، حتى لو كان الانتماء صورياً، وأعلن ذلك، فكان هو المرجع الوحيد الذي أفتى بذلك، وحزب البعث في أوج قوته وكان ذلك جزءاً من العلة وأحد الأسباب التي أدت إلى إعدامه وكان يعتقد بأهمية وضرورة إقامة حكومة إسلامية، تحكم بما أنزل الله عزوجل، وعرف السيد الصدر بمناصرتة للثورة الإسلامية في إيران و الإمام الخميني وكان على معرفة به أيام تواجد الخميني في النجف الأشرف. وبعد قيام النظام الإسلامي في إيران أعلن ما كان يرجوه من دولة إسلامية قد تحقق فعلاً.

مؤلفاته

ألف في مختلف حقول المعرفة فمن كتبه في الفلسفة كتاب "فلسفتنا" وهو كتاب يعرض فيه الآراء الفلسفية في نقاش مع الماركسية وغيرها من النظريات الفلسفية وفي الاقتصاد "اقتصادنا" وهو كتاب يشرح النظرية الاقتصادية وفق المنظور والتصور الإسلامي. ومن أشهر كتبه وأهمها كتاب في نظرية المعرفة "الاسس المنطقية للاستقراء" الذي يستدل به على طريقة حصول اليقين عن غير طريق البرهان الارسطي المعروف بما يسمى "بالتوالد الذاتي للمعرفة". بالإضافة إلى تأليفاته في الفقه وأصول الفقه التي تعتبر قفزة نوعية للتفكير الاصول في المدرسة الدسنية لو صح التعبير.

وفاته

بعد أن أمضى السيد الصدر عشرة أشهر في الإقامة الجبرية، تم اعتقاله في التاسع عشر من جمادي الأولى عام 1400 هجري الموافق للخامس من إبريل عام 1980 ميلادي مع أخته بنت الهدى ونقلًا إلى بغداد. وبعد ثلاثة أيام من الاعتقال وفي مساء اليوم التاسع من إبريل لعام 1980 ميلادي، طلب من السيد محمد صادق الصدر الحضور إلى بناية محافظة النجف، وكان بانتظاره مدير أمن النجف، فقال له: هذه جنازة الصدر وأخته، قد تم إعدامهما، وطلب منه أن يذهب معهم لدفنهما، فأمر مدير الأمن بفتح التابوت، فشاهد السيد محمد صادق السيد محمد باقر الصدر مضرجاً بدمائه، و آثار التعذيب على وجهه، وكذلك كانت أخته بنت الهدى (رحمهما الله). و تم دفنهما في مقبرة وادي السلام، المجاورة لمرقد الإمام علي عليه السلام في النجف الأشرف.

آية الله السيد محمد صادق الصدر



## آية الله السيد محمد صادق الصدر

آية الله السيد محمد محمد صادق الصدر (23 مارس 1943م - 9 فبراير 1999) في مدينة النجف في العراق. هجرياً ولد في السابع عشر من ربيع الاول عام 1362 هجري. وهو ابن عم محمد باقر الصدر المرجع الشيعي الذي إعدم بأمر من صدام حسين في سنة 1980 نتيجة لأرائه الإسلامية التي كانت تعارض التوجهات العلمانية للحكومة آنذاك. وكان محمد صادق الصدر هو احد تلاميذ محمد باقر الصدر ولكن بعد وفاة الأخير عزل محمد صادق الصدر نفسه عن الحياة الاجتماعية ويقوم بتقية مشددة لمدة 9 سنين، كما وصفها هو في لقاء الحنانة الذي اجري معه.

ونتيجة لذلك حاول النظام العراقي استخدامه كأداة ضد إيران، فعينه مديراً للحوزة العلمية في النجف مما أثار الكثير من الشبهات حول علاقاته مع النظام العراقي. ولكنه بعد ذلك استطاع ومن خلال خطب الجمعة التي كان يقدمها مرتدياً كفناً أبيضاً أن يبرهن أن استطاع خداع النظام وإبراز صورة غير حقيقية عن نفسه لصدام حسين مما مكنه من الصعود إلى هذا المنصب والتكلم مع الناس مباشرة، وطبعاً لم يرتج النظام العراقي لهذا فتم قتله مع اثنين من ابنائه في حادث سيارة مفقعل، وبعد استشهاداه تغير لون السماء ألى الأحمر بعد ان القى ما يقارب الأربعين خطبة جمعة ناقش فيها الكثير من المشاكل الاجتماعية واليومية للشعب العراقي.



السيد مقتدى الصدر، ابن الامام محمد صادق الصدر..

ومن أبرز أولاده الآن مقتدى الصدر الذي يترأس التيار الصدري وجيش المهدي الرافض للوجود العسكري الأمريكي في العراق.

## آية الله السيد محسن الحكيم



السيد محسن بن مهدي بن صالح بن أحمد بن حمود بن إبراهيم بن علي الطباطبائي الحكيم، أحد علماء الإمامية، ولد في النجف الأشرف، وقيل في بلدة بنت جبيل ببلبنان سنة 1306هـ. توفي والده وهو صغير، فتكفل تربيته أخوه الأكبر السيد محمود، وشرع في قراءة القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، ثم ابتدأ بدراسة علم النحو، ودرس المقدمات على أخيه السيد محمد، وعلى جملة من الفضلاء.

برز في الأوساط العلمية في النجف الأشرف، حتى أصبح سنة 1333هـ في مصاف العلماء، وعندما قاد السيد الحبوبى جمهور المسلمين في العراق في جبهة الناصرية ضد الاحتلال الإنكليزي، استصفاه السيد الحبوبى لنفسه، وأولاه ثقته.

توجه للتدريس بعد رجوعه من الجهاد، وسافر في سنة 1350 هـ إلى جبل عامل في لبنان، فمكث فيها، يفتي ويعظ ويرشد ويفض الخصومات، ثم رجع إلى النجف الأشرف سنة 1315هـ. قام بنشر الثقافة الدينية والعلمية عن طريق تأسيس المكتبات العامة، فأسس المكتبة المعروفة باسم «مكتبة آية الله الحكيم» في النجف، وهو أول من أسس مكتبة عامة فيها، وأنشأ لها فروعاً في العراق، وأندونيسيا، وسوريا ولبنان. توفي ببغداد سنة 1390هـ، ونقل جثمانه إلى النجف الأشرف، فدفن هناك. له عدة مؤلفات، منها: مستمسك العروة الوثقى، نهج الفقاهة، حقائق الأصول، شرح التبصرة، دليل الناسك، منهاج الصالحين، منتخب الرسائل، منهاج الناسكين.



نجوم آل الحكيم

لا شك أن أسرة الحكيم في النجف تعدّ من أفخر الأسر وإلى جانب ما تمتع به السيد الحكيم من نشاطات اجتماعية وعلمية فقد حباه الله بذرية لمع نجمها في سماء العلم خلف السيد الحكيم من الأبناء عشرة ومن البنات أربعاً وهم:

1 - آية الله الحاج السيد يوسف الحكيم ولده الأكبر والذي كان من أساتذة الفقه والأصول في حوزة النجف الأشرف.

2 - حجة الإسلام والمسلمين الحاج السيد محمد رضا الحكيم.

3 - الشهيد حجة الإسلام والمسلمين الحاج السيد محمد مهدي الحكيم.

4 - حجة الإسلام والمسلمين الحاج السيد كاظم الحكيم.

5 - آية الله شهيد المحراب السيد محمد باقر الحكيم والذي كان يترأس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق والذي حمل لواء الجهاد بعزم وصبر فكان خير خلف لخير سلف.

6 - الشهيد حجة الإسلام والمسلمين الدكتور السيد عبد الهادي الحكيم.

7 - الشهيد آية الله الحاج السيد عبد الصاحب الحكيم.

8 - الشهيد حجة الإسلام والمسلمين السيد علاء الدين الحكيم.

9 - الشهيد حجة الإسلام والمسلمين الحاج السيد محمد حسين الحكيم.

10 - حجة الإسلام والمسلمين الحاج السيد عبد العزيز الحكيم وهو الرئيس الحالي للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق.

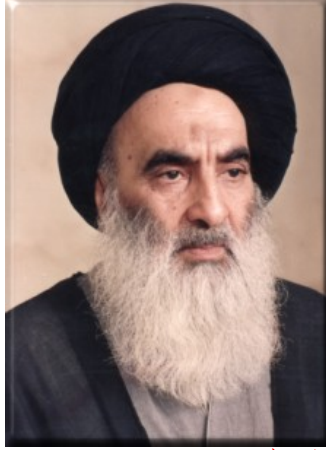
**المصادر:**

1. أعيان الشيعة، ج9، ص56، 57.

2. الأعلام، ج5، ص290.

3. حاشية معارف الرجال، ج3، ص121، 122، 125، 128.
4. ماضي النجف وحاضرها، ج1، ص173.
5. معجم رجال الفكر والأدب في النجف، ج1، ص423، 424.
6. الذريعة، ج14، ص60، 63، و ج3، ص209.

### آية الله السيد علي السيستاني



آية الله السيد علي السيستاني

آية الله العظمى السيد علي الحسيني السيستاني (1930-..) هو أحد أهم المرجعيات الدينية الشيعية في العراق ولدى الشيعة في العالم الإسلامي على العموم , يعيش حياة بسيطة في مدينة النجف , خلف آية الله السيد ابو القاسم الخوئي في زعامة حوزة النجف الأشرف أحد أهم المراكز في العالم للدراسات الدينية لدى الشيعة الإثنا عشرية الأصولية. المولد والنشأة

ولد السيد السيستاني في مدينة مشهد شرق ايران حيث يوجد ضريح الإمام علي الرضا (ع) ثامن أئمة الشيعة في التاسع من شهر ربيع الاول عام 1349 هجري أي في 4 اغسطس 1930 ميلادي. نشأ سمأته في أسرة علمية دينية ملتزمة، لعائلة من رجال الدين، عرف بالسيستاني نسبة إلى مدينة سيستان وهي مدينة تقع الى الجنوب الشرقي من الجمهورية الإسلامية في إيران فبعد أن كانوا يسكنون مدينة أصفهان في عهد السلاطين الصفويين عين جده الاعلى (السيد محمد) في منصب شيخ الاسلام في سيستان في زمن السلطان حسين الصفوي فانتقل اليها وسكنها هو وذريته من بعده إلا أن جده الأدنى (السيد علي) هاجر منها فيما بعد الى مدينة مشهد.

#### مسيرة تحصيله العلمي

بدأ سمأحة السيد وهو في الخامسة من العمر بتعلم القرآن الكريم ثم دخل مدرسة دار التعليم الديني لتعلم القراءة والكتابة ونحوها، وفي عام 1941 بدأ بتوجيه من والده بقراءة مقدمات العلوم الحوزوية، فآتم قراءة جملة من الكتب الادبية، وحضر في المعارف الالهية دروس العلامة المرحوم الميرزا مهدي الاصفهاني المتوفى سنة 1946 كما حضر بحوث الخارج للمرحوم الميرزا مهدي الآشتياني والمرحوم الميرزا هاشم القزويني وفي عام 1949 هاجر الى مدينة قم لاكمال دراسته فحضر عند العلامتين المعروفين السيد حسين الطباطبائي البروجردي والسيد محمد الحجة الكوهكمري، وكان حضوره عند الاول في الفقه والاصول وعند الثاني في الفقه فقط.

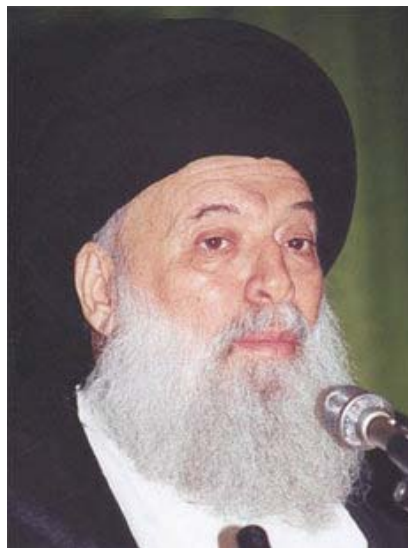
وفي عام 1951 هاجر من مدينة قم الى النجف الاشرف، فسكن مدرسة البخارائي العلمية وحضر بحوث آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي والعلامة الشيخ حسين الحلي في الفقه والاصول ولازمها مدة طويلة، وحضر خلال ذلك أيضاً بحوث بعض الاعلام الآخرين منهم الامام الحكيم والسيد الشاهرودي.



في عام 1961 عزم على السفر الى موطنه مشهد وكان يحتمل استقراره فيه فكتب له استاذة آية الله العظمى السيد الخوئي واستاذة العلامة الشيخ الحلي شهادتين ببلوغه درجة الاجتهاد، كما كتب شيخ محدثي عصره الشيخ أغا بزرك الطهراني شهادة أخرى يطري فيها على مهارته في علمي الحديث والرجال. وعندما رجع الى مدينة النجف الأشرف في أواخر عام 1961 ابتداءً بالقاء محاضراته الدرس الخارج في الفقه وأعقبه بشرح العروة الوثقى وقد كانت له محاضرات فقهية أخرى خلال هذه السنوات تناولت كتاب القضاء وأبحاث الربا وقاعدة الالتزام وقاعدة التقية وغيرهما من القواعد الفقهية. كما كانت له محاضرات رجالية شملت حجية مراسيل ابن ابي عمير وشرح مشيخة التهذيبين وغيرهما. مرجعيته

نقل بعض أساتذة النجف الأشرف أنه بعد وفاة آية الله السيد نصر الله المستنبط اقترح مجموعة من العلماء على الإمام الخوئي إعداد الأراضية لشخص يُشار إليه بالبنان، مؤهل للمحافظة على المرجعية والحوزة العلمية في النجف الأشرف، فكان اختيار سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني. وبعد وفاة الخوئي تصدى آية الله السيستاني لشؤون المرجعية وزعامة الحوزة العلمية، بإرسال الإجازات، وتوزيع الحقوق، والتدريس على منبر الإمام الخوئي في مسجد الخضراء , وبدأ ينتشر تقليده وبشكل سريع في العراق والخليج ومناطق أخرى، كالهند وأفريقيا وغيرها، وهو من القلة المعدودين من كبار الفقهاء الذين تدور حولهم الألفية بشهادة غير واحد من أهل الخبرة وأساتذة الحوزات العلمية في النجف الأشرف وقم.

### آية الله السيد محمد حسين فضل الله



### آية الله السيد محمد حسين فضل الله

ولد آية الله السيد محمد حسين فضل الله في النجف الأشرف في العراق في التاسع عشر من شعبان لعام 1354 هجري. بدأ بالدراسة في الحوزة العلمية في سن مبكرة جداً، كان تقريباً في التاسعة من عمره، وعندما وصل إلى سن السادسة عشر بدأ بحضور دروس الخارج. وهو من اصل لبناني ويقيم الآن في لبنان. أساتذته ودراسته

درس على يد كبار علماء الدين الشيعة وأساتذة الحوزة آنذاك، أمثال: السيد أبو القاسم الخوئي، والمرجع الديني السيد محسن الحكيم المشهور بفتواه ضد حزب البعث، والسيد محمود الشاهرودي، والشيخ حسين الحلي، وحضر درس الأسفار عن الملا صدرا البادكوبي. ومن أشهر من عاصرهم السيد محمد باقر الصدر الذي اخذ تقاريراته إلى السيد الخوئي حيث قام الأخير بإعطاء محمد حسين فضل الله فيما بعد وكالة مطلقة. ثم بدأ بعد ذلك بالتدريس العلمي حيث أصبح أستاذاً للفقه والأصول في حوزة في النجف الأشرف. وقد شرع في تدريس بحث الخارج منذ ما يقارب العشرين عاماً ويحضر درسه العديد من الطلاب من شتى أنحاء العالم الإسلامي عموماً والعربي على وجه الخصوص.

في لبنان: انتقل محمد حسين فضل الله من العراق إلى لبنان في سنة 1966 ميلادي، وأسس هناك حوزة المعهد الشرعي الإسلامي. وحدثت له عدة محاولات اغتيال نتيجة لانتهاجه الخط الإسلامي، وبدأ يلقي الخطب والمحاضرات هناك. وقد أنشأ عدة جمعيات خيرية ومبرات للأيتام. مرجعيته وفكره: أصبح السيد محمد حسين فضل الله آية الله العظمى وهو لقب يطلق على كل ما يحصل على درجة الاجتهاد في الفقه الشيعي، وقد جمع فتاواه في كتاب فقه الشريعة المكون من ثلاثة أجزاء. تتميز فتاواه وأفكاره بمناقشة المسلمات وخصوصاً في الفكر الشيعي، مما أدى إلى معارضة قوية من بعض العلماء الآخرين، ولا سيما مناقشته لقضية كسر ضلع فاطمة الزهراء، وحرق الدار، والمسائل العقائدية كالعصمة وغيرها. ولعله قد تأثر بفكر الشيخ المفيد أحد عظماء رجال الدين الشيعة الماضين. المؤلفات: للسيد محمد حسين فضل الله الكثير من المؤلفات التي كانت نتاج تحصيل علمي طويل، وتتنوع هذه المؤلفات ما بين مجلدات ضخمة وما بين كتيبات صغيرة.

### الشيخ عبد الزهرة الكعبي



اننا نستثمر هذه الموضوع، لكي نشير الى المعضلة الكبرى التي تعاني منها الثقافة العراقية، وهي ذلك الاهمال الكبير للشخصيات المبدعة العراقية، من قبل الاجهزة الرسمية والحزبية، ومن قبل المثقفين والاكاديميين كذلك. تصوروا ان شخصية كبيرة مثل(عبد الزهرة الكعبي) الذي تربت على صوته الجياش الحنون اجيل بكاملها وخلال سنوات طويلة، بحيث ارتبطت قصة مقتل الحسين(ع) باسم هذا المتدين العميق والزاهد الكبير والفنان الاصيل.. لكننا مع هذا لم نستطع ان نعرث، لا في الكتب ولا في الصحف ولا في مواقع الانترنت، على أي موضوع او معلومات عن حياته وابداعاته ولا على صورته ولا على نص المقتل الذي كان يقرأه.. وقد مات فقيراً زاهداً مجهولاً؟؟!!

لنعرف فقط، ان مثل هذه الشخصية لو كانت، ليس في اوربا فحسب، بل في مصر مثلاً، لاصبح ناراً على علم في كل العالم العربي ولانتجت عن حياته وعن ابداعاته الكتب والبحوث والمنشورات والافلام؟؟!! (ميزوبوتاميا)

مولده بذكرى مولد الصديقة الزهراء (ع) في الخامس عشر من شهر جمادى الأولى في عام 1327 هـ بربلاء المقدسة، ووفاته بذكرى وفاتها في الخامس عشر من شهر جمادى أيضاً عام 1394 هـ الموافق 6 / 6 / 1973 م وبين الولادة والوفاة مسيرة طولها سبعاً وستين عاماً حافلة بالعطاء والعظمة وكأن الإرادة الإلهية شاءت أن تنطلق هذه المسيرة المظفرة مع الزهراء وولائها حتى أصبح عبد الزهراء اسماً على مسمى وكان فيه قول القائل:

يا قوم قلبي عند زهراء\*\*\*يقصده السامع والراني  
لا تدعني إلا بيا عبدها\*\*\*فإنه أشرف أسمائي

من أساليب التكريم التي سلكها أئمة أهل البيت (ع) لتخليد أصحابهم ربط أسمائهم بعمل من الأعمال الخالدة التي تمارس بمرور الليالي والأيام أبد الدهر، كما خلد كميل بن زياد النخعي بدعاء أمير المؤمنين (ع) الذي يقرأ في كل ليلة جمعة فلا يقال عنه دعاء أمير المؤمنين وإنما دعاء كميل. وولد أبو حمزة الثمالي بدعاء الإمام زين العابدين (ع) في أسحار شهر رمضان الشهير بدعاء أبي حمزة، وهكذا نرى اقتران هذه الأسماء اللامعة لطلانع الجهاد والعقيدة بهذه الأعمال الجليلة الخالدة.

أما شيخ القراء الخطيب الراحل الشيخ عبد الزهراء الكعبي فقد خلد الحسين (ع) بقراءة المقتل الذي يعتبر من أهم الوثائق التاريخية لمحنة كربلاء الدامية. وقد تفرد الكعبي في عرض قصة المقتل بطريقته الثاقبة وأسلوبه الحزين، حتى أصبح المقتل ركناً من أركان الشعائر الحسينية، وقطباً من أقاب أعمال عاشوراء، وفاعلية هامة من فاعليات المنبر الحسيني. وكانت السنة الأولى من المقتل عام 1371 هـ بجوار حرم الإمام الحسين (عليه السلام)، الذي يصور كيف رسم الحسين معالم الحرية والكرامة بدمه الزكي، ثم يصور تلك الوثيقة لأعمال وحشية وممارسات بربرية التي ارتكبتها السلطات الأموية نحو أهل بيت النبوة. وللشيخ الكعبي باع طويل في الأدب العربي بقسميه الفصح والدارج فقد ذكر المرجاني في كتابه خطباء المنبر أن له ديوان شعر تحت عنوان: (دموع الأسى) لا يزال مخطوطاً. وقد هجمت عليه المنية، وباغته ريب المنون بعد ارتقائه المنبر يؤين الزهراء بذكرى وفاتها. والتحق بركب الحسين مع الشهداء والصديقين (ع). فسلام عليك وعلى روحك الطيبة وجسدك الطاهر، وطبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم وفزتم فوزاً عظيماً.

### المراكز الثقافية الشيعية

#### الشيخ جعفر السبحاني



الكوفة، وريثة بابل، كانت أولى المراكز الثقافية الشيعية في التاريخ..

انشأ شيعة العراق عدة مراكز ثقافية في عدة مدن عراقية:

اولا - مدرسة الكوفة وجامعها الكبير: قد سبق أن الإمام علي (ع) أمير المؤمنين هاجر من المدينة إلى الكوفة واستوطن معه خيار شيعته ومن تربي على يديه من الصحابة والتابعين. ولقد أتى ابن سعد في طبقاته الكبرى على ذكر جماعة من التابعين الذين سكنوا الكوفة وكان قد أعان على ازدهار مدرسة الكوفة مغادرة الإمام الصادق (ع) المدينة المنورة إلى الكوفة أيام أبي العباس السفاح حيث بقي فيها مدة سنتين. وقد اغتنم الإمام الصادق فرصة ذهبية أوجدتها الظروف السياسية آنذاك، وهي أن الحكومة العباسية كانت

جديدة العهد بعد سقوط الدولة الأموية ولم يكن للعباسيين يومذاك قدرة على الوقوف في وجه الإمام لانشغالهم بأمور الدولة، بالإضافة إلى أنهم كانوا قد رفعوا شعار العلويين للوصول إلى السلطة، فلم يكن من مصلحتهم في تلك الفترة الوقوف في وجه الإمام (ع)، فعمد في زمن وجوده (ع) إلى نشر علوم جمة، وتخرج على يديه الكثير من الطلبة النابغين. هذا الحسن بن علي بن زياد الوشاء يحكي لنا ازدهار مدرسة الكوفة في تلك الظروف كما ينقله عنه النجاشي: أدركت في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - تسعمائة شيخ كل يقول: حدثني جعفر بن محمد.

ويضيف النجاشي: كان هذا الشيخ عينا من عيون هذه الطائفة وله كتب، ثم ذكر أسماءها. وكان من خريجي هذه المدرسة لفيف من الفقهاء الكوفيين، نظير أبان بن تغلب بن رباح الكوفي، ومحمد بن مسلم الطائفي، وزرارة بن أعين، إلى غير ذلك ممن تكفلت كتب الرجال بذكرهم والتعريف بهم. ولقد ألف فقهاء الشيعة ومحدثوهم في هذه الظروف في الكوفة (6600) كتاب، ولقد امتاز من بينها (400) كتاب اشتهرت بالأصول الأربعمئة فهذه الكتب هي التي أدرجها أصحاب الجوامع الحديثية في كتبهم المختلفة. ولم تقتصر الدراسة آنذاك على الحديث والتفسير والفقه، بل شملت علوما أخرى ساعدت على تخريج جملة واسعة من المؤلفين الكبار الذين صنفوا كتباً كثيرة في علوم مختلفة ومتنوعة كهشام بن محمد بن السائب الكلبي الذي ألف أكثر من مائتي كتاب، وابن شاذان ألف 280 كتاباً، وابن عمير صنف 194 كتاباً، وابن دول الذي صنف 100 كتاب، وجابر بن حيان أستاذ الكيمياء والعلوم الطبيعية، إلى غير ذلك من المؤلفين العظام في كافة العلوم الإسلامية.

ثانياً- مدرسة بغداد: كانت مدرسة الكوفة تزدهر بمختلف النشاطات العلمية عندما كانت بغداد عاصمة الخلافة، ولما دب الضعف في السلطة العباسية وصارت السلطة بيد البويهيين تنفس علماء الشيعة في أكثر مناطق العراق، فأسست مدرسة رابعة للشيعة في العاصمة أنجبت شخصيات مرموقة تفتخر بها الإنسانية نظير:

1 - الشيخ المفيد (336 - 413 هـ) تلك الشخصية الفذة الذي اعترف المؤلف والمخالف بعلمه، وذكائه، وزهده، وتقواه، وكان شيخ أساتذة الكلام في عصره الذي شهد قمة الجدل الفكري والعقائدي بين المدارس الفكرية المختلفة، وكان - رحمه الله - عظيم الشأن رفيع المنزلة، له كرسي للتدريس في مسجد براكا في بغداد، يقصده العلماء والعوام للاستزادة من علمه، وله أكثر من (200) مصنف في مختلف العلوم.

2 - السيد المرتضى علم الهدى (355 - 436 هـ)، قال عنه الثعالبي في يتيمة (1: 53) قد انتهت الرئاسة اليوم ببغداد إلى المرتضى في المجد والشرف والعلم والأدب والفضل والكرم. وفي تاريخ ابن خلكان: كان إماماً في علم الكلام والأدب والشعر. السيد المرتضى الذي حاز من العلوم ما لم يدانه فيها أحد في زمانه، أخذ العلم على يد أستاذ المتكلمين الشيخ المفيد - رحمه الله - وله مصنفات كثيرة لا يسعنا عدها هنا، منها: الانتصار، تنزيه الأنبياء، جمل العلم والعمل وغيرها.

3 - السيد الرضي (359 - 406 هـ)، علم من أعلام عصره في العلم والحديث والأدب، درس العلم هو وأخوه السيد المرتضى على يد الشيخ المفيد - رحمه الله - له مؤلفات جمة منها: خصائص الأنمة، معاني القرآن، حقائق التأويل.

4 - الشيخ الطوسي (385 - 460 هـ) وهو شيخ الطائفة ومن أعلام الأمة، تربى على يد شيخه المفيد والسيد المرتضى. وله مؤلفات جمة غنية عن التعريف، منها كتابا: "التهذيب" و"الإستبصار" وهما من المصادر المهمة عند الشيعة.

وكانت مدرسة بغداد زاهرة في عهد هذه الأعلام واحد بعد الآخر، وقام كل منهم بدور كبير في تطوير العلوم وتقديمها، وكان يحضر في حلقات دروسهم منات من المجتهدين والمحدثين من الشيعة والسنة. واستمر هذا الحال إلى أن ضعفت سلطة البويهيين، ودخل طغرل بك الحاكم التركي بغداد، فأشعل نار الفتنة بين الطائفتين السنة والشيعة، وأحرق دوراً في الكرخ، ولم يكتف بذلك حتى كبس دار الشيخ الطوسي وأخذ ما وجد من دفاتره وكتبه، وأحرق الكرسي الذي كان الشيخ يجلس عليه.





بغداد كانت ثاني المراكز الثقافية الشيعية في التاريخ

ثالثا- مدرسة النجف الأشرف: إن هذه الحادثة المؤلمة التي أدت إلى ضياع الثروة العلمية للشيعية وقتل العديد من الأبرياء، دفعت الشيخ الطوسي - رحمه الله - إلى مغادرة بغداد واللجوء إلى النجف الأشرف وتأسيس مدرسة علمية شيعية في جوار قبر أمير المؤمنين (ع)، وشاء الله تبارك وتعالى أن تكون هذه المدرسة مدرسة كبرى أنجبت خلال ألف سنة من عمرها عشرات الآلاف من العلماء والفقهاء والمتكلمين والحكماء. والمعروف أن الشيخ الطوسي هو المؤسس لتلك الجامعة العلمية المباركة، وهو حق لا غبار عليه، ومع ذلك يظهر من النجاشي وغيره أن الشيخ ورد عليها وكانت غير خالية من النشاط العلمي. يقول في ترجمة الحسين بن أحمد بن المغيرة: له كتاب عمل السلطان أجازنا بروايته أبو عبد الله بن الخمرى الشيخ صالح في مشهد مولانا أمير المؤمنين سنة (400 هـ). ولقد استغل الشيخ تلك الأرضية العلمية، وأعانتة على ذلك الهجرة العلمية الواسعة التي شملت أكثر الأقطار الشيعية، فتقاطرت الوفود إليها، من كل فج، فصارت حوزة علمية، وكلية جامعة في جوار النبا العظيم علي أمير المؤمنين - من عصر تأسيسها (448 هـ) - إلى يومنا هذا، ولقد مضى على عمرها قرابة (1000) سنة، وهي بحق شجرة طيبة أصلها في الأرض وفرعها في السماء آتت أكلها كل حين بإذن ربها. إن لجامعة النجف الأشرف حقوقا كبرى على الإسلام والمسلمين عبر القرون، فمن أراد الوقوف على تاريخها والبيوتات العلمية التي أنجبتها، فعليه الرجوع إلى كتاب "ماضي النجف وحاضرها" يقع في ثلاثة أجزاء.

وقد قام الشيخ هادي الأميني بتخريج أسماء طائفة من العلماء الذين تخرجوا من هذه المدرسة الكبرى. رابعا - مدرسة الحلة: في الوقت الذي كانت جامعة النجف تزدهر وتتجب جملة من العلماء الأفاضل، تأسست للشيعية في الحلة الفيحاء جامعة كبيرة أخرى كانت تحفل بكبار العلماء، وتزدهر بالنشاط الفكري، عقدت فيها ندوات البحث والجدل، وأنشئت فيها المدارس والمكاتب، وظهر في هذا الدور فقهاء كبار كان لهم الأثر الكبير في تطوير الفقه الشيعي وأصوله، نأتي بأسماء بعضهم:

1 - المحقق الحلي، نجم الدين أبو القاسم جعفر بن سعيد، من كبار فقهاء الشيعة، يصفه تلميذه ابن داود بقوله: الإمام العلامة، واحد عصره، كان ألسن أهل زمانه، وأقواهم بالحجة، وأسرعهم استحضاراً توفي عام (676 هـ). له من الكتب: "شرائع الإسلام" في جزأين، وهو أثر خالد شرحه العلماء وعلقوا عليه.

واختصره في كتاب أسماه "المختصر النافع" وشرحه أيضا وأسماه "المعتبر في شرح المختصر".

2 - العلامة الحلي، جمال الدين حسن بن يوسف (648 - 726 هـ) تخرج على يد خاله المحقق الحلي في الفقه، وعلى يد المحقق الطوسي في الفلسفة والرياضيات، وعرف بالنبوغ وهو بعد لم يتجاوز سن المراهقة، وقد بلغ الفقه الشيعي في عصره القمة، وله موسوعات فيه أجّلها "تذكرة الفقهاء" ولعله لم يؤلف مثله.

3 - فخر المحققين، محمد بن الحسن بن يوسف (682 - 771 هـ) ولد العلامة الحلي، تتلمذ على يد أبيه، ونشأ تحت رعايته وعنايته، وألف والده قسما من كتبه بالتماس منه، وقد تتلمذ عليه إمام الفقه الشهيد الأول (734 - 786 هـ).

إلى غير ذلك من رجال الفكر كابن طاووس، وابن ورام، وابن نما، وابن أبي الفوارس الحلبيين، الذين حفلت بهم مدرسة الحلة، ولهم على العلم وأهله أياد بيضاء، لا يسعنا ذكر حياتهم.

خامسا - مدارس الشيعة في الشامات: كانت الشيعة تعيش تحت الضغط والإرهاب السياسي من قبل الأمويين والعباسيين، فلما دب الضعف في جهاز الخلافة العباسية، وظهرت دول شيعية في العراق - خصوصا دولة الحمدانيين في الموصل وحلب - استطاعت الشيعة أن تجاهر بنشاطها الثقافي، وفي ظل هذه الحرية أسست مدارس شيعية في جبل عامل، وحلب، تخرج منها العديد من العلماء الأفذاذ والفضلاء. فأما حلب فقد ازدانت بالعديد من الأسماء اللامعة كأبناء زهرة وغيرهم، من رجال العلم والأدب. وأما مدرسة جبل عامل فقد كانت تتراوح بين القوة والضعف، إلى أن رجع الشهيد الأول من العراق إلى مسقط رأسه " جزين "، فأخذت تلك المدرسة في نفسها نشاطا واسعا، وقد تخرج من تلك المدرسة منذ تلك العهود إلى يومنا هذا مئات من الفقهاء والعلماء لا يحصيها إلا الله سبحانه، ومن الشخصيات البارزة في هذه المدرسة: المحقق الشيخ علي الكركي مؤلف " جامع المقاصد " (المتوفى عام 940 هـ) وبعده الشيخ زين الدين المعروف بالشهيد الثاني (911 - 966 هـ).

هذا غيض من فيض وقليل من كثير، ممن أنجبتهم هذه التربة الخصبة بالعلم والأدب. ولنكتف بهذا المقدار من الإشارة إلى الجامعات الشيعية، فإن الإحصاء يحوجنا إلى بسط في المقال، ويطيب لنا الإشارة إلى أسماء المعاهد الأخرى مجردة.

### المصادر

- (1) النجاشي، الرجال: 64 / 1.
- (2) الكليني، الكافي كما في تأسيس الشيعة: 299.
- (3) الطبقات الكبرى: 6 وقسمهم إلى تسع طبقات.
- (4) النجاشي، الرجال: 137 / 79.
- (5) وسائل الشيعة ج 20 الفائدة الرابعة. وقد بينا الفرق بين الكتاب والأصل في كتابنا " كليات في علم الرجال ".
- (6) الطهراني: الذريعة 4: 302 / 1316.
- (7) الطهراني، الذريعة 3: 210 / 775.
- (8) ابن الجوزي، المنتظم 16: 8 و 16 حوادث عام 447 - 449، ط بيروت.
- (9) النجاشي، الرجال 1: 190 / 162.
- (10) تأليف الشيخ جعفر آل محبوبة، ط النجف.
- (11) ابن داود، الرجال: 62 / 304، القسم الأول.
- (12) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية 2: 108.
- (13) السيد مير علي، مختصر تاريخ العرب: 510 ط 1938 م.

## دول شيعية الدولة المشعشعية في الاحواز وجنوب العراق

نادية عمر جاسم - بغداد



كانت احوار الاحواز وجنوب العراق مركز الدولة المشعشعية..

عرف التاريخ الاسلامي قيام ابرز دولة شيعية (اسماعيلية) هي الدولة الفاطمية في المغرب ثم مصر التي دامت حوالي ثلاثة قرون بين العاشر والثاني عشر الميلاديين. كذلك قيام الدولة البويهية في شمال ايران بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ودامت اكثر من قرن، وفرضت نفسها كذلك على الدولة العباسية في العراق.

أما في العراق، فلم تقم دولة شيعية كبيرة رغم ان العراق ظل مركز التشيع منذ تأسيسه ايام الامام علي (ع) حتى الآن، وهذه خاصية مهمة جدا للتشيع العراقي لم يتم منحها التركيز الذي تستحقه عند دراسة التشيع العراقي. لكن تاريخ العراق شهد قيام دولتين شيعيتين على ارضه، هي الدولة الحمدانية في شمال العراق (الموصل كذلك حلب)، تقريبا طيلة القرن العاشر الميلادي. كذلك قامت دولة شيعية في جنوب العراق والاحواز هي (الدولة المشعشعية) ومركزها في مدينة (الحويزة) الاحوازية، بين القرن الثالث عشر ميلادي الى القرن الثامن عشر ميلادي، أي حوالي خمسة قرون. قد أسس هذه الدولة السيد محمد بن فلاح الحويزي الملقب بـ (المهدي المشعشعي)، ويعود نسله الى الامام علي (ع). استمرت دولته في أعقابه حتى تاريخ 1117 هـ، وكان مؤسس هذه الدولة على جانب من التصوف، وكان أيضا على علاقة بالشيخ احمد بن فهد الحلي (- 841) الذي كان يسكن مدينة كربلاء في العراق. ولكن نظرية الدولة (الملكية) لم تقم على أساس (نيابة الفقيه العامة) بالرغم من قول الشيخ الحلي في (المهذب البارع).

وكان فقيه كبير آخر هو الشيخ جمال الدين مقداد بن عبد الله السيوري الحلي (- 826) المعاصر لهذه الدولة (المشعشعية) قد التزم أيضا بنظرية (الانتظار) في معظم أبواب الفقه، ما عدا الحدود التي قال بصورة ضعيفة: بإمكانية إقامة الفقهاء لها في (عصر الغيبة) حيث قال: قيل يقيم الفقهاء الحدود في زمان الغيبة... و صلاة الجمعة التي قال: ان الفقيه المأمون يجوز الإقتداء به في الجمعة كما ينفذ أحكامه حال الغيبة. وبالرغم من مشاركة عدد من الفقهاء في السلطة وإدارة الدولة المشعشعية كالسيد نور الله بن محمد شاه المرعشي النستري والقاضي عبد الله بن الخواجة حسين النستري، إلا انه لا يوجد لدينا أي دليل على ارتباط الدولة أو قيامها على أساس نظرية (النيابة العامة) التي لم تكن قد تحولت بعد إلى نظرية سياسية.

ما لبثت ان اتسعت هذه الدولة حتى شملت مناطق واسعة من ارض العراق، حتى بغداد. وكانت النقود تضرب باسم المشعشعين في مدينة ((نستري)) و ((دسبول - قنطرة القلعة)) وهما مدينتان احوازيتان عام 914 هـ / 1516 م. استكملت دولة المشعشعين سيادتها على الاحواز كلها وعلى المناطق المجاورة لها،

في الوقت الذي لم يكن فيه للفرس اي وجود سياسي، وبقيت فارس طيلة العصور الوسطى مجرد تعبير جغرافي. ولكن في عام 1501 م أنشأ اسماعيل الصفوي الدولة الصفوية، وذلك أيام حكم المشعشين في عربستان، فبدأت عندئذ مرحلة متميزة من مراحل تاريخ المنطقة، إذ ظهر الصفويون كقوة جديدة مقابل قوة العثمانيين، وبدأ بينهما صراع حاد أصبحت فيه عربستان إحدى ساحاته. فقد تعرضت عربستان لهجوم فارسي صفوي وتم احتلال مدينتي دزفول وتستر الشمالييتين لفترة وجيزة، وعندئذ ظهر مبارك بن عبد المطلب بن بدران الأمير المشعشي الذي حكم من عام 1588 م إلى عام 1616 م ويعتبر حكمه عصراً ذهبياً لأمارته حيث استطاع فرض سيطرته على أنحاء عربستان كلها، وطرد الفرس الغزاة واسترد مدنه الشمالية منهم.

وقد خاضت الدولة المشعشعية عدة معارك ضد الفرس كان الانتصار حليفهم فيها. كما انها ضمت البصرة والقرنة اليها فترة من الزمن. وبصورة عامة فانها استطاعت ان تحافظ على استقلال الأحواز بعيداً عن الفرس والعثمانيين. وقد انتهى حكم الدولة المشعشعية سنة 1724 م، حيث قامت دولة احوازية ثانية هي (إمارة بني كعب) حتى احتلال الاحواز من قبل الايرانيين في اوائل القرن العشرين.

### الدولة الحمدانية في الموصل وحلب



### خارطة الدولة الحمدانية الشيعية في الموصل وحلب

ان البداية الحقيقية لظهور الحمدانيين على مسرح الأحداث ترجع إلى مؤسس هذه الأسرة "حمدان بن حمدون التغلبي" صاحب قلعة "ماردين" القريبة من "الموصل"، وذلك عندما خاض حمدون على رأس جنوده عدة معارك قوية ضد الروم، إلا أن بداية علاقتهم الفعلية بالعباسيين لم تتحدد إلا بعد عام (272هـ = 885 م)، عندما تحالف مع "هارون الشاري" الخارجي، واستطاعا غزو الموصل والاستيلاء عليها، وقد أدى ذلك إلى ثورة الخليفة العباسي المعتضد وغضبه عليه، فقبض عليه وحبسه.

ومع استفحال أمر "الشاري" ظلّ الخليفة يفكر في وسيلة للقضاء عليه، ووجدها "الحسين بن حمدان" فرصة لإظهار قدراته واكتساب ثقة الخليفة وإطلاق سراح أبيه من الحبس، واستطاع الحسين هزيمة الشاري بعد معركة قوية، وأسره وقدمه إلى الخليفة يرسف في أغلاله؛ فسر الخليفة بذلك، وأطلق سراح أبيه، وبدأ مرحلة جديدة من التعاون مع بني حمدان؛ فاستعان بهم في محاربة القرامطة والتصدي لخطرهم، كما وجههم إلى العديد من الفتوحات في فارس ومصر والمغرب.

وهكذا استطاع الحمدانيون الوصول إلى أخطر المراكز، وتقلدوا أعلى المناصب، وشاركوا مشاركة فعلية في الحياة السياسية في بغداد لفترة غير قصيرة، واستطاعت الأسرة الحمدانية أن توثق صلاتها بالعباسيين، وأخذ نفوذهم يزداد، وتوغلوا في جميع مرافق الدولة، بالرغم من الدسائس والمؤامرات المستمرة التي ظلت تحاك ضدهم من بعض العناصر غير العربية في بلاط العباسيين، وبرز عدد كبير من أبناء هذه الأسرة كان في مقدمتهم الأمير "سيف الدولة الحمداني".

نهضة شاملة

وبالرغم من الطابع العسكري والحربي لدولة الحمدانيين بصفة عامة، وإمارة سيف الدولة على نحو خاص، فإن ذلك لم يصرف الأمير "سيف الدولة" عن الاهتمام بالجوانب الحضارية والعمرانية. فقد شيد سيف الدولة قصره الشهير بـ "قصر الحلبة" على سفح جبل الجوشن، وتميز بروعة بنائه وفخامته وجمال نقوشه وزخارفه، وكان آية من آيات الفن المعماري البديع، كما شيد العديد من المساجد، واهتم ببناء الحصون المنيعة والقلاع القوية.

وشهدت الحياة الاقتصادية ازدهارا ملحوظا في العديد من المجالات؛ فمن ناحية الزراعة كثرت المزروعات، وتنوعت المحاصيل من الحبوب والفاكهة والثمار والأزهار، فظهر البُرّ والشعير والذرة والأرز والبسلة وغيرها. كما ظهرت أنواع عديدة من الفاكهة كالتين والعنب والرمان والبرقوق والشمش والخوخ والتوت والتفاح والجوز والبندق والحمضيات. ومن الرياحين والأزهار والورد والآس والزرعس والبنفسج والياسمين. كما جادت زراعة الأقطان والزيتون والنخيل. وظهرت صناعات عديدة على تلك المزروعات، مثل: الزيتون، والزبيب، كما ظهرت صناعات أخرى كالحديد والرخام والصابون والكبريت والزجاج والسيوف والميناء. ونشطت التجارة، وظهر العديد من المراكز التجارية المهمة في حلب والموصل والرقّة وحران وغيرها. وشهدت الحياة الفكرية والثقافية نهضة كبيرة ونشاطا ملحوظا في ظل الحمدانيين؛ فظهر الكثير من العلماء والأطباء والفقهاء والفلاسفة والأدباء والشعراء.

وكان سيف الدولة يهتم كثيرا بالجوانب العلمية والحضارية في دولته، وظهر في عصره عدد من الأطباء المشهورين، مثل "عيسى الرقي" المعروف بالتقليسي، و"أبو الحسين بن كشكرايا"، كما ظهر "أبو بكر محمد بن زكريا الرازي" الذي كان أعظم أطباء الإسلام وأكثرهم شهرة وإنتاجا. ومن أبرز الفلكيين والرياضيين الذين ظهوروا في عصر الحمدانيين في بلاد الشام "أبو القاسم الرقي"، و"المجتبى الإنطاكي" و"ديونيسيوس" و"قيس الماروني"، كما عُني الحمدانيون بالعلوم العقلية كالفلسفة والمنطق، فلمع نجم عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين الإسلاميين في بلاط الحمدانيين، مثل: "الفارابي"، و"ابن سينا".

أما في مجال العلوم العربية؛ فقد ظهر عدد من علماء اللغة المعروفين، مثل "ابن خالويه"، و"أبو الفتح بن جني"، و"أبو علي الحسين بن أحمد الفارسي"، و"عبد الواحد بن علي الحلبي" المعروف بأبي الطيب اللغوي. كما لمع عدد من الشعراء المعروفين، مثل "المتنبّي"، و"أبو فراس الحمداني"، و"الخالديان: أبو بكر، وأبو عثمان"، و"السري الرفاء" و"الصنوبري"، و"الوأواء دمشقي"، و"السلامي" و"النامي". وظهر كذلك عدد كبير من الأدباء المشهورين، وفي طليعتهم "أبو الفرج الأصفهاني" صاحب كتاب "الأغاني" الذي أهداه إلى سيف الدولة؛ فكافأه بألف دينار، و"ابن نباتة"، وظهر أيضا بعض الجغرافيين، مثل: "ابن حوقل الموصلي" صاحب كتاب "المسالك والممالك"...

وقد انتهت الدولة الحمدانية في أواسط القرن الحادي عشر ميلادي، ودامت حوالي القرن، ومن أشهر شخصياتها الأمير (سيف الدولة الحمداني) الفارس والاديب، كذلك الشاعر الكبير (أبو فراس الحمداني)...

### مصادر الدراسة:

- البداية والنهاية: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير - تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي - دار هجر - القاهرة - (1419هـ = 1998م).
- تاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي - دار الكتب العلمية - بيروت - (د.ت).
- زبدة الحلب من تاريخ حلب: ابن العديم كمال الدين عمر بن أحمد هبة الله - تحقيق د. سامي الدهان - المعهد الفرنسي بدمشق - دمشق - (1370هـ = 1951م).
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - (د.ت).
- صُبْح الأعشى في صناعة الإنشا: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي - تحقيق: محمد حسين شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - (1407هـ = 1987م).
- فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين: د. مصطفى الشكعة - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - (1378هـ = 1958م).
- القائد سيف الدولة الحمداني: د. حمدان عبد المجيد الكبيسي - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - (1409هـ = 1989م).



## معالم مقدسة ضريح الامام علي(ع) في النجف الاشرف

معد فياض - لندن



ضريح الإمام علي بُني على قبر اكتشفه هارون الرشيد في رحلة صيد عمره 700 عام.. و200 كيلو غرام من الذهب الخالص لطلاء قبته كل 30 عاما!

تقول القصة الشائعة عن اكتشاف مرقد الإمام علي بن ابي طالب، هو ان الخليفة العباسي هارون الرشيد كان يصطاد الغزلان في هضبة النجف عندما شاهد قطيع غزلان يحتمي في ظل مرقد اسلامي، وقد رفضت كلاب الصيد المرافقة له الاقتراب من الغزلان في ذلك المكان. وعندما تحقق الرشيد من الموقع عرف انه مرقد الإمام علي (ع)، فأمر بالاهتمام به وزيارته. لكنه ليس أول من زاره، إذ كان يزوره الإمام جعفر الصادق وبعض آل البيت. ومنذ ذلك التاريخ عرف موقع مدفن الإمام علي في هضبة النجف.

بين ضريح الإمام علي ومقبرة وادي السلام علاقة تاريخية وطيدة، ذلك ان جسد الإمام علي هو أول من دفن في النجف بعد أن أوصى أبناءه واصحابه بدفنه في ظهر الكوفة التي كان الأمام علي (ع) في عهد خلافته يحكم الأمة الاسلامية منها، وهي ثاني حاضرة بُني في الاسلام خارج الجزيرة العربية بعد مدينة البصرة، وكان يطلق على النجف ظهر الكوفة. وأسباب وصيته بدفنه هناك تتعلق بعدم معرفة الخوارج او الأعداء مكان دفنه ثم ان تربة النجف جافة ولا تسمح بتعفن الجثث.

### الصحن الحيدري

يطلق على صحن مرقد الإمام علي (ع) اسم الصحن الحيدري الذي يعود تاريخه حسب حسين الشامي رئيس ديوان أوقاف الشيعة في العراق (سابقاً) الى 700 عام، حيث «بناه الشيخ البهائي الذي عاصر اسماعيل الصفوي (أحد ملوك فارس)، ولم يهدم الصحن بصورة كاملة بل تعرض للتخريب جزئياً». ويوضح الشامي الذي يشرف ديوانه على كل أملاك الشيعة في العراق من أضرحة ومساجد وحسينيات ومكتبات وعقارات، قائلاً «ان مساحة الضريح الداخلية، أي التي تضم المرقد والمزار، تبلغ 5 آلاف متر مربع، بينما تبلغ المساحة الكلية للمرقد والصحن 15 ألف متر مربع، وهناك خطة سيتم تنفيذها لتوسيع الضريح بواقع 120 متراً مربعاً من كل جانب لتبلغ المساحة الكلية 50 ألف متر مربع، حيث سيبنى سور ثان من دون تهديم أي جزء في السور الأول الحالي وتسقيف المنطقة بين السورين ليفضي بعد ذلك الى مساحة مكشوفة».

عندما تتوجه الى مدينة النجف تلوح فجأة من عل بعد عدة كيلومترات القبة المذهبة للضريح حيث يبعث انعكاس شعاع الشمس على ذهب القبة لمعاناً مبهرًا، ثم ان الضريح يقوم فوق أعلى نقطة في هضبة النجف.

وحسب الشامي، فإن القبة كانت في السابق بيضاء اللون، مستشهدا باستهلال قصيدة للشاعر الحسن بن الحجاج الذي قال:

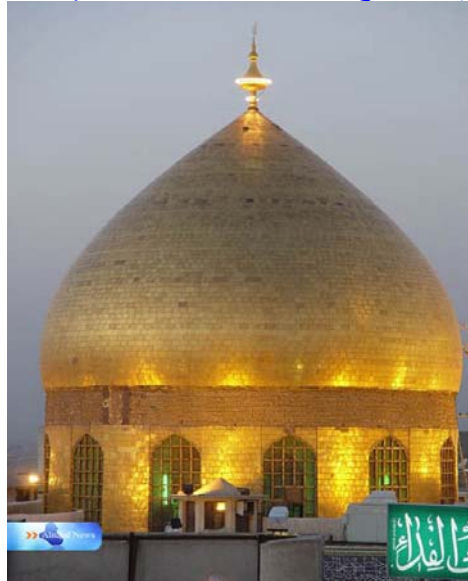
يا صاحب القبة البيضاء على النجف من زار قبرك واستشفى لديك شفي  
وطليت القبة في تاريخ ما باللون الأزرق وهو القاشاني الكربلائي حتى تم تذهيبها بين نهاية العهد الصفوي  
وبداية العهد القاجاري. يقول رئيس ديوان أوقاف الشيعة (سابقاً) « يتم تذهيب القبة كل 30 عاماً ويحتاج ذلك  
إلى 200 كيلو غرام من الذهب الخالص تركيز 24 قيراطاً. وأفضل من يجيد عملية التذهيب هم جماعة البهرة  
في الهند حيث يقومون بعمليات معقدة لإسالة الذهب وفرشه بواسطة جلد الغزال قبل تلميعه، ونحن بصدد  
صيانة التذهيب بعد استقرار الأوضاع في مدينة النجف ». وأضاف إلى القبة الكبيرة هناك منارتان؛ أحدهما  
كبيرة والأخرى أقصر من الأولى بقليل مع ساعة نادرة وقديمة. ويفضى إلى الصحن الحيدري عبر خمسة  
أبواب، وهي: بابا القبلة وباب السوق الكبير وباب العمارة وباب الطوسي، وثمة باب صغير يسمى باب  
«العبايجية» نسبة إلى سوق صناعات العبايات المقابل لهذا الباب الذي يلاصق مسجد الخضراء، وهو مسجد  
المرجع الشيعي الراحل أبو القاسم الخوئي. ويذكر الشامي أنه عندما تم تغيير باب السوق الكبير وتذهيبه، من  
غير أن يتذكر التاريخ، اقيم احتفال كبير ألقى فيه الشاعر الشيخ مهدي مطر قصيدة جاء في مطلعها:  
لعل بباب علي أيها الذهب واخطف بأبصار من سروا ومن غضبوا وقل للذي كان قد اقصاك عن يديه عذرا  
إذا جئت منك اليوم أقرب.

تتكون الحضرة الحيدرية معمارياً من خمسة مداخل تقضي مباشرة إلى صحن واسع ومكشوف تحيط به  
أواوين مزينة بالفسيساء الملون والمزجج وتتوزع على طابقين. ويعود تاريخ تزجيج الأماكن المقدسة في  
الحضرة العراقية إلى البابليين الذين زينوا بوابة عشتار وشارع الموكب بأشكال حيوانية أسطورية من  
السيراميك الأزرق المزجج والذي ما يزال قائماً في متحف برلين.

وتتكون زخارف فسيفساء ضريح الإمام علي (ع) من وحدات نباتية. وفي هذا الصحن تفتش العوائل التي  
تأتي من كل أنحاء العراق ومن خارجه الأرض لتبقى أطول فترة ممكنة حيث يتناولون غداءهم وعشاءهم هناك  
أو في الغرف المحيطة لمن يحالفه الحظ، إذ إن أغلب هذه الأواوين مخصصة كمكاتب أو غرف استراحة لخدم  
الصحن، كما يستفاد من هذا الصحن للصلاة.

وحتى بداية السبعينات، كان البعض يشتري قطعة صغيرة من أرض الصحن لاستخدامها مدفناً له ولعائلته لكن  
تم منع ذلك. ومن أشهر الشخصيات الشيعية المدفونة في الحضرة الحيدرية: ميرزا محمد الحسن الشيرازي،  
عبد الحسن شرف الدين، أبو الحسن، محسن الحكيم، أبو القاسم الخوئي ونجله محمد تقي وعبد المجيد، محمد  
باقر الصدر، ويعد عبد المجيد الخوئي آخر من دفن في مسجد الخضراء التابع للصحن الحيدري.

ويلحق بالصحن المكشوف المرقد المسقف بالمرايا والفضة، والمزخرفة جدرانها بالذهب والمينا الملونة،  
ويتوسط المرقد قبر الإمام علي (ع) الذي يلقي الزوار في شبابه بالدنانير أداءً لندور أو تبرعاً، حيث يقدر  
الشامي قيمة هذه الدنانير بنصف مليار شهرياً خلال المناسبات الدينية و100 مليون دينار شهرياً خلال الأيام  
العادية. وهذه الأموال تخصص لخدم الضريح والمسؤول عن المرقد (الكليدار) والفقراء ولإعمار الضريح.



### \* كنوز الإمام علي (ع)

تدور الأحاديث عن كنوز اهديت لضريح الإمام علي (ع) عبر التاريخ. ويؤكد رئيس ديوان الوقف الشيعي (سابقاً) ذلك قائلاً «هنا خزينة من الكونكريت المسلح مبنية في باطن الارض خصصت لخزن كنوز الإمام علي (ع)، وهي الهدايا التي تلقاها الضريح من الملوك والرؤساء والأعيان من جميع انحاء العالم وعبر التاريخ، اضافة الى النفائس الموجودة قرب قبر الإمام علي وفي متحف الضريح المغلق منذ فترة طويلة حرصاً على هذه النفائس».

ويشير الشامي الى ان أكثر النفائس نادرة نسخة نادرة من القرآن الكريم مخطوطة على الجلد بيد الإمام زين العابدين بن علي بن الحسين حفيد الإمام علي، وهذه النسخة لا تقدر بثمن، وهناك تيجان وسيوف لملوك وقطع سجاد إيرانية نادرة وهدايا صفوية وقاجارية». ويضيف الشامي «كان متحف الحضرة مهماً لهذا تم الاحتفاظ بالنفائس في القبة الموجودة في مكان ما من الصحن وتحت الأرض، اذ سنقوم بعرض هذه النفائس في متحف متطور». ويكشف الشامي عن قيام أركان النظام السابق بسرقة بعض هذه النفائس «وفي مقدمتهم عدي، نجل صدام حسين، إذ تجرأ وسرق سجادا إيرانيا نادرا وثريات وأبواباً مذهبة وتم نقل بعض هذه الكنوز الى خارج العراق لبيعها وقد تمكنا من رصد بعضها والمطالبة باعادتها»، مشيراً الى ان هناك مكتبة ضخمة من المخطوطات النادرة كانت على وشك ان تحرق عام 1991 من قبل أنصار النظام السابق لكن اهالي النجف نقلوها واحتفظوا بها، وبعض هذه المخطوطات نقلت على اسطوانات ليزيرية مدمجة (سي دي) لدراستها وتحقيقها».

### \* أكبر مقبرة في العالم

عندما طعن الإمام علي (ع) في 19 رمضان سنة 40 للهجرة، أوصى قبل موته بدفنه في ظهر الكوفة، وهي هضبة النجف التي كان يقال عنها «الكتف العالية التي تتكأ عليها الكوفة». وبعد ثلاثة أيام من موته، دفن في المكان الذي أوصى به. حدث ذلك قبل ما يقرب من 1300 سنة ميلادية و1385 سنة هجرية، «وبذلك يكون قبر الإمام علي هو الاول في النجف ثم استمر المسلمون الشيعة من جميع أنحاء العالم في دفن موتاهم في هذه المقبرة تقرباً من أمير المؤمنين»، وبذلك تكون هذه المقبرة واحدة من أقدم المقابر في تاريخ الإسلام، حسبما يروي الشامي.

والمقبرة كانت تمتد من مرقد الإمام علي والمساحات المحيطة به قبل قيام مدينة النجف، وهذه المدينة معروف عنها انها اكبر مقبرة في العالم، حيث توجد القبور ايضا في سراديب البيوت، اذ ان هناك من كان يفضل دفنه او دفن أعزائه من ابناء عائلته في سرداب البيت، وهذا نظام الدفن في النجف، أي في أقبية وكل قبو يخصص لعائلة، وسعة القبو حسب حجم القبور التي فيه او التي ستحفر في جدرانها. ويتم شراء الارض مسبقاً لحفر القبو او السرداب الذي يخصص كمقبرة للعائلة. وعندما تمشي في المدينة العتيقة في النجف، وخاصة الأحياء المحيطة بالضريح، فتأكد انك تمشي فوق القبور. النجف لم تكن قائمة قبل ان يُدفن بها الإمام علي (ع)، وعندما دفن فيها تحولت الى مقبرة، وبسبب وجود قبر الإمام صارت مدينة، اذ فضل المسلمون الشيعة العيش قرب المرقد ومن ثم قامت مدارس المذهب الجعفري وحوزة النجف العلمية والمكتبات والمساجد. تسمى مقبرة النجف «وادي السلام» ولا أحد يستطيع ان يحدد مساحة هذه المقبرة او عدد المدفونين فيها لكثرتهم، اذ ان الشيعة يفضلون دفن موتاهم فيها ومن كل مكان في العالم.

ومن أشهر العوائل التي تتوارث العمل في مهنة الدفن في «وادي السلام» هم آل ابو أصيبع، وهؤلاء من أغنى العوائل النجفية بسبب هذه المهنة، وكذلك آل خاقاني والرفيعي، وهذه العوائل من الأسر النجفية العريقة. ولم يشفع لسكان «وادي السلام» كونهم موتى من نيل حصتهم من الاضطهاد والمشاركة في الحروب. فقد اضطهد الموتى في هذه المقبرة في عهد الرئيس السابق صدام حسين، ففي عام 1991 لجأ الى سراديبها المنتفضون وقامت المدفعية والصواريخ والهيليكوبترات بقصف المقبرة لقتل من لجأ اليها او إجبارهم على الخروج، وقد نُبشت القبور وتناثرت عظام الراقيدين فيها. وللسيطرة على مساحة المقبرة الكبيرة قام النظام السابق بشق الشوارع وإنشاء الساحات ووضع العلامات الضوئية فيها وكأنها حي سكني، لكن يسكنه الموتى. ويقول الشامي: «تعرضت هذه المقبرة للقليل من التخريب في العهد العثماني وفي ظل الاستعمار البريطاني، لكن ما تتعرض له اليوم شيء كبير وخطير».

**فئات الوطن**  
**التركمان الشيعة، المجتمع والسياسة..**

جاسم محمد طوزلو\*  
alshimali@hotmail.com



**كركوك.. المحافظة التي فيها يكثر تركمان العراق**

إن التركمان العراقيين ينتمون الى الجماعات الناطقة باللغات التركمانية المنتشرة في آسيا الوسطى، ولهجتهم قريبة الى اللغتين التركية والاذريجانية. يذهب المؤرخون الى ان استيطان التركمان في العراق اقدم بكثير من استيطان الاتراك في الاناضول\_ تركيا الحالية\_ حيث تعتبر سنة 54 للهجرة بداية التوافد التركماني الى بلاد الرافدين ثم توالى الهجرات التركمانية على شكل موجات في العهد الاموي والعباسي ومع جيوش السلاجقة والمغول والبويهيين.. الخ. وها هم التركمان يقطنون على شكل شريط طوله أكثر من 500 كيلومتر في مساحة تفصل بين كرد العراق وعربه , ويمتد هذا الشريط من تلعفر في أقصى الشمال وينتهي في قضاء قزانية في أقصى الجنوب. تتفق المصادر على انه في أعوام الثمانينات من القرن الماضي، يتراوح عدد التركمان من مليون ونصف الى مليونين. وهم جميعهم مسلمون ويتوزعون على مذهبين رئيسيين حيث ان 50% منهم من المذهب الجعفري و50% الباقية من المذهبين الحنفي والشافعي. يتركز التركمان خصوصاً في مدينة كركوك وضواحيها، بحيث ان اللغة التركمانية تعتبر هي لغة اهل كركوك حتى بالنسبة لغير التركمان. كذلك التركمان في مدينة اربيل التي لهم فيها حضوراً مهماً. أما المناطق التركمانية الشيعية في عموم العراق، فهي:

- قضاء تلعفر في شمال العراق وعلى الحدود مع سوريا والذي ينحدر منها سماحة الشيخ محمد تقي المولى , غالبيتها من الشيعة التركمان , العشائر التركمانية الموجودة في هذه المدينة (البيات , سيدلر, ايلخانلر, مرادلي , شيخلر, بابالار, جولاقلار).
- أطراف مدينة الموصل فيها تقريباً 70 قرية اضافة إلى 50 قرية للشبك موزعين للمذهبين من هذه القرى (افغاني , قرمزي , شيخ ابراهيم , قبك , مال فيران... الخ) ومن احياء الموصل (القاضية , الرشيدية , شيرخان , قره قوينلو, قره يطاق, وسلامية... الخ).
- قسبة تسعين (تسين) والتي هي قسبة من قسبات كركوك وهي تركمانية شيعية من احيائها (قبرباشي , دهنه باشي , شيخلر, قاب فيران ,... الخ) فيها مقام الشاه طهماسب.
- ناحية تازة خورماتو مدينة تركمانية شيعية صرفة في جنوب كركوك من احيائها وعشائرها (قره صقالي , مرادلي , اوسطالي , بصمالي... الخ).
- قرية بشير وهي تركمانية شيعية صرفة هدمها النظام البائد بالكامل ورجعت بعد السقوط للظهور ثانية من أبرز شخصياتها المرحوم سماحة الشيخ البشير.

- ناحية دافوق مدينة تركمانية ذو اكثرية تركمانية شيعية من احيائها (دميرجيلر, كوتوركه, ايلخانلر...الخ) في اطرافها الكاكائية والطالبانية.



سكان تلعفر المشردون في الخيام، وغالبيتهم من التركمان الشيعة..

- قرية الامام فيها مقام الامام زين العابدين من ابناء الامام موسى الكاظم(ع) كل اهالي هذه القرية تركمانية شيعية.
- ناحية ليلان مدينة تركمانية اكثرية كردية واقلية شيعية.
- قضاء طوز خورماتو اكبر قضاء تركماني بعد تلعفر يقع على بعد 180 كيلومتر شمال بغداد ذو اكثرية تركمانية شيعية من احيائها (مصطفى اغا , اورطة محلة , ملا صفر, جمهورية.. الخ).
- ناحية امرلي وقرى البيات تقع جنوب طوز ذو اكثرية شيعية تركمانية من قراها (مدينة امرلي , ينكجة , شاه سيون , جرداغلي , بروجلي, بسطاملي...الخ).
- مدينة قره تبه ذو الاكثرية الشيعية الصرفة فيها مقام ابراهيم السمين احد ابناء الامام موسى الكاظم(ع).
- ناحية المقدادية واسمها عند التركمان مدينة شهربان تابعة ادارياً الى ديالى وقريبة من الحدود العراقية الايرانية مدينة مختلطة من الشيعة والسنة.
- ناحية قزانية وهي تركمانية شيعية.
- في محافظة بابل احياء تركمانية , وكذلك عشائر تركمانية من البيات منتشرة في اكثر محافظات الجنوب والوسط.

### عشيرة البيات:

عشيرة البيات تعتبر من العشائر العراقية المعروفة والممتدة في اصولها التاريخية الى ازمان بعيدة ومنتشرة في المناطق الممتدة من الموصل وكركوك وصلاح الدين وديالى ولغاية محافظة بابل وكربلاء بالإضافة الى مدينة بغداد , وتتواجد بصورة متفرقة في محافظات اخرى. أن عشيرة البيات رفدت الحضارة الاسلامية برجال افاض في مجالات الحياة المختلفة امثال ده ده كوركوت رجل الدولة , وجم سلطان , والمؤلف الشهير حسن بن محمود صاحب كتاب (جامع الجامع), والقائد آق سنكور البخاري البياتي , والقائد السياسي بيبير بك اوغلو, واسماعيل بك بياتلي , والشاعر الكبير فضولي. ففي العراق المعاصر أصبح لعشيرة البيات دور سياسي واجتماعي مرموق فهي عشيرة واسعة مؤثرة في الواقع السياسي والاجتماعي العراقي فأن مركز عشيرة البيات هو قضاء طوزخورماتو وناحية الامرلي وسليمان بك.

(ملاحظة: هذه المقالة هي مقاطع مجتزأة من مقالة اكبر للكاتب عن مناطق عموم التركمان وجميع حركاتهم السياسية)



## فئات الوطن الفيلية.. عراقيون شيعة..

لمياء صافي - الكويت



صورة لعمليات تهجير الفيلية

المغالطة الكبيرة التي شاعت عنا نحن الفيلية، انه تم احتسابنا على أكراد العراق، بينما علاقتنا بأشقائنا الاكراد لا تتعدى الاسم والاصل العرقي الغير مؤكد علمياً وآثارياً. بالحقيقة، أننا واقعياً وتاريخياً عراقيين مستعربين، مثل غالبية العراقيين. فنحن أولاً نعيش في مناطق كلها ناطقة بالعربية، ونتعايش ونتزواج ونتأقّف مع العراقيين الناطقين بالعربية، ثم الاكثر من هذا ان مذهبنا الاسلامي هو المذهب الشيعي الجعفري، وهو مذهب غالبية العراقيين وخصوصا الناطقين بالعربية. ان الناظر لتاريخ الفيلية ومناطق تواجدهم يكتشف حقيقة اصولهم العراقية حتى الذين يقطنون في الجانب الايراني من الحدود. أن منطقة الفيلية ظلت جزءاً من جغرافية العراق ومن حضارته وتمازجه السكاني. لكن العقلية العروبية العنصرية تعاملت بحذر مع كل من لا ينطق العربية أباً عن جد، ثم دفع هؤلاء الى البحث عن هويات قومية عرقية مغايرة للانتماء العراقي..

### أصلهم التاريخي الجغرافي

من المعروف ان المناطق التي يقطنها الفيلية على الحدود بين إيران والعراق، تسمى تاريخياً (اقليم حلوان) التي ظلت دائماً جزءاً من العراق. ثم ان هذه المنطقة جغرافياً هي امتداد طبيعي لسهل بلاد النهرين. ويكفي التمعن في وجوه الفيلية وشخصياتهم، لنجدها لا تختلف ابداً عن وجوه باقي العراقيين وخصوصا من أهل الجنوب.

يعتقد ان اسمهم (الفيلية) متأتى من تواجدهم في منطقة تعرف بأسم "بهلة" تقع في الحد بين منطقتي بشتكو والاحواز، فيها تختلط العشائر العربية والفيلية. هذه العشيرة العربية هذه تسمى بالفيلية أيضاً، نسبة الى منطقة "بهلة"، والعرب تقلب الباء (P) فاءً، فالبهلية تنقلب الى فهلية وفيلية.. يقطن هذه المنطقة عشائر بشتكو الناطقة بلغة تتشابه بصورة ما مع اللغات الكردية، ولهذا مد عرب المناطق المجاورة، سواء في الاحواز أو جنوب العراق، صفة الفيلية على بقية سكان بشتكو غير الناطقين بالعربية. ينتشر الفيلية في المنطقة الممتدة من مسجد سليمان الى مهران جنوباً (داخل ايران). وشيخ سعد وباقصايا وعلي الغربي وزرباطية وبدره وجصان ومنذلي جنوباً وغرباً (داخل العراق)، وإلى محافظتي كرمشاه وإيلام شمالاً (داخل إيران)، وخانقين شمالاً (داخل العراق).

إن علاقة الفيلية بعرب الاحواز وجنوب العراق، علاقة متينة متداخلة فرضتها علاقة الجوار وضرورة التعايش. وعزز من استقرارها وجود تجانس إسلامي شيعي بين الجانبين لم تؤثر عليها الصراعات الشيعية - السنية بين الدولتين الإيرانية والعثمانية، رغم تواجد هذه العشائر على جانبي الحدود بين الدولتين.. ناهيك

عن العامل الاقتصادي الذي يبدو واضحاً وجلياً في هذه العلاقة الكردية- العربية في هذه المنطقة. فرعاة هذه العشائر يجدون الحرية المطلقة بجوب مناطق بعضهم البعض في مواسم الجفاف إذا كان الموسم في مناطق الطرف المقابل صالحاً للرعي.



من بين الشخصيات العراقية الفيلية المعروفة، (فخري كريم) رجل الاعلام والثقافة، و(نصير شمة) الموسيقار وعازف العود

ففي أبعد منطقة من يشتكوه عن مناطق العرب، أي في شماله، وبالتحديد في منطقة شيروان - جرداول، استوطنت عشيرة عربية الأصل، لا زالت تسمى بعشيرة (نقره و - ريوار) أي "العرب الرحل"، رغم كون هذه العشيرة قد استكردت ونست لغتها الأم، إلا عبارات لا زالت تختلط بلغتها الكردية المكتسبة. من جانب آخر فهجرة كرد يشتكوه للعمل في ميناء البصرة، وأسواق بغداد، وبعض المدن الأخرى، في مواسم الجفاف وعلى مدى القرون، نتج منها سكن واستقرار مجموعة منهم في هذه المدن، وخاصة في بغداد منذ القرون الوسطى، وتحدد تسمية "الفيلية" بشكل عام بهم.

يسكن الفيليون في العراق منذ زمن بعيد، زمن ما قبل تشكيل الدولة العراقية الحديثة. وتسلم كثير منهم مراكز ثقافية، واجتماعية، وتجارية بارزة. وساهموا في الحياة العامة بشكل فعال، باستثناء دوائر وزارات الدفاع والخارجية والداخلية، والقوات المسلحة عدا دورات ضباط الاحتياط، والجنود المكلفين. ولهم شهداء وضحايا في ثورات وانتفاضات وحروب العراق.

ان أسباب اضطهاد الدولة العراقية لنا نحن الفيلية وممارسة التمييز ضدنا والجوء الى إبعادنا قسراً عن وطننا العراق، يعود الى:

- 1 - تمسكنا بمذهبنا الإسلامي الشيعي، وإقامة المواكب الحسينية سنوياً، واحتفاظنا بعلاقاتنا مع باقي العراقيين الشيعية.
- 2 - كون اصولنا تعود الى منطقة واقعة ضمن حدود الدولة الإيرانية، فصار الفيلية ضحية للصراع الايراني العراقي، الذي ورث الصراع العثماني الصفوي.
- 3 - مشاركتنا الواضحة في الحركة الوطنية واليسارية، والحركة القومية الكردية. وفي السنين الأخيرة في الحركة الإسلامية(الشيعية).

لقد قامت الحكومات المتعاقبة العنصرية والطائفية بحملات تهجير جماعي ضد الفيلية. وذلك بمصادرة أموالهم وتجريدتهم من مستمسكات مواظنتهم ورميهم على الحدود الإيرانية، بعد حجز الألوف من شببيتهم في غياهب السجون سنة 1980 دون أثر أو خبر عنهم الى الآن. ما بين الأعوام 1971 و 1982 جرى تهجير أكثر من ثلاثمائة ألف فيلي من بغداد ومدن الوسط والجنوب، ومات من مات من المهجرين على الحدود، لا سيما بين كبار السن، ونهبت ممتلكات الجميع بعد أن قضوا في العراق - وطنهم - أجيالاً وخلفوا فيها الأولاد والأحفاد. كما حجزت الحكومة ما لا يقل عن ستة آلاف من شباب الفيلية في السجون والمعتقلات دون ذنب وبلا تهمة رسمية، بعد أن جرى تهجير آبائهم وأخواتهم وأمهاتهم. وجرى في الوقت نفسه تهجير آلاف من العرب العراقيين الأقحاح من جنوب العراق ووسطه بحجة "التبعية" وبينهم الكثيرون من أبناء العشائر. ولكن "الذنب" الوحيد الذي اقترفوه هو انتمائهم الشيعي والخوف من أن يكونوا طابوراً خامساً لإيران.

دراسات  
**شيعة العراق: الدور السياسي  
وعملية الاندماج في المجتمع \***

**حنا بطاطو- عالم اجتماع فلسطيني أمريكي  
ترجمة: فالح عبد الجبار**



حين نشأت الدولة الحديثة في العراق عام 1921، لم يكن الشيعة يؤلفون كياناً وثيق التماسك من البشر. ورغم أنهم كانوا يمتازون بعدد من الخصائص المشتركة، فقد كانوا منقسمين، شأن غيرهم من سكان العراق، الى عدة جماعات متميزة، قائمة بذاتها. وفي إطار حالات عديدة، لم يكونوا يعتبرون أنفسهم كشيعة أولاً. فالولاء الأول والأقوى كان للقبيلة والعشيرة. ويصح هذا بشكل خاص على الحال في القرى والسلف (حزمة من المساكن الريفية).

وحتى لو أخذنا الوضع في النجف، المركز الرئيس للمدارس الدينية الشيعية، لوجدنا أن الانتماء الى القبيلة، أو الانتماء الى المحلة (حيّ المدينة)، كان، من الناحية السياسية، أقوى من رابطة المشاعر الشيعية. لقد هبّ أهالي النجف في العام 1915 في انتفاضة على الأتراك وطردوهم من المدينة. وبقوا متحررين سياسياً منذ ذلك، الى أن جاء الإنجليز واخضعوا النجف عام 1917. خلال فترة التحرر هذه لم تتحول النجف الى - دولة - مدينة شيعية (بالمعنى الديني) أو إسلامية. الواقع أن كل واحد من أحيائها الرئيسية الأربعة بات مستقلاً. وما يزال دستور أحد هذه الأحياء، وهو حي البراق، محفوظاً. وقد جاء في فقرته الأساسية: «نحن سكنة حي البراق... قد اجتمعنا وصرنا متحدين، ومن دم واحد، نتبع بعضنا البعض إذا ما حصل أي طارئ لمحلتنا من المحلات الأخرى»<sup>(1)</sup>.

وتشير الفقرات الأخرى في الدستور، بجلاء، الى أن التنظيم الاجتماعي للمحلة (الحيّ) يقوم على القبيلة، وأن قيم هذا التنظيم قبلية في الجوهر. وتركزت السلطة في يد رئيس الحيّ. ولم يسند الدستور أي دور سياسي للمرجعية (أعلى سلطة دينية للشيعة)، بل إنه لم يأت على ذكر هذه المؤسسة الدينية، التي تؤلف قوام أي كيان شيعي حقيقي.

وبالطبع فإن سكان النجف كانوا واعين لأنفسهم باعتبارهم شيعة. غير أن تشيعهم لم يكن من النمط الديناميكي، من الناحية السياسية، في الأقل. بتعبير آخر، لم يشعر أهالي النجف أنهم بحاجة الى أن يعطوا هويتهم الشيعية تعبيراً سياسياً. وينطبق هذا القول بقوة أكبر على الفلاحين الشيعة الذين يؤلفون غالبية السكان الشيعة. أما فكرة النظام السياسي الشيعي، أو الدولة الإسلامية التي يشرف عليها مرجع من المراجع نيابة عن الإمام الغائب، فقد كانت موجودة كتصور مثالي، غير محدد، لدى العلماء.

لا ينبغي الاستنباط من هذه الأحكام السالفة أن المراجع الشيعية - أي كبار الفقهاء الشيعة النافذين - كانوا بلا أي نفوذ سياسي على اتباعهم المؤمنين. الواقع أن عدداً منهم لعب دوراً قيادياً في تحريك ثورة العشرين (1920) التي قام بها رجال القبائل الشيعية في الفرات الأوسط على الإنجليز. ولكن ينبغي أن نتذكر دوماً أن هذه المناطق التي كانت متاخمة للعتبات المقدسة في النجف وكربلاء، تجاوزت مع رغائب المراجع في الثورة، كما كانت لها أسبابها الخاصة في التذمر<sup>(2)</sup>. فالفتوى التي أصدرها المراجع وقتذاك بالجهاد ضد المحتلين لم تحظ، مثلاً، بأي تجاوب من القبائل الشيعية البعيدة عن العتبات المقدسة، والقاطنة على ضفاف دجلة أو نهر الغراف أو شط العرب.

ويرجع ضعف تأثير المراجع على الفلاحين الشيعة القاطنين على ضفاف هذه الأنهر (دجلة والغراف وشط العرب) إلى غياب أي أثر للدين المنظم.

وعلى سبيل المثال لم يكن هناك أي أثر، حتى أواخر عام 1947، لأي مؤسسة دينية واحدة في المناطق الريفية الشيعية على ضفاف دجلة والغراف<sup>(3)</sup>، أي غياب أي جامع أو مدرسة دينية أو حسينية<sup>(4)</sup>. لكن السادة القبليين، المقيمين، استخدموا مضايقتهم كنوع من جامع أو حسينية. أما القرى الأخرى فقد كان الوعاظ الجوالون يفدونهم من المدن القريبة. لكن الكثير من هؤلاء الوعاظ أو السادة لم يكونوا مبعوثين مخولين من المراجع، وكانوا يروجون، في غالب الأحوال، الخرافات. ويمكن أن نعزو جهل أبناء القبائل الفلاحين بالمعتقدات الأساسية للمذهب الشيعي، وضعف التزامهم بالصلاة وغيرها من فروع الإيمان، إلى قلة الجوامع والمدارس الدينية وسطهم.

إن ضعف سلطة المراجع على غالبية الفلاحين الشيعة يرجع في الواقع إلى أن أغلب العلماء وطلاب الدين الشيعة في العراق هم، خلافاً للفلاحين، من أصول غير عربية. وهذه حقيقة يعترف بها الأصوليون الشيعة صراحة، ويتأسون عليها تماماً<sup>(5)</sup>. ويروي العراقيون حكاية من عام 1920 عن «أبو القاسم الكاشاني»، أحد أبرز المراجع الدينية يومذاك. لقد أرسل من كربلاء إلى منطقة من مناطق الفرات الأوسط لإقناع رؤوسا العشائر فيها للثورة بالسلاح، لكن تمكنه من العربية كان على درجة من الضعف بحيث لم يفقه أحد من الحاضرين ما يريد إبلاغه لهم. غير أن لغة الإشارة التي استخدمها أسعفته آخر الأمر على إيصال المعنى المطلوب.

أدت كل هذه العوامل إلى ضعف الحس بالهوية الشيعية، والافتقار إلى تلاحم طائفي بين الشطر الأعظم من الفلاحين الشيعة، مما أفضى بدوره، بفعل عوامل إضافية منها ضعف أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وتشبثهم في مناطق ريفية معزولة، أو ضعيفة الاتصال، إلى انعدام فاعليتهم السياسية بشكل محسوس. أما الشيعة الحضر فقد كانوا يحملون مشاعر شيعية أقوى، إلا أن وزنهم العددي لم يكن بذي بال، بالمعايير النسبية، وبخاصة حيث يمكن لهذا الثقل أن يكون حاسماً من الوجهة السياسية - أي في بغداد.

قبل الحرب العالمية الأولى، كان اليهود يتمتعون بالأغلبية، ويقدر عددهم على الأرجح بنحو 53 ألفاً من إجمالي سكان بغداد الذي يقدر بنحو 150 ألفاً، وكانوا علاوة على ذلك يسيطرون سيطرتهم على التجارة في المدينة<sup>(6)</sup>. غير أن السنة كانوا الأهم من الناحية السياسية. وكانوا يشكلون العمود الفقري لطبقة ملاك الأرض، ويؤلفون الأغلبية في الإدارة الحكومية. أما الشيعة فلم يزدوا عن خمس سكان بغداد، وكانوا ينتمون، على العموم، إلى أفقر فئاتها. وكانوا يسكنون في أحياء منفصلة، ويعيشون حياة مستقلة خاصة بهم، ونادراً ما يختلطون بالسنة أو يتزاوجون معهم.

ولعل المنعطف الأبرز لعملية التكامل الاجتماعي السياسي للسنة والشيعة يتمثل في الغزو الإنجليزي خلال 1914 - 1918، أو بالأحرى المقاومة التي أذكأها هذا الغزو والتي بلغت ذروتها في الانتفاضة المسلحة عام 1920. فقد تنادى الشيعة والسنة لكي يعملوا وينسقوا معاً، وذلك لأول مرة منذ قرون. وشهدت بغداد احتفالات دينية شيعية - سنة مشتركة لا سابق لها في بغداد في كل الجوامع الشيعية والسنية على التوالي. ونظمت الموالد النبوية (حفل ديني في ذكرى مولد الرسول) كما نظمت التعازي الشيعية (في ذكرى استشهاد الإمام الحسين) على التعاقب في المسجد الواحد. وبهذه الصلة التي أنشئت بين السنة والشيعة، مهما كانت طفيفة، انطلقت صيرورة جديدة هي: النمو العسيري، الواهن حيناً، والمتقطع حيناً، للوحدة الوطنية العراقية.





يرجع التعاون بين الشيعة والسنة في ذلك المنعطف التاريخي الى الوضع الناشئ عن الاحتلال الإنجليزي، غير أن الفضل في الفعل الواعي وراء هذا التعاون يرجع بالأساس الى التاجر الشيعي، البغدادي، جعفر أبو التمن. وقد ركز فكره ونشاطه لتحويل هذا التعاون الظرفي الى واقع سياسي دائم. إذ لم يكن هناك، برأيه، من سبيل آخر لكسر النفوذ الإنجليزي. وقد حاول بعض السياسيين الشيعة جره مراراً، الى النشاط الطائفي، فأدار لهم ظهره بإصرار. وكرس جعفر أبو التمن جهود الحزب الوطني لتحقيق هذين الهدفين المترابطين، وهما وحدة الشيعة والسنة، وتصفية النفوذ الإنجليزي. ولعب الحزب الوطني دوراً هاماً خلال العشرينيات، والنصف الأول من الثلاثينيات في ترسيخ الوعي الوطني العراقي.

ولعب النظام الملكي الهاشمي، الذي تأسس عام 1921، دوراً هاماً في هذه العملية. وبرغم أن هذا النظام كان صنيعة الإنجليز، فإنه عمل، باختياره أو بحكم الضرورة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، على الربط بين الشيعة والسنة، ودمج الشيعة في النظام السياسي. وتحقق ذلك بفعل عمليات بادرت الملكية إليها، أو عمليات شاركت فيها.

تحركت الملكية الهاشمية، بفعل ارتباط مصالحها كأسرة مالكة بمصائر الحركة العروبية منذ مبتدأها، لتركز كل غريزة البقاء، خلال العقدين الأوليين من عمرها، على تطوير حركة بناء الأمة في العراق، (بحدود ما كانت تسمح به وضعيتها التابعة). انطلاقاً من هذا التصور، كما من ضرورات تلبية حاجاتها الإدارية، وسّعت الملكية المنشآت التعليمية القائمة في المناطق الشيعية والسنية توسيعاً كبيراً، وعملت بصورة منهجية، على انكاء مشاعر الوطنية والتعاطف الحي مع المثال العروبي وعبر مناهج الدراسة. وكان الملك فيصل الأول حريصاً، حرص جعفر أبو التمن، على وجوب زرع الروابط المتينة، لوحدة الشعور والأهداف، بين مختلف عناصر المجتمع العراقي. وإذا كان يدرك مدى أهمية كسب ثقة الشيعة لمستقبل البلد، وينزعج أيما انزعاج من نصف الحقيقة الواردة في عبارة إن «الضرائب على الشيعي، والموت على الشيعي، والوظائف للسني» (التي سمعها «آلاف المرات» حسب قوله في المذكرة السرية التي كتبها)<sup>(8)</sup> فقد بذل قصارى جهده لربط الشيعة بالدولة الجديدة، وتسهيل دخولهم في السلك الحكومي. وقام الملك فيصل الأول بإجراءات أخرى، بينها إدخال الشباب الشيعي الواعد في برنامج تعليمي مكثف، وفتح الفرصة أمامه للارتقاء الى مواقع المسؤولية. وجاهد الملك أيضاً، (الذي كان يعتبر الجيش «العمود الفقري لبناء الأمة»)<sup>(9)</sup> لتعميم مبدأ الخدمة العسكرية على النطاق الوطني كله وذلك، جزئياً، لتخفيف العبء المالي عن الدولة، ولكن أيضاً بأمل تحويل القوات المسلحة الى وسيلة فعالة في خلط الشيعي مع السني، والقبلي مع الحضري، بما يضعف حبال ارتباط الجماعات بمراسيها الطائفية، ويضعف سلطة شيوخ العشائر على فلاحهم، ويزيل الحواجز، الثابتة، الصلبة بين العشائر - وهي جميعاً شرط مسبق لاندماج هؤلاء في الحياة الوطنية. وباختصار، كانت الملكية، في المستهل، تقف رسمياً وتمارس عملياً النشاط في سبيل المثل الأعلى لتكامل الجماعة الوطنية، أي الشعب العراقي الواحد.



غير أن التوجه السياسي للملكية تغير بعد عام 1941. لقد انحازت الأسرة الهاشمية الى صف الإنجليز في خلال الحرب الأنجلو - عراقية في تلك السنة، فقوضت بذلك وضعها كرمز للأمة في نظر الوطنيين وسكان المدن. وإذ فقد العرش قبول أهل المدن، فقد ربط مصائره ربطاً وثيقاً بمصائر الإنجليز وشيوخ العشائر، فطور بذلك مصلحة حية باستمرار الصلة مع الإنجليز واستمرار النظام القبلي. علاوة على ذلك، أتاح العرش انتقال أراضي الديرة القبلية، وأفضل الأراضي الأميرية (الحكومية) الى حيازة الشيوخ الحضرية. وبهذه الزيادة في سيطرة الشيوخ الطفيلية أساساً، على الزراعة، وبقاء القرى خالية من أية سيطرة حكومية، أتاحت الملكية للشيوخ أن يتقلوا كاهل الفلاحين بدرجة أكبر. وأصبح الشيوخ رمزاً لاحتدام اللامساواة الاقتصادية التي غدت، في العقد الأخير من العهد الملكي، تعرقل، بقوة أكبر مما تفعل القبيلة، تكامل الأمة، واندرج الفلاحين الشيعة والسنة في النطاق القانوني للحياة الوطنية.

بتعبير آخر، كفت الملكية عملياً عن لعب دور اجتماعي توحيدي، رغم أنها استمرت في ترسيخ العوامل المادية التي تعزز الدولة وتريدها قوة، وذلك من خلال شق الطرق، وبناء السدود والخزانات، وتوسيع أجهزة الأمن، وأجهزة الإدارة الحكومية، بفضل الزيادة الكبيرة في إنتاج النفط. ونشأت تطورات أخرى هامة في العهد الملكي أدت، بصرف النظر عن نوايا العرش، الى خلق أثر تراكمي زاد من الأهمية الكامنة للشيعة، وقلل في الوقت نفسه، من حسّهم بالانتماء الديني، وعزز عملية اندماجهم في المجتمع.

فمن جهة، راكمت العوائل الشيعية، الحضرية والقبلية، ذات المداخل العليا، جيروناً اقتصادياً معتبراً. من ذلك صعود التجار الشيعة الى المرتبة الأولى في التجارة ببغداد بعد تفسير اليهود عام 1949. ففي السنة المالية 1935، لم يكن هناك سوى تاجرين شيعيين من ثمانية عشر مقعداً في الهيئة الإدارية لغرفة تجارة بغداد، لكن عددهم ارتفع في السنة المالية 1957 الى 14 من 18 مقعداً<sup>(10)</sup>. ولما كان بلوغ مناصب حكومية شديدة الصعوبة على الشيعة عموماً، فيما مضى، قياساً الى حال الحضر السنة، فقد توجه كثرة من شيعة المدن الى التجارة وابدعوا في فنها أيما ابداع. وأدى ما أصابهم من ثراء الى تعزيز دور أقرانهم الشيعة في شؤون الدولة، علماً أن مواقع هؤلاء الآخرين نشأت بفضل ارتفاع مؤهلاتهم التعليمية. وهكذا نجد أن نسبة الوزراء الشيعة لم تزد عن 17.7% من الحقايب الوزارية خلال العقد الأول من العهد الملكي، في حين أنها بلغت 43.7% خلال العقد الأخير من هذا العهد<sup>(11)</sup>. غير أن دورهم في الحكومة لم يكن حاسماً.

هناك تطور آخر ينبغي تسليط الأضواء عليه: لقد كان الشيعة يشكلون الأغلبية في البلاد كلها، لكنهم، بحلول ثورة تموز 1958، باتوا يشكلون أغلبية في العاصمة بغداد أيضاً (وما يزالون الى الآن يشكلون الأغلبية فيها، إذا ما أقصينا الـ 600 ألف عامل مصري ممن تدفقوا على العاصمة وجوارها منذ عام 1973). وجاء تكاثر الشيعة عددياً ليصبحوا الأغلبية في بغداد ثمرة الهجرة الهائلة للفلاحين من أبناء العشائر من الريف، بفعل عوامل عديدة بينها جاذبية الحياة في المدينة، وعظمة الفارق في دخل عامل المدينة عن دخل فلاح الريف، والطابع القمعي لنظام الشيوخ في لوائى الكوت والعمارة الشيعيين، وجفاف النهيرات المتفرعة عن دجلة نتيجة التطور العاصف لنظام السحب بالمضخات في مناطق الكوت وبغداد.

إن الهجرات الكبرى للفلاحين، وما رافقها من تيارات تضخمية (نشأت عن شح السلع خلال الحرب العالمية الثانية والطفرة النفطية في الخمسينيات) أثرت تأثيراً عميقاً على شغيلة المدن الفقراء، ودفعتهم الى التأثر، سوية مع أعداد كبيرة من المهاجرين، بنفوذ الشيوعيين، الذين نمت صفوفهم أواخر الأربعينيات وخلال الخمسينيات، وتغلغلوا عميقاً في صفوف الشيعة الى درجة أن خلاياهم تكاثرت حتى في مدينة النجف الأشرف، مما أثار خوف العلماء الشيعة، المحافظين. وأخذ الشيعة يلعبون، من خلال موقعهم في الحزب الشيوعي، دوراً ملفتاً للنظر في تاريخ العراق.

فخلال الفترة الثورية (1958 - 1959)، التي بلغ فيها الشيوعيون ذروة النفوذ، شغل الشيعة معظم المواقع الحاسمة في جهاز الحزب الشيوعي، بما في ذلك موقع السكرتير الأول ومواقع مسؤولي مناطق بغداد والفرات الأوسط، والمكتب الفلاحي، والتنظيم العسكري. وبالطبع فإن الشيوعيين الشيعة تصرفوا كشيوعيين، إلا أنهم في انتمائهم هذا لم يكفوا تماماً عن كونهم شيعة.

وكان ثقل الشيعة في حزب البعث كبيراً أيضاً في الفترة من تأسيس فرع الحزب في العراق عام 1952 حتى سقوط أول حكم للبعث في تشرين الثاني 1963. فمن مجموع 52 عضواً قيادياً في البعث خلال هذه الفترة، كان 53.8% منهم من الشيعة<sup>(12)</sup>، بمن في ذلك فؤاد الركابي، الأمين العام للحزب من 1952 حتى 1959،

وعلي صالح السعدي، أمينه العام من 1960 حتى 1963. وبالمناسبة فإن السعدي من أصول فيلية، أي من الأكراد الشيعة.

إن انتشار الأفكار والقيم العلمانية الشيوعية والبعثية وسط المثقفين الشيعة، وشرائح من شيعة المدن، أضعف، بالطبع، سطوة المعتقدات الشيعية القديمة عندهم، كما أضعف تمسكهم بالمعايير والممارسات التقليدية. وقد عززت ثورة 1958 هذا الميل في البداية. كما رسخت عملية اندماج الشيعة في الجسم السياسي. فقد عملت أولاً على إدراج الفلاحين سكنة الأرياف وسكان المدن - شيعة وسنة - تحت مظلة قانونية واحدة. والمعروف أن جل سكنة الأرياف كان يخضعون، قبل 1958، إلى ضوابط قانون المنازعات العشائرية، التي وضعها الإنجليز عام 1918، وأصرروا على تشريعها قانوناً رسمياً في العهد الملكي. وحين ألغت ثورة تموز قانون المنازعات العشائرية، فإنها أخضعت سكنة الأرياف السنة والشيعة لمفعول القانون الوطني العام. زد على هذا أن الثورة عززت آفاق وقيمة تلاحم الفلاحين الشيعة والسنة مع بقية المجتمع، وذلك بتحويل الكثير منهم إلى ملاكي أرض، وتقديم العون لهم، على قلته، في ممارسة الزراعة، وتأمين التعليم، والكهرباء، والخدمات الصحية للقرى، وتقويض السلطة الاجتماعية لكبار الشيوخ.

غير أن ثورة تموز عنت أيضاً بداية الهيمنة السياسية لضباط الجيش، أي عنت، في الواقع، الصعود المحتوم لتلك العوائل التي ينحدر منها ضباط الجيش إلى مواقع غائمة - نعني عوائل الطبقة الوسطى القاطنة في البلدات الطرفية لمناطق الشمال والشمال الشرقي، العربي السني، أو العوائل التي انتقلت قريباً من هذه البلدات إلى بغداد. أما بعد سقوط نظام حكم الزعيم عبد الكريم قاسم عام 1963، فإن هذه العوائل تحولت عموماً إلى الوسط المحدد الذي ينحدر منه شاغلو مواقع المسؤولية في الحكومة والجيش.



لقد كان الزعيم عبد الكريم قاسم نسيج وحده. فهو ينحدر من الجنوب، من أبوين مختلفين، أب سني عربي وأم كردية فيلية (شيعية). ولم يستمد المساندة من ضباط مناطق الشمال والشمال الشرقي، لكنه استطاع أن يسود لفترة بأن يوازن ثقل هؤلاء الضباط وحلفائهم القوميون بالثقل المضاد لقوى الشيوعيين، كما اعتمد أساساً على عامة الجنود، وبخاصة جنود لوائه هو، الذين ينحدر أغلبهم من أوساط فقراء الشيعة.

كان عام 1963 عاماً بالغ الأهمية لسببين آخرين. فهو العام الذي شهد تصفية الكادر القديم للحزب الشيوعي على يد البعثيين. وقد أدى ذلك إلى إضعاف الحزب الشيوعي بدرجة كبيرة، مما شكل، بمعنى ما، إضعافاً للدور السياسي للشيعة. وأن عام 1963 هو أيضاً العام الذي فقد فيه الشيعة نفوذهم في حزب البعث، الذي تميز قبلئذ، وبدرجة ملحوظة، بمعلم الشراكة الأصلية بين الشباب «العروبي»، السني والشيوعي على حد سواء. وقد هبطت نسبة القياديين الشيعة من 53.8% أعوام 1952 - 1963، إلى 5.6% خلال فترة 1963 - 1975<sup>(13)</sup>.

ومن أسباب هذا التدهور الكبير في مواقع الشيعة داخل قيادات حزب البعث طرد العديد منهم من الحزب بسبب تأييدهم القائد البعثي علي صالح السعدي خلال تصادمه مع الجناح العسكري للحزب في تشرين الثاني 1963. لكن السبب الرئيسي لهذا التدهور في المواقع القيادية للشيعة في حزب البعث يرجع إلى الممارسات التمييزية التي اتبعتها أجهزة الأمن. فقد عمدت هذه الأجهزة، بعد انقلاب عبد السلام عارف عام 1963، على ملاحقة

الشيعة بقسوة أكبر قياساً الى رفاقهم السنة، ومعاملتهم معاملة ضارية لدى القبض عليهم. وإن هذا السلوك التمييزي من جانب الأمن يجد تفسيره في التحامل الطائفي لدى القائمين على أجهزة الأمن، كما يجد تفسيره في واقع أن البعثيين السنة ينحدرون من نفس بلدة أو محافظة أو حتى قبيلة أفراد الأمن، نظراً لأن أقسام المديرية العامة للأمن كانت تعجّ بضباط ومراتب من المحافظات الشمالية والشمالية الشرقية التي ينحدر منها أولئك القادة.

أدت هذه التطورات كلها الى تأثر الشيعة المتضررين بأفكار حزب الدعوة الإسلامية، وهو حزب شيعي أصولي، أخذ نشاطه يزداد في أواخر الستينيات. واكتسب حزب الدعوة، الذي يقوده علماء دين يتحدرون من الفئات الوسطى، زخمه خلال فترة الجفاف التي ضربت المناطق الشيعية أواسط السبعينيات إثر بناء سد الطبقة في سوريا، وما تلاه من انخفاض منسوب المياه في نهر الفرات. أدى الجفاف الى دمار بساتين الثمار ومحاصيل الرز، وإنزال الأضرار بمئات الآلاف من الفلاحين الشيعة. وجاء اندلاع الثورة الإيرانية 1978 - 1979 ليعطي حزب الدعوة محفزاً إضافياً، يدفعه باتجاه التجذر الراديكالي في أساليب الصراع<sup>(14)</sup>.



تحركت حكومة البعث، التي وصلت الى السلطة عام 1968، بسرعة وشراسة لمواجهة تحرك الدعوة. واتبع قيادتها الأول، صدام حسين، تكتيكين. فمن جهة ضرب اتباع الدعوة بعنف، ومن جهة أخرى، عرض على العلماء الشيعة المكافآت، وانفق ملايين الدنانير على العتبات المقدسة، والجوامع، وغير ذلك من الشؤون الدينية. وقد نجح في إضعاف حزب الدعوة بشكل حاسم عشية اندلاع الحرب بين العراق وإيران.

زد على هذا أن صدام حسين، الذي لا ينطلق من تفكير طائفي، بذل جهوداً محمومة لكسب الشيعة الى حزب البعث وإدخالهم في صفوفه، وربطهم بنظام حكمه. الواقع أن هناك، الآن، عدداً كبيراً من الشيعة في المراتب الدنيا والوسطى من تنظيمات الحزب، لكن حضورهم في المواقع الحاسمة ضعيف. فخلال الفترة 1968 - 1977 لم يكن هناك شيعي واحد في مجلس قيادة الثورة، وهو الهيئة الأعلى لرسم السياسة. أما خلال الفترة 1977 - 1979، فلم يكن هناك سوى ثلاثة من الشيعة في هذا المجلس، المؤلف من 22 عضواً وهناك الآن عضوان شيعيان من مجموع تسعة أعضاء. كما أن هناك أربعة قياديين شيعة في القيادة القطرية المؤلفة من 15 عضواً. ولكن خلافاً للبعثيين الشيعة في مرحلة ما قبل 1963، لا يتمتع القياديون البعثيون الشيعة حالياً بأية قاعدة سلطة خاصة بهم. فنفوذهم غير أساسي، وهو ينبع أصلاً من ارتباطهم بصدام حسين أو ولائهم له. ولكن هذا الحال يصح أيضاً على السنة من أعضاء مجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية للحزب.

بتعبير آخر، إن غياب أية مشاركة فعلية للشيعة في العملية السياسية هو عاقبة من عواقب سلطة صدام حسين المطلقة.

هذا الوضع يحمل بذور متاعب كامنة للحاكم العراقي، وقد يؤدي الى إحياء حزب الدعوة، والتشيع السياسي، في حالة تعرض العراق الى هزيمة حاسمة على يد إيران، أو إذا أدى المأزق العسكري المستمر بين البلدين الى إضعاف القدرات الاقتصادية والسياسية للنظام بصورة نوعية.

- \* نشر هذا البحث كفصل في كتاب: Islamic Impulse، لندن، كروم هيلم، 1987. حرر الكتاب باربره فراير ستواسر.
- (1) للإطلاع على نص هذا الدستور انظر، بريطانيا العظمى، تقارير الإدارة لأقسام ومناطق أراضي وادي الرافدين المحتلة، للعام 1918 (1919).
- وللإطلاع على مقتبسات من هذا الدستور، انظر كتابي: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العراق، برنستون، 1978، ص19-20.
- (2) انظر كتابي: الطبقات الاجتماعية، ص174-175.
- (3) للإطلاع على المزيد بصدد العوامل التي تفسر ندرة المؤسسات الدينية في الأرياف الشيعية، انظر مقالتي: «الحركات الشيعية السرية في العراق: خصائصها، أسبابها، آفاقها» مجلة Middle East Journal السنة 35، العدد الرابع (خريف 1981)، ص582-584.
- (4) الحسينية مؤسسة شيعية يؤمها الشيعة، وبخاصة في شهر محرم الحرام، حزناً على استشهاد الإمام الحسين (ع).
- (5) انظر: أحمد الكاتب: تجربة الثورة الإسلامية في العراق، طهران، 1981، ص155-151.
- (6) انظر كتابي، الطبقات الاجتماعية، حواشي ص244.
- (7) المرجع السابق، ص294-297.
- (8) للإطلاع على نص المذكرة التي كتبها الملك فيصل الأول في آذار 1933، انظر، عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، طبعة صيدا، 1953، ص286-293.
- (9) المرجع السابق، ص290.
- (10) كتابي: الطبقات الاجتماعية، ص271.
- (11) المرجع السابق، ص47.
- (12) المرجع نفسه، ص1080.
- (13) المرجع نفسه.
- (14) للمزيد عن حزب الدعوة، راجع مقالي المذكور في: Middle East Journal ص578-594.



## الفصل الثالث / الاسلام السني العراقي

### الفصل الثالث الاسلام السني العراقي

د. ميسون كاظم الدليمي - البصرة



مثلما كان العراق اساس الاسلام الشيعي، كذلك كان اساس الاسلام السني. يكفي القول ان اثنان من مؤسسي المذاهب الفقهية السنية الاربعة، هم عراقيان: (الامام أبو حنيفة الكوفي) مؤسس المذهب الفقهي الحنفي، و(الامام أحمد بن محمد بن حنبل أبي عبدالله الشيباني البغدادي) مؤسس المذهب الفقهي الحنبلي. المذهبان الآخران، أولهما مؤسسهما (الامام الشافعي) وهو فلسطيني من (غزة)، و(الامام أنس بن مالك) وهو حجازي، ولكن أيضا لعب (العراق) و(بغداد) خصوصا دورا كبيرا في نشأة وتعميق هذين المذهبين. ثم لا يمكن تغافل شخصية عظيمة قدمها العراقيون في هذا المجال، الا وهو (الامام الاشعري البصري) مبدع (المذهب الفكري الاشعري) الذي لعب دورا حاسما بتكوين الاساس الفكري للمذاهب الفقهية السنية وانتشارها في العالم الاسلامي.

يمكن القول ان طبيعة العراقيين الابداعية وروحهم الحضارية العريقة الموروثة من اسلافهم في سومر وبابل وأشور، قد كانت السبب الاول للعبهم هذا الدور الحاسم في تأسيس المذاهب الاسلامية السنية والشيعية. ثم لا ننسى ان العراقيين، لم يبدعوا فقط في صنع المذاهب، بل ابدعوا في صناعة الجزء الاكبر من الحضارة العربية الاسلامية. فهم الذين منحوا اللغة العربية خطها وتنقيطها وحركاتها ونحوها، من خلال مدرستي الكوفة والبصرة، وهم الذين جعلوا من عاصمة بلادهم (بغداد) عاصمة للحضارة العربية الاسلامية في جميع مجالات المعرفة والثقافة.

اما بالنسبة للمذاهب الفقهية السنية، يمكن اضافة سببا خاصاً مكملاً للسبب الحضاري الطبيعي، الا وهو العامل السياسي.. كيف؟ يلاحظ، رغم ان تأسيس المذاهب الفقهية السنية الاربعة تم خلال القرن الثاني والثالث الهجريين (القرنين الثامن والتاسع م)، الا ان تقبلهما وانتشارهما لم يتم الا في نهاية القرن العاشر الميلادي، اي بعد حوالي قرنين من نشأتها!؟ فالمقدسى وهو في أواخر القرن العاشر م، رغم ذكره جميع الفرق والمذاهب المنتشرة في زمانه، الا انه لم يتحدث ابدا عن وجود مذاهب سنية، بل يذكر المذاهب الاربعة التالية: (الشيعية



والخوارج والمرجئة والمعتزلة)..وجعل اصل افتراقهم قتل الخليفة عثمان(رض) الذي وحد المسلمين في قرآن واحد (د. وليم الخازن - الحضارة العباسية - دار المشرق - 1992 بيروت - ص 149). وسبب انتشار المذاهب الفقهية السنية فيما بعد، يعود أساسا الى ضعف الخلافة العباسية واشتداد الخطر العلوي(الشيعة)، وخصوصا بعد تأسيس الدولة الفاطمية(الاسماعيلية الشيعية) في المغرب ومصر، وثورة القرامطة في جنوب العراق والخليج العربي، مما دفع الخلفاء العباسيين الى تشجيع المذاهب السنية كي تكون بديلا للمذاهب الشيعية المتنامية. وأفضل دليل على ان هذه السياسة العباسية لتشجيع المذاهب السنية، قد انت متأخرة، يمكن الاستشهاد بالمصير المأساوي الذي تعرض له (الامام ابو حنيفة الكوفي)، الذي سجن بأمر الخليفة المنصور وظل يتعرض للتعذيب اليومي حتى توفي في السجن. يقال ان السبب المعلن هو رفضه منصب القضاء، لكن السبب الحقيقي يعود الى ((ميله الى العباسيين ايام الدولة الاموية، وميله الى العلويين ايام الدولة العباسية)) (المصدر السابق - ص 150). يعني هذا ان المذهب الفقهي السني الحنفي، لم ينشأ في الاساس كمخالف للمذاهب الشيعية، بل تم استخدامه بهذا المعنى فيما بعد من قبل الخلفاء ويمكن الاستشهاد مثلا بدور الخلفاء العباسيين المعروف في دعم المذهب الحنبلي: ((تأييدا للحنابلة، كتب صاحب المخزن إلى الخليفة المستضيء بأمر الله (ت575هـ) السنة 571هـ أن يطلق يد ابن الجوزي الحنبلي في الوعظ وتصدر مواجهة الشيعة، قال ابن الجوزي في هذا التكليف: «كتب أمير المؤمنين بتقوية يدي، فأخبرت الناس بذلك على المنبر، وقلت: إن أمير المؤمنين قد بلغه كثرة الرفض، وقد خرج توقيعه بتقوية يدي في إزالة البدع، فمن سمعتموه من العوام ينتقص الصحابة فأخبروني حتى أنقض داره، وأخلده الحبس، وإن كان من الوعاظ حدرته المشان. فانكف الناس، ثم تقدم في يوم الخميس عاشر شوال بمنع الوعاظ كلهم إلا ثلاثة كل واحد من مذهب: أنا من الحنابلة، والقرويني من الشافعية، وصهر العبادي من الحنفية». وفي عهد الرشيد حصر الإفتاء بيد مالك بن أنس. ومجاملة للحنابلة و بغية استخدامهم ضد الشيعة أيضاً، أمر المستضيء سنة 574هـ بعمل لوح على قبر إمامهم، وبنى سترة القبر بأجر جديد، وكتب عليه: «هذا قبر تاج السنّة، وحيد الأمة، العالي الهمة، العالم العابد الفقيه الزاهد، الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني». صاحب تجديد القبر أن «تقدم أمير المؤمنين بعمل دكة بجامع القصر (جامع الخلفاء اليوم) للشيخ ابن المنى الفقيه الحنبلي»، قال ابن الجوزي مزهواً بما ناله الحنابلة من حظوة: «فأتوا أهل المذاهب من عمل مواضع للحنابلة، وما كانت العادة قد جرت بذلك، وجعل الناس يقولون: هذا بسببك، فشكرت الله تعالى على ذلك». (راجع د. رشيد خيون - الاديان والمذاهب في العراق).



**المدرسة المستنصرية في بغداد، وكان مركزا لتدريس المذاهب السنية زمن الدولة العباسية..**

### **تعريف**

أهل السنة و الجماعة أو المذهب السني هو مذهب عدد كبير من المسلمين أطلقت على نفسها اسم أهل السنة والجماعة. يتبعون القرآن وسنة الرسول (ص) نصاً قولاً و فعلاً. ويقرون بالخلافة الراشدية لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي. أهل السنة يعتبرون أن مذهبهم هو الإسلام الصافي.

أهل السنة والجماعة مصطلح واسع يستخدم بشكل خاص للدلالة على المذهب الإسلامي السني الذين يعتمدون عليه لتمييز انفسهم عن الشيعة. هذا المصطلح يختزن مفهوما عقديا دينيا في كلمة السنة بأن أهل هذا المذهب هم متبعو السنة النبوية (أقوال و أفعال و تقارير رسول الإسلام محمد بن عبد الله) ومفهوما سياسيا يتبدى من خلال تأكيد فقهاء هذه الجماعة دوما على وحدة الجماعة ومنع الفتنة , وهو موقف بدأت بوادره في موقف

الكثير من الصحابة عندما اعتزلوا الفتنة (الصراع بين معاوية وعلي) من ثم قبلوا بحكم معاوية بعد أن استتب له الأمر خوفاً من الفتنة.

مؤخراً تحاول الكثير من الجماعات الإسلامية جعل هذا المصطلح اسماً للفرقة الناجية (المذكورة في أحد الأحاديث النبوية) والذي يقول أن الإسلام يفترق على إحدى وسبعين فرقة لا تتجو منهم إلا فرقة واحدة) و بالتالي تحاول الكثير من هذه الجماعات احتكار هذا الاسم لها كالوهابية والكثير من الجماعات الإسلامية , رغم أن المفهوم التاريخي لهذا المصطلح كان يشمل جميع المذاهب السنية المتبعة لسنة الرسول محمد بن عبد الله (ص).

يعد المذهب السني أكثر المذاهب الإسلامية أتباعاً وسعة انتشاراً, حيث يبلغ عدد متبعيه حوالي 90% من مسلمي العالم. كما يعد المذهب الرسمي لمعظم الدول الإسلامية اليوم وقديماً كان المذهب الرسمي للعديد من دول الإسلام السابقة شرقاً وغرباً, فعلى سبيل المثال اعتمدت الدولة العثمانية المذهب الماتريدي السني كمذهب رسمي كما اعتمدت المدرسة الحنفية كمصدر لأحكام وتشريعات الدولة, مع الاعتراف بالمذاهب الأخرى وتعيين قضاة ومدرسين لها.

### الفقه السني

تعود نشأة المذاهب الفقهية السنية إلى بداية الإسلام, وخاصة بعد وفاة رسول الإسلام محمد (ص), حيث اجتهد أصحابه وأتباعه والمسلمين عامة في تطبيق أقواله وأفعاله. مع انتشار الإسلام وتوسعه وتعرضه للكثير من القضايا الجديدة الدينية والتشريعية كانت هناك حاجة ملحة للخروج باجتهادات لهذه القضايا الفقهية المستجدة وتلبية حاجات الناس والإجابة عن تساؤلاتهم ومن هنا نشأت جماعة من المتفقيين (العالمين) في الدين تعلم الناس في كل إقليم شؤون دينهم ودنياهم.

إن التوسع الجغرافي للإسلام وتنوع البيئات التي انتشر بها , وأيضاً قابلية الكثير من النصوص الشرعية الإسلامية للاجتهاد فيها حسب الظروف والحالات أدت إلى نشوء مدارس فقهية منتشرة في الأمصار الإسلامية , وأصبح لكل عالم فقيه أتباع يعملون على نشر فتاواه وحتى العمل ضمن القواعد التي يضعها لإصدار فتاوى جديدة.

### المذاهب السنية الأربعة

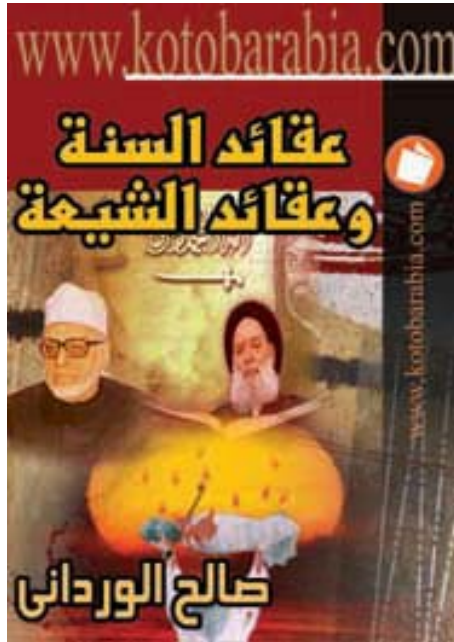
المذهب الحنفي: ينسب هذا المذهب لأبي حنيفة النعمان بن ثابت (80هـ - 150هـ) وهو عراقي من أهل الكوفة من تابعي التابعين وهو إمام أهل الرأي وفقه أهل العراق. واعتمد في مذهبه على الكتاب والسنة والاجماع والقياس والاستحسان والعرف وقول الصحابي وشرع من قبلنا وله في علم العقيدة كتاب الفقه الأكبر. المذهب الشافعي: ظهر هذا الاصطلاح منذ البدايات المبكرة لنشوء المدارس الفقهية السنية المختلفة, لكنه بالتأكيد ظهر في حياة الإمام/ محمد بن إدريس الشافعي (150-204هـ) الذي ولد في غزة في فلسطين, وينسب إليه الشافعية. يعتمد المذهب الشافعي في استنباطاته وطرائق استدلاله على الأصول التي وضعها الإمام الشافعي بشكل عام, لكن ليس بالضرورة أن تتوافق آراء المذهب الشافعي مع آراء محمد الشافعي نفسه, بل قد يكون المذهب استقر ورجح خلاف ما رجحه الشافعي, لكن الأصول وطرائق الاستدلال واحدة. ومما يذكر أن الإمام الشافعي يعد أول من دون كتاباً متكاملاً في العلم المعروف بأصول الفقه وذلك من خلال كتابه الشهير (الرسالة), كما دون كتباً أخرى منها: (الحجة) وهو الكتاب الفقهي الذي دونه أولاً في العراق ثم أعاد تأليفه وغير مذهبه في بضع عشرة مسألة فقهية فيه عندما سكن القاهرة وسماه (الأم).

المذهب الحنبلي: ينسب للإمام أحمد بن محمد بن حنبل أبي عبد الله الشيباني (164هـ - 241هـ) ولد ببغداد ونشأ بها ورحل إلى المدن الأخرى لطلب العلم و تفقه على الشافعي حين قدم ببغداد وصار مجتهداً مستقلاً واهتم بجمع السنة وحفظها حتى صار إمام المحدثين في عصره, ولذلك يعده البعض (مثل الطبري) محدثاً فقط, لا فقيهاً, وأصول مذهبه قريبة من أصول الشافعي حيث يعتمد على الكتاب والسنة والاجماع وفتوى الصحابي والقياس وعرف عنه أنه يقدم الحديث على ما سواه وإذا وجد فتوى لصحابي يقدمها على رأي أو قياس. ولم يؤلف الإمام أحمد كتاب في الفقه وإنما أخذ أصحابه مذهبه من أقواله وأفعاله وأجوبته لكنه صنف في الحديث كتابه الكبير (المسند).

المذهب المالكي: ينسب للإمام مالك بن أنس الأصبحي الحجازي (93هـ - 179هـ). ويعتمد في مذهبه على الكتاب والسنة والاجماع والقياس وعمل أهل المدينة وقول الصحابي والاستحسان وسد الذرائع والمصالح المرسلة. ينتشر المذهب المالكي على الأغلب في البحرين, وقطر, والكويت, والسودان, وبلاد المغرب العربي, ويبلغ عدد أتباعه في العالم (45) مليوناً تقريباً.

## أصول الفقه

أصول الفقه لأهل السنة تقوم على القرآن الكريم والسنة النبوية (حديث نبوي) المطهرة والإجماع والقياس. السنة النبوية مجموعة في كتب السنة العشرة ومنها صحيح البخاري ومسلم وكتب السنن الأربعة كسنن أبي داود وسنن النسائي والمسانيد كمسند أحمد بن حنبل وغيرها كمصدر للاعتقاد والتشريع.



## الخلافا السننى الشىعى

يفترق المذهب الشيعي عن أهل السنة والجماعة في أنها لاتقر بأحقية خلافة الخلفاء الراشدين الثلاث الأوائل: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان. ويرى (الشيعية) أن الإمامة منصوب عليها ومحددة من قبل الله سبحانه وتعالى، بينما يرى أهل السنة أن الإمامة لم يتم تحديدها من قبل الرب جل وعلا. والأمامة فضل من الله يتفضل به على من يشاء من عباده و ليست خاصة لأحد ورد ذلك في القرآن الكريم و خاصة في أواخر سورة الفرقان.

تعود جذور الخلاف الرئيسي بين السنة والشيعة إلى اكبر وأول أزمة مر بها التاريخ الإسلامي ألا و هي الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان ، هذه الفتنة وما خلفته وراءها من نزاعات عنيفة سيما بين معاوية وعلي بن أبي طالب الخليفة الراشدي الرابع (الذي رآه علي نزوع من معاوية للسلطة و رآه معاوية مطالبة للثأر لدم عثمان) كانت السبب الرئيسي وراء تفتت المسلمين. فالانقسام بدا أنه سياسي تطور ليتعمق عقائديا و فقهيا. الموقف الأساسي لمعظم الصحابة الذي شكل أساس الفكر السني فيما بعد هو محاولة اعتزال هذه الفتنة و محاولة أخذ موقف حيادي من النزاع و لعل أكبر ممثل لهذا الاتجاه: عبد الله بن عمر الذي صرح بهذا الموقف مرات عديدة. هذه الحيادية و إن كانت تميل في الكثير من الأحيان لإعطاء الأحقية في النزاع لعلي (رض) دون معاوية إلا انها في النهاية تنحو نحو تعديل كافة الصحابة وعدم الخوض في تخطئة أحد أخذا بالقول أن (المجتهد اذا أخطأ فله أجر وإذا أصاب فله أجران) ، بهذا يعتبر السنة ان هذه الخلافات التاريخية هي مجرد اجتهادات لصحابة عدول و لا يجوز لنا الحكم عليها (و هذا يثير الحيرة أحيانا عندما نفكر في النتائج الكبيرة على تاريخ الإسلام اللاحق) ، لكن مراجعة المصادر تشير إلى ان التشدد في هذه الحيادية حدث بعد نزوع معظم الجماعات الشيعية الى الإجهار بتخطئة بعض الصحابة ، بل ان تأسيس عقيدة شيعية لاحقا لتأسيس مفهومى الولاية و الوصاية عند الشيعة استند على نقد أبو بكر وعمر وعثمان (رض) ، فكان الرد من قبل أئمة السنة عن طريق طرح نظرية مضادة هي عدالة الصحابة تطلق صفة العدالة على كافة صحابة رسول الله (ص) بما فيهم معاوية بن أبي سفيان (وهذا هو السبب الذي يجعل انتقادات معاوية تخف في المصادر المتأخرة لأهل السنة مع ان أئمة السنة الأوائل وأهمهم الحسن البصري كان يهاجم معاوية في عهده وخاصة تزويجه لعقيدة الجبر وقيل أن هذا الخبر ليس عنه.

من اهم الشخصيات التي يستند اليها أهل السنة: بعد القرآن الكريم وأحاديث النبي محمد(ص)، الخلفاء الراشدون / الصحابة / التابعين / أبو حنيفة النعمان الكوفي، مالك بن أنس، الشافعي، أحمد بن حنبل، محمد بن اسماعيل بن إبراهيم البخاري مصنف كتاب صحيح البخاري، مسلم بن الحجاج مصنف كتاب صحيح مسلم.

### مذاهب العراقيين

عادل باقر البغدادي - الموصل



جامع ساحة الفردوس في بغداد

هنالك مذهبان ينتشران بين المسلمين السنة في العراق، هما المذهب الحنفي، والمذهب الشافعي. اما المذهب الحنبلي، فرغم ان مؤسسه عراقي بغدادي، الا انه لم يتمكن من الاستمرار بين العراقيين، لانه يرفض الاجتهاد وفيه الكثير من التقيد والتصعب في التطبيق. وقد تحدد انتشاره خصوصا في المملكة العربية السعودية، حسب المعتقد الوهابي. اما المذهب المالكي، فهو اقل ترمتا واكثر انفتاحا، ولكنه يبقى رافضاً للاجتهاد. وهو ينتشر خصوصا في بلدان المغرب وعموم افريقيا. ان انتشار المذهبين الحنفي والشافعي بين العراقيين، يعود الى كونهما الاكثر انفتاحا واجتهادا وميلا الى القياس والرأي. لهذا فأنا نلقي نظرة مفصلة على هذين المذهبين..

### المذهب الحنفي



ضريح وجامع الامام ابوحنيفة النعمان الكوفي

عرف هذا المذهب بـ (مذهب اهل العراق) وهو مذهب فقهي اسلامي من مذاهب أهل السنة الاربعة، ينسب الى (الإمام ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي) المتوفى سنة 150 هـ في بغداد، وقد اعتمد غاية الاعتماد على (الرأي) و(القياس) وعمل بأراء هذا المذهب في أغلب البلاد الاسلامية.

## تاريخ المذهب

من المعلوم ان (الامام ابوحنيفة النعمان) قد قتل على يد الخليفة العباسي (المنصور) لانه رفض التعاون معه. بل يقال ان الامام ابو حنيفة قد افترى بوجوب نصره زيد بن علي بن الحسين (ع) وحمل المال اليه والخروج معه على اللص المتغلب المسمى بالامام والخليفة. الا ان الدولة العباسية بعد موت مؤسس المذهب، احست بحاجتها الى استخدام المذاهب السنية لمواجهة المذاهب الشيعية الآخذة بالانتشار وتهديد الدولة. بما ان الدولة العباسية اخذت تعتمد على العراقيين وتقربهم وبنفس الوقت تشجع انتشار المذهب الحنفي حتى التف حوله العراقيين من غير الشيعة، واصبح المذهب الرسمي للدولة العباسية. اخذت الدولة العباسية تغدق بالعطاء والهدايا على اهل الرأي فحاول بعض علماء هذا الاتجاه تأييد وجهة نظر الدولة ودعمها في بروز هذا التيار (الحنفية) ونشوءه.

قام العباسيون بتقريب علماء الحنفية وجعلوا القضاء بيد اهل الرأي من اهل العراق حتى ولي (ابو يوسف القضاء) وهو تلميذ أبي حنيفة فكانت للمذهب الحنفي حظوة واسعة في الشهرة والانتشار. ان وجود رجالات حملوا على عاتقهم نشر المذهب أمثال ابي يوسف قاضي القضاة في زمن الرشيد ساعد على انتشار هذا المذهب انتشاراً واسعاً، حيث تولى القضاء لثلاثة من الخلفاء العباسيين منذ أيام المهدي ثم الهادي ثم الرشيد. حظي الفقه الحنفي بمحمد بن الحسن الشيباني الذي دون فقه هذا المذهب وسجله، وكذلك محمد بن شجاع الثلجي الذي كان يحتج بفقه الحنفية وظهر علته وقواه بالحديث، فساعد هذان الامران على انتشار هذا المذهب على صعيد العالم الاسلامي.

انتشر المذهب الحنفي في العراق وفي اغلب الاقطار الاسلامية بشكل متفاوت، فتركيا والباينا وسكان بلاد البلقان وتركستان (بخارى) هم على المذهب الحنفي بصورة غالبية، وفي افغانستان يؤلفون نصف اهل السنة بل هذا المذهب هو اوسع المذاهب الاسلامية انتشاراً على الاطلاق.

## معتقدات المذهب

اعتمد هذا المذهب افكاراً ومعتقدات من أهمها:

- الاصول عند الحنفية هي: « الكتاب والسنة واجماع الصحابة والقياس والاستحسان والعرف » .
- اهم مصادر التشريع عندهم هو الاخذ بالقياس حتى عرفوا به وتميزوا عن بقية المذاهب.
- اعتقدوا ان الايمان هو المعرفة بالله ورسوله والاقرار بما جاء من عند الله في الجملة دون التفسير.
- قالوا: بجواز قبول الجزية من عبدة الاصنام مستثنين العرب منهم.
- أغلقوا باب الاجتهاد مكتفين باجتهاد الائمة السابقين وصار عصرهم عصر تقليد واختيار من كتب السابقين.
- قالوا بعدم جواز الحجر على السفية ولا على ذي الغفلة لانهم يرون ان الشخص ببلوغه عاقلاً سواء كان سفياً ام غير سفية فإنه قد بلغ حد الانسانية المستقلة.
- ذهب فقهاؤهم الى انه لايجوز للجنب مس التوراة وهو محدث.
- قالوا: بجواز الصلاة خلف الفاسق وغيره.
- قالوا في الكفر والشرك هما اسمان واقعان على معنيين وان كل شرك كفر وليس كل كفر شركاً، وقالوا: لاشرك الا من جعل لله شريكاً، واما اليهود والنصارى فكفار لامشركون وسائر الملل كفار مشركون.
- كان من مبدئهم اعمال عقولهم فيما اذا روي في المسألة قولان أو أكثر في الصحابة فيختارون منها أعدلها أو اقربها الى الاصول العامة وعدم الاعتداد بأقوال التابعين الا ان يوافقوا اجتهادهم.
- جاهروا في العراق بوجوب نصره ابراهيم اخي ذي النفس الزكية بل ان الامر وصل بهم الى ان ثبطوا بعض قواد المنصور عن الخروج لحرب ابراهيم.
- قالوا: ان للمرأة الولاية الكاملة في الزواج فكما ان الولاية المالية تثبت لها كاملة فكذلك ولاية الزواج، ثم انهم قرروا المساواة بين الرجل والمرأة، فكما ان له الولاية الكاملة في شأن الزواج فلها ايضا الولاية على نفسها في شأن الزواج.
- قالوا انه لا يكفر ولا يفسق مسلم بقول قاله في اعتقاد او فتيا، وان كل من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى انه الحق، فهو مأجور على كل حال، ان اصاب الحق فله اجران وان أخطأ فأجر واحد.
- كان لهم في الحديث مسلك خاص وهو التشديد في قبول الحديث والتحري عنه وعن رجاله حتى يصح، وكانوا لا يقبلون الخبر عن رسول الله الا اذا رواه جماعة عن جماعة.



- من الامور الظاهرة في فقه مذهب الحنفية (الحيل الشرعية)، وقد اصبحت باباً واسعاً من ابواب هذا الفقه في مذهبهم حتى وضعوا فيما بعد حيلاً للهروب من كل الالتزامات.



#### من تاريخ الإمام ابو حنيفة

- كان للحنفية موقف عداء معروف من الأمويين حتى ان يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري امير العراقيين قد استقدم ابا حنيفة لكي يلي القضاء بالكوفة ايام مروان بن محمد آخر ملوك بني امية فأبى عليه فضربه مئة سوط وعشرة، كل يوم عشرة سياط، وهو على الامتناع فلما رأى ذلك خلى سبيله.  
- يروى انه لما خرج زيد بن علي بالكوفة على هشام بن عبد الملك قال ابو حنيفة: « ظاهي خروجه خروج رسول الله يوم بدر » فقبل له: لم تخلفت عنه ؟ قال: حبسني عنه ودائع الناس، عرضتها على ابن ابي ليلى فلم يقبل فخفت ان اموت مجهلاً.  
- في العصر العباسي استدعى المنصور ابا حنيفة من الكوفة لانه اتهم بالتشيع لابراهيم اخي محمد ذي النفس الزكية فحبسه خمسة عشر يوماً ثم سمه فمات.

#### من افكار الامام ابو حنيفة

- قال الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) لأبي حنيفة: يانعمان ما الذي تعتمد عليه فيما لم تجد فيه نصاً من كتاب الله ولا خبراً عن رسول الله (ص) ؟ فقال: أقيسه على ما وجدت من ذلك، قال الامام الصادق (ع): ان اول من قاس ابليس فأخطأ اذ أمره الله بالسجود لآدم (ع) فقال: « انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين »، فرأى النار اشرف من الطين فخلده ذلك في العذاب المهين، أي نعمان أيهما أطهر البول ام المني ؟ قال: البول، قال قد جعل الله في البول الوضوء وفي المني الغسل ولو كان يحمل على القياس لكان الغسل في البول. وإيهما اعظم عند الله، الزنى أم قتل النفس ؟ قال قتل النفس، قال الامام الصادق (ع): قد جعل الله في قتل النفس شاهدين وفي الزنى اربعة ولو كان على القياس لكان الاربعة شهداء في القتل لانه اعظم، وأيهما أعظم عند الله الصلاة أم الصوم ؟ قال الصلاة، قال الامام: فقد أمر رسول الله (ص) الحائض أن تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة ولو كان على القياس لكن الواجب ان تقضي الصلاة، فاتق الله يانعمان ولا تقس.  
جاء جماعة من اهل المدينة ابا حنيفة لينظروه في القراءة خلف الامام (وابو حنيفة يقول بعدم قراءة المأموم)، فقال لهم لا يمكنني مناظرة الجميع، فولوا الكلام اعلمكم فأشاروا الى واحد، فقال: هذا أعلمكم ؟ والمناظرة معه كالمناظرة معكم ؟ قالوا: نعم، قال: والحجة عليه كالحجة عليكم ؟ قالوا نعم، قال: ان ناظرته لزمتمك الحجة لانكم اخترتموه فجعلتم كلامه كلامكم، وكذا نحن اخترنا الامام فقراءته قراءتنا.

#### المصادر

- 1- الامين، شريف يحيى، معجم الفرق الاسلامية، (بيروت - لبنان، دار الاضواء، ط1، 1406 هـ. ق - 1986 م).
- 2- اسد حيدر، الامام الصادق (ع) والمذاهب الاربعة (بيروت - لبنان، دار الكتاب العربي، ط2، 1390 هـ. ق - 1969 م).

- 3- الشنتناوي، خورشيد، دائرة المعارف الاسلامية، (بيروت - لبنان، دار المعرفة).
- 4- وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، (بيروت - لبنان، دار المعرفة ط3 1971 م).
- 5- القرشي، باقر شريف، حياة الامام الصادق (ع) (بيروت - لبنان، دار الاضواء، ط1، 1992 م).
- 6- احمد امين، ظهر الاسلام (بيروت - لبنان، دار الكتاب العربي، ط5، 1373 هـ - ق - 1953 م).
- 7- الاشعري، علي بن اسماعيل، مقالات الاسلاميين (دار النشر فرانزشتاينر بفسبادن، ط3، 1400 هـ - 1980 م).
- 8- مقدمة في دراسة الفقه الاسلامي.
- 9- محمد ابو زهرة، تاريخ المذاهب الاسلامية، (بيروت - لبنان، دار الفكر العربي).
- 10- ابن كثير، البداية والنهاية، (القاهرة - مصر، دار الحديث، 1992 م، ط1).
- 11- ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والاهواء والنحل (بيروت - لبنان، دار الجيل، 1405 هـ - 1985 م).
- 12- ابن البزاري، المناقب.

### المذهب الشافعي



هو أحد المذاهب الاربعة، أسسه الامام محمد بن ادريس الشافعي المولود في فلسطين (150-204هـ)، والذي اعتمد على الجمع بين مدرستي الرأي والحديث، ويعد من الاوائل الذين وضعوا علم الاصول، وكانت بغداد أولاً، ثم بعدها مصر هي المكان الذي صدر عنه هذا المذهب، وتبلور مذهباً فقهياً مستقلاً في اوائل القرن الثالث الهجري.

### تاريخه

الشافعي هو الذي نشر مذهبه بنفسه، وسبب انتشار مذهبه ما قام به من الرحلات المتعددة بين بغداد والمدينة حيث ينتشر مذهب أهل الرأي وأهل الحديث، فأخذ الشافعي منهجاً وسطاً بين الفريقين فأوجب العمل بالحديث اذا كان صحيحاً وان لم يكن مشهوراً، وكذلك أخذ بالقياس في المسائل التي لم يكن فيها نص. فبذلك أقبل عليه أهل الحديث ورضى عنه أهل الرأي.

تلقى محمد بن ادريس الشافعي الفقه والحديث على يد مالك، والرأي على يد محمد بن الحسن الحنفي، ونظراً لتمتعه بالثقافة الواسعة والقدرة الفائقة على الجدل فقد استطاع أن يرسم لنفسه منهجاً وسطاً جمع فيه بين مدرستي الرأي والحديث، تمخض عنهما المذهب الشافعي. ولعل أهم العوامل التي هيأت للشافعي أسباب النجاح في مصر هي انه كان معروفاً بأنه تلميذ لمالك وخريج لمدرسته، وكان لمالك هناك ذكر ولمذهبه انتشار، فقبول الشافعي بالعناية. ان نشاط الشافعي وعلو همته وتفوقه بالأدب ومعرفته باللغة واحاطته بأقوال مالك وأقوال أهل الرأي وانتصاره لمذهب أهل الحديث جعل اشتهار قرشيته، واحتجاجة بالانتساب للنبي (ص) وهذا له أثره في قلوب المسلمين. ان صلته بحاكم مصر الجديد عبد الله بن العباس بن موسى. كذلك اهتمام الخليفة العباسي هارون الرشيد بالشافعي.

ان الدعم الاعلامي المتمثل بكثرة الروايات المنسوبة للنبي (ص) بحق الشافعي أو سرد الرؤيا « الاحلام » من قبل انصاره. لقد حظي المذهب الشافعي بتأييد الحكام الايوبيين، ولما خلفت دولة المماليك البحرية دولة

الاويبيين لم تنقص حظوة هذا المذهب فقد كان اغلب سلاطينها من الشافعية. كان للمذهب الشافعي رجالات حملوا على عاتقهم نشره في بقاع العالم الاسلامي، امثال خالد بن اليمان البغدادي، والحسن بن محمد الصباح الزعفراني، ويوسف بن يحيى البويطي المصري. أنتشر المذهب الشافعي في مصر وفلسطين وعدن وحضرموت وفي العراق وباكستان والعربية السعودية وهو المذهب الغالب في اندونيسيا.

#### معتقداته

- لهم طريقتهم في الاستنباط هي احتجاجهم بظواهر القرآن حتى يقوم الدليل على ان المراد بها غير الظاهر ثم بعد ذلك يستدلون بالسنة، ثم بعمل الاجماع، وان لم يجدوا فبالقياس.
- قالوا: بجواز رؤية الله يوم القيامة مستدلين على ذلك بجواب الامام الشافعي الى اهل الصعيد عند ما سألوه عن قوله تعالى: « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون »، فأجابهم: لما حجب قوماً بالسخط دل على ان قوماً يرونه بالرضا، وسئل: أو تدين بذلك ؟
- قال: والله لو لم يدن محمد بن ادريس انه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا.
- عملوا بخبر الأحاد مادام الراوي ثقة ومادام الحديث متصلاً بالرسول الكريم.
- قالوا بأن صلاة الجمعة لا تنعقد الا بأربعين نفساً.
- لا يؤمنون بحجية الاستحسان ورفضوا الأخذ به.
- قالوا بوجوب معرفة احكام الايمان والاسلام في الجملة وقالوا أصل الايمان المعرفة والتصديق بالقلب.
- وفي الامامة رووا ان القرشي العادل اذا تغلب فبايعه المسلمون بيعة صحيحة راضين مرضيين تكون بيعته صحيحة وان تأخرت عن الولاية التي نالها بالغبلة.
- اعتمدوا في الحديث على صاحبهم الستة.

#### مآثر الامام الشافعي

- ذكر رجل للشافعي يوماً مسألة، فأجاب عنها فقال له الرجل: خالفت علي بن ابي طالب (ع) فقال الشافعي: « ثبت لي هذا عن علي بن ابي طالب حتى أضع خدي على التراب وأقول قد اخطأت وأرجع عن قلبي الى قوله » .
- حضر الشافعي يوماً مجلساً فيه بعض الطالبين فقال: لا أتكلم في مجلس يحضره أحدهم (أي الطالبين) هم أحق بالكلام مني ولهم الرئاسة والفضل.

- لما سمع الشافعي ان بعض الناس رموه بالتشيع أنشد وقال:

**إذا نحن فضلنا علياً فإننا \* روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل  
وفضل ابي بكر اذا ما ذكرته \* رميت بنصب عند ذكراي للفضل  
فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما \* أدين به حتى أوسد في الرمل**

اتهم الشافعي مع تسعة من العلويين في اليمن بالخروج على الدولة العباسية فألقي القبض عليهم جميعاً، وكان إذ ذاك يتولى عملاً بنجران، فأرسلوا الى بغداد وضربت رقاب العلويين وجاء دور الشافعي فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين فإنك الداعي وانا المدعو، وانت القادر على ما تريد مني ولست القادر على ما أريده منك، يا أمير المؤمنين ما تقول في رجلين يراني احدهما اخاه والآخر يراني عبده أيهما أحب اليّ ؟ قال: الذي يراك أخاه. قال: فذاك أنت يا أمير المؤمنين، انكم ولد العباس وهم ولد علي ونحن بنو المطلب، فأنتم ولد العباس تروننا اخوتكم وهم يروننا عبيدهم.

قال الشافعي يوماً: كان في عليّ اربع خصال لا تكون خصلة واحدة لأنسان الا يحق له ان لا يبالي بأحد: كان زاهداً والزاهد لا يبالي بالدنيا واهلها، وكان عالماً والعالم لا يبالي بأحد، وكان شجاعاً والشجاع لا يبالي بأحد، وكان شريفاً والشريف لا يبالي بأحد.

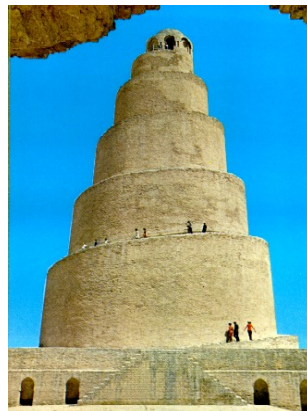
#### المصادر

- 1- الشنتناوي، خورشيد، دائرة المعارف الاسلامية، (بيروت - لبنان، دار المعرفة). احمد امين، ضحى الاسلام (بيروت - لبنان، دار الكتاب العربي، 1343 هـ. ق - 1935 م).
- 2- د - علي محمد جعفر، تاريخ القوانين ومراحل التشريع الاسلامي.

- 3- اسد حيدر، الامام الصادق (ع) والمذاهب الاربعة (بيروت - لبنان، دار الكتاب العربي، ط 2، 1390 هـ. ق - 1969 م).
- 4- احمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ط 1، 1417 هـ - 1997 م).
- 5- بوجينا غيانه، تاريخ التشريع الاسلامي، (بيروت - لبنان، دار الآفاق الجديدة، ط 1، 1980 م).
- 6- الخضري، تاريخ التشريع الاسلامي (بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية ط 9، 1390 هـ. ق - 1970 م).
- 7- السبكي، طبقات الشافعية (القاهرة - مصر، مطبعة عيسى البابي، ط 1، 1383 هـ. ق - 1964 م).
- 8- د - علي محمد جعفر، تاريخ القوانين ومراحل التشريع الاسلامي.
- 9- الزلمي، مصطفى ابراهيم، اسباب اختلاف الفقهاء، (بغداد - العراق، ط 2، مط شفيق، 1986 م).
- 10- الغزالي، محمد بن محمد، المذهب في فقه الشافعي (القاهرة - مصر، دار احياء الكتب العربية الكبرى، ط 2، 1959 م).
- 11- الامين، شريف يحيى، معجم الفرق الاسلامية، (بيروت - لبنان، دار الاضواء، ط 1، 1406 هـ. ق - 1986 م).
- 12- الجندي، عبد الحليم، الإمام جعفر الصادق (ع) (القاهرة - مصر، دار المعارف، 1986 م).
- 13- النديم، الفهرست، (القاهرة - مصر، 1393 هـ. ق - 1973).
- 14- ياقوت الحموي البغدادي، معجم الادباء، (بيروت - لبنان، دار الفكر، ط 3، 1400 هـ. ق - 1980 م).
- 15- محمد ابو زهرة، تاريخ المذاهب الاسلامية، (بيروت - لبنان، دار الفكر العربي).

### من تاريخ المذاهب السنية لدى أهل العراق

د. رشيد الخيون - لندن



في دراسة نشوء وشيوع المذاهب الفقهية رسمياً، انطلاقاً من بغداد، وابتداءً بالمذهب الحنفي العراقي النشأة، تظهر جلياً جهود الخلفاء العباسيين، والسلطين البويهيين، في قبول وتعايش أكثر من مذهب في إطار المدرسة أو المسجد، مقابل محاولات السلطين السلاجقة والعثمانيين فرض المذهب الواحد، وبالتالي سيادة الرأي الواحد، رغم وجود أتباع كثيرين لباقي المذاهب. فالسلاجقة فرضوا المذهب الشافعي وأسسوا المدارس المغلقة له، والعثمانيون فرضوا على القضاء المذهب الحنفي فقط. بذلك بادروا إلى تجسيد الفكر الواحد، بمعنى تحريم غيره بالوسائل المتاحة (المذاهب التي قُمت أيام الأمويين كانت فكرية وسياسية، لأن المذاهب الفقهية لم تتبلور يومذاك بعد). لذا أول مرة ظهرت، في العهد السلجوقي رسمياً، مدارس على أساس المذهب الواحد، يفرض المذهب فيها على الطالب والمدرس والفراش، ظهرت وكأنها كانت مقدمة، في منطقتنا، لظاهرة الفكر الواحد فيما بعد. لذلك نقل الشيعة دور علمهم، تحت ضغط سلجوقي، من بغداد إلى النجف. وبعدها تقدم ابن فضلان الشافعي (ت 631هـ)، رئيس ديوان أهل الذمة برسالة إلى الخليفة الناصر (ت 622هـ) يطالبه فيها تطبيق المذهب الشافعي في معاملة الذميين، مع ما فيه من قساوة، بدلاً من المذهب الحنفي، وأحسن الخليفة بعدم تلبية طلبه.

وفي تلك الآونة كثرت، بين الفقهاء والقضاة، ظاهرة التغيير المذهبي الموسمي، رغم أن المذهب، عند الغالبية، مثل الدين يأخذه الأبناء عن الآباء. مثال ذلك ما شهدته المدرسة النظامية من تغيير مذهبي بين مدرسيها، يوم أسسها نظام الملك السلجوقي لتدريس المذهب الشافعي فقط، فاضطر وجيه الدين أبو بكر بن المبارك الواسطي إلى التحول إلى الشافعية، وكان قد بدل مذهبه حسب مذهب المدرسة التي يجد وظيفة فيها، مع أنه صاحب قدرات معرفية نادرة، فكان نابغة في النحو، ويتقن الفارسية والتركية والرومية والحشية والزنجية، إضافة إلى نظمه للشعر، كل هذا وهو أعمى. وجد مؤيد الدين أبو البركات التكريتي (ت599هـ) فرصة لرتاء حال هذا المدرس، بقوله<sup>(1)</sup>:

من مبلغ عني الوجيه رسالة وإن كان لا تجدي لديه الرسائل  
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل وذلك لما أعوزتك المأكـل

وما اخترت رأي الشافعي تديناً ولكنما تهوى الذي هو حاصل  
وعما قريب أنت لا شك صائراً إلى مالك فأفطن لما أنت قائل

كما غيرَ النحوي علي بن معالي المعروف بابن الباقلاني (ت637هـ) مذهبه الحنفي إلى المذهب الشافعي، وهو شيخ الأدب والنحو في وقته<sup>(2)</sup>. إلا أن التحول عن المذهب الحنبلي، وإن كان محدود الانتشار بالعراق، كان يحصل بسبب ممارسات ميليشيات الحنابلة، إذ كانت بأيديهم لفترة طويلة وظيفة الحسبة، وهي تقابل اليوم المطاوعة في بعض البلدان، أي جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكثيراً ما كان القائمون على هذه الوظيفة يتدخلون في شؤون الناس الشخصية ولازوا كذلك.

تبنى العباسيون الأوائل، قبل ظهور المذهب الشافعي (150 - 204هـ)، المذهب الحنفي، بعد قتل مؤسسه (150هـ) بكأس مسموم، بتهمة التآمر مع إبراهيم أخ محمد النفس الزكية. تم هذا التبني عبر منصب القضاء، فكان "أول من خطب بقاضي قضاة"<sup>(3)</sup> في تاريخ الإسلام، أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت182هـ)، المعروف بصاحب أبي حنيفة، فهو من تلاميذه ومريديه الأوائل، وصاحب كتاب "الخراج"، الذي ألفه بطلب من هارون الرشيد (ت193هـ)، ليصبح مرجعاً تشريعياً ومالياً للدولة، وفقاً لأحكام المذهب الحنفي. ففي معظم المسائل كان سنده، بعد أبي حنيفة، حماد بن أبي سليمان (ت120هـ)، وإبراهيم النخعي (ت96هـ)، فأروهما شكلت خلفية فكرية لمدرسة الرأي بالعراق، وحماد كان شيخ أبي حنيفة ثمانية عشر عاماً. وفي تأكيد حنفيه هذا المرجع نذكر قول أبي يوسف في قسمة الغنائم: "كان الفقيه المقدم أبو حنيفة"<sup>(4)</sup>.

قال التنوخي (ت384هـ) في اتصال أبي يوسف بالرشيد، دون أن يذكر صلة له بمحمد المهدي وموسى الهادي: "إنه قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة، فحنث بعض القواد في يمين، فطلب فقيهاً يستفتيه فيها، فجاء بأبي يوسف، فافتاه، أنه لم يحنث، فوهب له دنانير، وأخذ له داراً بالقرب منه، واتصل به. فدخل القائد يوماً على الرشيد، فوجده مغموماً، فسأله عن سبب غمّه، فقال: شيء من أمر الدين قد حزّ بي، فأطلب لي فقيهاً استفتيته، فجاءه بأبي يوسف"<sup>(5)</sup>.

كان الأمر يخص أحد أولاد الرشيد وقد حُبس بتهمة الزنا، وينتظر عقوبة أبيه، فعز على الرشيد أن يُجلد ولده، لذا احتاج إلى فقيه يسهل الأمر، ولا يخرج الخليفة. وكان أبو يوسف قد لمح شاباً تبدو عليه النعمة محبوساً. بعد جلوسه، سأله الرشيد، دون أن يكشف له أمر ولده: "ما تقول في إمام شاهد رجلاً يزني، هل يحده؟" أجاب القاضي، وكأنه عرف ورطة الخليفة: "لا يجب ذلك". حينها سجد الرشيد شاكراً، فسأله كيف يكون ذلك؟ أجاب بالآتي: "لأن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: ادروا الحدود بالشبهات، وهذه شبهة، يسقط الحد معها". فقال الرشيد: وأي شبهة مع المعاينة؟ قال أبو يوسف: "ليست توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى، والحكم في الحدود لا يكون بالعلم... لأن الحدّ حق الله تعالى، والإمام مأمور بإقامة الحدّ، فكأنه صار حقاً له، وليس لأحد أخذ حقه بعلمه، ولا تناوله بيده، وقد أجمع المسلمون على وقوع الحدّ بالإقرار والبيّنة، ولم يجمعوا على إيفائه بالعلم"<sup>(6)</sup>.

كانت هذه واحدة من الحيل الفقهية المشروعة، تضاف إلى خلفية المذهب الحنفي في مراعاة المواقف الحرجة، مثل هذا الموقف. وحسب الرواية أن أبا يوسف لم يكن يعرف مسبقاً أن الزاني كان ابن الرشيد، حتى تعتبر فتواه مجاملة للخليفة. على أثر ذلك اللقاء، حسب المصدر المذكور، قلد الرشيد أبا يوسف منصب قضاء القضاة. غير أن روايات أخرى أشارت إلى اتصال أبي يوسف بالعباسيين قبل الرشيد، إذ قال المسعودي (ت346هـ): "كان نقش خاتم المهدي (الله ربي)، وعلى قضائه أبو يوسف، صاحب أبي حنيفة النعمان بن ثابت"<sup>(7)</sup>. وقال أيضاً: "كانت أم جعفر (وهناك ثلاث بهذه الكنية: زوجة أبي جعفر المنصور، وزوجة يحيى بن خالد البرمكي، وزبيدة زوجة هارون الرشيد وابنة عمه جعفر وأم الأمين، والراجح أن الأخيرة هي المقصودة



في الرواية) كتبت مسألة إلى أبي يوسف تستفتيه فيها، فأفتاها بما وافق مرادها، حسب ما أوجبه الشريعة عنده، وأداه اجتهاده إليه، فبعثت إليه بحق (وعاء) فضة فيه حقان من فضة، وفي كل حق لون من الطيب، وجام (كأس) من ذهب فيه دراهم، وجام فضة فيه دنانير، وغلما وتخت من ثياب، وحمار وبغل<sup>(8)</sup>. كما ذكر الكوثري أن أبا يوسف قلد القضاء من السنة 166هـ، أي قبل وفاة المهدي (ت169هـ) بثلاث سنوات<sup>(9)</sup>. قال التنوخي، الحنفي المعتزلي: "كان القضاء على مذهب أبي حنيفة، وغيره من الفقهاء"<sup>(10)</sup>. ولعل حنفية أغلب القضاة في ظل الخلافة العباسية حتى سقوطها السنة 656هـ، تكفي لإعطاء صورة واضحة عن انتشار المذهب بالعراق والبلاد الأخرى، ومن هؤلاء القضاة حسب التنوخي في "نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة" ذي الثمانية مجلدات: نوح بن دراج (ت182هـ)، أسد بن عمرو (ت190هـ) قضاء شرق بغداد، وواسط، والكوفة، علي بن طبيان (ت192هـ) قضاء بغداد مع منصب قاضي قضاة، الحسين بن الحسن العوفي (ت201هـ) قضاء بغداد، بشر بن الوليد (ت238هـ) قضاء بغداد، الحسن بن علي الجعد (ت243هـ) قضاء بغداد، هلال بن يحيى بن سالم، المعروف بهلال الرأي (ت245هـ)، (نسبة الأهل الرأي)، إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة، عبد الرحمن بن إسحاق بن إبراهيم، عبد الله بن محمد الخنلجي، عبيد الله بن أحمد بن غالب، أبو خازم عبد الحميد بن عبد العزيز (ت283هـ) قضاء شرق بغداد، أبو الحسن علي بن أبي طالب البهلول (ت358هـ) قضاء الأنبار وهيت وخراسان، مع منصب قاضي قضاة، الحسين بن محمد بن إسماعيل الكوفي (ت395هـ)، محمد بن عبد الله المؤذن، قضاء بغداد أيام المتوكل، صاعد بن محمد (ت432هـ) قضاء نيسابور، أبو علي المحسن التنوخي (ت384هـ) قضاء الكوفة وبابل وقصر ابن هبيرة.

لا ندري كيف تبوأ هذا العدد من الفقهاء القضاء، رغم وصية إمامهم أبي حنيفة الناهية عن قبوله وإن اضطروا إليه، فلا يقبلوه إلا بشروط صعبة. جاء برواية أبي يوسف: أن أبا حنيفة أوصاهم، وكان يحيطون بمجلسه في يوم مطير، بقوله: "أنتم مسار قلبي، وجلاء حزني، قد أسرجت لكم الفقه، وألجمته، فإذا شئتم فأركبوا، وقد تركت لكم الناس يطئون أعقابكم، ويلتمسون ألفاظكم، وذلت لكم الرقاب، وما منكم أحد إلا وهو يصلح للقضاء، وفيكم عشرة يصلحون أن يكونوا مودي (معناها بالقاموس الأسد، ولعل أبا حنيفة قصد هذا المعنى) القضاة. فسألنكم بالله، ويقدر ما وهب الله لكم جلاله العلم، لما صنتموه عن ذل الاستيثار (الموافقة في كل الأحوال)، فإن بُلي رجل منكم بالدخول في القضاء فعلم من نفسه خربة، سترها الله تعالى عن العباد، لم يجز قضاؤه وطاب له رزقه، فإن دفعته ضرورة إلى الدخول فيه، فلا يجعلن بينه وبين الناس حجاباً، وليصل الصلوات الخمس في الجامع، وليناد عند كل صلاة من له حاجة، فإذا صلى صلاة العشاء الآخرة نادى ثلاثة أصوات من له حاجة، ثم دخل إلى منزله، فإن مرض مرضاً لا يستطيع الجلوس معه اسقط من رزقه بقدر مرضه"<sup>(11)</sup>.

كما دلّ على شيوع المذهب الحنفي في آفاق الدولة العباسية، انتساب شخصيات هامة إليه، منها الطبيب والفيلسوف ابن سينا (ت428هـ)، والمتكلم المعتزلي البغدادي عبد الله بن أحمد البلخي (ت319هـ)، والفقيه العالم محمد بن الحسن فرقد الشيباني (ت189هـ)، واللغوي والمفسر محمود بن عمر الزمخشري (ت515هـ)، صاحب كتاب في المذهب بعنوان "شقائق النعمان في حدائق النعمان"<sup>(12)</sup>. كما منع رسوخ المذهب شخصيات خطيرة في الدولة العباسية من محاولة تحجيمه أو منعه رسمياً، منهم الفضل بن سهل، ذو الرئاسة. فقد دسّ شخص يدعى النضر بن شميل كانت بينه وبين قاضي مرو الحنفي خالد بن صبيح وأصحابه جفوة. لكن الفضل أستشار قبل تقديم الطلب إلى المأمون، فقليل له: "إن الأمر لا ينفذ، ولا ينتقض جميع الملك عليكم، ومن ذكر هذا فهو ناقص العقل"، فقال الفضل: "هذا إن سمعه أمير المؤمنين لا يرضى به، ويعاقب من ذكر له هذا"<sup>(13)</sup>.

إلى جانب القضاة الحنفيين، وما يحصل بوجودهم من مراعاة لمذهبهم، هناك المدارس الخاصة بالمذهب الحنفي، دون التشدد إزاء مذهب منتسبيها، وهي: مدرسة أبي حنيفة - تقع جوار ضريحه ولعلها سلف كلية الفقه الموجودة حالياً بالمكان نفسه - المدرسة المغيثة، المدرسة الموقفية، مدرسة زيرك، مدرسة البهائية، ومدرسة تركان خاتون<sup>(14)</sup>. ومن المدارس الخاصة بالمذهب الحنفي بمدينة واسط: مدرسة الغزنوي، شيدها محمود الغزنوي (ت563هـ)، بمحلة الوراقين<sup>(15)</sup>، فواسط احتفظت بدور ملحوظ بعد انتقال عاصمة العراق إلى بغداد، وظلت مكاناً يقضي به الخلفاء أوقات عزلتهم، وذكرها يأتي في العديد من الأحداث بعد بغداد مباشرة.

ومن أشهر المدارس، التي استوعبت المذاهب السنية الأربعة المدرسة المستنصرية ببغداد، التي افتتحت العام 631هـ. قال المؤرخ ابن الفوطي (ت723هـ) في افتتاحها: "حضر نصير الدين نائب الوزارة، وسائر الولاة، والحجاب، والقضاة، والمدرسون، والفقهاء، ومشايخ الربط والصوفية، والوعاظ، والقراء، والشعراء، وجماعة من أعيان التجار الغرباء إلى المدرسة، وتُخير لكل مذهب من المدارس وغيرها اثنان وستون نفساً، ورتب لها مدرسان ونايبا تدريس. أما المدرسان فمحي الدين أبو عبد الله محمد بن يحيى بن فضال الشافعي، ورشيد

الدين أبو حفص عمر بن محمد الفرغاني الحنفي، وخلع على كل واحد منهما جبة سوداء، وطرحه كحلية، وامطي بغلة بمركب جميل وعدة كاملة. وأما النائبان فجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزي الحنبلي (حفيد ابن الجوزي)، نيابة عن والده، لأنه كان مسافراً في بعض مهام الديوان، والآخر أبو الحسن علي المغربي المالكي، وخلع على كل واحد منهما قميص مصمت وعمامة قصب، ثم خلع على جميع المعيدين، وهم لكل مذهب أربعة خلعا<sup>(16)</sup>.



منارة عانه

اقتسمت المذاهب الأربعة، حسب الأهمية، أركان المدرسة الأربعة، جاء في الرواية: "ثم ذكر المدرسان، المقدم ذكرهما، الدروس كل واحد منهما على سدته، والنائبان كل واحد منهما تحت السدة، ثم قسمت الأرباع، فسلم ربع القبة الأيمن إلى الشافعية، والربع الثاني يسرة القبة للحنفية، والربع الثالث يمنة الداخل للحنابلة، والربع الرابع يسرة (يلاحظ اعتماد ابن الفوطي الدارجة في مثل هذه الكلمات ببغداد بدلاً عن الفصحى) الداخل للمالكية"<sup>(17)</sup>. بعد ثمانية عشر عاماً من تأسيس المستنصرية بالرصافة، أسست بالكرخ جارية المستعصم وأم ولده، (ت656هـ) باب بشير، مدرسة مماثلة، وجعلتها وفقاً على المذاهب الأربعة، سميت بالبشيرية<sup>(18)</sup>. وبعد سقوط الخلافة العباسية، استمر بناء المدارس الجامعة للمذاهب السنية، ففي السنة 671هـ أسست زوجة حاكم بغداد للمغول علاء الدين صاحب الديوان المدرسة العصمتية، وجمعت فيها المذاهب الأربعة أيضاً<sup>(19)</sup>.

يقتضي التنويه أن الدولة العباسية وما تلاها لم تراع المذهب الجعفري، رغم أنه كان مذهب غالبية سكان سواد العراق وكرخ بغداد، ورغم ميول بعض الخلفاء الشيعة، مثل الناصر لدين الله (ت622هـ)، الذي أهتم بالفتوة ذات الأصول العلوية (بالمقابل ظهرت الفتوة النبوية ذات الميول السنية، راجع رحلة ابن جبير، (ص280)، وتربية الطيور التي سماها على أسماء الأئمة الإثني عشر، وما يترتب في مثل هذه الأحوال من علاقة مع وجهاء الشيعة. ولعل وجود مدارس النجف الأشرف، منذ حلول شيخ الطائفة أبي جعفر الطوسي (ت460هـ) بها، قد عوض عن الحرمان الذي ساد المناطق الشيعية الأخرى. فالقهر المذهبي جعل المحلات الشيعية بالكرخ محكومة لقاض من غير مذهبهم، بينما خصص كرسي للمذهب المالكي، رغم قلة معتنقيه – وهم من الزوار والوافدين للدراسة ببغداد – بالمدرسة المستنصرية وغيرها من المدارس الرسمية، والشبه الرسمية<sup>(20)</sup>.

ظل المذهب الحنفي، المذهب الرسمي للدولة العثمانية. والجدير بالملاحظة أن ما قيل عن العلاقة بين تبني العثمانيين للمذهب وموقف مؤسسه من الحديث النبوي الخاص بإمامة قریش السياسية، لا أساس له من الصحة. فعلي الوردي ذكر ذلك من قبيل الشائعة، دون أن يبحث خلفية المذهب الحنفي في هذه المسألة بالذات. فهو يقول: "الشائع أن السبب الذي جعل الدولة العثمانية شديدة التمسك بالمذهب الحنفي هو أن أبا حنيفة كان لا يأخذ بهذا الحديث، ويرى من الجائز أن تكون الخلافة في غير قریش"<sup>(21)</sup>. لكن المروي في كتب مناقب أبي حنيفة وغيرها، أن الإمام المذكور أعترف لهذه القبيلة العربية بولاية سياسية، غير أنه لم يحصر الولاية الدينية فيها.

وربما صرح أبو حنيفة بذلك أوان العهد الأموي، الذي حرم على الموالي، المسلمين من غير العرب، تبوأ مناصب القضاء أو الفتيا أو إمامة الصلاة، رغم أن الخليفة الأموي السابع سليمان بن عبد الملك (ت99هـ) قال فيهم: "عجبت لهذه الأعاجم، ملكوا ألف سنة، لم يحتاجوا إلينا ساعة واحدة في سياستهم، وملكنا مائة سنة، لم نستغن عنهم ساعة<sup>(22)</sup>". أما سبب تبني العثمانيين للمذهب الحنفي دون غيره فيعود إلى عدة أمور منها أن المذهب الحنفي كان له حضور بالمناطق التي قدم منها العثمانيون، وأنه كان المذهب المعتمد من قبل العباسيين، والحكومات التي خلفتهم، إضافة إلى ملائمة الأحكام الحنفية لدولة تضم مختلف الأديان والمذاهب. كانت المشيخة الإسلامية باستنبول هي الدائرة الفقهية التي منها تصدر أوامر تعيينات الفقهاء والقضاة، و"تشرف على المحاكم الشرعية ببغداد، وتصادق على الأحكام الهامة التي تصدرها المحكمة الشرعية في مركز الولاية، وتستأنف أحكام هذه المحكمة فيها. أما أحكام محاكم أفضية الولاية فكانت تستأنف في محاكم السناجق، وأحكام محاكم السناجق في المحكمة الشرعية"<sup>(23)</sup>. وولاية بغداد تعني العراق كاملاً، بحدوده التاريخية المعروفة، فوالي بغداد يسمى بالعادة وزير العراق.

تشدد العثمانيون في اعتماد المذهب الحنفي، ولم يعتمدوا غيره من المذاهب في التعامل الرسمي، فكان قضاة المحاكم في المناطق الشيعية أو الشافعية من الحنفيين، يترتب على ذلك أن الناس يلجأون، في معاملاتهم الشرعية، إلى رؤساء العشائر أو الفقهاء من غير القضاة، لهذا كان القضاء الرسمي شبه معطل في تلك المناطق. وقيل أن القضاة الرسميين كانوا يكتفون في مناصبهم دون أن ينظروا في أية قضية، إلا في القليل النادر من الأحوال، فأحد قضاة مدينة كربلاء الحنفيين مكث في منصبه تسعة أعوام لم ير فيها ولا دعوة واحدة<sup>(24)</sup>. على سبيل المثال لا الحصر، كان السيد الألوسي الحنفي قاضياً بكربلاء العام 1890م<sup>(25)</sup>.



طالب النقيب، من شخصيات البصرة ومن اشراف السنة  
في اوائل القرن العشرين، والذي كان مرشحاً ليكون ملك العراق

أما أبو الثناء محمود الألوسي، الشافعي، وكان مفتياً لبغداد أيام نجيب باشا، فكان ملزماً أن يفتي بأحكام المذهب الحنفي<sup>(26)</sup>. فالفقه الشافعي يجيز ذلك، لكن بشروط، يلخصها الماوردي بقوله: "يجوز لمن أعتقد مذهب الشافعي، رحمه الله، أن يقلد القضاء من أعتقد مذهب أبي حنيفة، لأن القاضي يجتهد برأيه في قضائه ولا يلزمه أن يقلد في النوازل والأحكام من اعتزى إلى مذهبه، إذا كان شافعيًا لم يلزمه المصير في أحكامه إلى أقاويل الشافعي حتى يؤديه اجتهاده إليها، فإذا أداه اجتهاده إلى الأخذ بقول أبي حنيفة عمل عليه وأخذ به"<sup>(27)</sup>. لم يخف المفتي الألوسي مذهبه الشافعي في حكمه بقتل البابي البسطامي، عند محاكمته العام 1845م ببغداد، من قبل فريق سني برئاسته وفريق آخر شيعي برئاسة الشيخ حسن كاشف الغطاء، ولما أصر المفتي على موقفه بقتل المتهم، واجهه الشيخ كاشف الغطاء برأي أبي حنيفة، الذي لا يكفر أحداً ويتيح التوبة لمن ظهر منه الكفر، فوجد فيه ما يخالف رأي المفتي، الذي قال إنني أحكم وفقاً لمذهب الإمام الأعظم (أبي حنيفة)، عندها قال كاشف الغطاء لنجيب باشا، الذي جرت المحاكمة في حضوره: "أقدم تُصَبِّون للفتوى من لا يدري"<sup>(28)</sup>.

رغم انحياز العثمانيين الشديد إلى المذهب الحنفي، ظل أكراد العراق على المذهب الشافعي، سوى قسم من عشيرة باجلان، فالقسم الآخر منهم شافعية<sup>(29)</sup>، مع شيعية الأكراد الفيليين. أما التركمان العراقيون السنيون، فأغلبهم على المذهب الحنفي، ما عدا القاطنين أربيل، فهم شافعية. أما القاطنين مدينتي قره تبة وطوز خورماتو فهم شيعة أثنى عشرية. وأهل البصرة كانوا من أهل السنة، على المذهب الشافعي، سوى أهل شط العرب فكانوا شيعة، وأهل الزبير سنة حنابلة<sup>(30)</sup>. وأول مدرسة خاصة بالمذهب الحنبلي بالبصرة، فتحها حاكمها الأمير باتكين بن عبد الله الرومي، مملوك عائشة بنت الخليفة المستنجد، السنة 640هـ، وتوافق ذلك مع بناء وتزيين قبري الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله بالفرش والقناديل<sup>(31)</sup>.

ما زال مشهد الإمام أبي حنيفة، بمقبرة الخيزران، بالأعظمية شمال بغداد، مزاراً، وظل محط تبادل النعرات الطائفية لحكومات الاحتلال، بين تهديم الدولة الصفوية، وبناء الدولة العثمانية. لكن شافعية السلاجقة، واعتمادهم المدارس المغلقة لمذهبهم، لم تمنع سلاطينهم من بناء قبة لضريح أبي حنيفة، قام ببنائها السنة 459هـ، أبو سعيد محمد بن منصور الخوارزمي، نيابة عن أبي أرسلان والد السلطان محمد شاه ملك<sup>(32)</sup>. كما لم يمنعه ذلك من أن يحطوا رحالهم بباب الضريح، ويتشفعوا بأركانه، ففي العام 501هـ، دخله السلطان محمد شاه، بعد إياب من سفر طويل، سيراً على الأقدام من داره، " واجتمع بالفقهاء والعلماء على باب المشهد، فقال للحاجب: قل لهم هذا يوم عزمت فيه على الانفراد مع الله تعالى، فخلوا بيني وبينه، وأمر بغلق الأبواب ومنع الأمراء وغيرهم من الدخول، وأقام يصلي ويدعو ويخشع"<sup>(33)</sup>.

في حدة الخلافات المذهبية وغيرها، تظهر المزحة بديلاً جميلاً عن المواجهة الدامية، والتعصب القاتل، فهي تصفي النفوس بمرح بريء. ما يخص الخلاف بين الحنفية والشافعية، استغل المختلفون مناسبة اقتران ولادة الشافعي بالحجاز بوفاة النعمان ببغداد في عام واحد (150هـ)، وهناك من قال في يوم واحد<sup>(34)</sup>، ليكون وقع الرواية أمضى. قال الشافعيون للحنفيين: إمامكم مات كمداً لما طلع إمامنا، وردّ عليهم الحنفيون بقولهم: إمامكم ظل مختلفاً حتى مات إمامنا. ومن يدرى! فعلل المختلفين، وقت ذاك، كانوا يعنون ما قالوا حول الاقتران في الغياب والظهور، حتى وصلنا مزحة بريئة.

### الهوامش

- 1- بدري محمد فهد، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، بغداد: مطبعة الرشاد، 1973، ص437. عن سبط بن الجوزي، مرآة الزمان.
- 2- كمال الدين عبد الرزاق ابن الفوطي (ت 723هـ)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، بغداد: الفرات، 1351، ص138.
- 3- ابن الفوطي، مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، إحياء التراث القديم، 552/3/4.
- 4- كتاب الخراج، بيروت: دار المعرفة 1979، ص19.
- 5- المحسن التتوخي (ت 384هـ)، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، بيروت 1971، ص252-253.
- 6- المصدر نفسه.
- 7- التنبيه والأشراف، تحقيق عبد الله الصاوي، المكتبة التاريخية، 1938، ص298.
- 8- مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 2/324.
- 9- حُسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي، مصر: دار الأنوار 1948، ص3.
- 10- نشوار المحاضرة، 82/1.
- 11- موفق بن أحمد المكي (ت 568هـ)، مناقب أبي حنيفة، بيروت: دار الكتاب العربي، 1981، ص1.
- 12- قاسم قطلوبغا، تاج التراجم في طبقات الحنفية، بغداد: مكتبة المثنى، 1962، ص26.
- 13- مناقب أبي حنيفة، 415/1.
- 14- ناجي معروف، تاريخ علماء المدرسة المستنصرية، القاهرة: مطبوعات الشعب، 28/1.
- 15- عبد القادر المعاصيدي، واسط في العصر العباسي، بغداد: دار الحرية، 1983، ص240.
- 16- ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص55.
- 17- المصدر نفسه، ص58.
- 18- المصدر نفسه، ص309.
- 19- الحوادث الجامعة، ص373.

- 20- تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، 433.
- 21- لمحات اجتماعية، بغداد: مطبعة الرشاد، 1971، 49/1.
- 22- الزبير بن بكار، الأخبار الموقفات، تحقيق سامي العاني، إيران: منشورات الشريف الرضي، 186.
- 23- راجع جميل النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد، القاهرة: مكتبة مديولي، 1991.
- 24- المصدر نفسه، ص332، عن الروض الزاهر في تراجم آل السيد جعفر، ص430.
- 25- يونس ابراهيم السامرائي، تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع الهجري، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية العراقية، ص17.
- 26- عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، 455-454/4.
- 27- الأحكام السلطانية، بيروت: دار الفكر، 68-67.
- 28- محمد حسين كاشف الغطاء، العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية، تحقيق جودت القزويني، 1998، ص335.
- 29- إبراهيم بن صبغة الله الحيدري، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، دار الحكمة، 1998، 122.
- 30- المصدر نفسه، 162-161.
- 31- الحوادث الجامعة، 181-180.
- 32- ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة: 47/5، 1949.
- 33- سبط ابن الجوزي (ت 654هـ)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر أباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف، 1950، 13-14/1/8.
- 34- العباس بن علي المكي الموسوي، نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، النجف الأشرف: المكتبة الحيدرية، 1967، 209 /2.

### شخصيات

**ابن الجوزي.. المثقف الاصيل والعالم الكبير..**

**سمير حلي**



هو "أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن جعفر" وينتهي إلى "أبي بكر الصديق" رضي الله عنه. ولد ببغداد سنة [ 510هـ = 1116م ] وعاش حياته في الطور الأخير من الدولة العباسية، حينما سيطر الأتراك السلاجقة على الدولة العباسية.

وقد عرف بأبن الجوزي لشجرة جوز كانت في داره بواسط، ولم تكن بالبلدة شجرة جوز سواها، وقيل: نسبة إلى "فرضة الجوز" وهي مرفأ نهر البصرة.



حظي "ابن الجوزي" بشهرة واسعة، ومكانة كبيرة في الخطابة والوعظ والتصنيف، كما برز في كثير من العلوم والفنون، وبلغت مؤلفاته أوج الشهرة والذيع في عصره، وفي العصور التالية له، ونسج على منوالها العديد من المصنفين على مر العصور.

وقد توفي أبوه وهو في الثالثة من عمره فتولت تربيته عمته، فرعته وأرسلته إلى مسجد " محمد بن ناصر الحافظ" ببغداد، فحفظ على يديه القرآن الكريم، وتعلم الحديث الشريف، وقد لازمه نحو ثلاثين عامًا أخذ عنه الكثير حتى قال عنه: "لم أستفد من أحد استفادتي منه".

### **شيوخه وأساتذته**

تعلم "ابن الجوزي" على يد عدد كبير من الشيوخ، وقد ذكر لنفسه (87) شيخًا، منهم:

- أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي بن عمر [ 467 - 550 هـ = 1074 - 1155 م ]: وهو خاله، كان حافظًا ضابطًا متقنًا ثقة، وفقيرًا ولغويًا بارعًا، وهو أول معلم له.
- أبو منصور موهوب بن أحمد بن الخضر الجواليقي [ 465 - 540 هـ = 1072 م - 1145 م ]: وهو اللغوي المحدث والأديب المعروف، وقد أخذ عنه اللغة والأدب.
- أبو القاسم هبة الله بن أحمد بن عمر الحريري المعروف بابن الطبري [ 435 - 531 هـ = 1043 - 1136 م ]: وقد أخذ عنه الحديث.
- أبو منصور محمد بن عبد الملك بن الحسين بن إبراهيم بن خيرون [ 454 - 539 هـ = 1062 - 1144 م ]: وقد أخذ عنه القراءات.

### **منزلته ومكانته**

كان "ابن الجوزي" علامة عصره في التاريخ والحديث والوعظ والجدل والكلام، وقد جلس للتدريس والوعظ وهو صغير، وقد أوقع الله له في القلوب القبول والهيبة، فكان يحضر مجالسه الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء والأعيان، وكان مع ذبوع صيته وعلو مكانته زاهدًا في الدنيا متقللاً منها، وكان يختم القرآن في سبعة أيام، ولا يخرج من بيته إلا إلى المسجد أو المجلس، ويروى عنه أنه كان قليل المزاح. يقول عن نفسه: "إني رجل حُبب إلي العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به، ثم لم يحبب إلي فن واحد بل فنونه كلها، ثم لا تقصر همتي في فن على بعضه، بل أروم استقصاءه، والزمان لا يتسع، والعمر ضيق، والشوق يقوى، والعجز يظهر، فيبقى بعض الحسرات".

### **مجالس وعظه**

بدأ "ابن الجوزي" تجربة موهبته في الوعظ والخطابة في سن السابعة عشرة، وما لبث أن جذب انتباه الناس فأقبلوا على مجلسه لسماع مواعظه حتى بلغت شهرته في ذلك مبلغًا عظيمًا، فلم يعرف تاريخ الوعظ والمجالس الدينية - على مر العصور - مجلسًا كمجلس "ابن الجوزي" يحفل بعدد هائل من المريدين يصل إلى عشرة آلاف رجل.

وكان يحضر مجلسه الخلفاء والأمراء والسلاطين والوزراء، وكان مجلسه بإزاء داره على شاطئ "دجلة" بالقرب من قصر الخليفة، فكانت الأرض تُفرش بالحصير ليجلس عليها الناس، ثم يصعد "ابن الجوزي" المنبر، وبيدئ القراء بقراءة القرآن، يتناوبون التلاوة بأصوات شجية مطربة، فإذا فرغوا من التلاوة بدأ "ابن الجوزي" خطبته، فتناول فيها تفسير الآيات التي تلاها القراء، فيأخذ بألباب وعقول سامعيه، ينظم فيها عقود الحكمة ورقائق الزهد والمواعظ، بما يرقق القلوب ويحرك الأشجان، فتدمع العيون، وتخضع النفوس، وتذوب المشاعر في خشوع وجلال للخالق العظيم يحركها الشوق والوجد والإيمان.

### **أقوال العلماء فيه**

اتفق العلماء والأدباء على الثناء على "ابن الجوزي" فمدحوا علمه وورعه ومهارته في الخطابة والفقه والحديث والتاريخ والأدب.

قال عنه "ابن كثير": "أحد أفراد العلماء، برز في علوم كثيرة، وانفرد بها عن غيره، وجمع المصنفات الكبار والصغار نحوًا من ثلاثمائة مصنف".

وقد وصفه "ابن الجزري" بأنه: "شيخ العراق وإمام الآفاق".

وقال عنه "ابن العماد الحنبلي": "كان ابن الجوزي لطيف الصوت حلو الشمائل، رخيخ النعمة، موزون الحركات، لذيذ الفاكهة".

وقال عنه "ابن جبير": "آية الزمان، وقرة عين الإيمان، رئيس الحنبلية، والمخصوص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة".

وقال عنه "شمس الدين الذهبي": "ما علمت أن أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل".

#### مؤلفاته

تميز "ابن الجوزي" بغزارة إنتاجه وكثرة مصنفاته التي بلغت نحو ثلاثمائة مصنف شملت الكثير من العلوم والفنون، فهو أحد العلماء المكثرين في التصنيف في التفسير والحديث والتاريخ واللغة والطب والفقه والمواظ وغيرها من العلوم،

#### ومن أشهر تلك المصنفات:

أخبار الظرفاء والمتماجنين / أخبار النساء / أعمار الأعيان / بستان الواعظين / تلبيس إبليس / تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير / تاريخ بيت المقدس / تحفة المودود في أحكام المولود / الثبات عند الممات / جواهر المواظ / الجليس الصالح والأنيس الناصح / حسن السلوك في مواظ الملوك / ذم الهوى / زاد المسير في علم التفسير / سيرة عمر بن عبد العزيز / صفوة الصفوة / صيد الخاطر / الطب الروحاني / فنون الأفنان في علوم القرآن / كتاب الأذكياء / كتاب الحمقى والمغفلين / لطائف المعارف فيما للموسم العام من الوظائف / لفظة الكبد إلى نصيحة الولد / مناقب عمر بن الخطاب / المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / الناسخ والمنسوخ في الحديث / الوفا في فضائل المصطفى / اليواقيت في الخطب.

#### شعره

كان "ابن الجوزي" شاعرًا مجيدًا إلى جانب كونه أديبًا بارعًا وخطيبًا مفوهًا، وله أشعار حسنة كثيرة، منها قوله في الفخر:

مازلت أدرك ما غلا بل ما علا \*\* وأكابد النهج العسير الأطولا  
تجري بي الآمال في حلباته \*\* جري السعيد إلى مدى ما أملا  
لو كان هذا العلم شخصًا ناطقًا \*\* وسألته: هل زار مثلي؟ قال: لا  
ومنها قوله في الزهد والقناعة:

إذا قنعت بميسور من القوت \*\* بقيت في الناس حرًا غير ممقوت  
يا قوت يومي إذا ما در خلفك لي \*\* فلست آسي على در وياقوت  
وأوصى أن يكتب على قبره:

يا كثير العفو عمن \*\* كثر الذنب لديه  
جاءك المذنب يرجوا \*\* الصفح عن جرم يديه  
أنا ضيف وجزاء \*\* الضيف إحسان لديه

#### وفاته

توفي "ابن الجوزي" ليلة الجمعة [ 12 من رمضان 597هـ = 16 من يونيو 1200 ] عن عمر بلغ سبعة وثمانين سنة بعد أن مرض خمسة أيام، فبكاه أهل بغداد، وازدحموا على جنازته، حتى أقفلت الأسواق، فكان ذلك يومًا مشهورًا مشهودًا، يشهد بمكانة "ابن الجوزي" وحب الناس له.

#### المصادر

- البداية والنهاية: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي-تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي - دار هجر للطباعة والنشر - القاهرة [ 1419هـ = 1998م ].
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: أبو الفتح عبد الحي بن العماد الحنبلي - دار إحياء التراث العربي - بيروت [د.ت.].
- العبر في خبر من غبر: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي- تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت: [ 1405هـ = 1985م ].
- الكامل في التاريخ: ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني- دار صادر - بيروت - [د.ت.].
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي - تحقيق: محمد حسين شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت: [ 1413هـ = 1992م ].
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان - تحقيق: د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت [د.ت.].

## طرائف دينية من كتابه (أخبار الحمقى والمغفلين)



عرف عن (ابن الجوزي) روحه الطريفة التي لا تتواني من التقرب حتى من المقدسات الدينية، مثل القرآن الكريم والنبى محمد(ص). ولم يفكر احد بانتقاد (ابن الجوزي) على جرئته هذه، لانه يدرك مدى قوة ايمانه وصدق اسلامه وخصوصاً انه يعتبر واحد من اكبر ائمة (الحنبلية) التي عرفت بسلفتيتها وتمسكها الحرفي بالدين.

هذا الكتاب الشهير يعتبر من نواذر التراث الشعبي العراقي والاسلامي الزاخر بالفكاهة والسمر، والموعظة والعبر، والترويح عن النفس، وهو حلقة من سلسلة كتب، ألفها ابن الجوزي في هذا المعنى، منها: كتاب (أخبار الظراف والمتماجنين) و(أخبار الأذكياء) أما (أخبار الحمقى والمغفلين) وهو هذا الكتاب، فقد ألفه ابن الجوزي بعد انتشار كتابه (أخبار الأذكياء) فزاد عليه شهرة، وسار في الآفاق، لما اشتمل عليه من نواذر مختلف شرائح المجتمع، من أمراء وولاة، وكتاب وحجاب، وقضاة وفقهاء، وقرءاء ومحدثين، وأئمة ومؤذنين، وقصاص وزهاد، ومعلمين وحكاة.

### قال ابن الجوزي:

عن حنظلة الكاتب أن (ص) ذكر الجنة والنار وكنا كأن رأينا رأي عين، فخرجت يوماً فأتيت أهلي فضحكت معهم فوقع في نفسي شيء، فلقيت أبا بكر فقلت: إني قد نافقت، قال: وما ذاك؟ قلت: كنت عند النبي (ص) فذكر الجنة والنار فكنا كأن رأينا رأي عين، فأتيت أهلي فضحكت معهم. فقال أبو بكر: إنا لنفعل ذلك. فأتيت رسول الله (ص) فذكرت ذلك له فقال: "يا حنظلة لو كنتم عند أهليكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي الطريق، يا حنظلة ساعة وساعة".

قال علي بن أبي طالب: روحوا القلوب واطلبوا لها طرف الحكمة فإنها تمل كما تمل الأبدان.. وعن الحسن قال: إن هذه القلوب تحيى وتموت فإذا حييت فاحملوها على النافلة، وإذا ماتت فاحملوها على الفريضة. وعن الزهري، قال: كان رجل يجالس أصحاب رسول الله (ص) ويحدثهم، فإذا كثروا وثقل عليهم الحديث، قال: "إن الأذن مجاجة، وإن القلوب حمضة، فهاتوا من أشعاركم وأحاديثكم". وقال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي ببعض الباطل كراهية أن أحمل عليها من لحق ما يكلها.

فقد بان مما ذكرنا أن نفوس العلماء تسرح في مباح اللهو الذي يكسبها نشاطاً للجد فكأنها من الجد لم تزل، قال أبو فراس: الرجز:

أروح القلب ببعض الهزل تجاهلاً مني، بغير جهل  
أمزح فيه، مزح أهل الفضل والمزح، أحياناً، جلاء العقل

### أول العقلاء الحمقى إبليس

فأول القوم إبليس، فإنه كان متعبداً مؤذناً للملائكة فظهر منه من الحمق والغفلة ما يزيد على كل مغفل، فإنه لما رأى آدم مخلوقاً من طين، أضمر في نفسه لئذ فضلت عليه لأهلكته، ولئن فضل علي لأعصينه. ولو تدبر الأمر لعلم أنه كان الاختيار قد سبق لأدم لم يطق مغالبتة بحيلة ولكنه جهل القدر ونسي المقدار. ثم اتبع إبليس في الغفلة والحمق قابيل فإن من أعظم التغفيل قوله لمن قبله قربانه "لاقتلنك"، وهذا من أسمح الأشياء، لأنه لو فهم لنظر سبب قبول قربان أخيه ورد قربانه، ثم من التغفيل أنه حمل على ظهره ولم يهتد لدفعه.

### القرآن الكريم حدثنا عن بعض المغفلين:

ومثل هذا التغفيل "حرقوه وانصروا آلهتكم" ومثله "أن امشوا واصبروا على آلهتكم" ومن جنسه "أنا أحيي وأميت".

ومثله "أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي". فافتخر بساقية لا هو أجراها ولا يدري منتهاها ولا مبتدأها، ونسي أمثالها مما ليس تحت حكمه، وليس في الحمق أعظم من ادعاء فرعون أنه الإله.

### في ذكر المغفلين من القراء والمصحفين

عن عبد الله بن عمر بن أبان أن مشكدة قرأ عليه في التفسير "ويعوق وبشراً" فقل له ونسراً، فقال: هي منقوطة بثلاثة من فوق، فقل له النقط غلط، قال: فارجع إلى الأصل. وعن محمد بن أبي الفضل قال: قرأ علينا عبد الله بن عمر بن أبان ويعوق وبشراً فقال له رجل إنما هو ونسراً، فقال: هو ذا فوقها نقط مثل رأسك. وقال أبو العباس بن عمار الكاتب: انصرفت من مجلس مشكدة فمررت بمحمد بن عباد بن موسى فقال: من أين أقبلت؟ فقلت: من عند مشكدة، فقال: ذاك الذي يصحف على جبرائيل. يريد قراءته ويعوق وبشراً وكانت حكيته عنه. حدثنا إسماعيل بن محمد قال: سمعت عثمان بن أبي شيبة يقرأ "فإن لم يصبها وابل فطل". قال: وقرأ "من الخوارج مكابين". وعن محمد بن جرير الطبري قال: قرأ علينا محمد بن جميل الرازي "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يجرحوك". قال الدارقطني: وحدثني أنه سمع أبا بكر الباغندي ألقى عليهم في حديث ذكره "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هويًا" بضم الهاء وياء.

قال ابن كامل: وحدثنا أبو شيخ الأصبهاني محمد بن الحسين قال: قرأ علينا عثمان بن أبي شيبة في التفسير وإذا بطشتم بطشتم خبازين يريد قوله "جبارين". وعن محمد بن عبد الله المنادي يقول: كنا في دهليز عثمان بن أبي شيبة فخرج إلينا وقال ن والقلم في أي سورة هو؟ وعن إبراهيم بن دومة الأصبهاني أنه يقول: ألقى علينا عثمان بن أبي شيبة في التفسير قال: خذوا سورة المدبر قالها بالباء. قال الدارقطني: قرأ علينا عثمان بن أبي شيبة في التفسير "فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رجل أخيه" فقل له: "السقاية في رجل أخيه".

قال: حدثني أبو الحسين أحمد بن يحيى قال: مررت بشيخ في حجره مصحف وهو يقرأ: والله ميزاب السموات والأرض فقلت: يا شيخ ما معنى والله ميزاب السموات والأرض؟ قال: هذا المطر الذي نراه، فقلت: ما يكون التصحيف إلا إذا كان بتفسير، يا هذا إنما هو "ميراث السموات والأرض" فقال: اللهم اغفر لي، أنا منذ أربعين سنة أقرأها وهي في مصحفي هكذا.

وعن أبي عبيدة قال: كنا نجلس إلى أبي عمرو بن العلاء فنخوض في فنون من العلم ورجل يجلس إلينا لا يتكلم حتى نقوم، فقلنا: إما أن يكون مجنوناً أو أعلم الناس! فقال يونس: أو خائف، سأظهر لكم أمره. فقال له: كيف علمك بكتاب الله تعالى؟ قال: عالم به، قال: ففي أي سورة هذه الآية: مجزوء البسيط: الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

فأطرق ساعة ثم قال: في حم الدخان.

كان رجل كثير المخاصمة لامرأته، وله جار يعاتبه على ذلك، فلما كان في بعض الليالي خاصمها خصومة شديدة وضربها، فاطلع عليه جاره، فقال: يا هذا، اعمل معها كما قال الله تعالى: إما إمساك إيش اسمه أو تسريح ما أدري إيش.

شخصيات معاصرة

السيد عبدالله باشا الاحمدلي  
ابن الجنوب ونقيب أشراف أربيل..

مصطفى أربيلي



تعتبر الاسرة الاحمدلية في اربيل اعرق واقدم الاسر الاربيلية الشهيرة ويصل نسبهم الى السيد احمد الرفاعي الاربيلي والامام محمد الرفاعي الاربيلي ويعتبر هذان السيدان الجليلان اجداد السادة الاحمدلية في اربيل ويصل نسبهما الى السيد احمد الرفاعي ابو العلمين وهو بدوره يصل نسبه الى الامام علي زين العابدين ابن الامام الشهيد ابا عبدالله الحسين ابن اسد الله الغالب علي بن ابي طالب (عليهم السلام). ويروى ان السادات الاحمدلية نزحوا الى اربيل في حدود سنة (500 هـ) حيث نزح السيد احمد الرفاعي الاربيلي مع اخيه الامام محمد الى اربيل من منطقة ام البطائح في جنوب العراق موطن جده الكبير قطب الغوث الاكبر والكبريت الاحمر ذي القلب العامر والمدد الحاضر لائم يد النبي الطاهر سلطان الاولياء وبرهان الاصفياء السيد احمد الرفاعي ابو العلمين. نزحوا الى اربيل هربا من بطش خلفاء بني العباس بعد استقرارهم في اربيل اسسوا مدرسة دينية شهيرة لتدريس العلوم الدينية ونشر الطريقة الرفاعية وكان من اشهر مدرسي هذه المدرسة الامام محمد الاربيلي وكان الامام محمد خطيباً واماماً في جامع الربض وان السلطان مظفر الدين كوكبورو اكرمه وأسس له مدرسة دينية في احدى زوايا جامع الربض وعند وفاة الامام الهمام محمد أقام مظفرالدين العديد من الاقبية على ضريح الامام محمد وان هذه القبة باقية الى يومنا هذا وبمرور الزمن انجبت هذه الاسرة العديد من الشخصيات السياسية والدينية المرموقة وتقلدوا ارفع المناصب الحكومية ابان الحكم العثماني.

من هو السيد عبدالله باشا الاحمدلي:

السيد عبدالله باشا هو ابن السيد عباس اغا ابن السيد محمد اغا ابن السيد احمد اغا ابن سيد ابراهيم اغا ابن السيد الشيخ احمد الرفاعي من نسل السيد الشيخ احمد الرفاعي الحسيني الكبير. ولد السيد عبدالله باشا في حدود عام (1840م) في زقاق الاغوات في القلعة. تربى في كنف والده السيد عباس اغا حيث درس العلوم الدينية والنقلية في مدرسة القلعة وكان رحمه الله منذ صباه تظهر عليه معالم الرجولة والوقار بعد وفاة والده أصبح زعيماً للأسرة الاحمدلية. ثم ذاع صيته في اربيل وخارجها نال الشرف العالي والمقام السامي عندما قصد الاستانة وحل ضيفاً عزيزاً لدى السلطان العادل عبدالحميد الثاني. هذا وتكريماً لدور السادات الاحمدلية في خدمة الامبراطورية العثمانية العلية اصدر السلطان عبدالحميد الثاني فرماناً سلطانياً



عام (1890م) وعين بموجبه السيد عبدالله باشا قائمقاماً لمدينة اربيل اضافة الى هذا منحه لقب الباشا ومنحه وسام (خادم الحرمين الشريفين) وهذا ارفع وسام عثماني في ذلك الزمان. الخدمات التي قدمها السيد عبدالله باشا لأربيل: كتب التاريخ الخدمات الجليلة التي قدمها السيد عبدالله باشا لأربيل بمداد من ذهب واقترن اسمه بالعديد من المشاريع والمواقف البطولية في مدينة اربيل. فالسلطان العثماني محمد رشاد الخامس اصدر فرماناً سلطانياً يقضي بموجبه تنصيب السيد عبدالله باشا حاكماً ادارياً للواء اربيل اضافة الى منحه السلطان لقب النقيب\* والخاقان الكبير كما استلم السيد عبدالله باشا رئاسة بلدية اربيل مرتين المرة الاولى في سنة (1904م - 1907م) والثانية (1913م - 1918م) وخلال فترة رئاسة بلدية اربيل قدم خدمات جليلة وان اسم اول شارع في اربيل يرتبط باسم السيد عبدالله باشا قام بفتح شارع السراي وتم في عهده علاج شحة المياه في اربيل سنة (1913م) حيث بنى حوضاً للماء خلف مسجد التي برماق ينقل اليه الماء من احد الكهاريز التي كانت موجودة في ضواحيه بواسطة انابيب الفخار المصنوعة محلياً من قبل صنف الكورجية في اربيل وكان الناس يسقون من هذا النهر.

### تأسيس نقابة الاشراف في اربيل:

اسست نقابة الاشراف في اربيل اواسط القرن الثامن عشر بأمر خاص من السلطان عبدالحميد الثاني وبختم السيد محمد نورالدين نقيب على الاشراف في عموم الديار العثمانية العليا هذا واسند هذا الشرف الرفيع للأسرة الاحمدية المعروفة في اربيل وذلك سنة (1190هـ) وكان اول من تقلد منصب النقيب هو السيد الشيخ محمود باشا النقيب وفي سنة (1895م) اسند النقابة للسيد عبد الله باشا الاحمدي تولى النقابة بعد وفاة عمه. ولا تزال هذه الاسرة تحتفظ بوثيقة اسناد النقابة للسيد عبدالله باشا.



مدينة اربيل وقلعتها الشهيرة

### الحاكم العسكري الانكليزي يزور اربيل:

ان للسيد عبدالله باشا مواقف وطنية مشرفة حيث قاد الاربيليين للوقوف ضد الانكليز، كادت اربيل تسقط بيد السيد عبدالله باشا والثوار لولا وصول قوات كبيرة من وحدات الجيش البريطاني لهذا اخضعت اربيل تحت الاحتلال البريطاني. يروي لنا احد المعمرين انه زار الحاكم الانكليزي العام اربيل سنة (1920م) واجتمع مع لفيف من وجهاء اربيل في سراي القلعة لمعرفة احوال الرعية والوقوف عند احتياجاتهم بعد انقضاء اللقاء سأل الحاكم الانكليزي الحاضرين هل تخلف احد من الوجهاء عن هذا الاجتماع فاجابه احد الحاضرين ان السيد عبدالله باشا لم يحضر هذا الاجتماع. عندما عرف الحاكم العسكري مكانة الباشا وميوله العثمانية وتقلده العديد من المناصب قبل الاحتلال وبصفته نقيب الاشراف هنا اصطحب الحاكم عدد من الوجهاء لزيارة السيد عبدالله باشا في محلة السراي في القلعة هذا وعند وصول الضيف الى باب داره دخل السيد عبدالله باشا الى حرم داره كي لا يقوم امام هذا الحاكم عندما دخل الحاكم الى ديوان الباشا واخذ مكانه هناك جاء السيد عبدالله باشا بهندامه الراقي وقيافته الباشوية مطرزا صدره بالعديد من الاوسمة فقام الحاكم وصافح الباشا وعرف قدره ومكانته بين الناس ودعاه لزيارة بغداد في اقرب وقت ممكن.

### تتويج الملك فيصل الاول ملكا على العراق:

في الثاني من تموز عام (1921م) الموافق 24 شوال 1329هـ توج الملك فيصل الاول ملكا مبعلا على العراق. حيث قدمت دعوة خصوصية من قبل رئيس الوزراء عبدالرحمن النقيب للسيد عبدالله باشا لحضور حفل التتويج. لذا شد الباشا الرحال الى عاصمة الرشيد وشارك في مراسيم التتويج. وخلال وجود السيد عبدالله باشا في بغداد كلف من قبل رئيس الوزراء عبدالرحمن النقيب\* لتولي وزارة الاوقاف فوافق الباشا على هذا الطلب الا ان وعكة صحية مفاجئة اصابت الباشا وعلى اثره نقل الى المستشفى المجيدية في بغداد وهناك في تلك المستشفى لفظ الباشا انفاسه الأخيرة وفاضت روحه الطاهرة الى بارئها وعلى اثر ذلك نقل جثمانه الطاهر على سيارة ملكية وملفوف بالعلم العراقي الخالد وقد شارك حشد كبيرا من الناس في تشييع جنازته وكان من ضمنهم السيد عبدالرحمن النقيب وشيخ الاسلام السيد ابراهيم الحيدري والعديد من العلماء الافاضل ومشايخ الطرائق الصوفية ووري الثرى تحت قبة جده الامام محمد اسكنه الله فسيح جناته.

### الهوامش:

\* لفظة النقيب تعنى (كبير القوم وزعيمها ومنقب امورها الدينية والدنيوية والاحاطة باخبارهم وانسابهم والمستشار الأمين لهم).

\* السيد عبدالرحمن النقيب كان رئيسا للوزراء ابان العهد الملكي وكان يربطه علاقات حميمة مع عائلة النقيب.

### المصادر:

تاريخ اربيل - ابن المستوفي.  
اربيل في أربعة اعوام/ عبد المنعم حسن - سنة 1986.  
الشيخ جولي - زبير بلال اسماعيل.  
علماء ومدارس في اربيل - زبير بلال اسماعيل.  
الآثار الدينية في اربيل - شيرزاد شيخ محمد.

### شخصيات معاصرة

الشهيد عبد العزيز البدري  
داعية التقريب بين المذاهب الإسلامية

آلاء البدري



ادى سقوط نظام صدام حسين الى فتح المغاليق من الابواب التي كان يمارس خلفها من اعمال ما لا يريد ان يطلع عليها المجتمع. وبعد اكثر من خمسة وثلاثين عاماً على تصفيته تحت التعذيب، زارت (النور) اسرة الشهيد الشيخ عبد العزيز البدري، وتحدثت الى أولاده وبناته وها نحن ننقلكم الى رحاب هذه الشخصية الإسلامية العراقية الرائعة :

ما احوج العراق اليوم الى مثل شخصية عبد العزيز بن عبد اللطيف البدري (1930 - 1969) الذي كان علماً من اعلام الحركة الإسلامية المعاصرة في العراق وواحداً من اكثر العلماء الساعين الى التقريب بين السنة والشيعة تحت راية واحدة هي الإسلام وفي سائر أرجاء الوطن العربي، وهو شخصية جهادية بارزة

وقف في وجه الظلم والاستبداد طيلة تاريخ العراق السياسي المعاصر، فأصبح بوقفته وثباته على الحق منارا يُهدى به ومثابة على طريق الدعوة الى كلمة (لا إله الا الله) فعاش عالما وخطيبا وكاتب داعية ومجاهدا في بلده ومشاركا للقتال في فلسطين ضد الاحتلال صابرا شجاعا، عاملا بيده وبلسانه وبقلبه حتى قتل صابرا تحت التعذيب.

#### \* ولادته ونشأته :

ولد الشيخ عبد العزيز بن عبد اللطيف البدرى في بغداد في العام 1930 ونشأ على تربية إسلامية رصينة، وتلمذ على يد علماء بغداد منذ صغره وعلى رأسهم الشيخ امجد الزهاوي والشيخ محمد فؤاد الالوسي والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ شاكر البدرى الذين كانوا من ابرز وجوه بغداد العلمية الإسلامية آنذاك. \* اعتلاء المنبر مبكراً :

وبعد اكتشاف مواهبه الخطابية ونموه في الفكر واللغة والتاريخ رشحه أستاذه لاعتلاء المنبر الإسلامي كخطيب وإمام جامع وهو دون العشرين من العمر آنذاك في العام 1949 عندما عين في مسجد السور في بغداد، واستمر على حمل أمانة المنبر حتى العام 1954 عندما أدركت السلطة في العهد الملكي نشاطه وتأثيره في الناس فعمدت إلى إبعاده إلى قرية نائية من قرى محافظة ديالى تدعى قرية حديد، فأصبح فيها إماماً وخطيباً لجامع القرية، وترك فيها اثره وخرج منها أئمة وخطباء ودعاة صار لهم شأن في المجتمع العراقي.

#### \* الإقامة الجبرية :

وبعد سقوط الحكم الملكي في 14 تموز- يوليو - اصبح إماما وخطيبا في جامع الحاج أمين من منطقة الكرخ في العام 1959، وكان المد الشيوعي قد اخذ مأخذه، فتصدى للشيوعية جهاراً على المنبر فوضع تحت الإقامة الجبرية ولمدة سنة كاملة بين العامين (1959/2/21) وحتى صدور العفو العام عن السياسيين في (1961/12/4).

#### \* التصدي للحكم العارفي:

تصدى بكل شجاعة لتوجيهات عبد السلام عارف ولسياسته آنذاك، فأبعد من مدرسة التربية الإسلامية في منطقة الكرخ التي كان مدرسا فيها بعد ان فصل احد طلابه بسبب تهجمه على سياسات عبد السلام عارف!، فنقل إلى جامع لم يكتمل بناؤه فطلب منه ان يكمل تشييده ليخطب فيه لتعجيزه وتعطيل آلية جهاده ضد الظلم والطغيان.

وبفترة قياسية وبجهود الخيرين استطاع إنجاز بناء جامع عادلة خاتون قرب جسر الصرافية في جانب الرصافة. وعند افتتاح الجامع وهو على المنبر يلقي خطبته فوجئ بدخول عبد السلام عارف رئيس الجمهورية آنذاك ولم يكد يأخذ عارف مكانه حتى بدأ الشيخ البدرى بتوجيه كلماته المشهورة إلى عارف دون خوف او تردد: «يا عبد السلام طبق الاسلام. ان تقربت من الاسلام باعا تقربنا إليك ذراعاً. يا عبد السلام القومية لا تصلح لنا، وحده الاسلام ملائنا» وعند الانتهاء من خطبته جلس جانباً ولم يلتفت إلى الرئيس العراقي، فقام الأخير وصافحه قائلاً: «أنا اشكرك على هذه الجراءة!» لينقل بعد هذه المجابهة إلى مسجد الخلفاء المغلق بين العامين (1964 - 1966) وذلك لشل نشاطه الإسلامي.

وبعد ضغوط الشارع الإسلامي وتهديده بإقامة الصلاة وإلقاء الخطبة في شارع الجمهورية امام الجامع المغلق «جامع الخلفاء» اضطرت السلطات ان تنقله إلى جامع اسكان غربي بغداد كإمام فقط ومنعته من ممارسة دوره كخطيب. وفي عهد الرئيس عبد الرحمن عارف الذي خلف أخاه بعد مصرعه في تحطم طائرته، قاد مظاهرة جماهيرية للاحتجاج على محاضرة (لنديم البيطار) في إحدى قاعات منطقة المنصور في بغداد والذي هرب من الباب الخلفي للقاعة ومعه من أتى به دون ان يكمل محاضرتة، ليوقف البدرى على اثر ذلك أيام عدة.

#### \* مع المقاومة الفلسطينية :

وبعد نكسة حزيران العام 1967 التحق الشيخ البدرى بالمقاومة الفلسطينية دون ان يعلم عائلته بل وضع وصيته عند زميله الدكتور وجيه زين العابدين وأوصاه تسليمها إلى اهله عند استشهادهم. ولكن المجاهدين في فلسطين طلبوا منه العودة إلى العراق وحملوه امانة القضية الفلسطينية لنشرها في بلده وفي بلدان ودول اسلامية وعربية. وخلال أيام معدودة استطاع ان يؤلف وفدا من علماء المسلمين يضم السنة والشيعة وبعض الشخصيات الثقافية والشعبية للطواف حول العالم الإسلامي من اجل استنفار المسلمين ونقل القضية الفلسطينية إلى النطاق الإسلامي تحت عنوان: «من اجل فلسطين رحلة الوفد

الاسلامي العراقي» من 27 حزيران - يونيو- وحتى 8 آب - أغسطس- 1967، ضمت الدكتور صالح السامرائي والمحامي داود العطار والدكتور عدنان البكاء من النجف الاشرف والمهندس عبد الغني شندالة والشيخ عبد العزيز البدري والسيد صالح سري والمحامي محمد الالوسي، في رحلة إعلامية شملت زيارة اندونيسيا وماليزيا والهند وباكستان وافغانستان وايران وتركيا، لإيصال القضية الفلسطينية ومعاناة الشعب الفلسطيني واحتلال الارض قسراً و ظلماً في سيناء والجولان والضفة الغربية.



#### \* ليلة القبض على البدري :

ظل الشيخ البدري يقارع الحكام بالكلمة، وتضاعف بعد مجيء نظام البكر - صدام إلى الحكم في العراق العام 1968، وكان دائماً يبدأ خطبته بمقدمة اشتهر بها: «أعوذ بالله من شرور أنفسنا وسينات حكامنا»، ويختم خطبته بـ: «اللهم ارزقنا بدولة كريمة تعز بها الإسلام واهله وتذل بها النفاق واهله وتجعلنا من الدعاة إلى طاعتك والافتداء إلى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والاخرة وشهادة في سبيلك».

وعن كيفية القبض عليه يحدثنا أحمد البدري قائلاً: بعد مجيء البعثيين إلى الحكم بأيام لم يرق لهم تصدي الشيخ البدري لما ينادون به، فوضعوه تحت المراقبة فأرسل صدام حسين أفراد عصابته لمراقبة منزلنا وتحركات والدي، وكان صدام حينها يرأس دائرة العلاقات مع مدير الامن ناظم كزار في قصر النهاية، وهو واحد من اكثر الاماكن التي شهدت اشكالا من التعذيب والتنكيل بأحرار وشخصيات وطنية في العراق بعد مجيء نظام البكر - صدام.

وفي مساء احد الايام عاد والدي من المسجد بعد الفراغ من اداء صلاة العشاء بسيارة صديقه عبد الغني شندالة فانقض عليه وعلى زميله أزالام عصابة صدام الذين كانوا متربصين بهما في الازقة والشوارع المحيطة بدارنا فاعتقلوهما، وبعد منتصف الليلة نفسها حضروا مرة اخرى فقاموا بتفتيش الدار بشكل عشوائي وهمجي، وصادروا كل اشربة خطب الجمعة كما صادروا مخطوطتين لكتابين كان قد اكمل تأليفهما معدان للطبع هما كتاب الله الخالد والاسلام حرب على الاشتراكية والرأسمالية.

ويكمل سعد الولد الثاني للشيخ البدري حديث شقيقه عن استشهاد والده وبنيرة فخر واعتزاز، قائلاً: عرفنا في ما بعد بأن والدي في احدى زنانات قصر النهاية (السيئ الصيت) ويستجوب من قبل صدام وناظم كزار. وبكل فخر أستطيع أن اباهي بوالدي الذي كان شجاعاً بحق وصبوراً مؤمناً حيث ذكر لنا أحد الشهود الذين كانوا معه في الزنانة قائلاً: «لم أر في حياتي رجلاً بشجاعته داخل المعتقل وهو يعذب ويفقد الوعي ثم يعود إلى رشده فيعذب مرة أخرى وهو يكرر ذكر الله ثم يفقد الوعي تارة اخرى، ويرسل إلى مستشفى الرشيد العسكري لإيقاظه من غيبوبته ثم يعاد إلى التعذيب وهكذا وهو يذكر اسم الله ويقرأ آيات من الذكر الحكيم ويندمج بأدعية مستجابة لنيل الشهادة فينالها في 1969/6/26 وهو تحت التعذيب، ونقل إلى مستشفى الرشيد العسكري حيث تم تغسيله وتكفينه لتغطية جريمتهم ووضعوه في تابوت ورموا التابوت امام دارنا وهرب الافراد الذين اتو به خوفاً من أن ينالهم غضب الناس المحبين للشهيد وانتقامهم.

ويواصل سعد حديثه قائلاً: وزوروا شهادة الوفاة زاعمين ان سبب الوفاة نتيجة لهبوط عمل الكليتين وتوقف الدورة الدموية، وذلك خوفاً من الهيجان الجماهيري نظراً لما كان يملكه الشهيد من شعبية وجماهيرية في الشارع العراقي.



وكانت النية تتجه في دفنه قرب والده في مقبرة سامراء وكان شيوخ عشيرته في استقباله، فخشي النظام من الانتفاضة الجماهيرية في سامراء التي كانت تغلي من هول فقدان عالم اسلامي مجاهد بهذه الطريقة البشعة. إلا ان قوات الامن كانت طوقت المدينة والشوارع المحيطة في بغداد فمنعوا خروج النعش إلى سامراء، فتم دفنه قرب شيخه امجد الزهاوي في مقبرة ابو حنيفة النعمان في الاعظمية في بغداد بعد ان تم كشف جثة الشهيد امام المشيعين من قبل اخيه الداعية محمد توفيق البدر في ساحة الامام ابو حنيفة وعند القبر ليرى الجميع اثار التعذيب والدماء تنزف منه ليطلع المشيعون على وحشية النظام وهم يرددون: «الله اكبر والموت للكفرة» الامر الذي ادى إلى زج العديد منهم في السجون.

#### \* البدري والحكيم ومراجع الشيعة :

وكان الشهيد البدري من العلماء الموحدين والمقربين بين الطوائف الاسلامية وتربطه بعلماء الشيعة علاقات وطيدة في سعي منه لتقريب وجهات النظر فيما يتعلق بين الشيعة والسنة. ففي بغداد كانت تربطه صلات صداقة ومحبة وجهاد بينه وبين الشيخ محمد مهدي الخالصي، وكذلك الشيخ علي الصغير امام جامع براثا في بغداد وعلماء اخرين في المدن الاخرى كما كانت تربطه علاقة حب وتقدير بينه وبين المرجع الديني زعيم الحوزة السيد محسن الحكيم والشهيد السيد مهدي الحكيم، والشهيد اية الله السيد محمد باقر الحكيم والسيد مصطفى جمال الدين والدكتور عدنان البكاء وشخصيات شيعية اخرى في النجف وكربلاء المقدستين.

ويذكر بأنه قد رأس وفداً من اهل السنة وذهب إلى كربلاء والنجف وطلب من علمائها التدخل لإيقاف تنفيذ حكم الإعدام في سيد قطب وعندما التقى بزعيم المرجعية الشيعية السيد محسن الحكيم أبلغه بأنه كان قد ابرق إلى الرئيس المصري جمال عبد الناصر ألا يقدم على إعدام العلماء وسيد قطب من اكبر علماء ومفكري العصر وقبل ايام من لقائه، لأن هذا من واجبه الشرعي.



#### \* داعية التقريب بين المذاهب :

في لقاء سابق قال الشيخ جلال الصغير إمام مسجد براثا في بغداد بأن النظام استهدف الشهيد البدري كونه شخصية اسلامية نزيهة وخطيباً مفوهاً جريئاً في كلمة الحق ومتحمساً لنصرة دين الله تصدى للحكم الدكتاتوري بكل شجاعة وكشف زيفهم وفضحهم متعرضاً باليد واللسان لكل قوى الاستبداد والطغيان. وكان مسلماً صادقاً يحاور ويجاهد في سبيل التقريب بين أهل السنة والشيعة ولعله كان ضحية هذا التقريب من قبل النظام الذي حاول اللعب على مبدأ (فرق تسد)، واضطهاد العراقيين سنة وشيعة واقلية، وكان قد اقتيد إلى زنزانة التعذيب بعد ايام من مشاركته في مؤتمر تقريب بين الشيعة والسنة استجابة لدعوة السيد محسن الحكيم والمراجع الشيعة في النجف الأشرف الذين استطاعوا ان يقطعوا شوطاً كبيراً لتعزيز التقارب الأخوي الاسلامي الصادق بين السنة والشيعة، بمعنى ان حضوره كان ملموساً لدى الاوساط الشيعية قبل السنة.

ولعل اصدق دليل على ذلك هو تأثير الشيعة وحزنهم عليه عند استشهاد، وبعد سقوط نظام صدام احتفي بذكرى الشهيد البدري وخاصة مسجد براثا الذي اقام احتفالية كبرى خاصة بمآثره وإنجازاته وسيرته الجهادية واثاره الثقافية والدينية وهي موضع تقدير واعتزاز.

وعن صفته الإسلامية المقربة بين السنة والشيعة يقول نجله الاصغر عمر: ما احوجنا اليه في هذا الظرف وما احوج العراق إليه في هذه المرحلة الحساسة التي تتقاذف بلدنا قوى الشر والظلام من كل جهة وتحاول زرع الفتنة الطائفية بيننا.



### \* آثاره ومؤلفاته :

ترك البدرى عدداً من الكتب والمؤلفات في موضوعة الإسلام السياسي منها: الإسلام بين العلماء والحكام، حكم الإسلام في الاشتراكية، الإسلام حرب على الاشتراكية والرأسمالية، الإسلام ضامن للحاجات الأساسية لكل فرد، وكتاب الله الخالد القرآن الكريم، والعشرات من الخطب والمواظع الإسلامية من تلك التي كانت متداولة بين الناس قبل ان يصادر النظام مكتبته الصوتية.

### \* حياته الاجتماعية :

تزوج الشهيد البدرى من ابنة عمه الحاجة مريم حسين التي استشهدت ايضاً في العام 1976 في حادث مؤسف بعد أن انجب منها اربعة اولاد وأربع بنات هم (أحمد، محمود، سعد، عمر، آلاء، زهراء، اسماء، وعلياء). تصفه ابنته علياء، بأنه كان اباً مثالياً ومربياً وفاضلاً عادلاً لا يفرق بين الولد والبنت. كان يحثنا على اداء الصلاة في اوقاتها وخاصة صلاة الفجر وكان يحرص على حضور صلاة الجمعة من كل اسبوع. فيما تصفه ابنته الكبرى الحاجة الاء عبد العزيز (أم مصطفى) بقولها: اننا فقدنا والدنا ونحن في امس الحاجة اليه والى عطفه وحنانه كأب وقوة لنا بالرغم من انشغاله في جهاده الاصغر والاكبر، وكنا نفتقده وهو في الحياة فإما أن يؤدي واجبه في الدول الإسلامية أو يكون معتقلاً أو مشغولاً في التدريب أو التأليف، وفي اللحظات التي كنا نراه فيها كان يحثنا على حفظ القرآن الكريم ويعدنا لأن نكون دعاة في المجتمع، والحمد لله أنا واخواتي الثلاثة نمارس تدريس قواعد اللغة والتعليم والتربية الإسلامية، ونعمل على تحفيظ القرآن الكريم وإلقاء المواظع الدينية.

### \* حياته السياسية :

عمل في المجال السياسي الاسلامي منذ شبابه، فاستطاع ان يكتسب شعبية واسعة بين صفوف الشباب المسلم بما يمتلكه من قابليات وإمكانات وقناعات وثقة بالنصر، الأمر الذي جعله قريباً من الطوائف والمذاهب والاحزاب الإسلامية المختلفة، وقد اسس حزب الكتلة الاسلامي بعد ان خرج من الاخوان المسلمين وحزب التحرير وذلك لمواقفه الحادة من الجهاد بوجه الظالمين. يذكر نجله محمد بأن احد افراد الأمن قد اخبره في العام 2000 عندما كان يبحث ضمن فريق مشترك من الأمن والمخابرات العامة والاثار عن قبر احد ابناء المتوكل في المقبرة الاعظمية وبجوار قبر الشهيد البدرى، انهم عندما حفروا للبحث فتح قبر الشهيد وانكشف الغطاء عن جثته الطاهرة فضغط على جسد فرآه طرياً وكأنه دفن تواً بعد 41 عاماً من استشهاده ودفنه، فدخل الرعب والخوف في قلوبهم فأعادوا التراب إلى مكانه وفروا هاربين.

معالم

آزاد علي النقشبندى - السليمانية

في العراق، هنالك مدن يكثر فيها أبناء المذاهب السنية، وهم عموماً من اتباع المذهب الحنفي أو الشافعي. وفي هذه المدن تكثر المساجد التي يؤمها المؤمنون من اتباع السنة، وكذلك التكايا والخاقانات الخاصة بالمتصوفة القادرية والنقشبندية والرفاعية. نقدم هنا عرضاً لمساجد الموصل، وكذلك لمساجد أربيل..



### مساجد الموصل

وجد في الموصل على مر العصور العديد من المساجد والجوامع العظيمة الجميلة، ومن هذه المساجد مسجد خزرج ويقع في محلة خزرج وهو من أقدم مساجد الموصل أسس في القرن الأول للهجرة / السابع الميلادي وسكنت قبيلة خزرج حوله بعد تمصير الموصل فنسب إليها. ولم تزل محلة خزرج تسمى بهذا الاسم ويسكنها بعض البيوت من قبيلة خزرج.

وهناك الجامع الأموي وهو أول جامع بني في الموصل بناه عتبة بن فرقد السلمي عام 17 هـ / 119 م وبني إلى جنبه دار الإمارة ثم وسعه عرفة بن هرة البارقي. ولما تولى مروان بن محمد الموصل هدم الجامع ووسعه وبني فيه مقصورة ومنارة وبني إلى جنبه مطابخ يطبخ بها للفقراء في شهر رمضان، وصار يعرف (بالجامع الأموي).

وفي عام 167 هـ / 784 م أمر الخليفة المهدي عامله موسى بن مصعب بن عمير أن يضيف إلى الجامع الأسواق التي كانت تحيط به فهدمها مصعب مع المطابخ وأضافها إلى الجامع ووسعه. وكانت حالة الجامع غير مرضية في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر الميلادي وذلك على عهد الولاة السلاجقة فتداعى بنيانه وترك الناس الصلاة فيه إلا يوم الجمعة. وفي عهد الأتابكيين اهتموا به كما اهتموا بكافة مرافق المدينة وتجديدها فجددوا عمارته عام 543 هـ / 1149 م وذلك على يد سيف الدين غازي الأول بن عماد الدين زنكي وكانوا يسمونه الجامع العتيق تمييزاً له عن الجامع الجديد -الجامع النوري- واهتم الأتابكيون بتزيينه وزخرفته. والجامع في الوقت الحاضر صغير تقام به الجمعة وقد اتخذ قسم كبير من فناءه مقابر عامة وتسمى مقبرة الصحراء وكانت تسمى مقبرة الجامع العتيق.

ومن الجوامع أيضاً الجامع النوري الذي بناه نور الدين محمود زنكي عندما دخل الموصل عام 566 هـ / 117 م وكان في المدينة جامع واحد يجمع به. وقد ضاق بالمصلين خاصة وأن المدينة قد ضاقت بسكانها. وذكروا له أن في وسط الموصل خربة واسعة تصلح أن تكون جامعاً كبيراً لوقوعها في وسط أسواق المدينة. فركب نور الدين إلى محل الخربة وصعد منارة مسجد أبي حاضر، وأشرف على الخربة، وأمر أن يضاف إليها ما يجاورها من الدور والحوانيث، وأن تؤخذ من أصحابها برضاهم، بعد أن يدفع إليهم أثمانها. وقد قام ببناء الجامع شيخ نور الدين وهو معين الدولة عمر بن محمد الملا وبقي يشغل في عمارة الجامع ثلاث سنوات. وعندما زار نور الدين الموصل مرة ثانية عام 568 هـ / 1173 م صلى بجامعه بعد أن فرشه بالبسط والحصر وعين له مؤذنين وخدماء وقومة ورتب له كل ما يلزمه. كما أن نور الدين أوقف له أوقافاً كثيرة لصيانته وأدامته والصرف على من يتولى أموره. وبني به نور الدين مدرسة.

ومن الجوامع أيضاً الجامع المجاهدي الذي بناه أبو منصور قيمان بن عبد الله الزيني الملقب مجاهد الدين من أهل سجستان أحد كبار الدولة الأتابكية. وكان في الموصل على عهده جامعان يجمع بهما: الجامع الأموي والجامع النوري. وكان الربض الأسفل كالمدينة بعمرانه وأسواقه ويلاقي سكانه صعوبة في الذهاب إلى أحد

الجامعين لأداء صلاة الجمعة. فقرر أن يبني جامعاً في هذا الربض ليريح الناس. وفي عام 572هـ / 1177 م باشر بعمارة الجامع واستخدم في بنائه أمهر البنائين والفنانين وصرف عليه مبلغاً كبيراً واستمر العمل به خمس سنين فكان من الجوامع المعدودة في بلاد الجزيرة. وأقيمت فيه صلاة الجمعة عام 575هـ / 1180 م قبل أن تكمل عمارته. ولما كملت عمارته عام 576هـ / 1181 م اعتنى مجاهد الدين في تزيينه بكتابات مختلفة وزخارف متنوعة بعضها بالجبس وبعضها بالآجر وبالمرمر المطعم بالصدف. والجامع في الوقت الحاضر أصغر مما كان عليه في العهد الأتابكي ويسمى جامع الخضر أو الجامع الأحمر.

### من مساجد أربيل



#### مسجد وتكية الطالع ملا صالح يكن

هذا المسجد التكية يعتبر من المساجد القديمة الكائنة في محلة طوبخانه في قلعة أربيل حيث يقع بالقرب من باب القلعة في الجهة الغربية من الشارع المار وسط القلعة ومقابل مسكن وديوان محسن آغا رئيس البلدية الأسبق. بني هذا المسجد قبل أكثر من 200 سنة من قبل الشيخ إبراهيم الحداد والمسجد لحد هذا اليوم قائم على أساسه. فبعد نزوح أهل القلعة إلى خارج القلعة في الثمانينات أهمل عدد من المساجد والتكايا في قلعة أربيل. وفي الآونة الأخيرة اتخذ أحد المواطنين مسكناً له يقال بأن هذا المسجد في القديم كان على الشكل التالي: بابه الخشبي كان يفتح إلى جهة الشمال أما باحة المسجد فكانت مساحتها حوالي 200م وقد كان هناك حي كبير في إحدى زوايا باحة المسجد وقد كان يتم توفير مأوى بواسطة السقاة من أسفل القلعة في كل يوم وفي الخمسينيات كانت هناك حنفية في فناء المسجد للوضوء. وكانت هنالك مقابل باب المسجد حجرتان وفوقهما حجرة أخرى أما حرم المسجد فكان على يمين الباب وكان المبنى من الآجر والطين وسقفه من جذوع الأشجار. وكانت أرضية الباحة والصحن من الآجر.

أول إمام في هذا المسجد كان الشيخ إبراهيم القادري باني المسجد وبعد وفاته آلت المشيخة والامامة إلى ابنه ملا خضر وبعد وفاة ابنه ملا صالح يكن وملا صالح هذا كان عالماً كبيراً ومتصوفاً زاهداً. أخذ الطريقة القادرية من الشيخ إبراهيم القادري وهو من أحد مشايخ كركوك وكان يؤم المصلين في المسجد سيد ملا حسين والذي كان في أواخر حياته إماماً في مسجد الحاج صالح الدباغ خارج القلعة وبعد وفاته دفن في المسجد المذكور. بعد وفاة الشيخ ملا صالح يكن آلت المشيخة إلى ابنه ملا محمد علي ثم ملا شاكور وكان إمام المسجد في زمن ملا شاكور ملا خضر وكانت تقام في هذا المسجد الصلوات الخمس وصلاة التراويح في رمضان كل سنة كما تقام حلقات الذكر في المسجد وكان من رواد هذا المسجد بعض من وجهاء أربيل منهم الحاج طه النجار، الحاج حسن هيدوش و خضر احمد باشا و محسن الدوغرمجي وغيرهم.

### مسجد ملا رسول ومدرسة الاحمدية في قلعة اربيل

يعتبر هذا المسجد من المساجد القديمة في قلعة أربيل حيث بناه أجداد ملا رسول أفندي قبل أكثر من 400 سنة كما وكانت في هذا المسجد مدرسة عريقة أخذت أسرة ملا رسول مهنة التدريس على عاتقهم يقول المؤرخ الكبير المرحوم زبير بلال أسماعيل في كتابه علماء ومدارس في أربيل في حق هذه المدرسة (مدرسة ملا رسول: وكانت في القلعة أيضاً ومجاور للمدرسة الاولى (أي مدرسة القلعة) ومن مدرسيها المشهورين الملا أحمد كراوي الشهير بالواعظ في أربيل وابنه ملا رسول حفيد رسول الاول وكانت تسمى بالمدرسة الاحمدية. كان مسجد ملا رسول أفندي مبني من الاجر والطين وكان له بابان احدهما يفتح الى جهة الغرب والثاني يشبه باب جامع القلعة ويفتح الى حمام القلعة اما فناء الجامع والذي كانت أرضيته من الطين كان مستطيلاً طوله 20م وعرضه 12 م قديماً كان هناك حوض مفتوح في وسط فناء الجامع يتوضأ فيه المصلون للصلوات الخمس بعد فناء الجامع يأتي الايوان ثم المدرسة الاحمدية وهي قاعة مستطيلة الشكل كان طلبة العلوم يتدارسون هناك امام حرم الجامع فكان بابه من الخشب وكان طول ضلع الحرم 12م أما عرضه 10م ومحارب السجد من الجص كما وبلطت جدران الحرم من الداخل بالجص وفي مقابل باب الحرم كانت هناك ثلاثة حجرات أحدها لملا عبد الرحمن ابن ملا رسول والثانية للسيد حسن والثالثة لملا مصطفى حنفي وفي عام 1952 زار العالم الكبير ملا حسين المفسر أربيل وظل في هذا المسجد سنة كاملة وكان هذا المسجد قائماً في القلعة الى عام (1955) ثم أستملك المسجد من قبل بلدية أربيل وصنع خزان ماء كبير هناك لخزن مياه الشرب وتوزيعه على مساكن القلعة وأطرافها.

### فئات عراقية

من تاريخ الاسلام بين تركمان كركوك..

د. محمد سعيد كتانة



كان انتشار الاسلام في العهد الاموي بطيئاً في بلاد ماوراء النهر تركستان وكثيراً ما كان الولاة الامويين يستعملون القسوة وسوء المعاملة في ادارتهم واثناء قيامهم بنشر الدين وكانوا يسمون غير العرب بالموالي ويعاملونه كمسلم من الدرجة الثانية واستمر الوضع حتى قيام الدعوة العباسية ونجاحها عام ٧٤٩ على اكتاف جيش ابا مسلم والذي كانت اكثريته من الفرس والترك في خراسان.

اول دولة تركية قبلت الاسلام طوعاً كانت دولة قره خان في نالاس تحت زعامة بغرا ساتوق خان. وباهتمام الخلافة العباسية بالترك واستخدامهم في جيشها ازداد الانتساب للإسلام حتى ان اعتمد المعتصم كلياً على جيشه من الترك وأسس لهم مدينة سامراء لكي لا يختلطوا بغيرهم من القوميات ولكي لا يفقدوا صفاتهم العسكرية وولانهم للخلافة.

صادف ان كان جميع رجال الدين العرب والمبشرين في بلاد الترك من اهل السنة ولم يعلموا شيئاً عن ظهور وأوضاع الفتنة الكبرى في عهد الخليفة الراشدي عثمان ومقتله عام (٦٤٦) ولا شك انهم كانوا يعلمون بمقام الخليفة علي (رض) لدى خاتم الانبياء وانه كان ابن عمه وأول فتى أسلم على يديه وأنه صهره وزوج ابنته السيدة فاطمة الزهراء ام الحسن والحسين (ع) كما كانوا يعلمون بخدماته في الاسلام وشجاعته وزهده... الخ.

لم يعلم الترك المسلمون تطورات الفتنة الكبرى وكيف سيطر الامويون ومعاوية على الخلافة بغير حق ومن بعدها شهادة الحسين (ع) وجميع افراد عائلته في كربلاء وسوء معاملة آل البيت فيما بعد. بعد انتشار الاسلام في تركستان انتقل معظم رجالاتها من اصحاب الحرب والحضارة والعلم إلى مركز الخلافة ومدنها وساعدوا اخوانهم المسلمين في الجهاد ودعموا الحضارة الاسلامية وتركوا لغتهم واهتموا بالعربية باعتبارها لغة القرآن والاسلام وكذا اهتموا بالفارسية باعتبارها لغة الحضارة في حينه وبعد ان اصبح للترك شأن في الاسلام وقفوا بشدة ضد التفرقة الدينية بأصل حماية وحدة الاسلام وفي نفس الفتات كانت هناك مشاكل دينية وسياسية ومذهبية بين المسلمين ووجدوا انفسهم قد دخلوا معارك الاختلافات لأسباب قبلية او شخصية أو قومية. وهكذا وجد السلاطين السلاجقة منذ عام (١٠٥٠) انفسهم في الصراع مع الدولة البويهية الشيعية في ايران والعراق وانقذوا الخلافة العباسية ثم نجحوا في صراعهم مع دولة قره قويون الشيعية أيضاً واخيراً مع الدولة الصفوية منذ عام (١٥١٤) حيث دحر السلطان سليم عدوه الشاه اسماعيل الصفوي (١٩١٤) في معركة جالديران قرب تبريز واستولى على العاصمة تبريز. وخلال فترة حكم اسماعيل شاه ومن جاء من بعده تمكن جيشه القزلباش نشر التشيع بالقوة بين العشائر التركمانية في الأناضول وحصلت ثورات كثيرة ومنها البابانية كما ظهرت شخصيات تركية كثيرة كانت ترشد الناس بلغتهم بعد ان كانت ترشد بالعربية التي لا يفهموها. مثل الشيخ أحمد اليسوي والحاج بكتاش الذي رحل من خراسان إلى الأناضول والشاعر يونس عمره وغيره اللذين ارشدوا الناس وعلموهم حب محمد (ص) وآل بيته بشكل صحيح. بالرغم من هذا كله حاول الصفويون في صراعهم مع العثمانيين استغلال الدعاية المغرضة وخاصة في الدين وقالوا ان العثمانيين كفرة وروم إلى غيرها والعكس صحيح للصفويين. واستمرت هذه الادعاءات حتى يومنا هذا بين الترك السنة والدولة من جهة والعلويين الشيعة من جهة اخرى وكلهم من الترك. كانت الدولة العثمانية تعتمد على الفقهاء ورجال الدين العرب المتعصبين للسنة وجيش الدوشرمة غير الترك وكانت اصولهم مسيحية واصبحت العداوة والبغضاء بين الشيعة والسنة الترك متأصلة بين الترك في الأناضول بشكل خاص (اوزداع ١٩٩٨).

بالنسبة لوضع تركمان العراق وتشيعهم لا توجد لدينا وثائق معينة تشير لتأريخ تنظيم تشيعهم وكيفيته، ومن خلال تحرياتنا عن الاحوال التاريخية وهجرات التركمان إلى العراق وبشكل خاص خلال العهد السلجوقي (١٠٥٥ او ما بعد) لم تكن اي من القبائل المهاجرة شيعة المذهب، والاحتمال الكبير انه بعد وفاة (شاه روح) حفيد تيمور سيطرت دولة قره قويونلو بقيادة جهان شاه على بغداد وخاصة الانحاء الشمالية التي تتواجد فيها القبائل التركمانية عام (١٤٤٧) ووسع هذا اراضيه حتى شط العرب وكانت هذه قبائل شيعة عملت على نشر التشيع في العراق وخاصة بين قبائل بني قومهم في كركوك وحواليها وخلال عام ١٤٩٩ ظهر الصفويون في تبريز وتشيعوا وبدوا نشر التشيع بالقوة والارهاب بواسطة جيشه (القزلباش) ذوي العمائم الحمراء وفي عام (١٥٠٨) دخل بغداد واستولى على العتبات الشيعية المقدسة واصبح اسماعيل شاه سيد ايران والعراق وبدء بنشر مذهب في الأناضول بين التركمان بالشدة والارهاب وهذا ما استرعى انتباه السلطان سليم منذ استلامه للحكم عام (١٥٠٢) وقرر التخلص من الشاه اسماعيل ودحره في معركة جالديران قرب تبريز عام (١٥١٤) وهرب الشاه إلى داخل ايران ونظم صفوفه وجيشه ورجع إلى عاصمته في تبريز واستمر في حروبه مع من تبعوه من الشاهات ضد سلاطين آل عثمان حتى عام (١٦٣٧) حيث عقدت اتفاقية قصر شيرين بين السلطان مراد ونادر شاه وعينت الحدود العراقية الايرانية إلى ما هو عليه الآن. تكررت الحروب هذه عام (١٥٣٤) ودخل السلطان سليمان القانوني بغداد وأصلح المراقد الدينية السنية (ابو حنيفة والشيخ عبد القادر الكيلاني وغيرها) بعد ان خربها الصفويون كما اهتم بمراقد الشيعة وتنظيم زيارة الشيعة الايرانيين إلى العراق، واعاد الصفويون غزو العراق وبغداد عام ١٦٢٣ و ١٦٣٨ حيث دخل بغداد وأصلح مراقد كلا الطرفين ثانية وكانت في كل حرب تحل مجازر كبيرة وكانت ضحيتها الالاف من المسلمين من كلا الطرفين.



لاشك ان يكون الشاه اسماعيل ومن جاء من بعده قد اهتم بمنطقة كركوك والمدينة بالذات ودعم القبائل والقرى الشيعية حولها وان يكون قد نقل قبائل تركمانية شيعية اخرى لدعم وتقوية نفوذه في المنطقة. معظم التركمان في العراق بغض النظر عن مذهبهم يحبون ويقدرّون أهل البيت كثيراً جداً وبالطبع كان الشيعة التركمان اكثرهم حباً وتقديراً، وكان للشيعة التركمان مذاهب مختلفة دون ان تكون بينهم فروقات اساسية وكلهم يؤمنون بأمامة علي (ع) وأولاده وكانوا يسمون بتسميات مختلفة مثل العلوية والبكتاشية والصارالية والرافضة وغيرها ويلاحظ انه لم تكن لهم علاقات قوية مع النجف وكربلاء حتى ما بعد الانتداب الانكليزي بعد الحرب العالمية الاولى، بعدها حصل التقارب بين علماء النجف وكربلاء ورجال الدين الشيعة في اطراف كركوك والمدن المجاورة لها طوز خورماتو وقره تبه ويلاحظ تحول التركمان إلى الشيعة الاثني عشرية وارتبطوا بكربلاء والنجف ارتباطاً وثيقاً، وحتى انه في الدور القومي البعثي يلاحظ مشاركة التركمان الشيعة في التنظيمات المختلفة وعلى اثر ذلك نفى وقتل منهم الكثيرين باعتبارهم مؤيدين أو أعضاء في حزب (الدعوة إلى الاسلام) الشيعي. ولحد الان تنكّل بهم الدولة البعثية بشدة اسوة بأخوتهم التركمان الاخرين والكرد والعرب وغيرهم من المعارضين وهكذا يستمر اعدام الكثير وهجرتهم واستملاك اراضيهم وقراهم.

وهناك امر مهم لابد من الاشارة اليه وهو عدم وجود فروقات بين التركمان السنة والشيعة وكلهم يعيشون مع بعضهم في اخوة وولاء وهناك احتفالات ومناسبات مشتركة بين سكان مدينة كركوك وقرية تسعين الشيعية. نفس الوضع موجود في المدن والقرى الاخرى على طول خط تواجد التركمان من تلعفر إلى خانقين. ويلاحظ قلة وازدياد نفوس التركمان من كلا الطائفتين على طول خط التركمان، ففي اطراف الموصل يلاحظ ازدياد التركمان والشبك الشيعة وفي تلعفر وحواليه يحصل العكس ويزداد عدد الشيعة في داقوق وتازه خورماتو وقره تبه ومناطق ديالى وخانقين ومندلي. حالياً يمكن القول بأن سكان كركوك الشيعة والسنة متساوون في المناطق التركمانية ولا توجد احصائيات لحد الان يمكن الاعتماد عليها في تحديد السكان التركمان بشكل عام وتحديد المذهب بشكل خاص.

### دراسات

## **نشوء الحركة الاسلامية السنية في العراق**

طارق حمدي الأعظمي



للتعرف على الحركة الإسلامية السنية لا بد من العودة إلى بدايات القرن العشرين، فقد كانت أغلبية المجتمع العراقي عشية الحرب العالمية الأولى تندرج في أربع فئات: (1) البيروقراطية ورجال الجيش، (2) ممثلي ونواب الحكومة المركزية، (3) علماء الدين، (4) طرق المتصوفة. هيمن العلماء على الحياة الفكرية والثقافية، ومثلوا النظام والاستقرار، وكانوا أقوى المنافحين عن الوضع القائم. كانت الدوائر الدينية تتسم بالجمود والتقليد، وتفتقر إلى الاجتهاد. وأدى هذا الوضع إلى نمو فرق المتصوفة وال دراويش المعبرة عن التدين الشعبي.

ويشير مؤرخو العراق الحديث إلى أواخر القرن التاسع عشر كمرحلة تشكلت فيها ثلاثة اتجاهات للحياة الفكرية للمجتمع العراقي، وهي: (1) الاتجاه التقليدي الذي هو استمرار للفكر الإسلامي في العصر الوسيط؛ (2) الاتجاه الإصلاحية؛ (3) الاتجاه العلماني الاستحدثي. كان الاتجاه العلماني متأثراً للغاية بالغرب، وكان تمرده ضد التقاليد الإسلامية نتيجة منطقية لافتتانه بالأفكار الغربية. وقد شارك دعائه في الإجهاز على الدولة العثمانية وتأسيس الشرق الأوسط الجديد تحت الهيمنة البريطانية والفرنسية. كان الفصل بين الكنيسة والدولة الذي مورس في أوربا وعرف بعد ذلك بالعلمانية، قد تم إدخاله إلى البلاد الإسلامية عبر الاختراق الغربي. امتد استبعاد الدين من شؤون الدولة باتجاه الدعوة إلى قصر دور الدين على الشؤون الشخصية وإقصائه عن الحياة العامة. لكن، ورغم تبني معظم الدول الإسلامية لنماذج غربية علمانية في التطور السياسي والقانوني والتنمية الاقتصادية والتربوية، فإن مواطنيها لم يعجبوا كثيراً، أو يتقبلوا فكراً ونفسياً القيم الضمنية (العلمانية).

### الحياة الدينية السنية في العراق

غلب على الحياة الدينية السنية بالعراق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اتجاهان متميزان هما: السلفية والتصوف. ورغم هذه التوجهات فإن المؤسسة السنية الرسمية التي تكونت من كبار العلماء قد بقيت موالية للمؤسسة الدينية العثمانية في إستانبول. ونتيجة لذلك، لم يشهد العراق إصلاحاً دينياً عقلائياً مؤثراً كذلك الذي قاده الإمام محمد عبده في مصر.

### السلفية

بدأت الحركة السلفية في الظهور بالعراق في القرن التاسع عشر، وكان من الواضح تميز السلفيين في العراق عن الوهابيين، وكان هناك سببان للمحافظة على ذلك التميز: أحدهما أنهم أرادوا أن يتجنبوا سخط الحكومة العثمانية وعلمائها التقليديين، والآخر يعود إلى الخلافات المذهبية بين السلفيين في العراق وبين الوهابيين في نجد.

تتضح الخلافات بين الجماعتين من كتابات بعض العلماء المعاصرين. كان أبو الثناء محمد شهاب الدين الألوسي (1802-1854) أبرز علماء السنة بالعراق في القرن التاسع عشر. كان عالماً متميزاً، أهم أعماله تفسير القرآن الكريم المعروف بـ"روح المعاني". تلقى الألوسي تعليمه المبكر برعاية مولانا النقشبندي، وهو بدوره كان عالماً ومتصوفاً. لقد كتب الألوسي الذي تلقى دروسه عن الشيخ علي السويدي، وهو أيضاً عالم سلفي معروف، كتب يقول "من الإنصاف القول إن السويدي لم يدنس قلبه بدعوى الوهابية الجاهلة، بل لقد كان سلفياً أحمدياً (على منهج سنة النبي)". وقد تباين السلفيون العراقيون والوهابيون حول مسألة التكفير. فعلى العكس من توجهات الوهابية، كان للألوسي علاقات ودية مع شيعة بغداد، الذين يكفهم الوهابيون. كذلك، اختلف السلفيون العراقيون عن الوهابيين في الموقف من التصوف، فالألوسي الذي تلقى العلم عن شيخ المتصوفة مولانا خالد النقشبندي، لم يرفض التصوف كله أبداً.

يعتبر المؤرخ ألبرت حوراني الشيخ نعمان الألوسي (1836-1899)، وهو نجل أبي الثناء الألوسي، قائداً للاتجاه الإصلاحية الإسلامي. غير أن محمود شكري الألوسي (1857-1924)، وهو حفيد أبي الثناء الألوسي، يعطي مثلاً أوضح للاتجاه السلفي، فقد كان صريحاً ومباشراً في حملته لقمع البدع التي أحدثت في الدين، ومن الواضح أن بعض الروابط مع الوهابية قد تركت أثرها على طريقة محمود شكري الألوسي وأسلوب تفكيره. حاول محمود شكري أن يخفي مقتله للمتصوفة لأن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني كان متصوفاً ومناصرراً للتصوف. وربما بسبب موقف محمود شكري من التصوف، فقد وقع اتهامه لاحقاً بالوهابية، وصدر قرار بنفيه إلى الأناضول. فيما بعد، حاولت الحكومة العثمانية أن تجند الألوسي في اتصالاتها ومفاوضاتها مع عبد العزيز بن سعود، وذلك لعلاقاته الطيبة مع الوهابيين. ففي 28 تشرين الثاني/نوفمبر 1914، ترأس الألوسي وفداً من الشخصيات الإسلامية، والتقى ابن سعود لحثه على الوقوف بجانب الحكومة العثمانية (الإسلامية) في مواجهة الكفار. كان ابن سعود سياسياً بارعاً، وقد أقنع الألوسي أنه ملتزم تماماً بالوقوف مع الدولة العثمانية، وأنه على استعداد لبذل روحه دفاعاً عن الخلافة العثمانية. جاءت هذه التجربة لتؤكد من جديد على تقليد -عمره قرون- في التمييز بين أهل السيف (الأمراء) وبين أهل القلم (العلماء). كما برهنت هذه التجربة وأمثالها على أن علماء المسلمين الذين كرسوا حياتهم للعلم والتعليم، كانوا يفتقدون المهارات السياسية. وتكتسب هذه الحقيقة أهميتها في سياق الإحياء الإسلامي المعاصر؛ لأن حركة الإحياء الإسلامي تشجع العلماء المسلمين على الاقتراب والتعاطي الإيجابي مع الحياة السياسية للمجتمع، بذات المنهج الذي اتخذه الرسول (ص) وخلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم.

## التصوف

شهد القرن الثامن عشر موجة جديدة من التصوف، أطلق عليها عنوان "التصوف الجديد"، وقد سعت إلى تأسيس تصوف على أساس من تعاليم الشيخ أحمد السرهندي (1534-1624) الذي قاد فرعا من الطريقة النقشبندية في الهند، واهتم بالأصول الشرعية في بناء التصوف، ووقف بحزم ضد البدع المستحدثة في بعض طرق المتصوفة. كانت هذه خطوة مهمة في تطور التصوف لأنه مثل زواجا ما بين المعرفة الروحانية والنشاط الاجتماعي السياسي. غير أن التصوف الجديد قد وصل إلى العراق فيما بعد على يد أبي البهاء ضياء الدين خالد الشهرزوري (1776-1827)، والمعروف بمولانا خالد النقشبندي. ولد مولانا خالد في قره داغ بکردستان، وقد تعرف هو نفسه على هذه الطريقة عندما سافر إلى الهند في 1809 حيث اتصل بفرع المجددي من الطريقة النقشبندية. لدى عودته إلى العراق، سافر إلى بغداد حيث تأثر به عدد من العلماء المرموقين، مثل الشيخ موسى الجبوري، والشيخ عبد الله الحيدري، وعالم أكثر بروزا هو أبو الثناء الألوسي.

كان التصوف في العراق، آنذاك، تحت سيطرة طرق من متصوفة المشيخة والدروشة. كانت هذه الطرق من قادرية ونقشبندية ورفاعية تحظى بأكثر الأتباع، وتمارس طقوسا من الرقص والحركات الجسدية العنيفة. وبسبب ممارسات هذه الطرق، فإن النخبة ذات التعليم الغربي التي ظهرت مع مطلع القرن العشرين، نزعت نحو اتهام الدين بأنه توليفة من الخرافات والأوهام. ونتيجة لذلك، فإن دعاة الإحياء الإسلامي الذين ظهوروا في النصف الأول من القرن العشرين سعوا إلى أن يناوؤا بأنفسهم عن هذه الممارسات، بل إن بعضهم أعلن رفضه للتصوف جملة وتفصيلا. ومع بداية القرن العشرين تواصل التدخل البريطاني في العراق ليصبح استعمارا تاما؛ ما أدى إلى انهيار المؤسسات الاجتماعية والتقليدية مثل طرق المتصوفة والدوائر الدينية المحلية. وكان آخر مظهر للعافية في النظام الاجتماعي التقليدي هو ثورة العشرين ضد المستعمرين. وقد عمل علماء السنة والشيعية معا في تلك الحملة ضد الخطر المشترك، لكنهم افتقدوا الإطار الإسلامي البديل لبناء مجتمع حيوي ومتطور في العالم الحديث للقرن العشرين.



الشيخ محمد محمود الصواف

## الصواف وقيام الإخوان المسلمين بالعراق 1959-46

يعتبر محمد محمود الصواف أكثر الشخصيات تأثيرا في سنوات تكوين الإخوان المسلمين بالعراق. فمنذ الثلاثينيات من هذا القرن، عندما كان شابا يافعا، وإلى أن غادر العراق في 1959، كان الصواف مسؤولاً عن تخطيط وتوجيه برامج العمل الإسلامي بالعراق. غادر الصواف العراق إلى مصر في 1939 لاستكمال دراساته الشرعية في جامعة الأزهر. وفي القاهرة، التقى الإمام حسن البنا، مؤسس وزعيم الإخوان المسلمين. ولدى عودته النهائية من مصر في 1947، أسس الصواف الفرع العراقي للإخوان المسلمين، وهي المنظمة التي قادها لفترة الثلاثة عشر عاما التالية، وترك عليها بصماته وأفكاره.

ولد الصواف بالموصل في شمال العراق في 1912 (توفي رحمه الله في 1992)، وتلقى تعليمه الأساسي في القرآن الكريم والعلوم الإسلامية على يد عدد من العلماء المحليين البارزين، منهم الشيخ عبد النعمة، وهو عالم سلفي معروف. وإضافة إلى تلقيه العلوم التقليدية، فقد قسم الصواف يومه بحيث يدرس في مدرسة حديثة في الصباح، ويلتحق بشيوخه العلماء في المساء. بدأ الصواف نشاطه الاجتماعي مبكرا، فانضم إلى جمعية الشبان المسلمين في 1935، وهي مؤسسة اجتماعية خيرية، ومن فوره أصبح مسؤولاً

عن جمع التبرعات. عرفته هذه الجمعية المبكرة على شخصيات من مختلف الخلفيات، بما في ذلك ضباط الجيش. ساهمت هذه العلاقات والاتصالات في تكوين وعيه السياسي، كما ساهم انشغاله ببرامج تعليم الكبار والسجون في صقل ملكاته ومهاراته في الخطابة والاتصال بالرأي العام. كانت موجة الفكر العلماني قد بدأت تهز العراق منذ العشرينيات، وقد استنفر العلماء المسلمين لمواجهة بتأسيس العديد من الجمعيات الإسلامية الصغيرة، مثل: جمعية الهداية الإسلامية، جمعية التربية الإسلامية، جمعية الآداب الإسلامية. كان لبعض هذه الجمعيات مطبوعات أو دورياتها، ولها كذلك لقاءاتها الشهرية أو مؤتمراتها السنوية، وبعض ذلك كان يعقد في المناسبات الإسلامية الهامة كذكرى المولد النبوي الشريف أو الهجرة النبوية.

كان الصواف - الذي وجد أن هذه الجمعيات تفتقر إلى التخطيط الاستراتيجي - قد عزم على تأسيس منظمة حسنة الإعداد والتخطيط. جاء تأسيس هذه المنظمة فيما بعد على عدة مراحل. وقد كان مسرح الأحداث معداً في الثلاثينيات عندما أسس الصواف مع شخصيتين مرموقتين هما عبد الرحمن السيد محمد وعبد الرحمن محمود عبد الرحيم، "جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". كان الملهم لتأسيس هذه الجمعية قراءات الصواف عن "الإخوان المسلمين" في مصر، رغم أنه لم يلتق بعد أي عضو منها. وقد أراد الصواف أن يسمى جمعيته "الإخوان المسلمون"، لكن الحكومة رفضت السماح بهذا الاسم على أساس أنه اسم لجمعية أخرى في مصر.

في هذه المرحلة من تطوره، تفادى الصواف الخوض في السياسة، وركز اهتمامه على الأساليب والأدوات الاجتماعية والتربوية. جذبت دعوته الطلاب الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين 14-17 عاماً، الذين قدم لهم المعارف الإسلامية. كان مدركا لأهمية الترويج والرياضة للشباب، لذا فقد كان يدعوهم إلى السباحة في النهر، حيث يتضمن برنامج السباحة واللعب محاضرة في الإسلام، وتصبح تلك المناسبة فرصة لمناقشات في محيط روحاني وأخوي راق.

في 1939، سافر الصواف إلى مصر في رحلته الأولى كطالب للدراسات العليا في الشريعة، وتم ذلك بمنحة من وزارة الأوقاف العراقية. من خلال هذه الرحلة، أتاحت له فرصة اللقاء الأول بمثاله الكبير حسن البناء، الذي كان يلقي محاضرة عامة. كتب الصواف حول تلك التجربة أنه شعر كأن إحساساً عظيماً بالشرف والمسؤولية ينتشر في كيانه، لقد كان نفس الإحساس الذي شعر به عندما كان يعمل من أجل هذا الهدف، ويبحث عنه عندما كان شاباً يافعا. كانت تلك لحظة إلهام له، ومنحته الثقة بأنه سائر في الاتجاه الصحيح. إن من الخطأ القول إن تجربته في مصر اقتصر على لقائه بحسن البناء. فالصواف، الذي لم يكن لطافته حدود، قد أغنى خبرته الشخصية بالتقائه معظم علماء المسلمين المعروفين في ذلك الزمان. على أن تلك الخبرة الجميلة كانت قصيرة العمر، فبعد أقل من عام اندلعت الحرب العالمية الثانية، وألغيت منحة الدراسة بسبب ظروف الحرب، واضطر للعودة إلى العراق.

في 1943، قدم مصطفى الصابوني، أحد تجار الموصل الأثرياء، منحة دراسية للصواف وعشرة طلاب آخرين، لكي يستأنفوا دراساتهم العليا في مصر. كانت تلك آخر فرص الصواف للقاء البناء. ففي لقاء عام شهده الآلاف، قام محمد عبد الحميد أحمد عضو جماعة "الإخوان المسلمين" في مصر، وقدم تقريراً حول مستقبل الدعوة في العراق بعد رحلته هناك، وخلص إلى أن العراق حالة ميئوس منها بالنسبة لدعوة الإخوان. وقال في تقريره إن الفساد في العراق عميق ومتسع، وفي السنوات الأربع التي أمضاها يعمل هناك لم يحرز نجاحاً يذكر. ومن فوره أخذ الصواف الميكروفون للرد على المتحدث، فأعلن استيائه من التقرير قائلاً بأن العراق سيقتفي مثال مصر في الدعوة، وإن الشعب هناك سيعمل في سبيل النهضة الإسلامية وإعلاء شأن الأمة.

لدى عودته من مصر إلى العراق في 1946 عقب إتمام دراسته الشرعية العليا، عرض على الصواف منصب قاض في المحكمة الشرعية من قبل وزير العدل آنذاك، جلال بابان، وهو منصب يتطلع إليه الكثيرون. لكن الصواف رفض العرض. كان رفضه للعرض تميزاً واضحاً بين أهداف عالم تقليدي كان سيقبل على الفور منصب القاضي، وبين ناشط حركي مثله كان يرى في هذا العرض تقييداً لحريته في الدعوة والاتصال بالناس. وبدلاً من القضاء، اختار الصواف منصب مدرس في كلية الشريعة (حديثاً التأسيس) بالأعظمية. تقاضى الصواف لقاء عمله في التدريس راتباً شهرياً قدره (25) دينار، بدلاً من (70) ديناراً هي راتب القاضي. لكنه ضحى بالمكانة الاجتماعية والراتب الجيد في سبيل نشر الدعوة وتبليغ الرسالة. كان هذا القرار نتاجاً للتغيرات التي أحدثها مناخ الإحياء الإسلامي في العالم والمجتمع.



التقى الصوفاء الشيخ أمجد الزهاوي، أبرز علماء السنة بالعراق في زمانه. كان الزهاوي فقيها تقليديا تقيا جدا، وأصبح بدوره مرشدا روحيا لمنظمة الصوفاء الجديدة، جمعية الأخوة الإسلامية. أضفت قيادة الزهاوي شرعية على المنظمة الإسلامية الجديدة. ولأن الزهاوي كان كردياً، فقد انتشرت الحركة في المناطق الكردية والعربية على السواء. كان الأعضاء الأوائل في المنظمة الجديدة هم طلاب الصوفاء في كلية الشريعة. جاء صعود جماعة الإخوان العراقية تدريجياً، ربما على غير مثال "الإخوان المسلمون" في مصر. وفيما عدا اللحظات الملهمة للصوفاء، والتي التقى فيها حسن البنا في مصر، كانت التطورات التي مرت بها جماعة الإخوان العراقية محلية تماماً.

بالطبع كانت هناك رابطة قوية تصل الإخوان العراقيين بإخوانهم في مصر، لكن ليس صحيحاً أن ينظر إلى الإخوان العراقيين كبضاعة مصرية مستوردة. ورغم أن الإخوان في مصر والعراق كانوا ينظرون إلى المنظمين كحركة واحدة، فإنهما ظلتا مستقلتين تنظيمياً. وخلال بضع سنوات أحاط بالصوفاء الكثير من الأفراد المتفانين في حمل الدعوة، والذين وقروه لعلمه وعمله وتقواه. كان الصوفاء يلح على ضرورة أن يفهم المسلمون الإسلام كما أوحى إلى الرسول (ص)، وليس كما أوله الغربيون أو مستشرقوهم ورحالتهم. وبهذا الوجه، فقد ركز الاهتمام على دينامية وحيوية الحركة كما كان الأمر في عهد النبي (ص). وأُنحى باللائمة على البريطانيين الذين عزلوا العلماء عن الجماهير، عن طريق التحكم في الأوقاف وتحديد مستوى التمويل الذي يصل إليهم. ورأى أنه نتيجة ذلك أغلقت مساجد ومراكز تعليم، ونحيت رسالة الإسلام من المجتمع.

### انتشار الحركة الإسلامية

جاءت عضوية الإخوان العراقيين في المقام الأول من الشرائح الاجتماعية التي لا تواصل لها مع النخبة العلمانية المتنفذة، وكانت متداخلة في السياسة العراقية منذ عشرينيات هذا القرن. كانت الفئة الأولى والأهم من الأعضاء هم المدرسون الذين كانوا طلاب الصوفاء في كلية الشريعة، ثم أصبحوا بدورهم مدرسين للتربية الإسلامية في مدارس العراق. ومع مطلع الخمسينيات، ازدادت العضوية بإطراد. كان معظم الأعضاء من طلاب الثانويات والجامعات، إضافة إلى المحامين والأطباء والبيروقراطية الوسطى والدنيا. سعى الصوفاء كذلك للتواصل مع القوات المسلحة، وتصادق مع عدد من ضباط الجيش الملتزمين إسلامياً، ومع أنهم لم يَمروا بالبرامج التربوية للإخوان المسلمين، فقد كانوا متمتعين بالروح الإسلامية فكراً وسلوكاً. ورغم قناعته بأن معظم الضباط قد تعلموا، فإنه قد شجع خريجي الثانويات على الالتحاق بالأكاديمية العسكرية. وبناء على تشجيعه، التحق بالأكاديمية العسكرية في عام واحد 20 طالباً من الإخوان المسلمين. ونتيجة للجهود الحثيثة في الدعوة والتجنيد، وفي بضع سنين، أصبحت الحركة ناشطة ومتواجدة في معظم المدن التي يغلب عليها التسنن، بما في ذلك بغداد وكركوك وأربيل والسليمانية وزاخو ودهوك والرمادي والبصرة والزبير والموصل وتكريت وسامراء.

لم يقتصر نشاط الصوفاء على المدن الرئيسية. ففي كل خميس، كان يرسل على الأقل عشرة طلاب من الجامعات لزيارة القرى في الريف، حيث يقضون ليلتهم هناك، ويقومون مناسك صلاة الجمعة من خطابة وإقامة وتوجيه. وإن لم يكن هناك مسجد، يقومون هم بإنشائه، ولو كان ذلك من الطين. ركز الصوفاء اهتمامه على كل قطاعات المجتمع العراقي، فقد كان يلتقي العمال مرتين أسبوعياً ليحاضرهم عن الإسلام وعن قيمة العمل في حياة الأمة. وكذلك شجع المهندسين والأطباء على تأسيس نقاباتهم المهنية المتخصصة، ونشر دعوته في صفوفهم. كانت القاعدة الأساسية للإخوان المسلمين بالعراق في المحيط السني العربي، وذلك لأن القوة الدافعة لنشاطاتهم تركزت في بغداد والموصل، وهما مركز ثقل التسنن في العراق. لكن ذلك لا يعني أن الحركة كانت سنية حصراً، فقد كان هناك بعض الأعضاء الشيعة كذلك، وإن لم يكونوا كثيرين. كان الصوفاء يدعو إلى المبادئ الإسلامية العامة، وكانت له قناعة قوية بجهود التقريب بين السنة والشيعة. غير أن القيادة التي خلفته على رأس الحركة بعد مغادرته العراق لم تواصل تلك المبادرات.

بدأت الحركة في تأسيس مواردها المالية الذاتية اللازمة لتمويل مناشطها وبرامجها بدون الحاجة للموارد البديلة، فاشترت بناية ضخمة في مركز العاصمة بغداد، كما أسسوا مكاتب لفروعهم في المدن العراقية الرئيسية. وفي 1952، أصدر الإخوان المسلمون مطبوعاتهم الشهرية، الأخوة الإسلامية، وكان الصوفاء رئيساً للتحريض. وقد حدد لها خمسة أهداف: (1) غرس الإيمان الصحيح في قلوب أبناء الأمة؛ (2) تقديم الإسلام إلى العالم كنظام عالمي شامل؛ (3) تعزيز التضامن وملء الفجوات بين قطاعات المجتمع المسلم؛ (4) التصدي للتغريب والغزو الفكري؛ (5) دعوة المسلمين إلى امتلاك القوة وكل الوسائل المؤدية لها. تناولت



المجلة الجديدة موضوعات الإسلام كنظام عالمي، وانتقادات لأعضاء البرلمان، وموقف الإسلام من المنظمات الدولية والسياسة العالمية، وقضية فلسطين، والمسائل التربوية والروحية.



جامع ام القرى في بغداد

### أزمة جماعة الإخوان

عندما أسس فرع "الإخوان المسلمين" بالعراق، بعد 20 عاما على تأسيس الجماعة الأم في مصر، كان الصواف يحاكي الصيغة القائمة للإخوان المصريين. وخلال تلك الفترة من التجربة المصرية (33-1939)، عقد الإمام البنا خمسة مؤتمرات تنظيمية رئيسية. وطدت هذه المؤتمرات تقاليد الشورى والحوار والمحاسبة في تجربة الجماعة. كان نموذجا جيدا للتنظيم أن تصغي القيادة إلى اهتمامات وهموم الأعضاء، وفي نفس الوقت كانت تنمي مهاراتهم الإدارية والتنظيمية. فيما بعد، مر "الإخوان المسلمون" المصريون بأزمة قيادية خطيرة عقب اغتيال الإمام حسن البنا في 1949. إضافة إلى ذلك، نشأ صراع كبير بين الإخوان ونظام عبد الناصر في الخمسينيات. هذه الظروف وغيرها حالت دون انعقاد أية مؤتمرات عامة للجماعة في مصر طيلة فترات الأزمة والصراع؛ ما ترك أثره على التطور التنظيمي لمنظمات الإخوان، بما في ذلك ضعف التواصل بين القاعدة والقيادة.

كانت هذه الإشكالية واضحة للعيان في السنوات المبكرة لتأسيس جماعة "الإخوان المسلمين" بالعراق. فقد كان الكثير من القياديين يتركون مواقعهم القيادية كل عامين أو ثلاثة، ولم تصل أزمة التنظيم إلى نهاية حتى الوقت الحاضر. وطبقا لأحد شهود تلك الحقبة من العمل الحركي الإسلامي بالعراق، الدكتور هشام الطالب، كان أحد أسباب تلك الأزمة هو افتقاد الإجماع بين الأعضاء حول القضايا السياسية الرئيسية، مثل مشروع الوحدة بين مصر وسوريا أو بين العراق والأردن. أما السبب الآخر للأزمة، كما يقول الطالب فهو أن الصواف دأب على حل المشكلات الطارئة بالقول إن علينا أن نحافظ على وحدة الصف إزاء التحديات والمخاطر التي تواجهنا، وهو بذلك لم يحل أية مشكلة، بل كان يؤجل الحل فقط. كذلك، لم يكن الصواف متحفظا أبدا فيما يقيم من علاقات، وهو أمر كان يراه بعض الأعضاء القياديين في الجماعة ضعيفا. فهم يرون وجوب أن يكون الصواف متحفظا في إقامة علاقات، فهو لم يعد يمثل نفسه، بل يمثل الجماعة بأسرها. في 14 تموز/ يوليو 1958، وقع انقلاب عسكري في العراق، أطاح بالأسرة المالكة الهاشمية، وأسس الجمهورية العراقية بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم. ولأول وهلة، رحب الصواف بالتغيرات الجديدة، لكنه بعد ذلك تحول ضد النظام الجديد، عندما وجد صفوف أنصار قاسم تعج بالعناصر الشيوعية والمعادية للدين. رفع الصواف صوته عاليا في معارضته للنظام الجديد، واعتقل بسبب ذلك. انتشرت الشائعات في الشارع العراقي أن النظام قد اغتال الصواف في السجن. ولكن خوفا من الاغتيال (الذي طال غيره فعلا)، وتحت ضغط من الأعضاء القياديين، ترك الصواف العراق.

تسبب عدم تحفظ الصواف وشخصيته الأميل إلى التحكم مع افتقاده القدرة على بناء تنظيم هيكلي قوي، في أزمة تنظيمية خطيرة. كانت تلك الأزمة جديدة على العقل العراقي المسلم، وتتناول طريقة العمل التنظيمي في المجتمع المدني الحديث. كان العلماء هم العمود الفقري للمجتمع التقليدي، ولكن هل يستطيعون الآن تقديم قيادة مشدودة إلى نفس طرائقهم التقليدية في الماضي؟ كان كثير من شخصيات الجماعة، الذين تلقوا تعليما حديثا، يفضلون أن يترك الصواف القيادة وأن يتيح الفرصة للآخرين. وأصبحت هذه النظرة أكثر قوة عندما

اعتقل في آذار/ مارس 1959، وازداد الضغط عليه باطراد في الشهور الستة التالية، باتجاه ذلك. ولدى إطلاق سراحه من المعتقل، اقتنع بوجوب مغادرة البلاد، لكنه لم يتخل عن موقعه في القيادة. واستمر متمسكا به، حتى اضطر مجلس شورى الجماعة لأن يرسل له إخطاراً بإعفائه.

## الفصل الرابع / الاسلام الصوفي العراقي

### الفصل الرابع الاسلام الصوفي العراقي

ميزوبوتاميا - جنيف



ان (التصوف) و(العرفان)، مسميان لمعنى واحد: (الايمان بوحداية الوجود والميل الى الزهد بالاعتكاف عن مباحج الدنيا). هذا الفكر الوجداني الزهدي، تسميته الأصلية هي (العرفانية) التي تعود الى ما قبل الاسلام، حيث ترجمها الاغريق الى (الغنوصية - GNOSE). لكن تسمية(التصوف) قد استخدمت بعد الاسلام، حيث استمر هذا الفكر العرفاني بعد تلبسه بالخصوصيات الاسلامية. حينها شاعت تسمية(التصوف) واصبحت تطلق حصرا على الطرق الصوفية ذات المذاهب السنية، بينما بقيت تسمية(العرفانية) تستخدم لدى ابناء المذاهب الشيعية. لهذا فأنا نستخدم في موضوعنا الحالي التسميتين(العرفانية والصوفية) بنفس المعنى.

العرفان، بطبعه فكر انساني منفتح ومتسامح، لا يحمل موقفا متعصبا ضد أي مذهب او دين، سواء كان اسلاميا او غيره. لهذا فإن انتشار التصوف(والعرفان) يلعب دورا مهما بتخفيف حدة التعصب المذهبي والديني، ويشكل اساسا للتقارب بين الطوائف المختلفة. التصوف بالاساس قائم على اساس عقيدة(وحدة الوجود) أي (وحدة الخالق والمخلوق) أي ما يسمى بـ (المذهب الحلولي) حيث تحل (روح الله) في كل مخلوقاته وأولها الانسان الذي يعتبر اشبه بالغصن او الورقة في الشجرة الالهية العظمى. وهذا الموقف الصوفي العرفاني، يضفي قدسية على الانسان ويمنحه ثقة كبرى بذاته وخلقته وكيانه، وبالتالي يخفف من شعوره بعبثية الحياة ويضعف تلك الطروحات المتشائمة السائدة التي تحتقر الانسان سواء بأسم الدين والروحانية او بأسم العلم والمادية..

لكن مشكلة العرفانية، انها تميز بصورة تناقضية بين (روح الانسان) و(بدنه).. فتعتبر ان الروح وحدها هي (الجانب الالهي) من الانسان، اما بدنه وكذلك كل الواقع المادي، هو جزء من الوجود الشيطاني المظلم. لهذا على الانسان الصوفي العرفاني، ان يحتقر بدنه ويدجنه بواسطة التجويع والتنسك، لكي يحرر روحه الالهية من سيطرة القوى المادية الشيطانية. إذن العرفانية تؤمن بوحدة الخالق والمخلوق، وترفض التعصب وتشجع على المحبة والتسامح، لكنها تحتقر البدن والواقع وتشجع على الزهد والعزلة..



## - معنى التصوف والعرفان

عموما انقسم العرفان الى عرفان فكري فلسفي وعرفان حياتي زهدي. وفي التاريخ ما قبل الاسلامي، برزت التيارات الفلسفية العرفانية، مثل الافلاطونية الجديدة والهرمزية في مصر وعموم الشرق، اما التيارات العقائدية (الدينية) فتمثلت بالمندائية والمسيحية والمناوية.

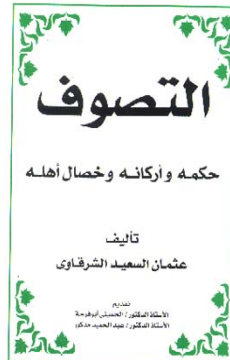
في العصر الاسلامي، ظهر العديد من الفلاسفة العرفانيين، مثل الكندي وابن سينا وابن طفيل وابن عربي والغزالي وغيرهم الكثيرون، بالاضافة الى جماعات فلسفية عرفانية مثل اخوان الصفا والحركة الاسماعيلية. اما الشخصيات العقائدية الدينية المسلمة، فمن اشهرهم النفري والحلاج والمحاسبي، ثم يليهم مؤسسي الطرق الصوفية مثل الرفاعي والكيلاني وغيرهم.

ان العرفان يتميز بناحيتين اساسيتين، فكرية وحياتية، بالاضافة الى ناحية ثالثة غير اساسية اضيفت فيما بعد:

- الناحية الفكرية: انه يتبنى عقيدة (وحدة الوجود)، أي (وحدة الخالق والمخلوق)، وتسمى ايضا (الحلولية) حيث تحل روح الله في كل المخلوقات. ان الاديان السماوية تختلف عن (العرفانية)، إذ تتميز تماما بين (الخالق والمخلوق) حيث يعتبر الله سبحانه وتعالى كينونة علوية تمتلك كل القدرات المطلقة، اما الانسان وباقي المخلوقات، فهي كائنا (دنيوية) تابعة تماما لمشيئة الرب. بينما العرفانية (والتصوف) فتعتبر الانسان وجميع المخلوق اجزاء من كينونة الخالق وتمتلك نفس صفاته ولكن بدرجة اقل. ان العلاقة بين الخالق والمخلوق مثل العلاقة بين جذع الشجرة واوراقها، او مثل علاقة الموجة ببحرها، او مثل علاقة العضو بباقي البدن..انها علاقة تكاملية. ولهذا قال المتصوفة ومن اشهرهم الحلاج (الله في جبتي.. أوأنا الله)..

- الناحية الحياتية: وهي ناحية معروفة قائمة على اساس الزهد والتسك والابتعاد عن ملذات الحياة. ويتم تبرير هذا الزهد، على اساس ان الحياة الحالية هي حياة مادية ثانوية عابرة، حيث يسجن فيها الجانب الالهي من الانسان (أي روحه) في (سجن البدن) وشهوات المادة. لهذا على الانسان العمل على مساعدة روحه على الانعتاق من هذا السجن البدني وتهيتها للصعود على اعالي الروح الالهية الكلية..

- الناحية الطقوسية: وهي ناحية قد اضيفت فيما بعد على التصوف، بعد ظهور الطرق الصوفية العديدة، مثل القادرية والرفاعية والنقشبندية، وغيرها. وهي طقوس عديدة تتمثل بالرقص والتراتيل وممارسة الخوارق مثل الدرباش والسير على الجمر وغيرها من الامور..



## جذور التصوف والعرفان

من المعلوم ان التصوف الاسلامي، هو امتداد طبيعي لعقيدة (وحدة الوجود العرفانية) التي بدأت تنتشر في الشرق الاوسط، بالذات في العراق والشام ومصر، منذ القرن الثالث قبل الميلاد. وهي عقيدة تحاول ان تمزج بين (روحانية الشرق الآسيوي ومنطق الاغريق). فبعد سقوط آخر دولة عراقية في القرن السادس قبل الميلاد على يد الفرس، واحتلال الشام ومصر من قبل الاغريق ثم الرومان، بدأ يتغلغل في هذه البلدان تياران دينيان جديداً: التيار الديني الآسيوي (الهندي الصيني) المتضمن (عقيدة وحدة الوجود) عن طريق ايران، ثم التيار الفكري اليوناني (علم المنطق) عن طريق الاغريق انفسهم ثم الرومان. لقد امتزج هذا التياران الجديداً مع ديانة عبادة الكواكب العراقية وديانة البعل الشامية وديانة خلود الآخرة المصرية. نتج من هذا مزيج يجمع بين (عقيدة وحدة الوجود الآسيوية) و(المنطق الاغريقي) و(عقيدة المهدي - المسيح - المخلص) العراقية، وعقيدة (الخلود الآخروي) المصرية.

تجدر الإشارة، ان (مفهوم وحدة الوجود) في اصله هو مذهب آسيوي واضح الحضور في الاديان الصينية والهندية، مثل البوذية والتاوية والهندوسية. بينما اديان البحر المتوسط (بضفتيه الاوربية والشرقية) هي بطبعها اديان ثنائية تميز بصورة واضحة بين (الخالق والمخلوق). فالديانة العراقية القديمة وكذلك المصرية والشامية، بالإضافة الى الأديان السماوية، جميعها بدرجات مختلفة تعتبر القوى الالهية مقيمة في السماء العليا ومنفصلة جوهرياً عن مخلوقاتهما على الارض.

تمثلت هذه العرفانية التي اطلق عليها الاغريق تسمية (الغنوصية - وهي ترجمة حرفية لكلمة عرفان الآرامية) في عدة مذاهب، مثل (الافلاطونية الجديدة) في مصر، و(الطائفة العيسانية) في فلسطين التي كان ينتمي اليها (يوحنا المعمدان) وهي التي هيأت لانبثاق المسيحية. علما ان المسيحية تعتبر افضل تعبير عن العرفانية، حيث اعتبر السيد المسيح (روح الله) وانه (تموز المنقذ - العراقي -) الذي اتى لـ (يخصب) نفوس البشر وينقذ (ارواحهم الالهية - الحلولية الآسيوية) من سجن البدن (ملكوت الشيطان)، الى خلود الآخرة (المصرية) (ملكوت السماء).. اما في العراق فقد تمثلت العرفانية بطائفة الصابئة وكذلك المانوية. في اليهودية، تمثلت العرفانية بمذهب (القبالة). وقد دخلت هذه العرفانية في الاسلام، منذ نشأته الاولى. وحسب العرفانيين الشيعة والمتصوفة، ان هنالك الكثير من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي تدل على عقيدة وحدة الوجود، وبالذات السور المكية ذات المسحة الروحانية الحلولية، منها مثلاً (سورة النجم) التي ترد فيها (سدرة المنتهى) التي تعني حسب العرفانيين (شجرة الوجود الكلي) حيث الاله جذرها وجذعها، والمخلوقات اوراقها. وهنالك تفسير (عرفاني) للقرآن الكريم، كما لدى (ابن عربي) و(السهوروردي) وغيرهم، يعتمد اساساً على (المعنى الرمزي) ويرفض المعاني الواقعية المباشرة. وهذا التفسير على نقیض تام للتفسير الحنبلي، الواقعي المادي المباشر. حيث يعتقد المتصوفة، ان للانسان ثلاث كيانات، هي (النفس - الجانب البدني الحياتي) و(الروح - الجانب الالهي)، ثم (القلب - الجانب الوسطي العقلي بين الاثنين)، وتفسر جميع الآيات القرآنية على اساس علاقتها بهذه الجوانب الثلاثة. يعتبر (المذهب الاسماعيلي) اكثر المذاهب الشيعية الاسلامية تبنياً للعرفانية، بل انه تبنى تقريباً بصورة حرفية (اسطورة الخليفة) العراقية.



الحضرة الكيلانية في بغداد

## التصوف العراقي

اننا نعرف تاريخ الفكر العرفاني، لكننا لا نعرف بالضبط من بدأ التصوف في الاسلام. يقال بأن التصوف اول ما ظهر في العراق في الكوفة، وهذا امر معقول، حيث ان التيارات العرفانية كانت سائدة بين العراقيين قبل الاسلام، مثل (المندائية) و (المانوية) و (التنسك المسيحي). ان اول من عرف بالصوفي هو (ابوهاشم الكوفي) سنة 150هـ. وقد بلغ التصوف ذروته في نهاية القرن الثالث الهجري. وواصلت الصوفية انتشارها في العراق ثم ايران ومصر والمغرب، وظهرت من خلالها الطرق الصوفية.

ظهر التصوف في القرن الثالث الهجري كنزعات فردية تدعو الى الزهد وشدة العبادة كرد فعل مضاد للانغماس في الترف الحضاري. ثم تطورت تلك النزعات بعد ذلك حتى صارت طرقا مميزة معروفة باسم الصوفية. ولا شك ان ما يدعو اليه الصوفية من الزهد والورع والتوبة والرضا، انما هي امور من الاسلام الذي يحث على التمسك بها والعمل من اجلها، فالمتصوفة يتوخون تربية النفس والسمو بها بغية الوصول الى معرفة الله تعالى بالكشف والمشاهدة لا عن طريق اتباع الوسائل الشرعية. وقد تنوعت وتباينت آراء الناس وتوجهاتهم نحو تلك الحركة لأن ظاهرها لا يدل على باطنها.

جميع المؤرخون يتفقون على ان التصوف نشأ وترعرع في العراق، حيث برزت اسماء كبرى قد ساهمت بتأسيسه، منها: الحسن البصري، داود بن نصير الطائي، رابعة العدوية، معروف الكرخي، السري السقطي، الجنيد البغدادي، وغيرهم الكثيرون.

علماً ان جميع الطرق الصوفية تتفق على تقديس (الامام علي) وكذلك (الخضر) (عليهم السلام) المذكور في القرآن الكريم. ويضيف المتصوفة على هاتين الشخصيتين صفات قدسية ونوعاً من الخلود والقدرات الاخصابية والاحيائية، تذكر كثيراً بشخصية (تموز) في الديانة العراقية القديمة. وليس بالصدفة ان تسمية (الخضر) تعني الخضرة والخصوبة مثل اله الخصب العراقي (تموز)، وكذلك الامام (علي) (ع) وهي نفس تسمية (ايليا) وتعني (الاله) أي (العالى) في الديانتين العراقية والشامية القديمتين!

اما لدى الشيعة فقد اطلقوا على التصوف اسمه الحقيقي الاصلي (العرفان) أي ما اسمو به (العرفان الشيعي)، وهو اثني عشري كان أم اسماعيلي، يدور حول الإمام، العقيدة والفلسفة والتاريخ والسياسة، كل ذلك يعيشه الشيعة من خلال ارتباطهم الروحي بالإمام فالزمان العرفاني، إذن، زمان روحي باطني، قوامه الارتباط بالإمام، ومراحله وسلم الارتقاء فيه هي مراحل وسلم الارتقاء او «الحج» الى الامام. اما العلاقة بين الشيعة والمتصوفة كانت مطبوعة بطابع المقاربة احياناً والتنافس احياناً اخرى. فهم يتفقون على تقديس الامام علي (ع) والسيدة فاطمة الزهراء (ع)، ولكنهم يختلفون في الموقف من الدولة، حيث منذ البدء هادن المتصوفة الدولة العباسية بسبب علاقة المذاهب السنية بهذه الدولة، بينما الشيعة كانوا ضدها.

- يخلط الكثيرون بين الزهد والتصوف ومن هنا كان تأثر الكثيرين بالتصوف، فالزهد ليس معناه هجر المال والاولاد، وتعذيب النفس والبدن بالسهر الطويل والجوع الشديد والاعتزال في البيوت المظلمة والصمت الطويل، وعدم التزوج، لان اتخاذ مثل ذلك نمطاً للحياة يعد سلوكاً سلبياً يؤدي الى فساد التصور، واختلال التفكير الذي يترتب عليه الانطواء والبعد عن العمل الذي لا يستغني عنه اي عضو فعال في مجتمع ما، كما يؤدي بالأمة الى الضعف والتخلي عن الدور الحضاري الذي ينتظر منها.

## اصل التسمية

هنالك تخمينات كثيرة حول اصل تسمية (الصوفية). هنالك من يعتقد انها من (الصوف) حيث كان الزهاد يرتدون (الصوف الابيض). وهنالك من يعتقد انها تعود الى (اهل الصفة) وكان لقباً اعطي لبعض فقهاء المسلمين في عهد الرسول (ص) ممن لم تكن لهم بيوت يؤون اليها فأمر الرسول (ص) ببناء فناء ملحق بالمسجد من اجلهم، وهذا يوضح ادعاء المتصوفة بربط التصوف بعصر النبي (ص) وانه أقر النواة الصوفية الأولى، مع العلم ان اهل الصفة ما كانوا منقطعين عن الناس لأجل الزهد الصوفي. وهنالك من يقول انها تعود الى (الصفاء) ومعناها ان الصوفية صافية من الشرور وشهوات الدنيا. بعض الصوفية ينسبون انفسهم الى الصف الاول من المؤمنين في الصلاة.

لكننا نميل الى التفسير التالي. ان تسمية (الصوفي) متأتية من الجذور التالية (الصفاء والشفاء والآسي) وكلها بمعنى (الشفاء) وتنقية النفس. علماً بأن الطبيب في العراق القديم (الأكديّة) كان يسمى (آسي) وهي نفسها في العربية، منها (واسى) أي خفف من الالم.



## معتقداتهم

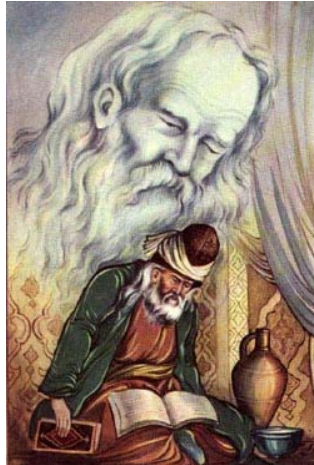
هنالك تقديس خاص لدى المتصوفة لشخصية (الخضر) (ع) المذكورة في القرآن الكريم. قصة الخضر (ع) التي وردت في القرآن الكريم في سورة الكهف، فسر المتصوفة معانيها واهدافها ومراميها وجعلوها عموداً من اعمدة العقيدة (الصوفية) وجعلوا هذه القصة دليلاً على ان هناك ظاهراً شرعياً، وحقيقة صوفية تخالف الظاهر وجعلوا انكار علماء الشريعة على علماء الحقيقة امراً مستغرباً، وجعل الصوفية الخضر (ع) مصدراً للوحي والالهام والعقائد والتشريع، ونسبوا طائفة كبيرة من علومهم التي ابتدعوها الى الخضر وليس منهم صغير او كبير ممن دخل في طريقهم الا وادعى لقيا الخضر والأخذ عنه.

تختلف العقيدة الصوفية عن بعض المفاهيم الاسلامية المعروفة من اهمها: مصدر المعرفة الدينية، ففي الاسلام لا تثبت عقيدة إلا بقرآن وسنة لكن في التصوف تثبت العقيدة بالالهام والوحي للأولياء والاتصال بالجن الذين يسمونهم الروحانيين، ويعروج الروح الى السماوات، وبالفناء في الله، وانجلاء مرآة القلب حتى يظهر الغيب كله للولي الصوفي حسب، وبالكشف، ويربط القلب بالرسول (ص) حيث يستمد العلوم منه. واما القرآن والسنة فإن للصوفية فيهما تفسيراً باطنياً حيث يسمونه احياناً تفسير الاشارة ومعاني الحروف فيقولون ان لكل حرف في القرآن معنى لا يطلع عليه إلا الصوفي المتبحر، المكشوف عن قلبه.

يعتقد الصوفية في الرسول (ص) عقائد شتى فمنهم من يزعم ان الرسول وسلا يصل الى مرتبتهم وحالهم بعلوم رجال التصوف كما قال البسطامي: "خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله" ومنهم من يعظم الرسول الى درجة الوصول الى الألوهية حيث يعتقد البعض من الصوفية ان الرسول هو قبة الكون وهو الله المستوي على العرش وان السماوات والارض والعرش والكرسي وكل الكائنات خلقت من نوره وانه اول موجود وهو المستوي على عرش الله وهذه عقيدة ابن عربي ومن جاء بعده.

يرى الصوفية ان الولي هو: "من يتولى الله سبحانه امره فلا يكله الى نفسه لحظة، ومن يتولى عبادة الله وطاعته، فعبارته تجري على التوالي من غير ان يتخللها عصيان" وحقيقة الولي عند الصوفية انه يسلب من جميع الصفات البشرية ويتحلى بالاخلاق الالهية ظاهراً وباطناً، حيث يعتقد الصوفية في الأولياء بأن لهم القدرة على انزال المطر وشفاء الأمراض واحياء الموتى وحفظ العالم من الدمار. الصوفية يعتقدون ان طلب الجنة والفرار من النار ليس هدفاً، فالله يعبد لذاته حيث يقول المتصوفة ان العبادة الحقّة هي ما كانت دون طلب العوض من الله وان يشهد فيها فعل الله لا فعل العبد. ان طلب الجنة منقصة عظيمة وانه لا يجوز للولي ان يسعى اليها ولا ان يطلبها ومن طلبها فهو ناقص، وانما الطلب عندهم والرغبة في الفناء في الله، والاطلاع على الغيب والتعريف في الكون... واما النار فإن الصوفية يعتقدون ايضاً ان الفرار منها لا يليق بالصوفي الكامل لان الخوف منها طبع العبيد وليس الاحرار.

يعتقد الصوفية ان الصلاة والصوم والحج والزكاة عبادات العوام وأما هم فيسمون انفسهم الخاصة ولذلك فعباداتهم مخصوصة وان تشابهت ظاهراً. واذا كانت العبادات في الاسلام لتزكية النفس وتطهير المجتمع فإن العبادات في التصوف هدفها ربط القلب بالله تعالى للتلقي عنه مباشرة حسب قولهم والفناء فيه واستمداد الغيب من الرسول صلى الله عليه وسلم والتخلق باخلاق الله حتى يقول الصوفي للشيء كن فيكون ويطلع على اسرار الخلق، ولا يهم في التصوف ان تخالف الشريعة الصوفية ظاهر الشريعة الاسلامية، فالحشيش والخمر واختلاط النساء بالرجال في الموالد وحلقات الذكر كل ذلك لا يهم لأن للولي شريعته تلقاها من الله مباشرة.



## اذكار الصوفية

يقوم المتصوفة بترديد الذكر "لا اله الا الله" فالصوفية يذكرون اسم الله مفردا بقولهم "الله الله الله" او مضمرا بقولهم "هو, هو, هو" وبعضهم فسر ذلك بقوله اخشى ان تقبض روحي وأنا اقول "لا إله...." ومن الصلوات التي ابتدعها المتصوفة صلاة الفاتح التي تقول: "اللهم صلي على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق, والخاتم لم سبق, وناصر الحق بالحق...." الى آخره. وهناك ورد اطلق عليه المتصوفة جوهره الكمال وهي من أورادهم اللازمة التي لها حكم الفرض العيني ونصه "اللهم صلي وسلم على عين الرحمة الربانية, والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني , ونور الأكوان المتكونة.

في المجتمع الصوفي ينتشر ما يسمى بالسماع والتغني بالاشعار مع دق الطبول وهذا يقصد به الصوفية عبادة الله تعالى, ويتضح تأثر الصوفية به الا ان كثيرا من الذين بحثوا في هذا الجانب يؤكدون على ان الصوفية يتأثرون بالسماع من خلال الالحان والاشعار والطبول مع تأثرهم بالقرآن يقول الشعراني: "وكان اذا سمع القرآن لا تقطر له دمعة, واذا سمع شعرا قامت قيامته".

## معنى الطريقة الصوفية

على الرغم من صعوبة تحديد المراد بالطريقة والوصول لمفهوم موحد لجميع الطرق الصوفية الا اننا سنعرض بعضا من المعاني التي وردت حول الطريقة الصوفية فمنها ان الطريقة الصوفية تعني النسبة او الانتساب الى شيخ يزعم لنفسه الترقى في ميادين التصوف والوصول الى رتبة الشيخ المربي ويدعي لنفسه رتبة صوفية من مراتب الأولياء. كما انها تعني: ان يختار جماعة من المريدين شيئا لهم يسلك بهم رياضة خاصة بهم على دعوى تصفية القلب لغاية الوصول الى معرفة الله.

كما وصفها الشيخ الجزائري بقوله انها تعني اتصال المريد بالشيخ وارتباطه به حيا أو ميتا وذلك بواسطة ورد من الأذكار يقوم به المريد باذن من الشيخ أول النهار وآخره, ويلتزم به بموجب عقد بينه وبين الشيخ, وهذا العقد يعرف بالعهد, وصورته ان يتعهد الشيخ بان يخلص المريد من كل شدة ويخرجه من كل محنة متى ناداه مستعينا به, كما يشفع له يوم القيامة في دخول الجنة. ويتعهد المريد بان يلتزم بالورد وآدابه فلا يتركه مدى الحياة كما يلتزم بلزوم الطريقة وعدم استبدالها بغيرها من سائر الطرق.

والتصريح بضمان الجنة للمريد امر مشهور عندهم وهو اكبر من مجرد الشفاعة يوم القيامة. احد مشايخ الصوفية وهو الشيخ التيجاني يقول: وليس لأحد من الرجال ان يدخل كافة أصحابه الجنة بغير حساب ولا عقاب ولو عملوا من الذنوب ما عملوا وبلغوا من المعاصي ما بلغوا إلا أنا وحدي. كل طريقة صوفية تحاول ان يكون لها ذكر خاص تنفرد به عن سائر الطرق, وان يكون لهذا الذكر ميزة خاصة ولكل طريقة مشاعر خاصة من حيث لون العلم والخرقه وطريقة الذكر ونظام الخلوة, والطرق يتوارثها الابناء من الآباء وذلك ان الطريقة التي تستطيع جلب عدد كبير من المريدين والتابعين تصبح بعد مدة اقطاعية دينية تغد الوفود الى رئيسها او شيخها من كل ناحية, وتأتيه الصدقات والهبات والبركات من كل حذب وصوب وحيثما حل الشيخ في مكان ذبحت الطيور والخرفان. والطرق الصوفية وان اختلفت وتباينت فانها تتفق فيما يلي:

- \* الاحتفال بدخول المريد في الطريقة بطقوس دقيقة مرسومة, وقد يتطلب بعض الطرق من المريد ان يمضي وقتا شاقا في الاستعداد للدخول.
- \* التقيد بزي خاص, فلا بد أن يكون هناك نوع خاص من الزي يمثل رمز أصحاب الطريقة الذي يلبسونه فيميزهم عن غيرهم.
- \* اجتياز المريد مرحلة شاقة من الخلوة والصلاة والصيام وغير ذلك من الرياضات.
- \* الاكثار من الذكر مع الاستعانة بالموسيقى والحركات البدنية المختلفة التي تساعد على الوجد والجذب.
- \* الاعتقاد في القوى السرية الخارقة للعادة التي يكتسبها المريدون بالمجاهدات وهي القوى التي تمكنهم من أكل الجمر, والتأثير على الثعابين, والإخبار بالمغيبات.
- \* احترام شيخ الطريقة الى درجة التقديس.



## نشأة الطرق الصوفية

وضع أبو سعيد محمد أحمد الميهي الصوفي 430هـ أول هيكل تنظيمي للطرق الصوفية بجعله متسلسلا عن طريق الوراثة، ويمثل القرن السادس الهجري البداية الفعلية للطرق الصوفية وانتشارها حيث انتقلت من العراق إلى المشرق الإسلامي. ظهرت أولا في العراق الطريقة الرفاعية المنسوبة لأبي العباس الرفاعي 540هـ , وفي القرن السابع الهجري، كذلك الطريقة القادرية في بغداد. دخل التصوف الأندلس وأصبح ابن عربي أحد رؤوس الصوفية 638هـ. واستمرت الصوفية بعد ذلك في القرون التالية إذ انتشرت الفوضى واختلط الأمر على الصوفية لاختلاط افكار المدارس الصوفية وبدأت مرحلة الدراويش.

## نماذج من الطرق الصوفية

[ الطريقة القادرية وتسمى الكيلانية: أسسها عبدالقادر الكيلاني المتوفى في بغداد سنة 561هـ , يقول اتباعه انه أخذ الخرقا والتصوف عن الحسن البصري عن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) , كما نسبوا إليه من الأمور العظيمة فيما لا يقدر عليها إلا الله تعالى من معرفة الغيب, وإحياء الموتى وتصرفه في الكون حياً أو ميتاً , بالإضافة إلى مجموعة من الأذكار والأوراد والأقوال التي منها: من استغاث بي في كربة كشفت عنه, ومن نادني في شدة فرجت عنه ومن توسل بي في حاجة قضيت له.

[ الطريقة الرفاعية: تنسب إلى أبي العباس أحمد بن أبي الحسين الرفاعي ويطلق عليها البطائحية نسبة إلى مكان ولاية بالقرب من قرى البطائح بالعراق, وجماعته يستخدمون السيوف ودخول النيران في اثبات الكرامات. قال عنهم الشيخ الألوسي "وأعظم الناس بلاء في هذا العصر على الدين والدولة مبتدعة الرفاعية, فلا تجد بدعة الا ومنهم مصدرها وعنهم موردها فذكرهم عبارة عن رقص وغناء وعبادة مشايخهم".

[ البدوية: وتنسب الى احمد البدوي 634هـ ولد بفاس في المغرب.

[ الطريقة الدسوقيّة: تنسب الى ابراهيم الدسوقي 676هـ المدفون بمدينة دسوق في مصر, يدعي المتصوفة انه احد الاقطاب الاربعة الذين يرجع اليهم تدبير الامور في هذا الكون.

[ الطريقة الأكبرية: نسبة الى الشيخ محيي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر 638هـ..

[ الطريقة الشاذلية: وهي طريقة صوفية تنسب الى ابي الحسن الشاذلي في مصر. [ الطريقة البكداشية: كان الاتراك العثمانيون ينتمون الى هذه الطريقة, وهي لا تزال منتشرة في البانيا, كما انها اقرب الى التصوف الشيعي, وكان لهذه الطريقة اثر بارز في نشر الاسلام بين الاتراك والمغول.

[ الطريقة المولوية: انشأها الشاعر جلال الدين الرومي 672هـ والمدفون بقونية في تركيا.

[ الطريقة النقشبندية: تنسب الى الشيخ بهاء الدين محمد بن البخاري الملقب بشاه نقشبند 791هـ, كذلك السيد خالد البغدادي. انتشرت في تركستان اولا ثم ايران والهند والعراق وتركيا وعموم الشرق الاوسط.

[ الطريقة الملامتية: مؤسسها ابوصالح حمدون بن عمار المعروف بالقصار 271هـ اباح بعضهم مخالفة النفس بغية جهادها ومحاربة نقائصها, وقد اظهر الغلاة منهم في تركيا.

[ الطريقة التيجانية: اسسها ابو العباس احمد التيجاني 1230هـ , الذي ولد بالجزائر.

[ الطريقة الختمية: اسسها السوداني محمد عثمان الميرغني.

[ الطريقة البريلوية: وهي فرقة صوفية نشأت في شبه القارة الهندية الباكستانية في مدينة بريلي بالهند ايام الاستعمار البريطاني.

## مصادر هذه الدراسة

- (1) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: الندوة العالمية للشباب الإسلامي.
- (2) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي - محمد لوح - رسالة ماجستير منشورة - الجامعة الإسلامية.
- (3) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة - عبدالرحمن عبدالخالق.
- (4) تاريخ التصوف الإسلامي - عبدالرحمن بدوي.
- (5) هذا الموضوع اعتمد كثيراً على مقالة كتبها إبراهيم داود الداود جريدة الرياض 13 شوال 1421 هـ

## شخصيات صوفية

النقري.. شيخ التصوف..

وليد عبد الله



ولد محمد بن عبد الجبار بن الحسن بن أحمد النقري في مدينة نقر الواقعة على ضفاف نهر الفرات شرقاً. ونقر مدينة سومرية تسمى نيبور؛ وهي مبنية على ضفاف الفرات الشرقية، وكانت مركزاً دينياً مهماً قبل أربعة آلاف سنة، وكان فيها معبد آكور الذي يُعبد به الرب إنليل، سيد الهواء. ومن بعد أصبحت مركزاً للديانة المانوية، ثم المسيحية في القرن السابع الميلادي. توفي النقري في عام 375 هـ/965 م، كما ذكره التلمساني الشارح لكتاب *المواقف والمخاطبات* على هامش الغلاف من المخطوطة المصرية. ويقول رينولد نيكلسون إن النقري "درويش جَوَّاب آفاق، مغامر في أقطار الأرض". ويقول التلمساني إنه توفي في القاهرة، ولا يؤكد ذلك، مكتفياً بالقول: "الله العالم في مماته".

إن حياة النقري غامضة في ولادته وموته وسيرته، على كل الأصعدة؛ وليس لدينا أي مصدر يذكر تفاصيل حياته. إلا أن من المؤكد أنه عاش في القرن الرابع الهجري، وعاصر محنة الحلاج التي أثرت على أهل التصوف ودعَّتهم إلى التحفظ والكتمان والتقية الشديدة. وقد اكتشف كتاب *المواقف والمخاطبات* للنقري المستشرق آرثر جون آربري سنة 1934. ويبدو أن عدم ذكر النقري في مصادر أهل التصوف والعرفان يرجع إلى عدة أسباب أهمها:

تأثير محنة الحلاج على جيل المتصوفة الذي تستر بالتحفظ والكتمان. التخوف من الفقهاء الذين دأبهم أن يشنوا حملة قاسية من التكفير والتفسيق على "أهل الطريق" ويحرضوا السلطات عليهم. تبنى النقري أفكاراً خاصة به تدعوه إلى الغياب التام وعدم الظهور؛ وقد تكون هذه طريقة خاصة بالنقري وأصحابه. يبدو أن النقري شيعي المذهب؛ وهو ما يبدو من خلال نصّه الأخير في *المواقف والمخاطبات* الذي يشير فيه إلى الإمام المنتظر الذي يظهر وأصحابه في آخر الزمان، بحسب الرواية الشيعية. والاعتقاد الشيعي بخصوص الإمام المنتظر متطابق مع مفردات النص النقري، وتؤكد ذلك طريقته العرفانية.

ذلك أن العرفاء الشيعة لا يميلون إلى الظهور، ولا يهتمون بالتدوين، ولا يقدِّسون المشايخ، ويؤمنون بتعدد المشايخ أو السلوك بدون شيخ في هذا الطريق. ولا يظهر العرفاء الشيعة إلا بزيّ الفقيه، كما جرت العادة، لعدم انفصال المؤسسة الفقهية عن هذا الحقل المعرفي. وأهل هذا الطريق يتخوفون من هؤلاء الفقهاء؛ وقد عانوا منهم أشد المعاناة، وخاصة أهل العرفان الشيعة. وإذا صحَّ أن ولادة النقري كانت في مدينة نقر العراقية



فإن ذلك يقوّي الظنّ بتشيّعه. فمدينة نَقَر تجاور الكوفة وبابل؛ ومن المعروف أن الكوفة والمدن المحيطة بها أكبر المراكز العلمية والتجمعات الشيعية في العراق، في الماضي كما في الحاضر. خلاصة القول: تبقى حياة النُقري ومماته يكتنفهما الغموض؛ وليس لدينا أي دليل واضح على تفاصيلهما.

### قراءة أولية لمنهج النُقري

لقد أنهك النُقري جسمه في البحث والاختبار والأسفار، وبدأ يبحث عن كيان جديد للظهور يكون أكثر مقاربة ومصالحة مع ذاته ومسيرته السلوكية. لذا فقد اختار التدوين والكتابة وتفريغ ذاته المتكاملة في الخطاب الإلهي. فالكتابة أقرب الدلالات المجردة إلى حقيقة النُقري، لأنها ساكنة، تحتاج إلى البحث عنها، وصامتة في حضورها. عشق النُقري اللغة وعشقه اللغة، لأنهما يتكلمان بعمق واحد. وأراد النُقري التشبّه بالله، فاختار لغته مختزلة، تسعى كذلك إلى التشبّه بالله وإلى أن تكون على غرار روحانية الكتب المقدسة، حاملة نفس العمق الجوهري للخطاب الإلهي. فنصوص النُقري تحتاج لمتذوّق ذي حساسية خاصة، لأنها نصوص لأهل الخاصة من أهل طريق العرفان الذين يعلمون أسرار الكتابة والتدوين على صفحات وجودهم، ويقرأون ذواتهم كجزء متكامل داخل هذه النصوص الإلهية. إن النُقري يحاور ويتحدث حديثاً داخلياً تكامل في ذاته: فهو يسمع، وينصت، ويصمت، ويتحدث؛ وكل هذه العملية الحوارية تتم داخل دائرة ذاته. فلا محلّ للآخر إلا إذا أصبح ضمن مفردات هذا الخطاب، ومن ضمن عملية اتصاله التي دوّنت خطابه. فكأنه يتحدث لذاته في غياب تام إلا من الذات الإلهية المخاطبة. لهذا تحمل نصوص النُقري حرية الاتساع والإطلاق في العبارة، وامتداد المعنى، وبساطة أسلوبية، وعمقاً محسوساً لا يُسبّر غوره. لقد تبادّل النُقري واللغة، في عملية الكتابة، الحب؛ فمالت اللغة معه حيث يميل، وانحنت أمام صدق تعامله معها وتوظيفها بأشكال تليق بقدرتها على الإحاطة والابتكار والتجديد. فهي مستسلمة له كما لو أنها أحد مريديه، يقلّبها كيفما يشاء. فاللغة في نصوص النُقري منتشية، لانصياعها واستسلامها ليد مبدع وصاحب خيال فذ. والصياغة اللغوية للنُقري ذات سياقات تحمل ديمومتها، وتحافظ عليها ككيان مستقل، يعرف ويفكر ويدرك ويعي وجوده ككائن حيٍّ، بلا شروخ أو فجوات.



### مقامات النُقري

لا يخفى على المتتبع لكتب الصوفية في ذكر مقاماتهم وأحوالهم أن هذه المقامات أصبحت من الثوابت التي تلزم كلّ صوفي بالخوض فيها. والمقامات كسبية، يسعى الصوفي لتحقيقها في مناهج سلوكه؛ أما الأحوال فأمر وهبية، وتحصيل حاصل للمقامات. تبدأ مقامات الصوفية بالتوبة، وتنتهي بالتوحيد؛ وبينهما الخوف، والرجاء، والصبر، والزهد، والفقر، والمحو، والإثبات، والتوكل، والتسليم، والرضا. أما الأحوال فهي واردات ترد على القلب، فتبرق وتختفي، ليستأنف الصوفي السير والسلوك. تنقسم المقامات إلى مقامات "مادية" وأخرى "معنوية". فالمقامات التي ذكرناها آنفاً هي من المقامات المادية في السير والسلوك؛ أما بعد التحقق بمقام التوحيد والدخول في الولاية فتبدأ المقامات المعنوية. ولكل عارف مقاماته وتسمياته الخاصة، رغم أنها تصب في بحر واحد. من أهم مقامات النُقري المعنوية الخاصة نختار مقامين اثنين هما: "مقام الوقفة" و"مقام الرؤيا"؛ وسنوضح، باختصار، الملامح العامة لهذين المقامين:



### أ. مقام الواقف والوقف:

الواقف هو المنتظر والمنتظر داخل لحظة تكاملت في زمن الذات الإلهية وتهيات وسكنت لتلقي الخطاب الإلهي المطلق. والواقف هو ذلك الذي تسلق قمة سلم التجريد، والذي تجرد من التجرد ذاته؛ فهو يدور في عوالم الغيب والشهادة بدون حجب أو أستار. ويحقق الواقف أعلى مراتب الفناء في سلم المقامات المعنوية عند أهل الطريق.

### ب. مقام الرؤيا:

إن الرؤيا في معارف وخيال الصوفية والعارفين أهم المنافذ المجردة والذاتية للارتباط بالخطاب الإلهي، ومشاهدة الحقائق المجردة، والالتقاء بالأسرار المعنوية. والرؤيا أعلى مراتب الكشف؛ فهي تنزلات التجلي الإلهي على الفؤاد ليرى الحقيقة، كما هو وارد في القرآن الكريم: "ما كذب الفؤاد ما رأى" (سورة النجم 11). فمقام الرؤيا آخر أبواب مقام الواقف في سلم المعنى الذاتي الإلهي. ومفتاح الرؤيا اللحظة المطلقة، بلا ذاكرة، ولا عنوان، ولا تسميات؛ فهي القدرة الذاتية والكمالية لاخترق كل شيء وسلب شينيتها، وإزاحة محجوبة كل الحجب والموانع والأستار، وإزاحة الألوهية كل غيرية وسوائية عن ذاتها المستقلة. فمن خلال مقام الرؤيا يستطيع الواقف أن يرى كل شيء من وراء كل شيء، وأن يرى الحقيقة الإلهية من وراء كل الأشياء والحجب، كما يقول النقي في المواقف:

وقال لي: لا يكون المنتهى حتى تراني من وراء كل شيء.  
وقال لي: نَمَ لتراني، فإنك تراني؛ واستيقظ لترك، فإنك لا تراني.  
وقال لي: كل واقف عارف، وليس كل عارف واقف.  
وقال لي: فإن العارف كالمَلِك يبني قصوره من المعرفة فلا يريد أن يتخلى عنها.  
وقال لي: المعرفة نارٌ تَأْكُلُ المحبة.  
وقال لي: من علوم الرؤيا أن تشهد صمت الكل، ومن علوم الحجاب أن تشهد نطق الكل.



### الخاتمة

لقد حافظ أهل التصوف والعارفان على براءة السؤال الخام والقلق الخام كي يتطابقوا مع الأصل، أصل الوجود، الذي تحملوا في سبيله العناء العظيم وضحوًا بكل وجودهم من أجل الوصول إلى الحقيقة. فهم أهل الله الذين لا يستظلون بظل ولا ينتسبون إلى التسميات. أسسوا للمسلمين، بشكل خاص، ولل بشرية، بشكل عام، مشروعاً خصباً، وتركوا تراثاً إنسانياً صافياً وعميقاً. فأهل هذا الطريق افتتنوا بالله افتتناً أفقدتهم كل شيء، وأحبوه حباً لامتناهياً، وهاموا في عشقه. ينحتون بوجودهم أسماءه، ويرسمون بدمائهم خرائط الوصول إليه. سكنوا الصحارى والجبال وغاصوا في الوديان، وركبوا البحار، واتخذوا من الهجرة بيتاً ومن الغربة زاداً. فماذا يمكن

أن نقول عن أسفارهم – تلك الأسفار التي هي أكثرها تعقيداً على أرض البساطة، وأكثرها بساطة على أرض التعقيد، في البحث عن مكنون البساطة، وهو الله – الله بسيط الحقيقة – وعن الفناء في هذا المعنى الإلهي. لهذا حملوا قلوبهم مناجل للتجريد وللغوص إلى أعماق الوجود بلذة الاختراق وفضول ألم الاستطلاع، لاستخراج كنوز المعارف وحقيقة الكمال المطلق. إنهم كلمات الله التي لا تنفد.. إنهم حقاً أهل الله.

### شخصيات صوفية

#### رابعة العدوية، بصرية، هام بها المؤرخون والمتصوفة..

منير عتيبة



تقول دائرة المعارف الإسلامية في الجزء 11 من المجلد التاسع عن رابعة العدوية :  
" تختلف رابعة عن متقدمي الصوفية الذين كانوا مجرد زهاد ونساك، ذلك أنها كانت صوفية بحق، يدفعها حب قوي دفاق، كما كانت في طبيعة الصوفية الذين قالوا بالحب الخالص، الحب الذي لا تقيد به رغبة سوى حب الله وحده، وكانت طبيعتهم أيضاً في جعل الحب مصدراً للإلهام والكشف".  
رابعة العدوية، بصرية، زاهدة، عابدة، خاشعة، امرأة عاشت حياتها عكس سائر الناس، ان عزلت في دنيا التصوف بعيدة عن أمور الدنيا، تبارى الباحثون في تحديد هويتها وسيرة حياتها. لم تتفق آراء الباحثين على تحديد هوية رابعة، فالبعض يرون أنها مولاة لآل عتيق، وآل عتيق بطن من بطون قيس، والبعض الآخر يرون أن من آل عتيق بني عدوة ولذا تسمى العدوية. وأما كنيثها فأم الخير.. وقيل إن اسم رابعة يعود إلى أنها ولدت بعد ثلاث بنات لأبيها، عاشت في البصرة خلال القرن الثاني الهجري، وقد عمرت حوالي ثمانين عاماً، وتوفيت سنة هجرية.

ولدت رابعة في عصر كانت سمته الأولى الترف.. فالمسلمون فتحوا معظم بقاع الأرض المعروفة حينئذ.. وأصبح خراج الدنيا يجبي إليهم.. بعدت المسافة الزمنية بينهم وبين عصر النبوة وعصر الخلافة الراشدة.. فساد الترف والركون إلى الحياة الدنيا وزخرفها وزينتها.. واحتاج الزمان والناس إلى صوت يردد نغمة أخرى - النغمة الصحيحة..

في مدينة البصرة.. وفي مطلع القرن الثاني الهجري (حوالي سنة 100 هجرية) ولدت رابعة العدوية لأب عابد فقير لديه ثلاث بنات.. ومات الأب ورابعة لم تزل طفلة دون العاشرة.. ولم تلبث الأم أن لحقت به.. فوجدت الفتيات أنفسهن بلا عائل يُعانين الفقر والجوع والهزال.. ففترقن لتبحث كل واحدة منهن عن طريقها..

كانت مدينة البصرة في ذلك الوقت تعاني من وباء اجتاحتها وأصابها بالقحط.. مما أدى إلى انتشار اللصوص وقطاع الطرق.. وقد خطف رابعة أحد هؤلاء اللصوص وباعها بستة دراهم لأحد التجار القساة..

كان التاجر يحمل رابعة فوق طاقتها كطفلة لم تشب عن الطوق بعد.. لكنها كانت تختلي بنفسها في الليل لتستريح من عناء النهار وعذابه.. ولم تكن راحتها في النوم أو الطعام.. بل كانت في الصلاة والمناجاة.. ما الذي جعل تلك الطفلة تتجه إلى العبادة؟.. قد يكون التأثير بأبيها الصالح العابد سبباً، لكن السبب الأساسي، هو طبيعة شخصيتها، وطبيعة الدور الذي اختارتها السماء لتؤديه في البصرة في تلك الفترة، وفي التاريخ الإسلامي كله بعد ذلك.

### يقول فريد الدين العطار كاتب سيرتها في (تذكرة الأولياء):

"... وذات ليلة استيقظ سيدها من نومه فسمع صلاتها ومناجاتها فنظر من خلال الباب.. فرأى رابعة ساجدة تصلى وتقول: إلهي أنت تعلم أن قلبي يتمنى طاعتك، ونور عيني في خدمتك، ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظة عن مناجاتك، ولكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبادك. وخلال دعائها وصلاتها شاهد قنديلاً فوق رأسها يحلق، وهو بسلسلة غير معلق، وله ضياء يملأ البيت كله، فلما أبصر هذا النور العجيب فزع، وظل ساهداً مفكراً حتى طلع النهار، هنا دعا رابعة وقال: أي رابعة وهبتك الحرية، فإن شئت بقيت ونحن جميعاً في خدمتك، وإن شئت رحلت أنى رغبت، فما كان منها إلا أن ودعته وارتحلت. وجعلت المساجد دارها واحترفت العزف على الناي في حلقات الذكر وساحات المتصوفة.. والأناشيد في دنيا التصوف، وعزف الناي عند المتصوفة ليس نكراً ولا بدعاً، بل هو يبعث الوجد ويحرك القلب ويحلق بسامعه"

كما يقول طه عبد الباقي سرور في كتابه " رابعة العدوية والحياة الروحية في الإسلام " (دار الفكر العربي- الطبعة الثالثة 1957):

".. وكانت رابعة في تلك الفترة في الرابعة عشر من عمرها.. لكن هذه المرحلة من حياتها لم تستمر طويلاً، فقد اشتاقت نفسها للعزلة من الناس المليئة بالله وحده.. فقد تخلص قلبها من الدنيا وكل ما فيها، وخلص من الرغبات والشهوات والخوف والرجاء.. لم يبق فيه إلا شيء واحد الرضاء عن الله والعمل على الوصول إلى رضاء الله عنها.. ورفضت كل من تقدم لزواجها، فليس في قلبها مكان لغير الله.. وليس لديها وقت تشغله في غير حب الله..

ويرد في دائرة المعارف الإسلامية (المجلد التاسع-العدد 11 ص 440):

" إن رابعة أقامت أول أمرها بالصحراء بعد تحررها من الأسر، ثم انتقلت إلى البصرة حيث جمعت حولها كثيراً من المريدين والأصحاب الذين وفدوا عليها لحضور مجلسها، وذكرها الله والاستماع إلى أقوالها، وكان من بينهم مالك بن دينار، والزاهد رباح القيسي، والمحدث سفيان الثوري، والمتصوف شفيق البلخي". ولقيت رابعة ربها وهي في الثمانين من عمرها.. وقد ظلت طوال أيام وليالي حياتها مشغولة بالله وحده.. متعبدة في رحابه.. طامحة إلى حبه.. وكانت تدعوه دون أن ترفع رأسها إلى السماء حياء منه.. إن الصورة الراسخة في أذهان الكثيرين لرابعة العدوية هي صورة الغانية التي تمرغت في حياة الغواية والشهوات حتى إذا أدن شبابها بذهاب اتجهت إلى العبادة والطاعة.. صورة غير صحيحة ومشوهة مسئول عنها بعض الذين كتبوا عن رابعة مثل: الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه "رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي"، والشاعر المصري طاهر أبو فاشا في الدراما التي كتبها بعنوان "شهيدة العشق الإلهي" والتي ملأها بشعر على لسان رابعة غنته أم كلثوم، وكذلك الفيلم السينمائي المصري الذي قامت ببطولته "نبيلة عبيد" و"فريد شوقي" وغناء أم كلثوم.. كل هذه الأعمال وغيرها تثبت الصورة المشوهة لرابعة.. وكأن مقتضيات القص أو الفن أو الدراما أو إرضاء الجمهور أو ما شئت من المسميات تبرر ما فعلناه برابعة وغير رابعة من الأعلام..



البصرة مدينة رابعة

## قالوا عنها

اختلفت آراء المؤرخين بخصوص حياة رابعة، أمثال: رياح بن عمر القيسي، سفيان الثوري، عبدالواحد بن زيد. ومن هؤلاء المؤرخون الجاحظ و العطار والمناوي وغيرهم. ذكر الصوفي فريد الدين العطار في (تذكرة الأولياء) بأن رابعة: ولدت في بيت فقير جداً، وتوفي أبوها وهي في مرحلة الطفولة، ولحقت به أمها فذاقت رابعة مرارة اليتيم الكامل، وبذلك أطلق الشقاء عليها وحرمت من الحنان والعطف والحب الأبوي. بعد وفاة والديها غادرت رابعة مع أخواتها البيت بعد أن دب البصرة جفاف وصل إلى حد المجاعة ثم فرق الزمن بينها وبين أخواتها، وبذلك أصبحت رابعة وحيدة مشردة لا معيل لها ولا نصير.

عاشت رابعة، حياتها بلا بيت، وبلا مال، وبلا زواج، غير أنه يبدو أن رابعة كانت مولاة، وكانت تعزف الناي ثم كانت مغنية، (هذا ما يذكره العطار)، وأنها كانت على قدر من الجمال والحسن، وذكر الياضي " خطر لي أن أزور رابعة العدوية -رضي الله تعالى عنها - وأنظر أصادقة هي في دعواها أم كاذبة، فبينما أنا كذلك، وإذا بفقراء قد أقبلوا ووجوههم كالأقمار ورائحتهم كالمسك، فسلموا علي وسلمت عليهم. وقلت: من أين أقبلتم؟ فقالوا: يا سيدي حديثنا عجيب. فقلت لهم: وما هو. فقالوا نحن من أبناء التجار الممولين. فكنا عند رابعة العدوية - رضي الله عنها - في مصر (ولعلها البصرة) فقلت: وما سبب ذهابكم إليها فقالوا: كنا منهمكين بالأكل والشرب في بلدنا. فنقل لنا حسن رابعة العدوية وحسن صوتها. وقلنا لا بد أن نذهب إليها ونسمع غناءها وننظر إلى حسنها، فخرجنا من بلدنا إلى أن وصلنا إلى بلدها؛ فوصفوا لنا بيتها، وذكروا لنا أنها قد تابت. فقال أحدها: إن كان قد فاتنا حسن صوتها وغنائها، فما يفوتنا منظرها وحسنها. فغيرنا حليتنا، ولبسنا الفقراء، وأتينا إلى بابها. فطرقنا الباب فلم نشعر إلا وقد خرجت، وتمرغت بين أقدامنا وقالت: لقد سعدت بزيارتكم لي فقلنا لها: وكيف ذلك. فقالت: عندنا امرأة عمياء منذ أربعين سنة، فلما طرقتم الباب قالت: إلهي وسيدي بحرمة هؤلاء الأقبام الذين طرقتوا الباب إلا ما رددت علي بصري. فرد الله بصرها في الوقت. قال: فعند ذلك نظر بعضنا إلى بعض وقلنا ترون إلى لطف الله بنا، لم يفضح سريرتنا فقال الذي أشار علينا بلبس الفقراء: والله لا عدت ألق هذا اللباس من علي. وأنا تائب إلى الله - عز وجل - على يدي رابعة فقلنا له: ونحن وافقناك على المعصية، ونحن نوافقك على الطاعة والتوبة فتبنا كلنا على يديها. وخرجنا عن أموالنا جميعها، وصرنا فقراء- كما ترى". ، إذ كتب عنها في حادثة السوق (أنها في أحد الأيام، كانت رابعة تقضي حاجة لسيدها، رآها رجل غريب وظل ينظر إليها بنظرات شريرة، فخافت منه وهربت. إلا إنها تعثرت وهي تركض، فغمي عليها، فلما استيقظت أخذت تناجي ربها (إلهي، أنا غريبة يتيمة، أرسف في قيود الرق. ولكن غمي الكبير أن أعرف: أراض عني أم غير راض؟).. عندها سمعت صوتاً يقول لها (لا تحزني! ففي يوم الحساب يتطلع المقربون في السماء إليك، ويحسدونك على ما ستكونين فيه).. وعندها اطمأن قلبها لذلك الصوت الغيبي، فتنهض وتعود إلى بيت سيدها).

## رابعة في شطحات الصوفية

ومن شطحات الصوفيين ومبالغاتهم وخروجهم عن المألوف والمعروف، يحكى أن إبراهيم بن أدهم ذهب إلى الحج ماشياً على قدميه، وكان يتوقف كل خطوة ليصلي ركعتين فبلغ الكعبة بعد أربعين عاماً.. وكان يقول: (غيري يسلك هذا الطريق على قدميه، أما أنا فأسلكه على رأسي)، ولما بلغها لم يجدها فبكى وقال: (وأسفاه! أظلم بصري حتى لم أعد أرى الكعبة؟). فسمع صوتاً يقول: (يا إبراهيم! لست أعمى، لكن الكعبة ذهبت للقاء رابعة). فتأثر إبراهيم، ثم رأى الكعبة وقد عادت إلى مكانها.. ثم شاهد رابعة تتقدم فقال لها: أي رابعة! يا لجلال أعمالك! ثم ما تلك الضجة التي تحدثينها في الدنيا؟ فالكل يقولون: ذهبت الكعبة للقاء رابعة!). فأجابته: (يا إبراهيم! وما تلك الضجة التي تثيرها أنت في الدنيا بقضائك أربعين عاماً حتى تبلغ هذا المكان؟؟ فالكل يقولون إبراهيم يتوقف في كل خطوة ليصلي ركعتين. فقال إبراهيم: (نعم مضيت أربعين ربيعاً اجتاز هذه الصحراء)، فقالت رابعة: (يا إبراهيم لقد جئت أنت بالصلاة، أما أنا فقد جئت بالفقر). ثم بكى طويلاً.

## قالت رابعة:

لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنياً..! / قالوا: لماذا؟ / قالت: لأنها تفنى!

\* إلهي أنارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وخلأ كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك.. إلهي هذا الليل قد أدير، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنا، أم رددتها على



فأعزى، فوعزتكَ هذا دأبي ما أحبيتني وأعنتني، وعزتكَ لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبي من محبتك.

\* يا رب أتحرق بالنار قلباً يحبك، ولساناً يذكرك، وعبدًا يخشاك؟!  
\* سوف أتحمّل كل ألم، وأصبر عليه، ولكن عذاباً أشد من هذا العذاب يؤلم روحي، ويفكك أوصال الصبر في نفسي، منشؤه ريب يدور في خلدي: هل أنت راضٍ عني؟ تلك غايتي.

\* سيدي بك تقرب المتقربون في الخلوات، ولعظمتك سبح الحيتان في البحار الزاخرات، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات، أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار، والفلك الدوار، والبحر الزخار، والقمر النوار، والنجم الزهار، وكل شيء عندك بمقدار، لأنك الله تعالى العلي القهار.

- ما حقيقة إيمانك؟/ قالت رابعة: ما عبدته خوفاً من ناره، ولا حباً لجنته، فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حباً وشوقاً إليه./ - كيف حبك للرسول صلوات الله عليه؟ / قالت: إني والله أحبه حباً شديداً، ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين.

هتف رجل من العباد في مجلس رابعة: اللهم ارضَ عني. / قالت رابعة: لو رضيت عن الله لرضي عنك. / قال: وكيف أَرْضَى عن الله؟ / قالت: يوم تسرُّ بالنعمة سرورك بالنعمة لأن كليهما من عند الله. قالت:

أحبك حبين حب الهوى وحباً لأنك أهلٌ لذاكا  
فأما الذي هو حبُّ الهوى فشغلي بذكرك عمّن سواكا  
وأما الذي أنت أهلٌ له فكشفك لي الحُبَّ حتى أراكا  
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

المصادر

- تذكرة الأولياء، فريد الدين العطار.
- رابعة العدوية والحياة الروحية في الإسلام، طه عبد الباقي سرور.
- دائرة المعارف الإسلامية.

### شخصيات صوفية

أحمد الرفاعي: العمل شرط "الطريقة"

أحمد تمام



ولد أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن يحيى، المعروف بأحمد الرفاعي في قرية "أم عبيدة" من قرى مدينة "واسط" بالعراق سنة (512 هـ = 1118م)، وشاءت الأقدار أن يتوفى أبوه قبل مولده، فكفله وعني به خاله "منصور البطائحي"، وكان رجلاً ورعاً صالحاً.



وجاءت شهرته بالرفاعي نسبة إلى جده السابع رفاعه، وكان من أشرف مكة، وغادرها إلى المغرب، واستقر في موطنه الجديد، وظل نسله هناك حتى هاجر أحد أحفاده وهو السيد أبو الحسن علي والد الإمام الرفاعي، ونزل العراق وأقام بقرية أم عبيدة.

عني منصور البطائحي بآبْنِ أخته، فحفظه القرآن، وتلقى الرفاعي مبادئ القراءة والكتابة، ثم بعث به إلى "واسط" فتلقى العلم على شيوخها، وتفقّه على المذهب الشافعي، وحفظ كتاب "التنبيه في فقه الشافعية" لأبي إسحاق الشيرازي. وبعد أن نهل من العلم عاد إلى قريته، وبدأت شهرته تتسع، وراحت الأنظار تتجه إليه لعلمه وصلّاحه.

### معنى التصوف الرفاعي

التصوف الحق ليس انعزالاً عن العالم في خلوة أو خانقاه، أو انصرافاً عن دنيا الناس، أو انشغالا بالعبادة عن قضايا الأمة؛ وإنما هو الجهاد في أعلى ذراه، والعلم في أصفى موارد، والخلق في أعلى مثله، والقدوة الحسنة في أبهى صورها. إنه الصدق والأمانة، والإيثار والنجدة، ونصرة الضعيف وإغاثة الملهوف، والتعاون على البر والتقوى.

وقد كان الصوفية العظام منارات للهدى، وحصوناً منيعة يلجأ إليها الناس حين تلتوي بهم السبل، ويضلون الطريق، وقدوة صالحة تتعلق بها الأفئدة والقلوب، ولسان صدق يجهر بالحق حين ترتجف الشفاه وترتعد الفرائص.

### حلقة الرفاعي

خلف الرفاعي خاله الصوفي الكبير منصور البطائحي في حلقاته ودروسه، وصار له أتباع ومريدون يؤمنون مجالسه التي امتلأت بالمئات، وكان رحمه الله ملتزماً بالكتاب والسنة، لا يخرج عنهما قيد أنملة. يقول لتلاميذه ومريديه: "عظموا شأن الفقهاء والعلماء كتعظيم شأن الأولياء والعرفاء، فإن الطريق واحد، وهؤلاء ورّاث ظاهر الشريعة، وحملة أحكامها الذين يعلمونها الناس، وبها يصل الواصلون إلى الله. إذ لا فائدة بالسعي والعمل على الطريق المغاير للشرع، ولو عبد الله العابد خمسمائة عام بطريقة غير شرعية فعبادته راجعة إليه، ووزره عليه، ولا يقيم له الله يوم القيامة وزناً، وركعتان من فقيه في دينه أفضل عند الله من ألفي ركعة من فقير جاهل في دينه".

ويؤكد لأصحابه ضرورة الالتزام التام بالكتاب في كثير من كلامه، وكأنه يرد على خصوم التصوف واتهامهم لأصحابه بالابتعاد عن نهج السنة النبوية، فيقول: "كل الآداب منحصرة في متابعة النبي (صلى الله عليه وسلم) قولاً وفعلًا وحالاً وخلقًا، فالصوفي آدابه تدل على مقامه، زنوا أقواله وأفعاله وأخلاقه بميزان الشرع، يُعلم لديكم ثقل ميزانه وخفته".



مرقد الشيخ الرفاعي في العراق

### تواضعه

وكان الشيخ - على جلال قدره وعظم هيئته في نفوس أتباعه - متواضعًا، لئِن الجانب، يأسر الناس بسلوكه قبل أن يبهرهم بكلامه، ويؤثر بإخلاصه في القلوب ما لا تفعله فيها مئات الخطب والمواعظ. يقول لأصحابه حين رأى تعظيمًا وإجلالا له: "أنا لست بشيخ، لست بمقدم على هذا الجمع. حُشرت مع فرعون وهامان إن خطر لي أني شيخ على أحد من خلق الله، إلا أن يتعمدني الله برحمته، فأكون كأحد المسلمين".

وقد عدّ الصوفي الحقيقي هو من يهتم بمجتمعه، ويضع نفسه في خدمة الناس، وقضاء مصالحهم. ويريد من الصوفي الذي سمت نفسه، وتهذبت خلائقه، وعلت روحه، أن يكون إيجابيًا فعالاً، وبدأ هو بنفسه فكان يملأ قُرب الماء، ويجعلها على ظهره وعلى كَفِّه، ويوصلها إلى منازل النساء والأرامل، ويجمع لهن الحطب ويوزعه عليهن.

وكان إذا سمع بمريض في قرية- ولو كانت بعيدة- عاده وزاره، ويخرج إلى الطريق ينتظر العميان حتى إذا رأى أحدهم قام إليه وأخذ بيده وقاده إلى حيث يريد، وكان إذا رأى شيخاً كبيراً ذهب إلى أهل حارته وأوصاهم به.

### **الدعوة إلى العلم والعمل**

كان الرفاعي فقيهاً ملتزماً، يعبد الله على علم، ويدعو الناس على بصيرة. وتتفق المصادر التي ترجمت له على ذلك، وعده "السبكي" فقيهاً شافعيًا، وأفسح له مكاناً في كتابه "طبقات الشافعية"، ووضعه في الطبقة الخامسة منها؛ ولهذا كان يحتّ أتباعه وتلاميذه على طلب العلم وإنفاق الوقت في مدارسته، والارتحال إلى أهله، مردداً لهم نصيحة شيخه له: "من لا يعرف في العلم نقصاً، فكل وقته نقصان".

وكان الرفاعي يعمل حتى يضمن لنفسه لقمة العيش التي تمكنه من عدم الاعتماد على أحد وتحفظ كرامته من سؤال الناس، وكان بوسعه أن يحيا في سعة وبحبوحة لو أراد ذلك، وتكفي إشارة منه لأتباعه الذين كانوا يستجيبون لأي لمحة منه، ولكنه كان متعقفاً، قدوة لأصحابه بالعلم والعمل، لا بالكلام والثرثرة. يهتف في أصحابه: "طريقي دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة". وقد بلغ من حرصه على احترام قيمة العمل أنه كان يرفض أن يحضر مجالسه عاطل لا يعمل، واشتراط على من يأتي إلى درسه أن يكون له صنعة يعمل بها وحرفة يقتات منها، فإن عجز عن ذلك هياً له "الرفاعي" حرفة يعمل بها.

### **نصح الحاكم**

ليس غريباً على الصوفي الحق أن يواجه الظلم ويقوم المعوج، وينصح الحكام؛ لأنه بطول المجاهدة والإقبال على الله انقطعت علائق قلبه بزينة الدنيا، وضاعت هيبة ذوي الجاه والسلطان من نفسه، وأصبح له من الله عون ومدد، وأمن ورجاء، فلا تثريب عليه بعد ذلك إن وقف يصدع بالحق، لا يخشى في الله لومة لائم، ويجهر به، لا طمعاً في شهرة، ولا رغبة في دنيا، ولا خوفاً من سلطان.

يرى الناس في موقفه هذا أمراً عظيماً، وهو كذلك بلا شك، ويراه هو رسالة في عنقه وأمانة في رقبته أن يبصر الناس والحكام، دون التفات إلى مكانة من يكلمه، فقد ماتت الصور في قلبه، وبقي وجه الله الذي تعلق به.

ومما يروى عن الرفاعي أنه كتب إلى الخليفة العباسي "المستنجد بالله" كتاباً جاء فيه: "يا أمير المؤمنين، إن أنت نفذت أحكام الله تعالى في نفسك، نفذت أحكام كتبه في ملكك، وإن عظمت أمر الله، عظم الله عمالك وولاة الأمور من قبلك. ثم زن يا أمير المؤمنين كل ما يصل إلى خويصة نفسك في هذه الدنيا من طعام تأكله وشراب تشربه، ورداء ترتديه، واجعل الشره على الدنيا بقدر ذلك، فإن رداءك ما سترك وطعامك ما أشبعك، ومالك ما لك منه شيء، وعليك بالعقل والدين، وإياك وأرباب القسوة والغدر والضلالة، فهم أعداؤك، وإذا أحببت فحكم الإنصاف في عمالك، وإذا كرهت فاذكر الله، والخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة، وساو بين الناس باراً وفاجراً، مؤمناً وكافراً". وكان المستنجد بالله من خيرة الخلفاء العباسيين، تولى الخلافة سنة (555 هـ = 1160م) ودامت خلافته إحدى عشرة سنة، نعم الناس خلالها بالعدل والأمن وتخفيف المكوس والضرائب.

### **الطريقة الرفاعية**

تُطلق لفظة الطريقة عند الصوفية المتأخرين على مجموعة أفراد من المتصوفة ينتسبون إلى شيخ معين، ويخضعون لنظام دقيق في السلوك الروحي، ويحيون حياة جماعية في الزوايا والخانقاوات، أو يجتمعون اجتماعات دورية في مناسبات معينة، ويعقدون مجالس الذكر والعلم بانتظام، ومن أشهر تلك الطرق الصوفية: "البدوية" نسبة إلى أحمد البدوي، و"الدسوقية" نسبة إلى إبراهيم الدسوقي، و"الجيلانية" نسبة إلى عبد القادر الجيلاني، و"الرفاعية" نسبة إلى أحمد الرفاعي. ولكل طريقة من هذه الطرق وغيرها أوراد خاصة بها للذكر، وألوان لأزياء أتباعها تميزها عن غيرها.

وتقوم الطريقة الرفاعية على العمل بمقتضى ظاهر الكتاب والسنة، ثم أخذ النفس بالمجاهدة والمكابدة، والإكثار من الذكر، وقراءة الورد، وذلك وفق إرشادات الشيخ وتوجيهاته، مع ضرورة التسليم والانقياد له.

وعلى المريد- حتى يسير وفق الرفاعي- أن يتبع تعاليمه، ويعمل بما قاله من الالتزام بالسنة، وموافقة السلف الصالح على حالهم، ولباس ثوب التعرية من الدنيا والنفس، وتحمل البلاء، ولبس الوقار واجتناب الجفاء.

وقد اشتهر عن أتباع الرفاعي القيام بأفعال عجيبية: كاللعب بالشعابين، وركوب الأسود، والدخول في النيران المشتعلة دون أن تحرقهم أو تؤثر فيهم، وغيرها، فهذه مما لم تكن معروفة عند الشيخ الرفاعي، لكنها استحدثت

بعد وفاته، وإن كان الشيخ قد عُرف بحنانه الشديد على الإنسان والحيوان، وكان أشد ما يكون حذباً ورعاية للحيوانات الظالة والمريضة.

وفي أصحاب وأتباع الرفاعي يقول الإمام الذهبي في كتابه "العبر": "ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء، وقد كثر الزغل (العش) فيهم، وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت (احتل) التتار العراق: من دخول النيران، وركوب السباع، واللعب بالحيات، وهذا ما عرفه الشيخ ولا عرفه صلحاء أصحابه.. فنعوذ بالله من الشيطان".



مسجد الرفاعي بالقاهرة

### وفاة الشيخ

والشيخ على زهده وميله عن الدنيا كان حسنَ الهيئة، نظيف الملبس، بهي الطلعة، ولم يكن ممن يطلبون الزهد بالثياب الخرقية، والهيئة المبتذلة، وكان لسان حاله يقول: إن الزهد إرادة النفس أن تزهد فيما في يديها عن استطاعة لا عن جبر، وإن القلب منصرف عن التعلق بمتاع الحياة الدنيا لا عن التعامل معه. وهذا ما عبر عنه بقوله: "الزاهد من ترك كل شيء يشغل عن الله". ولم يترك الشيخ كتاباً، وإنما جمع أتباعه شيئاً من أقواله في كتاب أطلقوا عليه "البرهان المؤيد".

وثوقي الشيخ أحمد الرفاعي بقرية أم عبيدة الخميس الموافق (22 من جمادى الأولى 578 هـ = 10 من آب 1182م)، تاركاً آلاف الأتباع ينشرون طريقته التي لا تزال قائمة حتى الآن في العراق ومصر وغيرها من البلاد.

### مصادر الدراسة:

- عبد الوهاب السبكي: طبقات الشافعية الكبرى - تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو - هجر للطباعة والنشر - القاهرة - 1413هـ = 1992م.
- الذهبي: سير أعلام النبلاء - مؤسسة الرسالة - بيروت - 1410 هـ = 1990م.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان - تحقيق إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - بدون تاريخ.
- عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر - دار المعارف القاهرة - 1990م.



قدره السماوي أو الشخصي، الله وحده العالم، هو الذي قاده من تلك البلاد، مدينة (جيلان) مسقط رأسه (عام 470هـ / 1077م) ليحط الرحال عند بغداد صبيّاً لم يبلغ سن الرشد بعد. لقد حفلت الرحلة الغربية للصبي - طالب العلم- في عاصمة الخلافة الإسلامية بأحداث تنبئ بأن امراً كبيراً، أو بالأحرى اموراً جليلة ترسم مستقبل هذا الفتى كما ارادت لها الارادة الربانية ان تكون، فقد تعرضت القافلة القادمة من (جيلان) كما تروي القصة المأثورة، الى عصابة من قطاع الطرق، سلبت الناس اموالهم وأغراضهم، وهرب من هرب، الا شيخنا الفتى ظل ثابتاً في مكانه، فلما اقترب منه زعيم العصابة وسأله ان كان معه شيء من المال لم ينكر وكان بإمكانه الانكار والمال الذي معه مخفي عن العيون في مكان سري بين ملابسه، وهو ما أثار دهشة الزعيم فسأله: لماذا اعترفت وكان بمقدورك ان تنكر؟ فرد عليه شيخنا الفتى: لقد اوصتني امي أن لا أكذب، والمال الذي تسرقه يقودك الى النار اما صدقي فيقودني الى الجنة... ووجد زعيم الحرامية بانه ينهار أمام هذا الرد وان قشعريرة تسري في جسده، وقارن بين موقفه وهو الراشد وبين موقف عبد القادر الجيلاني وهو الصبي الصغير، وماهي الا لحظات من التأمل والتفكير والهداية الربانية، حتى أعلن الزعيم توبة نصوحاً لوجه الله على يدي شيخنا الجليل وأعاد الاموال المسروقة الى اصحابها، ثم انصرف من يومها الى العبادة.. تلك هي البداية. النسب الى آل البيت تتفق الروايات التاريخية على اتصال نسب الكيلاني بال بيت، فهو حسني الأب، حسيني الام، وتشير شجرة العائلة الى أن نسب الشيخ عبد القادر قدس الله سره ترجع الى الامام عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن ابي طالب (ع)، وقد توفي الامام عبدالله المحض في منطقة اليوسفية وله قبر في مسجد يسمى مسجد السيد عبدالله، وقد تفرقت ذريته بين بغداد والحجاز واليمن وقامت لهم امارات في المغرب (الادارسة) وهم اولاد ادريس بن عبدالله المحض، ومنهم من هاجر الى بلاد جيلان حيث يرجع اليهم نسب شيخنا الجليل.



في طفولته نهل العلم من أسرته، وعندما سنحت له الظروف قدم الى بغداد مدينة العلم والعلماء سنة 1095 م، وبعد أيام صعبة قضائها في بغداد دخل مدرسة القاضي ابي سعيد المبارك المخرمي قاضي (باب الازج) باب الشيخ حالياً، حيث درس الفقه وأحكام الاصول والفروع والخلاف وسمع الحديث واشتغل بالوعظ وقد برز فيها، وبعد ذلك لازم الانقطاع والخلوة متحملاً السهر والجوع. وبعد ان توفي القاضي ابو سعيد المخرمي تولى ادارة المدرسة الشيخ الكيلاني بما عرف عنه من سعة علم وتقوى، وقد طرأت على المدرسة تطورات كثيرة في عهده، اذ أعاد بناءها وتوسيعها في سنة 1133م واستقطب الكثير من طلاب العلم والدين، وذاع صيت شيخنا في العراق وخارجه حتى توفي رحمه الله سنة 561 هجرية (1165م) ودفن في مدرسته ليلاً لكثرة الزحام.

### شخصيات صوفية

العرفاني والشاعر العراقي التركماني (فضولي البغدادي)

سلمان هادي آل طعمة/ كربلاء [ahmedaltoma@yahoo.com](mailto:ahmedaltoma@yahoo.com)



للشيخ فضولي الشاعر الحكيم مقام سام، ومكانة جليلة في تاريخ الأدب العربي والتركي والفارسي. وكان لابد لمؤرخي الأدب من العرب وغيرهم أن يَخْصَوْه بمباحث ودراسات لتجلية ذلك الخضم الزاخر من فيض العلوم والمثل العليا التي خاضها أبان تلك الفترة من حياة العراق والعالم الإسلامي.

فهو علم شامخ من أعلام الإسلام، وصرح من صروح الفكر والثقافة والدين، وأحد أعظم الأدب المشرقي. عاش خمسة عقود ونيف خدم بها العربية والتركية والفارسية. وهو نجم لامع طلع في سماء بغداد، وانتشر نوره في المجالس والبيوت، وسطع بها كالشمس، ثم هوى في أعقاب القرن العاشر للهجرة متحولاً إلى أهدوثة لا تنسى.



لعل أهم ما يجدر الانتباه إليه أن المصادر التي أشارت إلى ولادته ببغداد قد غلبت هذه المدينة على كربلاء والحلة، لأن كربلاء والحلة اللتين عاش فيهما الشاعر معظم سني حياته كانتا قصبتيين تابعتين لآيالة بغداد أبان تلك الفترة، ولكون مدينة بغداد معروفة في العالم كمركز رئيس للحركات السياسية والنشاطات العلمية والتجارية عبر قرون عديدة، فإنه لقب (بالبغدادي) لهذه الشهرة.

نشأ محباً للعلم وأهله ومجالساً للعلماء، وله في الصوفية والتصوف اعتقاد. وكان أحد المشاهير بالبراعة والحديث والمعارف وفنون الأدب والتاريخ. ولا شك أن شاعر الأجيال لا يموت شعره، بل يتجدد مع جيله، لأنه يبنيه على الحقائق الخالدة، وهو في الأعم الأغلب يسبق جيله، يغني لأبناء وطنه يريد إيقاظهم، وقد يتكرر في شعره المعنى الواحد في بيتين أو أكثر، ولعل ذلك يعزى إلى قلة حفظ ما يقوله أو حباً بالمعنى، ولا ضير في ذلك على الأدب فإن الروض ينبت زهراً مختلفاً ألوانه ورائحته، وزهراً متشابهاً أيضاً.

وسّع فضولي ثقافته من نواح متعددة، وأطال النظر في دواوين الشعراء يحفظ منها ما يتخير من أشعارهم حتى كانت له حافظة قوية تسعف ذوقه وتلبي اختياره مما يختار من جيد القول حتى يرتسم في حافظته، ويبقى في ذاكرته، ثم ينعكس ذلك في شعره.

ولعله من المفيد أن نشير إلى أن الدكتور حسين علي محفوظ يصف شعره ويشيد بفضله، فيقول: إن شعر فضولي ذاع في إيران في حياته، وحفظه الأدباء ومن يبصرون الكلام وينقدونه، كما استشهد بشعره بعض مصنفي المعاجم ومنهم صاحب معجم (فرهنگ بشیر خانی) فاعتبره من طبقة مشهوري المجيدين كفردوسي ونظام استرآبادي وخاقاني وسعدي وحافظ وجامي وقاسم أنوار، وانتخب من بعض المعاصرين طرائف من شعره كجهانباتي و برمان، كما قال إنه شاعر الأذرية العظيم وإمام الأدب التركي الأكبر في كل العصور (11).

أما المحامي عباس العزاوي فقد عده من أكبر شعراء الترك في بغداد، ومن أعظم شعراء الأدب الفارسي، كما يعد من شعراء العرب، ولما فتح السلطان سليمان القانوني بغداد ظهر كأكبر شاعر وكان من أجل أدباء التركية المجددين وفي الطليعة منهم، كما لا يقاس بغيره ممن عاصروه (12).

عرف فضولي بالورع والتصوف والزهد في الدنيا، ومن الواضح أن الجانب الأدبي غلب على ثقافته، وكان الطابع الديني من ورع وزهد هو الغالب على شخصيته، وكانت له مجالس للتدريس تعقد في تكية البكتاشيه بكربلاء، يحضرها القادمون من المشرق، فتطرح فيها الأفكار وتناقش الآراء، ويوظف موضوعات كثيرة فيما حواه شعره العالي. ولا ينكر أنه نقل التراث الفارسي إلى اللغة التركية، وشارك إخوانه الشعراء في الحرص على سلامة اللغة العربية وديمومتها.

كان فضولي يمثل بيئته العراقية في ذلك العصر أحسن تمثيل، فهو تركماني اللهجة، شيعي المذهب متضلع في العربية بالإضافة إلى الفارسية، ينظم الشعر بهما كما ينظمه بلغته التركية (13). لقد عالج فضولي أكثر أغراض الشعر المألوفة في عصره، وأهمها المدح، الغزل، التصوف، الاصطلاح الاجتماعي، الحكمة، الشكوى.

ولكن الدارس لشعره لا يستطيع رسم صورة واضحة لبقية الأغراض التي عالجها – عدا المدح والغزل والألم – وذلك لقلة النصوص التي وصلت إلينا باللغة العربية.

ونحن لا نغالي إذا قلنا أن فضولي أحق من الشاعر التركي (باقي) بإمارة الشعر التركي القديم، لأنه يمتاز بوحدة القصيدة، وهي ميزة ينفرد بها شاعرنا عن معظم شعراء الفرس والترك، كما أنه الشاعر الوحيد عند الترك الذي يمكن أن يسمى شاعر القلب، لأنه تحدث عن قلبه وعبر عن ما في أعماق قلبه (14).

وليس من غرابة أن نقرأ في أشعار فضولي الكثير من الكلمات والعبارات الفارسية التي يصعب فهمها لدى الكثير من القراء، ولا بد لنا أن نستشهد بما جاء في مقدمة ديوانه بالفارسية، حيث يقول: تارة قرضت الشعر بالعربية وقد نالت قصائدي الشعرية اهتمام بلغاء العرب، وكان يسيراً عليّ لأن لغة البحث العلمي كانت عندي العربية، وتارة قرضت الشعر بالتركية لأن أشعاري التي نظمته بالتركية كانت متلائمة مع قابلية فطرية

---

27.	:	- 1 .
251.	:	- 2 .
295.	:	- 3 .
298.	:	- 4 .

واستجابة لسليقتي، وتارة أخرى نضدت اللآلئ في سلك اللغة الفارسية وقطعت من أغصان شجرتها ثمار القلب  
([5]5).

وله قصيدة مدح بها السلطان سليمان القانوني بعد أن مهد بمقدمة يصف فيها بغداد، فكان فيها موفقاً في  
التصوير ويعتبرها نامق كمال من أروع ما فاضت به قريحة فضولي ([6]6).

خلد اللهم سلطاناً سقى أرض العراق	حين ما اضطرت بإرسال السحاب كالبحار
مقتد لولاه ما سرنا إلى صحن السرور	مهند لولاه ما نمنا على عهد القرار
سيفه من حادثات الدور حصن للعدا	مالهم إلا قرار فيه من هول الفرار
صيته بالعدل للإسلام أصل الانتظار	ذكره بالمجد للأسلاف وجه الإفتخار

وفي عصر تقاسم الحكم فيه الصفويون والعثمانيون، ذلك العصر الذي تناحرت فيه المذاهب والصراعات  
الدموية، نبغ الشاعر فضولي ونشأ يعاني من تلك الفوضى السائدة التي عمت المجتمع الهائج بالتناقضات  
والصراعات وأرهقته الرزايا حتى كان يصف هذا المشهد بقوله: (في سوق الزمان كاسدة بضاعتي فالتزمني  
سوق غيرها أنا عندليب دائم الشدو ومانواحي اليوم إلا لأنني أسير في قفص أتوق إلى روضة غناء)، هذا  
الشاعر الغنائي قدم لنا صورة واضحة لشعره وأثبت بالدليل القاطع أنه الشاعر الغنائي بحق، فهو يصف  
مجتمعه قائلاً (هموم الناس هدت كياني فيا ساقى الخمر أسقنيها وأمح أحزاني)، وأستمع إليه وهو يستصرخ  
الناس من أعماق قلبه (لست أدري لمن أبدي آلامي الدفينة ففي صدري مائة ألف ألم لا سبيل إلى إظهاره أسكر  
الدهر كل القوم فلم يبق منهم صاح يتفقد أحوال السكاري). هكذا عاش الشاعر بهذا الإحساس المليء بالوطنية  
وامتزجت آلامه مع آلام الشعب ويعبر عن ذلك بأسلوب أدبي خلاق.



أما آثاره فقد وصلت إلينا أسماء طائفة من مؤلفاته معظمها باللغتين التركية والفارسية، فللشاعر 16 أثراً في  
ثلاث لغات تتوزع بين الشعر والنثر:

1) ديوان بالتركية 2) ديوان بالفارسية 3) ديوان بالعربية 4) ملحمة ليلي ومجنون 5) بنك وباده 6) هفت  
جام 7) رسالة المعميات 8) ترجمة أربعين حديثاً نبوياً 9) مطلع الاعتقاد 10) أنيس القلب 11) شاه وكدا  
(السلطان المتسول)

أما أعماله النثرية فيمكننا أن نلخصها بما يلي: (1 حديقة السعداء (2 رند وزاهد (الزاهد والصوفي) (3 حسن عشق (4 سكايتنامة (5 رسائل بالتركية.

أما ديوانه بالعربية فقد كانت نسخة خطية منه في قسم المخطوطات لمعهد الاستشراق في لنيغراد، وقام بتحقيقها العالم الآذري البروفيسور الدكتور المرحوم (حميد اراسلي) سنة 1958م بمناسبة الاحتفال في باكو بمرور (400) عاماً على رحيل الشاعر، على أن هناك نسخة أخرى مخطوطة من هذا الديوان كانت في خزانة العلامة السيد عبد الحسين آل طعمة سادن الروضة الحسينية بربلاء، إلا أن السادن أعلمني أنه أهداها إلى الوالي جمال باشا لدى زيارته لمدينة كربلاء سنة 1329هـ.

ولابد من التذكير بأن الصديق الأديب الراحل حسن عبد الأمير المهدي حمل إلى غداة إيايه من الاتحاد السوفيتي كتاب (مطلع الاعتقاد) وديوان فضولي وهما من مؤلفات الشاعر العرفاني الكبير الشيخ فضولي، وقد جاء في مقدمة الكتاب بقلم أحد المستشرقين أن محمد بن سليمان فضولي ولد في مدينة كربلاء عام 1418م وعلى هذا فهو من كربلاء مولداً ومدفنًا. ولزيادة الإيضاح فإن الصديق الطيب الذكر الأديب عبد اللطيف بندر أوغلو قام بدراسة مطلع الاعتقاد والقصائد العربية للشاعر فضولي البغدادي الموجودة في الكتاب وعددها 12 قصيدة، قامت بطبعها مشكورة دار الشؤون الثقافية في وزارة الثقافة والأعلام ببغداد بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة لولادة الشاعر فضولي وذلك بتاريخ 15- 17 أيلول سنة 1994م. ولا ننسى أن هناك كتباً أخرى صدرت عن الشاعر من قدامى ومحدثين وكتبت دراسات ومقالات وأبحاث جادة نشرت في الصحف والمجلات العربية، وكلها قيمة بالتقدير.

عاش فضولي في أخريات أيامه في مدينة كربلاء وقام بخدمة الروضة الحسينية حيث كان يقوم بإنارة الشموع في الروضة إلى أن مات بمرض الطاعون سنة 963هـ / 1555م ودفن في مقبرة خاصة له قبالة باب القبلة على الجانب الأيسر. رحم الله الشاعر فضولي أحد رواد الشعر المبدعين المجددين الذين وقفوا عند روافد الإبداع والعطاء.

### شخصيات صوفية

خالد البغدادي، ابن السليمانية وشيخ الطريقة النقشبندية

الشيخ فريد الدين آيدن



تأسست الطريقة النقشبندية في القرن السادس عشر في تركستان (آسيا الوسطى) وبالذات في بخارى وطشقند، ثم انتشرت في الهند وإيران. بعدها انتشرت في العراق وعموم الشرق الأوسط على يد واحد من أبرز شيوخ الطريقة هو السيد خالد البغدادي.

يعتبر السيد (خالد البغدادي) من أهم الشخصيات البارزة في تاريخ الطريقة النقشبندية، وأكثرهم معرفة بالعلوم العقلية والنقلية، وأوسعهم شهرة بين الخاصة والعامة، وانجحهم تلويًا في استمالة قلوب الناس والاستيلاء على ضمائرهم وإلقاء هيبتهم عليهم. اسمه الكامل هو أبو البهاء، ضياء الدين خالد بن أحمد بن الحسين الشهرزوري البغدادي المعروف بين أتباعه بعنوان «مولانا خالد ذو الجناحين»<sup>[17]</sup>

ولد البغداديّ عام 1192 من الهجرة الموافق لسنة 1778 من الميلاد بمحل اسمه «قره داغ» على مقربة من مدينة السليمانية العراقية. ومات بالطاعون في مدينة دمشق عام 1242 من الهجرة الموافق لسنة 1826 من الميلاد.

اشتغل خالد بالتدريس مدةً في السليمانية وبغداد. بيد أنّ الباحث الحاذق الدقيق إذا اطلع على ما قد خلف هذا الشيخ من رسائل وحواشٍ وملاحظاتٍ، وما تناقلته اللُّسُنُ عنه من صفاتٍ، وسلوكٍ، وأقوالٍ، وتعليماتٍ موجّهةٍ منه إلى مريديه وخلفائه؛ وإذا أنعم النظرَ في عباراته وعلاقاته؛ اصطدم بحقائق رهيبة، وعِلْمٌ بالتأكيد أنه كان يمتاز بمزاج متوتر، ونفس مترقبة مُتَجَسِّسةٍ، وطبيعة نشيطة دسّاسة.

كان خالد ذا طموح وعزيمة لا حدود لهما. أثارته آماله إلى المغامرة بما لم يتجرأ على اقتحامه أحد من رجال الدين في عصره ولا بعده! هذه الطبيعة المستفحلة هي التي دفعته ليكون دائماً هو في الصورة. لذلك لم ينسجم بالاستقرار، فلم يصبر على مواصلة البقاء في الأجواء العلمية. بل تلاطمت به الأفكار والتصورات، فجعلته يتطلع إلى عالم لا يحيط به الزمان والآفاق، ولا يسعه نطاق الكلمات للتعبير عن حدوده المترامية وجماله البارِع؛ اشتاقت نفسه إلى مثل هذا العالم ليرفرف سرمدًا بجناحين من نورٍ في مقدّمة موكبٍ من الملائكة فوق جنانه! لم يزل خالدٌ يجوب ويتجوّل في هيام واشتياق إلى هذا المطلب الموهوم، ويتكهّن بتفسير أدنى حدثٍ يجري حوله بهذه النفسية الغربية، إلى أن أدركه رجل من أهل الهند؛ ثم لم يلبث الهنديّ حتّى أحسّ بما يخامره، فأوعز إليه أن يرافقه إلى مَنْ سوف تتحقّق على يده آماله في عاصمة الهند.

نقتطف الآن مقاطع من قصّة دخوله في هذه المغامرة؛ فيقول وهو في المدينة المنورة يتأهّب للحج: «وكنْتُ أفتش على أحد من الصالحين لأتبرّك ببعض نصائحه لعلّي أعمل بها كل حين، فلقيتُ شيخاً يميناً متريضاً عالماً عاملاً صاحب استقامة وارتضاء، فاستصحبته استنصاح الجاهل المقصر من العالم المتبصر فنصحتني بأمور منها: لا تبادر في مكة بالإنكار على ما ترى ظاهره يخالف الشريعة. فلما وصلت إلى الحرم وأنا مصرٌّ على العمل بتلك النصيحة البديعة بكرت يوم الجمعة إلى الحرم، لأكون كمن قرّب بدنة من النعم فجلست إلى الكعبة الشريفة لأقرأ الدلائل، إذ رأيت رجلاً ذا لحية سوداء عليه زي العوام قد أسند ظهره إلى الشاذروان ووجهه إلى من غير حائل فحدّثني نفسي أنّ هذا الرجل لا يتأدّب مع الكعبة ولم أظهر عيبه فقال لي: أما عرفت أن حرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمة الكعبة! فلماذا تعترض على استدباري الكعبة وتوجّهي إليك؟ أما سمعت نصيحة من في المدينة وتأكيده عليك؟! فلم أشك أنه من أكابر الأولياء وقد تستر بأمثال هذه الأطوار عن الخلق، فانكبت على يديه وسألته العفو، وأن يرشدني بدلالته إلى الحق فقال لي: فتوحك لا يكون في هذه الديار. وأشار إلى الديار الهندية، وقال: تأتيك إشارة من هناك فيكون فتوحك في تلك الأقطار. فأيسست من تحصيل شيخ في الحرمين يرشدني إلى المرام، ورجعت بعد قضاء النسك إلى الشام».<sup>[2]8</sup>

«وكان متشوّقاً بعد رجوعه من الشام إلى مرشدٍ من فحول الرجال حتّى جاء إلى السليمانية رجلٌ هنديّ يسمى ميرزا رحيم الله بك المعروف بمحمد درويش العظيم آبادي.<sup>[3]9</sup> أحد خلفاء الشيخ الدهلوي، فاجتمع به وعرض عليه مطلبه. فقال له: «إن لي شيخاً كاملاً مرشداً عالماً عارفاً بمنازل السائرين إلى ملك الملوك، خبيراً بدقائق الإرشاد والسلوك، نقشبديّ الطريقة، محمديّ الأخلاق، علماً في علم الحقيقة. فسِرْ معي حتّى نرحل إلى خدمته في جهان آباد، وقد سمعتُ منه إشارةً بوصول مثلك ثم إلى المرام».<sup>[4]10</sup>

( 298/ )

1973- 727-697 /

300-299 / -8

-9

Nakşibendiliğin Kuruluşu :

ve Yayılışı

1949

337 /

226/

-10

مكث خالدُ البغداديُّ في مدينة جهان آباد (دلهي) مدة عام كامل. عدا ما أمضى من الوقت في السفر ذهاباً وإياباً. لأنه بدأ رحلته عام 1224 من الهجرة وعاد سنة 1226هـ.

اشتهر خالدُ البغداديُّ بعد عودته من الهند بصورة غير معهودة، وذهب صيته إلى أقصى بقاع المملكة العثمانية مما أثار الشكوكَ حوله في نفس الخليفة العثماني السلطان محمود الثاني بالذات وفي أوساط حكومته. لأن أتباع خالدِ البغداديِّ كانوا يسعون بحماسة شديدة لنشر طريقتهم في جميع أنحاء المملكة، وكانت لهم نشاطات كثيفة حتى في مدينة إسطنبول عاصمة الدولة.

فقد ورد على لسان أحد المؤرخين العثمانيين ما قد عرّبه عباس العزاوي كما يلي: «منذ خمسة أشهر مضت، ورد إلى إسطنبول بعضُ خلفاء الشيخ خالد المتوطن في الشام، وهو من علماء السليمانية، وانتشروا في مساجد إسطنبول وجوامعها، وبنوا الدعوة إلى طريقتهم، فانتسب إليها جماعة من أكابر إسطنبول وعلمائها، ونالوا شهرةً في بلاد العرب والثرك، وصاروا يسمّون دعائهم (الخلفاء)؛ فأذاعوا هذه الطريقة، وسعوا سعيًا حثيثًا في ترويجها وكسب المريدين لها.

وعلى هذا نُفي من إسطنبول مشاهير الطريقة النقشبندية وأعوأهم في 21 من شهر رمضان سنة 1234هـ. 1817م ليلاً. وجيء بهم إلى الميناء، وأركبوا في زورق إلى (قارتال)<sup>[5]11</sup> ومنها إلى سيواس<sup>[6]12</sup> فأحلّوهم فيها. وفي اليوم التالي نُفي من مشاهيرهم علي أفندي أركبي من علماء إسطنبول إلى (جركش) داخل مدينة أنقرة. وصالح أفندي، وأحمد أفندي إلى (سيواس). ثم أُرسلَ خليفةُ الشيخ خالد وأعوأه إلى أنحاء السليمانية على أن لا يعودوا إلى إسطنبول». <sup>[7]13</sup> فأدّى هذا التطور إلى إصدار الأوامر بالبحث والتحقيق مع خالد البغدادي، رئيس الطائفة. وذلك بإيعاز من أحد رجال الدولة يُدعى حَالتُ أفندي. <sup>[8]14</sup> فقام بهذه المهمة داود باشا والي بغداد. إلا أنه أعرب في التقرير الذي أعدّه؛ «أنّ خالدًا لا قصد له إلا إحياء السنّة السنية، وأنه مشغول بإرشاد مريديه، غير ساعٍ بذلك إلى تحقيق أيّ مصلحة له. وأنه بعيد كلّ البعد عن الشؤون السياسية». وتعهّد الوالي داود باشا في نهاية التقرير «أنّ خالدًا لن يتدخّل في أيّ شيء من شؤون الدولة أبدًا». <sup>[9]15</sup>

اطمأنت السلطة لا شك بعد هذا التحقيق الذي أثبت ولاء خالدٍ للخليفة. إذ أنّ الموقع الجغرافي الذي اتخذته الفرقة الخالدية مركزًا لها يومئذ - وهو بلاد الشام والعراق - كان على تخوم منطقة الوهابيين، خاصّة وأنّ هذا الموقع كان بمنزلة الدرع لمنطقة أناضول التركية ضد انتشار عقيدة التوحيد بدافع نشاطات النقشبنديين على امتداد هذه الساحات الشاسعة.

-11

-12 ( )

-13 .287/1 4755/

-14 ( 1823-1766 )

( 1806-1802 )

( )



## مناطق جوامع وتكايا التركمان في خانقين..

محمد بياتلى

مما لا يخفى على احد بأن مدينة خانقين مدينة ذات طابع خاص ونكهة متميزة تتميز بها على كثير من المدن العراقية كونها تجمع العديد من الثقافات والعلاقات بين ابنائها حيث التركمان والاكراد والعرب القدامى وكذلك قربها من الحدود الايرانية ووجود بعض العوائل المسيحية فيها مما اضفى عليها شيئاً من الثقافة والحضارة. منذ نعومة أظافري لم أحس أو أشعر بأي نوع من انواع التمييز والتفرقة بين ابناء هذه المدينة، الكل متحابون متآفون ومتآخون وتجمعهم علاقة المصاهرة فيما بينهم. ولم يخطر ببالي بأن احدا من افراد هذه المدينة تعالى على الآخرين بسبب انتمائه القومي او المذهبي.

مدينة خانقين كانت تزدهر بمساجدها وتكاياها واكثر هذه المساجد والتكايا كانت فيها قبور ومراقد الاولياء والصالحين ومن المتصوفين والناس يكون لهم الاحترام. وكان لأبناء التركمان ايمان بارز وعقيدة راسخة في تنمية العلاقة فيما بينهم وبين هذه المساجد والتكايا وبين المتصوفين الآخرين من ابناء القوميات الاخرى وكأنهم كتلة واحدة رصينة لا غاية لهم سوى توحيد كلمة الله والوقوف ضد تيارات الكفر والالحاد. حيث انتشرت دعوات الايمان والرجوع الى الله سبحانه وتعالى من قبل هذه الشريحة التركمانية الاصلية من خلال اقامة مجالس العلم وحلقات الذكر بين ثنايا وازقة هذه المدينة الباسمة ولعل من ابرز هذه التكايا والجوامع:

1- تكية السيد عبدالله في محلة الجامع وهي تركمانية صرفة وفيها مرقد السيد عبدالله حيث ان احفاده لا يزالون يسكنون مدينة خانقين.

2- تكية وجامع النقشبندي في محلة الجامع عند رأس الجسر القديم باتجاه الصوب الكبير حيث ازال بناءه النظام السابق بحجة تطوير مدينة خانقين من دون ان يبني جامعاً بديلاً وكان في ذلك الجامع مزار العديد من الصالحين من اتباع الطريقة النقشبندية.

3- تكية وجامع الشيخ رشيد فتاح بك في محلة الحميدية التي كان اهلها من التركمان وفيه مرقد الرجل الصالح الذي سمي الجامع باسمه.

4- تكية وجامع خليفة شمس الدين وهو من عائلة الخطيب وذلك لتوارثهم في ادارة هذا الجامع والخطابة فيه، وفيه مرقد العابد المتصوف عنايت الله افندي وموقعه في الصوب الصغير من المدينة وعلى ضفاف نهر الوند التركماني الاسم.

وهناك مقبرة الصحابي الجليل محمد بن حذيفة اليماني والملقب بالعلمدار حيث مرقد الشريف ومراقد كثير من رجال الدين والمتصوفين ومن بينهم رجل الدين المتصوف التركماني مصطفى حمامجي وكان خادماً مخلصاً لمرقد الصحابي الجليل. وأود ان اشير بأن هذه المقبرة كادت ان تكون حصراً لدفن موتى التركمان اهل هذه المدينة بالاضافة الى دفن موتاهم في مقبرتي باشا كوبرو وامام عباس.

بين الحين والآخر كانت خانقين تستقبل العديد من رجال العلم والمشايخ والمتصوفين من شمال العراق وكان لهم دور في تعميق اواصر المحبة بينهم وبين المتصوفين من سكة مدينة خانقين ومن ابرز المشايخ والمتصوفين الذين وفدوا الى خانقين، الشيخ ابراهيم البرزنجي من مدينة قادر كرم وله مريدين من التركمان والاكراد والمتصوف التركماني الاصيل الخليفة قهرمان المندلاوي الذي كان له باع طويل في نشر التصوف في هذه المدينة وله الكثير من المريدين التركمان ولا يزال المتصوفون القدامى يذكرونه بخير وهو الان حي يرزق ويسكن ناحية كنعان اطال الله في عمره. والدور الاكبر الذي قام به في ترسيخ وتنشيط علم التصوف جنبا الى جنب مع علم الشريعة في مدينة خانقين هو السيد عز الدين السيد اسماعيل النعيمي اطال الله في عمره حيث زار مدينة خانقين ولاول مرة في أواخر الستينيات وله الفضل الكبير في نشر وديمومة هذا النوع من العلم والعبادة بين ابناء مدينة خانقين وانشاء التكية القادرية والرفاعية وفي محلة الجامع ايضا والتف حوله اهل المدينة وبكافة اطيافهم واحبوه لوقاره وحنكته في التعامل مع اخوانه المريدين وبرز من بين ابناء هذه المحلة رجال متسلحون بعلمي الشريعة والطريقة وكذلك برز فيهم المتصوف الخليفة كمال امين على سبيل الذكر لا للحصر الذي ادخر كل جهده في سبيل رفع شأن الاسلام بين ابناء هذه المدينة وجمعهم على كلمة ذكر الله من خلال اقامة المناقب النبوية الشريفة وحلقات الذكر في هذه التكية حيث يلتقون على الخير والمحبة

والاخلاص وظلت هذه التكية عامرة بروادها مما أغاظ السلطات المحلية آنذاك وحاولوا احتواء هذه الحالة الايمانية كونها تجذب الكثير من الشباب وتبعدهم عن دائرة الانتماء للحزب البائد واستمرت في محاربتهم حتى تمكنت من تليفق التهم الباطلة اليهم واعتقلت مؤسس هذه التكية وعدد من روادها وذلك لإضعاف عزيمتهم وايمانهم ولكنهم اصطدموا بإرادة صلبة من قبل جميع المتصوفين ووقفوا وقفة رجل واحد من أجل اعلاء كلمة الله ورفع راية رسوله سيدنا محمد (ص) وأوليائه الصالحين.

### طوائف صوفية طائفة الكاكائية العلوية الصوفية

ابراهيم داود الداود



طائفة الكاكائية مجهولة التقاليد غير معروفة التعاليم أو المعالم، ولا يمر باحث أو سائح في محافظة كركوك الا يعلم ان هناك طائفة (الكاكائية) ويسمع عنها، وهم يعلنون انهم مسلمون، وغالبهم منتشر في انحاء عديدة في العراق.

#### ماذا تعني "الكاكائية"؟

لفظة "كاكائية" كردية مأخوذة من "كاكا" بمعنى الأخ، والنسبة إليها "كاكائي" والنحلة يقال لها "كاكائية". ويقال في سبب تسميتها أن أحد رؤسائها المؤسسين لها كان من السادة البرزنجية في أنحاء السليمانية فبنى تكية في قرية برزنجة وضعت لسقفها العمدة، ولكنها قصرت عن جدران البناء فقال لأخيه مدها أيها الأخ "كاكا" وصاروا يدعون "بالكاكائية" لهذه الحادثة. كما يقال أيضاً انها "الأخية" الطريقة المعروفة في العراق وايران وتركيا وتنسب إلى "أخي" وأصلها ان كل واحد من أرباب هذه الطريقة يدعو الآخر من جماعته بـ "أخي" بالاضافة الى ياء المتكلم، ويعنون أن أصحاب هذه الطريقة اخوة.

عرفت "الكاكائية" كنحلة في القرن العاشر والحادي عشر الهجري، ولا يقطع بتاريخ ظهورها كعقيدة بهذا الاسم حيث كانت معروفة قبل هذا التاريخ بشكل طريقة تصوفية. ويقال إنها كانت تعرف بـ "الفتوة" حيث ذكر ذلك في مؤلفات عديدة ولا يعرف عن "الكاكائية" اليوم أكثر من التغني ببعض الأشخاص والاحتفاظ ببعض أشعارهم وهم لا يودون الاحتكاك بالمجتمع ولا الترغيب إلى المعتقد أو الدعوة له، والملاحظ هو تكتهم الشديد ازاء ما يعتقدون ولهذا فإن الأوهام والشبهات تحوم حولهم.

هذه النحلة مشهورة في العراق وتدعى "الفتوة" وانتشرت في الأناضول باسم "الأخيه" وشاعت بهذا الاسم لدى الأتراك وفي ايران ثم تحولت إلى "كاكائية". يقول طه الهاشمي في كتابه "مفصل جغرافية العراق": قبيلة الكاكائية خاضعة لنفوذ السادة البرزنجية تسكن الساحة الواسعة عند جبل برادان وتعيش على الزراعة...

#### كتب الكاكائية

الكاكائية يصرحون بأن عقائدهم مكتومة، لا يبوحون بها ولا يجيزون هتك السر، ومن أهم كتبهم: خطبة البيان: من أشهر ما عرف عنهم، يعدونها من أعظم كتبهم وأجلها، لا يرغبون في أن يطلعوا أحداً عليها، أو أن يقرأها امرؤ غيرهم، لما فيها من غلو وأوصاف وتنسب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، /

كتاب "جاودان عرفي": وهذا يعد من كتبهم المهمة، وهو منتشر باللغتين التركية والفارسية ولديهم أكثر من خمسة عشر كتاباً آخر.

### عقائد الكاكائية

تتصف عقيدة الكاكائية بالغلو الشديد ولعل أشد المؤثرين على عقيدتهم هو الحسين بن منصور الحلاج. والكاكائية لا يصرحون بعقيدتهم ولا يعلنون عنها، ويذكر اعتقادهم في تأليه الامام (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه على ان ابرز معتقداتهم كما يلي:

الاعتقاد بالله تعالى: وهذا عندهم من أكثر العقائد غموضاً فهم يرون أن الله سبحانه وتعالى لا يصح وصفه أو نعته ولا تسميته حتى، أو الاتصال به من طريق ما إلا في حالة واحدة بأن يظهر في الأشخاص رافة منهم بهم وانه سبحانه يبرز بطريقة / وحدة الوجود: وهي ظاهرة في شعرهم وهي أصل الحلول حيث لا يسلم بالحلول الا بعد التسليم بوحدة الوجود وهم في هذا يشتركون مع الصوفية، حيث يعتقدون ان الكون هو الله، والكل يرجع إليه ويعود الى حقيقته. / التناسخ: وهذا من عقائدهم الأصلية وهو نتيجة للحلول، فإذا لم يتم التناسخ فلا يكون الحلول ابداً، ومعناه عندهم انتقال الروح العادية من بدن إلى آخر حتى تطهر وتكون صالحة مجردة عما ارتكبه من أعمال أو ما اقترفت من آثام / القرآن الكريم: الكاكائية لا يتلون القرآن، ويعد في نظرهم غير معتبر لأنه من جمع عثمان رضي الله عنه. / اليوم الآخر: يقصدون به يوم " ظهور الله" في شخص وحلوله فيه، وهذا ينطبق مع اعتقاد الصوفية، كالا اعتقاد باليوم الآخر من أركان الإيمان التي يجب على المسلم الإيمان بها. وليبيان اعتقاد الكاكائية في اليوم الآخر بشكل أكثر، لننظر ماذا يلقنون موتاهم فهم يقولون للميت "إذا جاءك منكر ونكير فقل عندي كذا حنطة وكذا شعير. وكلها مدخرة في المخازن الفلانية، فإذا لم يرض فأعطه صحن عدس، وفنجان خمر فإن لم يقبل فقل انا كاكائي أغرب عني، واذهب الى غيري! وحينئذ يذهب عنك وامض أنت إلى الجنة!!" وهذا الكلام يدل على أن الكاكائية لا يلقنون الميت الشهادتين ولا يبالون بالموت مما يؤيد الانتقال والتناسخ، ولذلك فإن الكاكائية لا يكون على ميت بعويل وصراخ والحزن غير جائز بل انهم يحتفلون ويدقون الطبول!

### طبقات الكاكائية

يصنف الكاكائية الى مجموعة من الطبقات وهي كالتالي:

السادة: وهؤلاء هم الأمراء ورؤساء الدين جمعوا بين الامارة والرئاسة الدينية. / الدليل: ويسمى عندهم (مام) ولهم منزلة خاصة، يتولون الإرشاد ويقال للواحد منهم (مرشد) أو (بابا) .. / الاخوان: وهم الباقون المعروفون بالعامية (الكاكائية) ويتجلى بينهم التعاون تطبيقاً لمبدأ الاخوة.

### عباداتهم وأعيادهم

الكاكائية لا يراعون العبادات والتكاليف ويعرفون (بالنيازية) أي أصحاب النذور، كما يدعون غيرهم (بالتمازية) أي أهل الصلوات. ولديهم في كل سنة يوم يصومونه يدعونه (يوم الاستقبال)، ثم يصومون ثلاثة أيام يدعونها أيام الصوم، ثم بعدها يوم يسمونه يوم العيد.

### الزواج والطلاق

الزواج لدى الكاكائية لا يتبع مراسيم أو احتفالات معينة وانما هو عقد بسيط يكون على يد شيوخهم ولا يشترط فيه رضی الأولياء والأقارب وانما يتوقف على رضی الطرفين، ويجري يوم الاثنين أو الجمعة، وهذان اليومان مقدسان عندهم وتعدد الزوجات عندهم، كما أن الطلاق ممنوع قطعاً من أحد الطرفين والعلة في ذلك ان العقد جرى برضى الطرفين فلا يبطل الا منهما معاً لا يستقل به واحد دون الآخر.

### من عاداتهم

انهم لا يقصون شواربهم وهي علامة لتمييزوا عن غيرهم، كما انه تبرك بالإمام علي رضي الله عنه عندما شرب من الماء الذي غسل به الرسول فصارت تطول شواربه فكلما قصها تعود فلذلك الكاكائية ومعهم البكتاشية يراعون تطويل شواربهم. أن يكون الكاكائي أخاً للكاكائي وأن تعتبر الكاكائية حراماً عليه فيما عدا الزواج، وأن لا ينظر إليها بسوء لأنها تعد أخته، وبيت الواحد بيت الآخر، أن يطيعوا السيد المعروف بـ "البير" وهو رئيسهم بأن يتابعوه متابعة ولا يجوز الخروج عن أمر السادة. التكايف والتناصر ويكون بينهم بلا قيد أو شرط سواء في تعاونهم أو تضامنهم لدفع خطر من الأخطار. لا يقبل السيد هدية أو عطية ولكن له حق التصرف في جميع أموال الكاكائية وهذا ما يعرف لديهم بما يسمى إباحة الأموال. أنهم يحرمون السرقة لذلك فبيوتهم مفتحة الأبواب لأنهم في مأمن من جماعتهم. التكنم ومراعاة السر التام، وهذا ضروري عندهم فلا يظهرون عقائدهم ولا مراسمهم علناً، ويعد التكنم من واجباتهم الدينية لدرجة أنه اصبح يضرب بهم المثل فيقال

"كنوم للسر مثل الكاكائي". يوما الاثنين والجمعة مقدسان وفيه يكون الزواج والاجتماعات العامة وغيرها. أكلة المحبة، وتجرى في الاجتماع العام، وفيه يذبح الرجل ديكاً ويطبخ معه حنطة أو أرزاً، ويقدم للشيخ، أو يقوم الرئيس بذبح شاة أو خروف ويدعي أهل القرية ويصبح مهرجاناً كبيراً ويتخذون الرقص ويقرأ دعاء الألفة ويوزع الطعام (الأكلة) ومن أكل من هذه الأكلة المباركة نال الثواب.

### للاستفادة يمكن الرجوع الى:

الكاكائية في التاريخ، عباس العزاوي.

دائرة المعارف الإسلامية.

مفصل جغرافية العراق، طه الهاش.

### نصوص صوفية

#### مناجات صوفية كردية بالعربية

هذا الألم، أثقل بمراتب من لذة الوصال  
الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي



(اعلم): يا (أنا!) لك أمورٌ تسعة في دنياك، تعاميت عن ماهيتها وعواقبها: أما جسدك فكالثمرة المتزهرة المتزينة صيفاً، المنكمشة المتفسخة شتاءً. وأما حيوانيتك، فانظر إلى جنس الحيوان كيف يسرع فيهم الموت والزوال. وأما إنسانيتك، فمترددة بين الانطفاء والإصطفاء والزوال والبقاء.. فاستحفظ على مابقي، بما من شأنه أن يبقى بذكر الدائم الباقي. وأما حياتك، فكقامتك قصيرة، معينة الحدود، لاتقدم، ولاتأخر.. فلا تتألم ولاتحزن ولاتخف لها، ولاتحمل عليها مالا طاقة به مما تطاول إليه طول الأمل. وأما وجودك، فليس ملكاً لك، فله مالك الملك له، واشفق به منك.. فمداخلك بغير ما أمرك به. فكما أنها من الفضول وشغل فضولي، فكثيراً ماتصر، ألا ترى الحرص ومرق النوم كيف يفعلان ويجلبان الخيبة والسهر! وأما مصائبك، فلا تمر حقيقة، لأنها تمر سريعاً، بل تحلو لأنها تحول.. فتحول وجهك من الفناء في الفاني، إلى البقاء بالباقي.. وأما أنت هنا الآن، فمسافر، ثم مسافر، والمسافر لا يعلق قلبه بما لا يتعلق به، ويفارقه بسرعة. فكما ترحل من هذا المنزل في هذا المسجد البتة، كذلك تفارق هذه البلدة قطعاً، أما إلى بطنها، أو إلى خارجها.. فكما ستفارق بالضرورة، كذلك تذهب، بل تخرج وتطرد (شئت، أم أبيت) من هذه الدنيا الفانية، فأخرج، وأنت عزيز، قبل أن تُطرد، وأنت ذليل..

وأما وجودك، فافديه لموجده الذي يشتريه بثمن غالٍ، فسارع إلى البيع، بل الفداء، أما أولاً، فلأنه يزول مجاناً، وثانياً، لأنه ماله، وإليه يؤول، وثالثاً، لأنه إن اعتمدت عليه، سقطت في العدم، لأنه (باب إليه)، وإذا فتحته بالترك، وصلت إلى الوجود الثابت.. ورابعاً، لأنه إذا تمسكت به، كان في يدك نقطة وجود فقط. ويحيط بك مالا يتناهى من الاعداء الهائلة.. وإذا نفضت يدك منه، استبدلت لمعة بشمس، فينقلب محيطك إلى مالا يتناهى من أنوار الوجود. وأما لذائذ الدنيا، فقسمتك تأتيك، فلا تطش في طلبها. ولزوالها سرعة لا يليق بالعاقل تعليق القلب بها. وكيف ما كانت عاقبة دنياك، فترك اللذائذ أولى. إذ أما إلى السعادة، وهي تستلزم تركها، وأما إلى الشقاوة، ومن ينتظر الصلب كيف يلتذ ويستعذب مايزيد عذابه من تزيينات آلات الصلب، وإن توهمت بالكفر العدم، العياذ بالله، فأولى بالترك، إذ بزوال اللذة، يحس ذلك العدم الهائل ألمه الأليم أناً فاتناً في ضمن زوال اللذائذ. وهذا الألم أثقل بمراتب من لذة الوصال، إن كنت تشعر..

## نص أدبي تصوفي رقصة الوجد

سليم مطر - جنيف

(مقطع من رواية)



في المساء نجلس انا والشيخ (توما)، مفترشين الارض تحت سماء متألئة بنجوم وبدر متوهج ونسيم صيف يحنو علينا. لا يسمع في الكون غير صوت شيخي وهو يرتل بآياته الآدمة، بينما سماء البادية تبدو من القرب حتى اني ارفع كفي لأداعب القمر والنجوم.

استغرب بأنه في صلواته ليس دائم الخشوع والوقار. يبتسم ويمزح ويغتاض وهو يناجي السماء. عندما ابدى له اندهاسي، يضحك ويقول:

- إسمع يا ولدي، خطأ الناس انهم يتصورون الله مثل ملك، يمكننا ان نخفي عنه خواطرنا ونزواتنا من خلال وجه رياء ومذلة وخشوع زائف. إعرف ان الله يدرك دواخلك أكثر منك لأنك جزءا منه. هو فيك حتى ان كنت لا تؤمن به. لنكن حقيقيين معه لأنه الوحيد الذي يدرك مبادلنا ويحتمل نزواتنا، ما دام هو الذي خلقنا ونحن منه وعلى صورته. لنعامل الله مثل أب وليس مثل ملك.. الا تمزح مع ابيك.. كن صادقا صريحا واثقا من نفسك أمام الله ولا تخشى أي شيء، إلا ضميرك...

صوته الدافئ يصدح بصمت البادية ويتصاعد الى اعالي السماء وتتمايل النجوم مع كلماته كأنها في بحر متموج.. اشاهد الشمس الغاربة فأتذكر مشهد غروبها عند شواطئ بحيرة جنيف. تطوف بي الذكريات في عوالم عتيقة ترتسم على وجه الفضاء. أرى أمامي وجه زوجتي (مارلين) وهي تعاتبني على غيابي وانقطاع اخباري. تشتعل في وجداني نيران الحنين اليها والى مدينة شبابي وذكريات أعوامي الطويلة. من دون انتباه ينطلق صوتي بموالات بداني مزيج من كل ما تعلمته من مواويل عراقية ومشرقية، وبكلمات مرتجلة من دون حساب، اردد بحسرة:

- اريد أن أفقد يا شيخي.. فأنا مشتاق وعندي لوعة.. لكن من مثلي لا يذاع له في الشوق سر.. أرجوك انجذني. ألا من خمرة تعبث بروحي أو نبتة تدوخ رأسي ؟

انطلق (توما) بضحكة رقراقة وقال:

- اسمع يا آدم.. الخمرة والحشيشة لا تخلق الثمالة بل تسرع بها، لأن الثمالة تكمن في روحك، وأنت وحدك من يجعلها تنبعث وتسري في البدن. المسكرات تضعف القدرة على الثمالة والفقدان الحقيقية الكامنة في الإنسان، اشبه بمن يعتمد بتنقله على مركبة وينسى السير على قدميه فتضمر وتنتهي.



الخمور تسكر البدن، أما الروح فلا يسكرها غير الجمال.. نعم الجمال مهما كان نوعه أو تعبيره: الغناء والرقص والضحك والأدب والفن والرياضة ومعاشرة الأحبة.. الا ترى كيف ان اللذين يتناولون المسكرات وأرواحهم مليئة بالسوساوس والأحزان لا يجدون المتعة والفرح بل يزدون اوجاعهم على اوجاع، حتى ينحدروا الى الإدمان وتدمير الذات..

بعد هنيهة صمت تغيب خلالها نظراته في القمر، ينهض وهو يقول:  
- تعال يا ولدي، إذا رغبت الثمالة والتحليق أنت وبدنك في فضاءات الفقدان فأني معك وعندي لك طريقة تفوق بتأثيرها الخمرة والحشيشة.. قم.. اجلب بعض الحطب واعلق لنا ناراً، وسأدلك على طريق الوجد..  
ينهض الى الصومعة ثم يعود بدف كبير. يطلب مني ان اتوأمه بالحركات والدوران حول النار. ان انسى أي قاعدة او منطق تعلمته. فقط أن أترك حركات جسمي تنسجم مع كل ما احسه بداخلي أو بخارجي. أنسى العقل واترك بدني حراً في التناغم مع روعي. اتخيل بأني ورقة في شجرة الوجود أو موجة في بحر الكون.  
يشرع بضربات متقطعة بطينة وهو يدور حول النار متمائلاً بظهره ورأسه يمينا وشمالاً. يطلق اصواتا متصاعدة متداخلة مع قرع الدف. أما أنا فأجهد في البدء ان انسجم مع قرع الدف وهي تشتد وتسرع. بعد قليل نأخذ سوية ومن دون أي اتفاق بإصدار نفس الاصوات والهمهمات وعبرة: الله حي.. الله حي.. الله حي..

أبدأ بالإنسجام مع بدني الذي راح يتلوى ويتسامى بطيئاً نحو الأعالي. اباغت برؤية كائنات آدمة تقترب منا. اتوقف مرتعبا اتمعن بالذئاب تشرع بتشكيل دائرة وهي تحوم حولنا وتلعق الهواء كأنها تشاركنا الرقص. لكن يد (توما) تسحبني من دون كلام. أعود وعياني رغماً عني تتفحص بحذر الذئاب المحيطة.  
مع تصاعد قرع الدف الممتزج بصرخاتنا تبدأ الذئاب حولنا تدور وهي تطلق عواءاً آدماً مفعم بنشوة وحشية. لم أعد أحس بالخوف كأني بالحركات الراقصة أقوم بطرد الخلايا الشريرة والخؤونة من قلعة بدني. ضربات دف وصرخات شخي وعواء ذئاب كلها تصدح في دواخلي. انطلق في عوالم من فقدان ووجد لم ابلغها سابقاً في أشد حالات ثمالي..



أصرخ بكل ما في روحي من حرية وانعتاق. اضحك تارة وأبكي تارة أخرى. اصواتنا تعلو وتندمج مع صمت كون وعواء ذئاب وطققة نيران وفحيح ريح وعقب براري، لتتشد كلها بنفس الروح والمعنى:  
- الله حي.. الله حي.. الله حي.. الله حي.. الله حي.. الله حي..

أغض عيني وافتحهما كما أشاء حتى يلتقي الفرق بين رؤى الوجود ورؤى دواخلي. تمتزج الأشياء وتنعدم حدود الزمان والمكان: عيون الذئاب تتلألأ في السماء.. وجه شخي يسطع في روحي.. نيران تلتهب ونجوم تقدح وريح براري تعوي، حتى يستحيل الكون كله الى كينونة واحدة تنطق بكلمة الكلمات وحافية سر الأبدية: حي.. حي.. حي..

أجهل كم من الحيوات بدأت الإستيقاظ في كياني. كل خلية مني تحمل في داخلها ميراث كائن ما من أسلافي. بدني قبيلة بدائية يصيبها مس من جنون فتنتطلق معربة بطقوس وحشية منفلتة من كل عرف وقانون. أتلوى وأرتعش بحركات منسية ورثتها من أسلافي: دبك ولطم وبزخ وهوسات وتمرغ في الارض.. حتى ابلغ ذلك الوجد الذي تتفكك فيه مكونات الجسد وتصير أثيرية كالروح.

أجد نفسي أتبع شيخي لتطأ أقدامي الحافية جمرات النار.. لا أحس بأي وجع بل بتيارات من برق تخترق أقدامي وتتكور طاقة نور في كياني وتحملني الى سماء وقمر ونجوم لتعانقها وتذوب في عالم فقدان تتألق فيه ألوان وألوان تحيط بكيانات وهاجة تتراقص جماعات جماعات وهي تصدح بتراتيل محبة ونشوة وخلود: حي.. حي.. حي...

## **الفصل الخامس / عقائد اسلامية عراقية لم يعد لها وجود في العراق**

### **المعتزلة**

اعداد - د. خالد توما / الموصل



**اصبحت البصرة مع بغداد والكوفة مركزا للشعاع الحضاري العراقي العباسي ومنها انبثقت الكثير من المذاهب والتيارات الدينية والفكرية**

- ان اول ظهور للمعتزلة كان في البصرة في بداية القرن الثاني الهجري ثم في بغداد، وبعدها انتشرت افكارهم في مختلف مناطق الدولة الاسلامية كخراسان وترمذ واليمن والجزيرة العربية وأرمينية. وهي فرقة كلامية (فكرية) اعتمدت على العقل في تأسيس عقائدها، وتميزت بثنائها الفكري والعلمي واطلقت عليها مسميات متعددة كالدالية والموحدة والمفوضة والقدرية والمعتلة وغيرها. ويرجع سبب تسميتها بالمعتزلة حسب تصور المؤرخين إلى أمرين: الاول يتعلق بالاعتزال السياسي الذي قام به مجموعة من الصحابة في الخلاف بين الامام علي (ع) ومعاوية.

والثاني: يتعلق باعتزال واصل بن عطاء عن شيخه الحسن البصري في مسائل فقهية فكرية. - ان المعتزلة - كفرقة فكرية - اكدوا على التوحيد وعلى العدل الاجتماعي، ولهذين المبدأين أهمية كبرى لدى الناس في عصر كثر فيه المظالم الاجتماعية وكثر فيه القول بتشبيهه وتجسيم الذات الالهية. لما انتشرت افكار المجبرة الداعية الى تحجيم دور العقل وتغييبه وتبني السلطة الرسمية لفكرة الجبر، برزت المعتزلة كتيار يدعو الى حرية اختيار العبد (الانسان) في افعاله واطلاق دور العقل البشري وتأكيدهم على استقلالية الانسان في سلوكه، ساعد هذا العامل على تعاطف الناس معهم.

### **تاريخها**

- ان الحسن البصري لما طرد واصلاً من مجلسه واعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة وانضم الى صديقه عمرو بن عبيد، قال الناس يومئذ فيهما: انهما قد اعتزلا قول الامة وسمي اتباعهما وقتئذ بالمعتزلة.

- في زمن هارون الرشيد نبغت المعتزلة ونشطت الحركة الفكرية وثاروا على الجمود حتى جاء عصر المأمون وكان يميل الى حرية الفكر، وبذلك استطاع المعتزلة ان يواصلوا نشاطهم، فقد كانوا يتحرقون الى

نشر اصولهم فوجدوا في المأمون بغيتهم ونظروا اليه بعين الاكبار اذ وجدوا فيه ركنا شديدا، فكان مذهبهم اقرب المذاهب الى نفس المأمون فقربهم واصبحوا اصحاب نفوذ في القصر، واغتنموا فرصة استمالة المأمون والمعتصم والواثق لهم فاطلقوا ايديهم في السياسة وبلغوا الذروة الى ان جاء المتوكل فاخذوا ينحدرون عن المكانة التي وصلوا لها بسبب مضايقة المتوكل لهم ومحاربتة لأفكارهم ومنها قولهم بخلق القرآن.

- تشدد المعتزلة في مهاجمتهم العنيفة للفرق الاخرى يعد السبب الاساسي في انتكاستهم وهزيمتهم امام قوة المحدثين ورجوع الاكثرية الى الجمود والتسليم امثالاً لامر السلطة. يقول المسعودي: « لما أفضت الخلافة للمتوكل امر بترك النظر والمباحثة والجدال والترك لما عليه الناس ايام المعتصم والواثق، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحدث وازهار السنة والجماعة. »

### معتقداتها

- أركان الاعتقاد عند المعتزلة خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. - بأن الله واحد لا شريك له، وذهبوا الى نفي الصفات عنه جلّ جلاله، وانها عين ذاته. ان المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض، واذا خرج من غير توبة عن كبيرة. ارتكبها استحق الخلود في النار، لكن عقابه يكون أخف من عقاب الكافر وسموا هذا النمط وعداً ووعداً. كذلك:

- ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان عقلاً ونقلاً، وهما واجبان باللسان والقلب واليد.  
- ان الفاسق من المسلمين بالمنزلة بين المنزلتين، وهي انه لا مؤمن ولا كافر.  
- ان الله منزّه عن كل قبيح، وان ما ثبت انه قبيح ليس من فعله ولا يصف بالقدرة على ما يقبح.  
- ان العبد قادر خالق لأفعاله خيرا وشرها مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة، والرب منزّه ان يضاف اليه شرّ أو ظلم.

- ان اصول المعرفة وشكر النعمة واجبة قبل ورود السمع والحسن والقبح، يجب معرفتهما بالعقل كما يجب اعتناق الحسن واجتناب القبح. وان ورود التكليف الالهية الطاف من الباري تعالى أرسلها الى العباد بتوسط الانبياء عليهم السلام امتحاناً واختباراً.

- بعصمة الانبياء جميعاً وانهم لا يجوز ان تقع منهم معصية بعدد لا صغيرة ولا كبيرة.  
- ان الايمان اقرار باللسان ومعرفة وعمل بالجوارح، وان كل من عمل فرضاً أو نفلأ فهو ايمان، وكلما ازداد الانسان خيراً ازداد ايمانه وكلما عصى نقص ايمانه.

- انه مالم يأمر الله تعالى به أو ينهى عنه من اعمال العباد لم يشأ الله شيئاً منه.

- لا امامة الا بالنص والتعيين ظاهراً وهو رأي الفرقة النظامية.

- لا تجوز الصلاة الا خلف الفاضل.

- ان علياً (ع) هو الافضل والأحق بالامامة، وانه لولا ما يعلمه الله ورسوله من ان الاصلح للمكلفين

تقديم المفضل عليه لكان من تقدم عليه هالكاً.

- ان لمقدورات الله تعالى ولأفعاله ومعلوماته غاية ونهاية، وان الجنة والنار تفتيان ويفنى أهلها حتى يكون الله سبحانه آخر لا شيء معه، كما كان اول لا شيء معه.  
- انكار الشفاعة.

- بوجوب الاصلح على الله تعالى وبأن أوامر الله ونواهيه تابعة للمصالح والمفاسد وبأن أفعال العباد

ليست مخلوقة لله.

- باستحالة رؤية الله سبحانه وتعالى بالابصار.

### شخصياتهم

- واصل بن عطاء - عمرو بن عبيد - ابو الهذيل العلاف - ابراهيم النظام - عثمان بن خالد الطويل - حفص

بن سالم - القاسم السعدي - الحسن بن ذكوان - عبد الرحيم الخياط - عبد السلام بن محمد الجبائي - ابو

يعقوب الشحام - أحمد بن خابط.

### المصادر

1- د. رشيد البندر، مذهب المعتزلة من الكلام الى الفلسفة (بيروت - لبنان، دار النبوغ، ط 1، 1415 هـ. ق - 1994 م).

2- السبحاني، جعفر، بحوث في الملل والنحل (قم - ايران، مؤسسة النشر الاسلامي، ط 2، 1415 هـ. ق).

- 3- الزين، محمد خليل، تاريخ الفرق الاسلامية (بيروت - لبنان، مؤسسة الاعلمي، ط 2، 1405 هـ. ق - 1985 م).
- 4- احمد امين، فجر الاسلام (بيروت - لبنان، دار الكتاب العربي، ط 11، 1975 م)، البغدادي، عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق (لبنان - بيروت، دار المعرفة، ط 1، 1415 هـ - 1994 م).
- 5- احمد امين، ظهر الاسلام (بيروت - لبنان، دار الكتاب العربي، ط 5، 1373 هـ. ق - 1953 م)، الاتابكي، يوسف بن تغري، النجوم الزاهرة (بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ط 1، 1413 هـ. ق - 1992 م)، اسد حيدر، الامام الصادق (ع) والمذاهب الاربعه (بيروت - لبنان، دار الكتاب العربي، ط 2، 1390 هـ. ق - 1969 م).
- 6- عارف تامر، معجم الفرق الاسلامية (بيروت - لبنان، دار المسيرة، 1990 م).
- 7- د. رشيد البندر، مذهب المعتزلة من الكلام الى الفلسفة (بيروت - لبنان، دار النبوغ، ط 1، 1415 هـ. ق - 1994 م).
- 8- الشهرستاني، ابو الفتح، موسوعة الملل والنحل (بيروت - لبنان، مؤسسة ناصر للثقافة، ط 1، 1981 م).
- 9- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق (لبنان - بيروت، دار المعرفة، ط 1، 1415 هـ - 1994 م).
- 10- ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والاهواء والنحل (بيروت - لبنان، دار الجيل، 1405 هـ - 1985 م).
- 11- الامين، شريف يحيى، معجم الفرق الاسلامية (بيروت - لبنان، دار الاضواء، ط 1، 1406 هـ. ق - 1986 م).
- 12- زهدي جار الله، المعتزلة (القاهرة - مصر، منشورات النادي العربي، مطبعة مصر، 1366 هـ. ق - 1947 م).
- 13- محمد عمارة، تيارات الفكر الاسلامي (بيروت - لبنان، دار الوحدة، 1985 م).
- 14- السبكي، طبقات الشافعية (القاهرة - مصر، مطبعة عيسى البابي، ط 1، 1383 هـ. ق - 1964 م)، اليعقوبي، أحمد بن جعفر، تاريخ اليعقوبي (بيروت - لبنان، دار صادر، ط 6، 1995 م).

### الاشعرية

اعداد وداد العاني - هولندا



وهي فرقة من متكلمي (مفكري) السنة ظهرت في بداية القرن الثالث الهجري في البصرة أسسها ابو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري اثر اختلافه مع استاذه الجبائي في مسألة الصلاح والأصلح، وتعد من اقوى التيارات الفكرية المواجهة للمذهب المعتزلي حتى صارت مذهباً رسمياً للسنة في جميع الاقطار بعد القرن السادس. وتنسب هذه الفرقة لأبي الحسن الأشعري البصري، الذي انشق عن فرقة المعتزلة. وقد اتخذت الأشاعرة البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة في محاجة خصومها من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم، لإثبات حقائق الدين والعقيدة الإسلامية.

انتشر المذهب الأشعري أولاً في العراق، ثم انتشر في العالم الإسلامي في عهد وزارة نظام الملك الذي كان أشعري العقيدة، وصاحب الكلمة النافذة في الإمبراطورية السلجوقية، وكذلك أصبحت العقيدة الأشعرية عقيدة شبه رسمية تتمتع بحماية الدولة.

وزاد في انتشارها وقوتها مدرسة بغداد النظامية، ومدرسة نيسابور النظامية، وكان يقوم عليهما رواد المذهب الأشعري، وكانت المدرسة النظامية في بغداد أكبر جامعة إسلامية في العالم الإسلامي وقتها، كما تبني المذهب وعمل على نشره المهدي بن تومرت مهدي الموحدين، ونور الدين محمود زنكي، والسلطان صلاح الدين الأيوبي، بالإضافة إلى اعتماد جمهرة من العلماء عليه، وبخاصة فقهاء الشافعية والمالكية المتأخرين. ولذلك انتشر المذهب في العالم الإسلامي كله، لا زال المذهب الأشعري سائداً في أكثر البلاد الإسلامية وله جامعاته ومعاهده المتعددة.

### التكوين

• أبو الحسن الأشعري: هو أبو الحسن علي بن إسماعيل، من ذرية أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ولد بالبصرة سنة 270 هـ ومرت حياته الفكرية بثلاث مراحل:

- المرحلة الأولى: عاش فيها في كنف أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة في عصره وتلقى علومه حتى صار نائبه وموضع ثقته. ولم يزل أبو الحسن يتزعم المعتزلة أربعين سنة.

- المرحلة الثانية: ثار فيه على مذهب الاعتزال الذي كان ينافح عنه، بعد أن اعتكف في بيته خمسة عشر يوماً، يفكر ويدرس ويستخير الله تعالى حتى اطمأنت نفسه، وأعلن البراءة من الاعتزال وخط لنفسه منهجاً جديداً يلجأ فيه إلى تأويل النصوص بما ظن أنه يتفق مع أحكام العقل وفيها اتبع طريقة عبد الله بن سعيد بن كلاب في إثبات الصفات السبع عن طريق العقل: الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، أما الصفات الخبرية كالوجه واليدين والقدم والساق فتأولها على ما ظن أنها تتفق مع أحكام العقل وهذه هي المرحلة التي ما زال الأشاعرة عليها.

- المرحلة الثالثة: إثبات الصفات جميعها لله تعالى من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تبديل ولا تمثيل، وفي هذه المرحلة كتب كتاب الإبانة عن أصول الديانة الذي عبر فيه عن تفضيله لعقيدة السلف ومنهجهم والذي كان حامل لوائه الإمام أحمد بن حنبل. ولم يقتصر على ذلك بل خلف مكتبة كبيرة في الدفاع عن السنة وشرح العقيدة تقدر بثمانية وستين مؤلفاً، توفي سنة 324 هـ ودفن ببغداد ونودي على جنازته: " اليوم مات ناصر السنة ".

• بعد وفاة أبو الحسن الأشعري، وعلى يد أئمة المذهب وواضعي أصوله وأركانها، أخذ المذهب الأشعري أكثر من طور، تعدد فيها اجتهاداتهم ومناهجهم في أصول المذهب وعقائده، وما ذلك إلا لأن المذهب لم يبين في البداية على منهج مؤصل، واضحة أصوله الاعتقادية، ولا كيفية التعامل مع النصوص الشرعية، بل تذبذبت مواقفهم واجتهاداتهم بين موافقة مذهب السلف واستخدام علم الكلام لتأييد العقيدة والرد على المعتزلة. من أبرز مظاهر ذلك التطور:

- القرب من أهل الكلام والاعتزال.

- الدخول في التصوف، والتصاق المذهب الأشعري به.

- الدخول في الفلسفة وجعلها جزء من المذهب.

### أبرز أئمة المذهب

من أوائل أئمة الأشعرية، بعد الأشعري، هو القاضي أبو بكر الباقلاني: (328-402 هـ) (950-1013 هـ) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، من كبار علماء الكلام، هذب بحوث الأشعري، وتكلم في مقدمات البراهين العقلية للتوحيد وغالى فيها كثيراً إذ لم ترد هذه المقدمات في كتاب ولا سنة، ثم انتهى إلى مذهب السلف وأثبت جميع الصفات كالوجه واليدين على الحقيقة وأبطل أصناف التأويلات التي يستعملها المؤولة وذلك في كتابه: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل.

ولد في البصرة وسكن بغداد وتوفي فيها. وجهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية منازرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها. من كتبه: إعجاز القرآن، الإنصاف، مناقب الأئمة، دقائق الكلام، الملل والنحل، الاستبصار، تمهيد الأوائل، كشف أسرار الباطنية. ثم تلاه شخصيات كثيرة معروفة، مثل:



- أبو إسحاق الشيرازي: (293-476هـ) (1003-1083م).
- أبو حامد الغزالي: (450-505هـ) (1058-1111م)
- أبو إسحاق الإسفراييني: (418هـ) (1027م)
- إمام الحرمين أبو المعالي الجويني: (419-478هـ) (1028-1085م).
- الإمام الفخر الرازي (544هـ - 1150م) (606هـ - 1210م)

### الأفكار والمعتقدات

• مصدر التلقي عند الأشاعرة: الكتاب والسنة على مقتضى قواعد علم الكلام ولذلك فإنهم يقدمون العقل على النقل عند التعارض، صرح بذلك الرازي في القانون الكلي للمذهب في أساس التقديس والآمدي وابن فورك وغيرهم.

- عدم الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة لأنها لا تفيد العلم اليقيني ولا مانع من الاحتجاج بها في مسائل السمعيات أو فيما لا يعارض القانون العقلي. والمتواتر منها يجب تأويله، ولا يخفى مخالفة هذا لما كان عليه السلف الصالح من أصحاب القرون المفضلة ومن سار على نهجهم حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يرسل الرسل فرادى لتبليغ الإسلام كما أرسل معاذاً إلى أهل اليمن، ولقوله صلى الله عليه وسلم "نضر الله امرءاً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها كما سمعها ... " الحديث، وحديث تحويل القبلة وغير ذلك من الأدلة.

- مذهب طائفة منهم وهم: صوفيتهم كالغزالي والجامي في مصدر التلقي، تقديم الكشف والذوق على النص، وتأويل النص ليوافقه. ويسمون هذا "العلم اللدني" جرياً على قاعدة الصوفية "حدثني قلبي عن ربي". وكما وضح ذلك في الرسالة اللدانية 114/1-118 من مجموعة القصور العوالي، وكبرى اليقينيات لمحمد سعيد رمضان البوطي، الإهداء - 32-35. ولا يخفى ما في هذا من البطالان والمخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة وإلا فما الفائدة من إرسال الرسل وإنزال الكتب.

إن مدرسة الأشعرية الفكرية لا تزال مهيمنة على الحياة الدينية في العالم الإسلامي، ولكنها كما يقول الشيخ أبو الحسن الندوي: "فقدت حيويتها ونشاطها الفكري، وضعف إنتاجها في الزمن الأخير ضعفاً شديداً وبدأت فيها آثار الهرم والإعياء". لماذا؟

### المصادر:

- 1- السبحاني، جعفر، بحوث في الملل والنحل (قم - إيران، مؤسسة النشر الاسلامي، ط 2، 1415 هـ. ق.)
- 2- الزين، محمد خليل، تاريخ الفرق الاسلامية (بيروت - لبنان، مؤسسة الاعلمي، ط 2، 1405 هـ. ق. - 1985 م).
- 3- الامين، شريف يحيى، معجم الفرق الاسلامية، (بيروت - لبنان، دار الاضواء، ط 1، 1406 هـ. ق. - 1986 م.)
- 4- مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط (القاهرة - مصر، ط 2، 1308 هـ. ق. - 1960 م).
- 5- احمد امين، ظهر الاسلام (بيروت - لبنان، دار الكتاب العربي، ط 5، 1373 هـ. ق. - 1953 م).
- 6- السبحاني، جعفر، بحوث في الملل والنحل (قم - إيران، مؤسسة النشر الاسلامي، ط 2، 1415 هـ. ق.).
- 7- العربي، د - محمد، المناهج والمذاهب الفكرية والعلوم عند العرب (بيروت - لبنان، دار الفكر اللبناني، ط 1، 1994 م).
- 8- ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والاهواء والنحل (بيروت - لبنان، دار الجيل، 1405 هـ - 1985 م).
- 9- الاشعري، علي بن اسماعيل، مقالات الاسلاميين (دار النشر فرانزشتاينر بفسبادن، ط 3، 1400 هـ. - 1980 م).
- 10- الشريف المرتضى، علي بن الحسين، شرح جمل العلم والعمل (قم - إيران، دار الاسوة، ط 1، 1414 هـ. ق.).
- 11- ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الاعيان، (بيروت - لبنان، دار الفكر).
- 12- الفخر الرازي، محمد بن عمر، تفسير الفخر الرازي (بيروت - لبنان، دار الفكر، 1993 م - 1414 هـ. ق.).



وهي فرقة فكرية عُرِفَتْ باسم "إخوان الصفاء وخلق الوفاء"، اشتهرت بتصنيفها مجموعة من الرسائل في مختلف فروع الفلسفة والعلوم الإنسانية. وقد عرفت هذه الرسائل رواجاً كبيراً في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، كما يظهر من خلال العدد الكبير الذي وصلنا من نسخها المخطوطة، ومنها نسخة أنجزت في بغداد عام 686 هـ، تزيينها منمنمتان بديعتان تختصران جمالية فن التصوير العباسي الخاصة بفن الكتاب. اختلفت الآراء في تحديد مذهب هذه الجماعة ودورها في الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية، والثابت أن اسم الجماعة خرج إلى النور في القرن العاشر الميلادي حيث "اضطربت أحوال الخلافة، ولم يبق لها رونق ولا وزارة، وتملك البويهيون، وصارت الوزارة من جهتهم والأعمال إليهم"، على ما كتب ابن الطقطقي في "الفخري في الآداب السلطانية". وكان البويهيون من الشيعة الذين اتبعوا مذهب الزيدية، وهي من أقرب الفرق إلى آراء مذهب السنة، ذلك أنها لا تحصر الإمامة في سلالة الإمام الحسين بن علي (ع)، كما أنها لا تشارك غيرها من الفرق الشيعية في ذم الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان (رض)، والقدح في الصحابة الذين لم يبايعوا الإمام علي بالخلافة بعد وفاة الرسول (ص).  
الأعوان على الخير

يجزم الكثير من البحاثة بتشيع إخوان الصفاء، إلا أنهم يختلفون في تحديد الفرقة التي ينتمون إليها، فمنهم من يحسبونهم من الإسماعيليين، ومنهم من يرجح انتماءهم إلى الإثني عشرية، ومنهم من يربط بين مذهبهم ومذهب الزيدية. ونجد في الرسائل مسحة شيعية عامة تتجلى في كثير من معانيها، إلا أن الفكر الذي تحمله هذه الرسائل يتخطى حدود المذاهب الشيعية المتعددة، كما أنه يخرج على حدود الفرق الإسلامية المعروفة. فهو فكر انتقائي يجمع بين الكثير من المعتقدات الدينية والمذاهب الفكرية، ويبتغي أصحابه جمع حكمة كل الأمم والأديان. مذهبهم بحسب تعبيرهم "يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعها، وذلك أنه النظر في جميع الموجودات بأسرها، الحسية والعقلية، من أولها إلى آخرها، ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها، بعين الحقيقة، من حيث هي كلها مبدأ واحد، وعلة واحدة، وعالم واحد" (الرسالة 45). وتبرز هذه النظرة الانتقائية التوفيقية بشكل خاص في تحديد الإخوان لمزايا الإنسان الكامل، وقد وجدوه في "العالم الخبير الفاضل، الذكي المستبصر، الفارسي النسبة، العربي الدين، الحنفي المذهب، العراقي الآداب، العبراني المخبر، المسيحي المنهج، الشامي النسك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السيرة" (الرسالة 22).

لا نعرف الكثير عن مؤسسي هذه الجماعة التي استمدت اسمها على الأرجح من تعبير لابن المقفع في "كليلة ودمنة"، حيث يتوجه ديشليم الملك بالكلام لبديبا الفيلسوف في مطلع قصة "الحمامة المطوقة" ويقول له: "حدثني، إن رأيت، عن إخوان الصفاء كيف يبدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض". ويجب الفيلسوف: "إن العاقل لا يعدل بالإخوان شينا، فالإخوان هم الأعوان على الخير كله، والمؤاسون عند ما ينوب من المكروه". وقد احتار الباحثون القدامى في معرفة مصنفي الرسائل الذين كتموا أسماءهم، مما فتح

باب الاجتهاد أمام كل قوم في نسبة هذه الرسائل "بطريق الحدس والتخمين"، على ما لاحظ جمال الدين القفطي (646 هـ) في "أخبار العلماء بأخبار الحكماء". ويقدم أبو حيان التوحيدي شهادة بالغة الأهمية في هذا الموضوع، ذلك أنه يكشف عن أسماء خمسة من مؤلفي هذه الرسائل في كتابه "الإمتاع والمؤانسة". كما هو معروف، يضم هذا الكتاب مسامرات سبع وثلاثين ليلة أمضاها التوحيدي في منادمة الوزير أبي عبد الله العارض. ويأتي ذكر إخوان الصفا في الليلة السابعة عشرة حيث يسأل الوزير عن زيد بن رفاعه وعن مذهبه، ويجيب الكاتب: "هناك ذكاء غالب، وذهن وقاد، ويقظة حاضرة، وسوانح متناصرة، ومتسع في فنون النظم والنثر، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس، وسماع للمقالات، وتبصر في الآراء والديانات، وتصرف في كل فن: إما بالشدو الموهم، وإما بالتبصر المفهم، وإما بالتناهي المفهم. فقال: فعلى هذا ما مذهبه؟ قلت: لا ينسب إلى شيء، ولا يعرف برهط، لجيشانه بكل شيء، وغليانه في كل باب. ولاختلاف ما يبدو من بسطة تبيان، وسطوته بلسانه، وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً، وصادف بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة؛ منهم أبو سليمان محمد بن معشر البيهقي، ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني والعوفي وغيرهم، فصحبهم وخدمهم؛ وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة، وتضافت بالصدقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات؛ ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية".

أكد البيهقي (568 هـ) في "تنمة صوان الحكمة" كلام التوحيدي في نسبة الرسائل إلى المؤلفين الخمسة، واستعاد القفطي (646 هـ) أسماء هؤلاء الحكماء. وأورد شمس الدين الشهرزوري (684 هـ) في كتابه "نزهة الأرواح وروضة الأفراح" قائمة مشابهة من المؤلفين، وحذا حذوه غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري (685 هـ) عند حديثه عن إخوان الصفاء في كتابه "تاريخ مختصر الدول". من جهة أخرى، نجد في المصادر الإسماعيلية تبنياً لهذه الرسائل. ففي كتاب "عيون الأخبار"، ينسب الداعي اليمني إدريس عماد الدين (838 هـ) رسائل إخوان الصفاء إلى "الإمام التقي أحمد بن عبد الله بن إسماعيل"، ويتبنى هذا الرأي الداعي شرف الدين جعفر بن محمد بن حمزة في "الرسالة الموقظة"، بينما ينسب ابن حيون المغربي التميمي رسائل الإخوان إلى "الحرم الأربعة: عبد الله بن حمدان، وعبد الله بن سعيد، وعبد الله بن ميمون، وعبد الله بن مبارك". إلا أن هذه المصادر التي اعتمدها البعض لإثبات هوية الإخوان الإسماعيلية ليست معاصرة لهذه الجماعة، فهي تعود إلى العصر الفاطمي وما بعده بقرون، بينما تحفل الرسائل بكتابات تتناول أحداث من القرن الرابع الهجري.

### الخلود في النعيم

تحتفظ مكتبة السلمانية في إسطنبول بنسخة مخطوطة من "رسائل إخوان الصفاء" أنجزت عام 686 هـ في بغداد، تزينها منممتان تتصدران صفحات الكتاب. تحتل المنممة الأولى ظهر الورقة الثالثة وتعلوها كتابة من ثلاثة أسطر تقول: "نقل من تنمة صوان الحكمة لظهير الدين أبي القسم البيهقي أن خمسة من الحكماء اجتمعوا وصنفوا رسائل إخوان الصفا وهم أبو سليمان محمد بن مسعد البستي ويعرف بالمقدسي وأبو الحسن علي بن زهرون الزنجاني وأبو أحمد النهرجوري والعوفي وزيد بن رفاعه وألفاظ الكتاب للمقدسي". في المقابل، تحتل المنممة الثانية وجه الورقة الرابعة ويكفلها بخط عريض عنوان الكتاب: "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا". صوّرت هاتان المنممتان بعد مرور زهاء ثلاثة عقود على سقوط بغداد والخلافة العباسية، إلا أننا لا نجد فيهما أي أثر للمؤثرات الآسيوية التي ظهرت في فن الكتاب في تلك المرحلة. يختصر هذا العمل التشكيلي المؤلف من لوحتين مدرسة بلاد الرافدين في فن التصوير، برهافة قل نظيرها. يحضر الحكماء إلى جانب تلامذتهم وخدمهم في دار تتألف من طبقتين، وفقاً لنموذج إيقونوغرافي متداول نجده في بعض من أشهر المنمنمات العباسية، كما في تصوير الواسطي للمقامة الدمشقية في نسخة من نسخ "مقامات الحريري" المحفوظة في المكتبة الوطنية الفرنسية. يتوزع المؤلفون الخمسة على الطبقة الأرضية وسط أربعة من الخدم، بينما يحتل الطبقة العليا أربعة من المريدين توزعوا بشكل متساو على صفحتي المخطوط. تفوق مقاييس الشخصيات الرئيسية من يحيطها في الحجم، مما يقوّي حضورها في هذا التأليف التشكيلي المسبك. وفقاً للتقليد السائد في مدرسة الرافدين، تكمل رؤوس الحكماء هالات دائرية شبيهة بتلك التي ترمز إلى القداسة في الفنون المسيحية، إلا أن هذه الهالات تخلو من هذه الدلالة في القاموس العباسي، حيث تحضر كعنصر شكلاني صرف لا يحمل أي رمزية خاصة.

يحضر اللون الأزرق بقوة ويغطي على الألوان الأخرى. خيوط الذهب التي تلفّ عناصر هذا التأليف تلقي ببريقها على هذا العمل الفذ وتهبه بعداً أثرياً ملكياً. الوجوه في غالبيتها نصف جانبية تتحاور وتتلاقى بصمت. ثمّة من يقرأ، وثمّة من يدوّن وثمّة من يتسامر ويتناقش مع الآخر. هم أخوان الصفا وخلان الوفا، يدعوننا إلى الدخول إلى مدينتهم، تلك التي يكون أساسها على تقوى الله، ويكون بناؤها على "الصدق في الأقاويل، والتصديق في الضمائر، وتتم أركانها على الوفاء والأمانة، كيما تدوم، ويكون كمالها على الغرض في الغاية القصوى التي هي الخلود في النعيم" (الرسالة 48).

### المذهب الاسماعيلي

علي سالم النجفي - الكويت



تمكن الاسماعيليون، انطلاقاً من بغداد، ثم السلمية في سوريا، وبعدها المهديّة في تونس، من تكوين الامبراطورية الفاطمية التي اسست القاهرة كعاصمة لها..

وهي إحدى الفرق الإسلامية المنحدرة من المذهب الإسلامي الشيعي. وتعد الاسماعيلية ثاني اكبر جمهور الشيعة بعد الاثني عشرية. ولعل معظم جمهور الاسماعيلية يتركز في شبه القارة الهندية، سوريا، العربية السعودية، اليمن، وشرق القارة الافريقية. وفي الاونة الاخيرة، انتشرت الاسماعيلية في القارة الاوروبية وامريكا الشمالية نتيجة هجرات الاسماعيليين لتلك الاماكن.

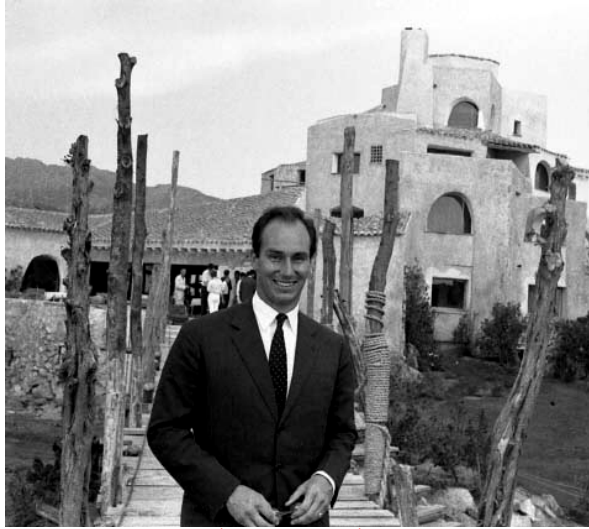
وتتشترك الاسماعيلية مع الاثنا عشرية بمفهوم الانمة المنحدرين من نبي الاسلام محمد (ص) وابنته فاطمة (ع) ولكن انشق الاسماعيليون عن جمهور الشيعة الاثنا عشرية عند الامام السادس (جعفر الصادق) (ع) ومن سيخلفه من ابناؤه. فجنح الاسماعيليون مع ابن جعفر الصادق الاكبر "اسماعيل" (ع) بينما تبني الاثنا عشريون ابنه الاصغر "موسى الكاظم".

وفي القرن العاشر الميلادي، هاجر امام الاسماعيلية "عبدالله المهدي" (ع) ليستقر في تونس ويؤسس فيها الدولة الفاطمية. وتمكن من بعده خلفاؤه من ضم شمال افريقيا ومن ضمنها مصر وجزء من شبه الجزيرة العربية و بلاد الشام و صقلية و جنوب إيطاليا، وانتقلت عاصمة الدولة الفاطمية الى العاصمة الجديدة "القاهرة". وتجدر الإشارة ان الدروز تفرعوا من الاسماعيلية عند امام الاسماعيلية السادس عشر "الحاكم" (ع).

#### النشأة:

- ادعت الفرقة الإسماعيلية ان اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق (ع) قد نص على إمامة ابنه اسماعيل، الا انه مات في حياة ابيه وخلف ولداً يدعى محمد بن اسماعيل لم ينص الامام (ع) على امامته ونص على امامته ولده موسى الكاظم (ع) ومنذ ذلك الحين اعلن رجالات الإسماعيلية مخالفتهم وقالوا ان الامام محمد هو بن اسماعيل وان انتقلها الى الامام موسى الكاظم (ع) خلاف عمل مذهب التشيع. والرأي الآخر يصور الاختلاف الذي حدث حول حياة اسماعيل بن الامام الصادق (ع) وتضارب الآراء حول امامته، فجمهور المؤرخين يقولون انه مات في حياة ابيه سنة 138 وعمل (ع) عليه محضراً واشهد الشهود لذلك، وقيل غير هذا، وفسر الاسماعيلي عارف تامر مسألة الاشهاد على وفاته بانها عملية تغطية لستره عن اعين

العباسيين الذين كانوا يطاردونه بسبب نشاطه المتزايد في نشر التعاليم التي اعتبرتها الدولة العباسية منافية لقوانينها.



**اسماعيل اغا خان، امير الطائفة الاسماعيلية الراحل ووالد الامير الحالي.**

ان سلالة امراء الاسماعيلية تنحدر من الامام اسماعيل بن جعفر الصادق، الذي هجر العراق ايام العباسيين..

- روج دعاة الإسماعيلية مذهبهم على اساس الدعوة السرية وهذه الدعوة تنطوي على تعاليم تدريجية يتلقونها مريدو الاندماج في الجماعة على مراتب متتالية وتبدأ هذه المراحل بدراسة دقيقة لنفسية من يراد دعوته.

- تبدأ المرحلة الاولى للدعوة الإسماعيلية من منتصف القرن الثاني الهجري وحتى استقرار حكم الفاطميين نهاية القرن الثالث واستمرت اكثر من قرن ونصف عاشوا فيها تقية وسرية تامة وتحت مطاردة ورقابة السلطات العباسية.

- كان محمد بن اسماعيل يقيم اول الأمر في المدينة وامعن انصاره في التخفي ونشر الدعوة له سرّاً في عهد حكام بني العباس المهدي والهادي والرشيد، ولما ذاعت دعوته في خلافة الرشيد ايقن ان بقاءه في المدينة سيسهل على العباسيين مهمة تتبع حركاته والتخلص منه فرحل عنها شرقاً واخذ ينتقل بين البلاد الإسلامية فذهب الى الري ثم انتقل الى جبل دماوند القريب منها واستقر هناك في قرية تدعى سملا اطلق عليها فيما بعد اسم (محمد آباد) نسبة اليه، ولما توفي محمد خلفه في الإمامة ولده (عبد الله) الذي بالغ في الاستتار حتى عن اخص دعاة واتباعه، وتابعه خلفاؤه في هذا الاستتار لان العباسيين كانوا يلاحقونهم للقضاء عليهم واستقر عبدالله ابن محمد بن اسماعيل في سلمية بسورية.

- كان اول انتشار واسع للإسماعيلية في اليمن فقد استطاع الداعي الاسماعيلي (الحسين بن حوشب) الملقب بمنصور اليمن ان ينجح في دعوته في اليمن وان يتغلغل في القبائل اليمنية فيركز فيها المذهب الاسماعيلي ثم يقودها باسم الامام المستور فيفتح بها القلاع والحصون ويسيطر على رقعة من الأرض وان يقيم اول دولة اسماعيلية سبقت الدولة الفاطمية الكبرى بنحو واحد وثلاثين سنة، ولم يقف ابن حوشب نشاطه على اليمن وحدها بل فرق الدعاة في البحرين واليمامة والسند والهند والمغرب ومصر وكان آخر دعاة الى المغرب ابو عبد الله الشيعي.

- خلال القرن الخامس الهجري دب الضعف والانحلال في صفوف الاسماعيلية فانشقت الحركة على نفسها وصارت فرقا مختلفة، وقد حدث الانشقاق الأول سنة (411 هـ) عندما اعلن الحاكم بأمر الله بان الجسد الالهي قد حلّ فيه ثم اختفى وربما مات مقتولا، فانفصلت الطائفة الدرزية عن بقية الإسماعيلية لاعتقادهم بانه لم يمّت وانه سيعود فهو الامام المنتظر عند هذه الطائفة.

اتخذ زعماء الحركة الإسماعيلية من سلمية في سورية مركزاً للدعوة ونجحت دعوتهم فيها نجاحاً باهراً، وكذلك في البصرة والكوفة من العراق، ثم في مصر وشمال افريقية وبلاد الهند واستمرت دولتهم في اليمن خمسة قرون حتى انتقال مركز دعوتهم الى كوجارت واستطاع دعاة الفرقة النفوذ الى صقلية وتاهرت.



## المعتقدات:

- يعد الامام المظهر الاول والمثل الاعلى، وللائمة درجات ومقامات ولهم صلاحيات محدودة لا يتجاوزونها وهي: الامام المقيم والامام الاساس والامام المستقر والامام المستودع.
- ان للقرآن ظاهراً وباطناً وان الاعتماد على الظاهر دون الباطن مخالف لروح العقيدة الإسماعيلية.
- اعتقد فرع منهم يدعى بان ادوار الامامة سبعة وان الانتهاء الى السابع هو اخر الدور وهو المراد بالقيامة اما الإسماعيلية التعليمية - وهي فرع آخر - فبدأ مذهبهم ابطال الرأي وابطال تصرف العقول ودعوة الخلق الى التعليم من الامام المعصوم وانه لامدرك للعلوم الا التعليم.
- ان الارض لا تخلو من امام حي قائم اما ظاهر مكشوف واما باطن مستور، فاذا كان الامام ظاهراً يجوز ان تكون حجته مستورة واذا كان الامام مستوراً لا بد ان تكون حجته ودعائه ظاهرين.
- نفوا جميع الصفات عنه سبحانه وتعالى، لان كل صفة وموصوف مخلوق، بل ذهبوا الى نفي التسمية عنه وانه لا موجود ولا غير موجود.
- يقسم العالم الى اثني عشر قسماً مثله مثل السنة الزمنية فالسنة مقسمة الى اثني عشر شهراً، وسَمَوْا كل قسم جزيرة، وجعلوا على كل جزيرة داعياً، وسموه داعي دعاة الجزيرة أو حجة الجزيرة.
- ينبغي ان يكون المرشد قد بلغ حد الأربعين ولا يجوز لمن هو دون ذلك ان يفتح او يسلم الى احد المواعظ والارشادات والهداية.
- الوحي ما قبلته نفس الرسول (ص) من العقل وقبله العقل من امر باريه ولم يخالفه علم توألفه النفس الناطقة بقواها.
- ان الله لم يخلق العالم خلقاً مباشراً وانما ابدع العقل الكلي يعمل من اعمال الارادة وهو (الامر) وان العقل الكلي محل لجميع الصفات الالهية وهو عندهم الاله ممثلاً في مظاهره الخارجية.
- الجنة رمز الى حالة النفس التي حصلت العلم الكامل ويرمز الى الجحيم بحالة الجهالة.
- ان الله تعالى لم يحكم على نفس قط بالجحيم الأبدى، ولكن النفس تعود الى الأرض ثانية بالتناسخ الى ان تعرف الامام الموجود في العصر الذي عادت فيه وتأخذ عنه المعارف الدينية.
- ان النبي (ص) انقطعت عنه الرسالة في اليوم الذي أمر فيه بنصب الامام علي بن ابي طالب (ع) للناس بغدير خم.
- ضرورة وجود الامام المعصوم المنصوص عليه من نسل الامام علي بن ابي طالب (ع)، والنص على الامام يجب ان يكون من الامام الذي سبقه بحيث تتسلسل الامامة في الاعقاب أي ينص الامام الاب على امامة احد ابنائه.
- على راس الثلاثمئة تطلع الشمس من مغربها، واولوا هذا بخروج المهدي، وقالوا يكون بين محمد بن اسماعيل وظهور المهدي ثلاثة ائمة من أهل الستر.



الجامع الازهر في القاهرة قد بناه الفاطميون كمركز لتدريس المذهب الشيعي الاسماعيلي، ثم تحول بعد الى ذلك الى المذاهب السنية بعد سقوط الدولة الفاطمية..

## من تاريخهم

- استطاع الزعماء الاسماعيليون تسخير شمال افريقية في فترة وجيزة لم تستغرق اكثر من عشرين سنة، واقاموا الدولة الفاطمية التي تعد نصراً كبيراً في تلك البقعة من البلاد الاسلامية وقد استمر حكمهم اكثر من قرنين.

- تمكن عبيد الله المهدي زعيم الدولة الفاطمية في شمال افريقية ان يبسط نفوذه على بلاد افريقية من المغرب وحتى مصر واستمرت فترة حكمه حدود خمس وعشرين سنة وبعده تولى قيادة البلاد ابنه ابو القاسم محمد الملقب بالقائم بامر الله ويعتبر الامام والخليفة الثاني من زعماء الفاطمية، وقد تميزت فترة حكمه بالشدة وفرض الضرائب لتأمين نفقات الجيش حتى سببت هذه السياسة انتفاضة البربر ضده وقد قاد تحركهم ابو يزيد مخلد بن كيداد حيث استطاع ان يفرض قدرته على جنوب افريقية والقيروان، الا انه في النهاية تراجع امام قدرات الفاطميين واعتزل الحياة السياسية.

## المصادر:

- 1- الشنتناوي، خورشيد، دائرة المعارف الاسلامية، (بيروت - لبنان، دار المعرفة).
- 2- عرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية (بغداد - العراق، مطبعة اسعد، دار التربية).
- 3- الامين، شريف يحيى، معجم الفرق الاسلامية، (بيروت - لبنان، دار الاضواء، ط1، 1406 هـ. ق - 1986 م).
- 4- د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام (مصر - القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط7، 1965 م).
- 5- الاشعري، سعد بن عبد الله، المقالات والفرق (طهران - ايران، مركز انتشارات علمي وفرهنكي، ط3، 1361 هـ. ش).
- 6- د. فرهاد دفتري، تاريخ وعقائد اسماعيليه (طهران - ايران، ترجمة فريدون بدره أي، مط سهند، ط1، 1375 هـ. ش).
- 7- مذاهب اهل سنت وفرقة اسماعيليه.
- 8- الزين، محمد خليل، تاريخ الفرق الاسلامية (بيروت - لبنان، مؤسسة الاعلمي، ط2، 1405 هـ. ق - 1985 م).
- 9- جويني، محمد، تاريخ جهانكشاي جويني (طهران - ايران، دنيائي كتاب، 1375 هـ. ش).
- 10- محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر.
- 11- الامين، حسن، الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي (قم - ايران، مركز الغدير للدراسات الاسلامية، ط2، 1417 هـ. ق - 1997 م).
- 12- الغزالي، ابو حامد، فضائح الباطنية (القاهرة، مصر، المكتبة العربية، الدار القومية، 1964 م).
- 13- ابن الجوزي، عبد الرحمن، تلبيس ابليس (بغداد - العراق، مكتبة الشرق الجديد، ط2، 1982 م - 1402 هـ. ق).
- 14- بدوي، عبد الرحمان، مذاهب الاسلاميين، (بيروت - لبنان، دار العلم للملايين، 1971 م).
- 15- مصطفى غالب، اعلام الاسماعيلية، (بيروت - لبنان، دار اليقظة العربية، 1964 م).
- 16- عارف تامر، اربع رسائل اسماعيلية (بيروت - لبنان، دار مكتبة الحياة، ط2، 1978 م).
- 17- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، (بيروت - لبنان، دار صادر، 1385 هـ. ق - 1965 م).

## القرامطة

د. احمد جمعة - اللاذقية



### اهوار جنوب العراق والاحواز كانت من معاقل القرامطة

هي حركة دينية سياسية تفرعت من المبركية إحدى فرق الإسماعيلية دعيت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها حمدان بن الأشعث قرمط في جنوب العراق عهد الخليفة المعتضد العباسي واتبعت تنظيمًا سرياً دقيقاً. اعتمدت الفرقة القرمطية على الجانب الاعلامي وبعث الدعاة إلى الأقاليم كاليمن والحجاز والهند ومصر وبلعك وواسط وسلمية وعمان وخراسان واستطاعت بذلك جذب الاعداد الكبيرة من الموالين لها في تلك البلدان ألفوا فيما بعد القواعد الشعبية التي مكنتهم من تنظيم الجيوش والتوجه لنشر عقائدهم. انتشرت الفرقة القرمطية في الكوفة وواسط والبصرة من العراق، ثم ظهر دعائهم في البحرين والقطيف، وعظم أمرهم واغاروا على نواحي هجر والاحساء والقطيف والطائف وبلغت دعوتهم إلى اليمن وتغلّبوا على سائر مدن اليمن وساروا إلى بلعك وقتلوا عامة أهلها ولم يبق منهم إلا اليسير، ثم ساروا إلى سلمية وصالحوهم واعطوهم الأمان، واستولوا على دمشق عام (260) ومنها توجهوا إلى مصر واجتمع معهم خلق كثير من العرب والاشيذية، وظهر أمرهم في المغرب وعمان، وفي بلاد الديلم استطاع أبو حاتم نشر فكر القرامطة، وفي نيشابور تولى الدعوة لهم الشعراني.

### تاريخ تطورها

تميزت الفرقة القرمطية بالسرية التامة وتكتمها واخفاؤها للحقائق التي تنطوي عليها والتستر على كبار قادتها حتى اخفوا شخصياتهم على المقربين إليهم مما مكّنهم من النفوذ إلى الكثير من المجتمعات وتعليمهم مذهبهم من دون الكشف عن هوياتهم. اهتمام زعماء القرامطة بكل ما يخدم طموحاتهم ومخططاتهم الثورية والاجتماعية بدرجة انهم لم يعيروا اهتماماً للانتماء الاسمي او الديني أو البحث عن الرسالة ومن هو الخليفة أو ورثته أو المهدي المنتظر. اتخذت القيادة القرمطية التدابير المالية بفرض ضرائب متعددة لتحصل على رصيد مادي ضخم يمكنها من تنفيذ مشاريعها وبرامجها فطرحت أنواعاً من الضرائب كضريبة الفطرة وهي درهم على الرجال والنساء والأولاد، وضريبة الهجرة وهي دينار عن كل من ادرك الحنث، وضريبة البلغة وهي سبعة دنائير، وضريبة الخمس وهي خمس الأرباح السنوية، وأسست نظام الألفة وهي جمع الأموال في موضع واحد، كل هذا مكنها لأن تبني كياناً اقتصادياً متيناً. اتباع القرامطة لنهج العنف وانحرفهم عن مسيرة الحركة الإسماعيلية وكانوا تواقين بعنف إلى إمام مهدي منتظر يسارع في انقاذهم من الفوضى الاقتصادية والقلق النفسي فأصروا على أن يباشروا فوراً في اعلان دولة في بلاد الشام.

وفي البحرين ظهر رجل من القرامطة يعرف بأبي سعيد الجنابي فاجتمع إليه جماعة من الأعراب وقوي أمره ثم سار إلى القطيف. وفي سنة 287 هـ أغاروا على نواحي هجر وقرب بعضهم من نواحي البصرة. - أسسوا لهم موضعاً سموه بدار الهجرة يهاجرون إليها ويجتمعون بها وبنوا حولها سوراً منيعاً عرضه ثمانية أذرع ومن ورائه خندق عظيم وانتقل إليها الرجال والنساء من كل مكان وذلك سنة (277هـ) فلم يبق حينئذ أحد إلا خافهم لقوتهم وتمكنهم في البلاد.

- في سنة (289 هـ) احسّت الخلافة العباسية بخطر القرامطة وازدياد حشودهم فأمرت عاملها في سورية شبل الديلمي فألف جيشاً جراراً وهاجم الجيوش القرمطية ولكنهم دحروا هذه القوة بعد ان قتلوا عدداً كبيراً منها.

- تمكن الحسين بن زكرويه أبو مهزول الملقب بصاحب الخال من تجهيز الجيوش وفتح الرقة وحلب وحماة وحمص ودمشق وسلمية وحقق الانتصارات الباهرة وخطب على المنابر وأيده أهلها.

- التبس على بعض كبار دعاة القرامطة الأمر في أن إمامهم هو عبيد الله المهدي وكانوا لا يزالون يدينون بالولاء والطاعة للإمام محمد بن إسماعيل الذي بذر بذور الدعوة بينهم واعتبروه المهدي المنتظر ولم تفلح الحجج والبراهين التي اعتمدها الدعوة في اقناعهم بأن الإمام عبيد الله المهدي بموجب النص الذي أودعه الإمام محمد بن إسماعيل في عقبه ويرجع هذا التعنت من بعض دعاة القرامطة لانقطاعهم في البادية ولعدم احتكاكهم الدائم مع مركز الدعوة الإسماعيلية في سلمية وتتبعهم تطورات الدعوة فاعتبروا أن هذه التطورات خارجة عن مفهوم التعاليم الأولية التي لفتوها.

- وفي سنة 317 هـ هاجم القرامطة مكة ونهبوا الكعبة واقتلعوا الحجر الأسود ولما بلغ ذلك الإمام الإسماعيلي والخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي كتب إلى أبي طاهر ينكر ذلك ويلومه ويقول: « حقت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت » وأمره أن يعيد الحجر الأسود إلى موضعه، فأعاده.

- انكر القرامطة على الإسماعيليين والفاطميين سياسة الملاينة التي اعتمدها في كسب العناصر غير الإسماعيلية وقد جسدوا معتقداتهم بالعنف والبطش واستحلوا استعراض الناس بالسيف وقتلهم واخذ أموالهم والشهادة عليهم بالكفر.

- استغل القرامطة شعار الانتساب إلى البيت العلوي الثائر المضطهد ونادوا بالعدالة الاجتماعية وطرحوا أنفسهم في قالب ديني ثوري مما أعطى لتحركهم الإطار الشرعي ولا يعرف التاريخ الإسلامي مذهبا ثوريا لا يستند إلى أساس رוחي أو حركة ثورية عامة لا ترجع إلى الدين: وكان من المألوف في العصور الإسلامية أن تظهر الجماعات الداعية إلى الثورة السياسية مستنيرة بالمذهب الشيعي في سبيل نشر رسالتها وتأييد رجالها إلى أن يستتب لها الأمر فتسفر عن حقيقة أمرها.



**البحرين كانت من أهم مركز نشاطات القرامطة**

#### **معتقداتهم**

- قالوا: إن النبي (ص) نص على علي بن أبي طالب، وإن علياً نص على إمامة ابنه الحسن، وإن الحسن نص على إمامة أخيه الحسين، وإن الحسين نص على إمامة ابنه علي، وإن علياً نص على إمامة ابنه محمد الباقر، ونص محمد على إمامة ابنه جعفر الصادق، ونص جعفر على ابن ابنه محمد بن إسماعيل، وزعموا أن محمد بن إسماعيل حي إلى اليوم لم يموت، ولن يموت حتى يملك الأرض، وأنه هو المهدي الذي تقدمت البشارة به، واحتجوا في ذلك بأخبار رويها عن أسلافهم يخبرون فيها أن سابع الأئمة قائمهم.

- اثبتوا النبوة ظاهرا وانكروا الوحي وهبوط الملائكة وأولوا المعجزات فجعلوها رموزا: فتعبان موسى حجته والغمام أمره وانكروا كون عيسى من غير أب بل هو رمز اخذ العلم من غير إمام وحياء الموتى إشارة إلى العلم ونُبغ الماء من الأصابع إشارة إلى كثرة العلم وطلوع الشمس من المغرب خروج الإمام.

- أن الله بدا له في إمامة جعفر وإسماعيل فصيها في محمد بن إسماعيل وزعموا أن محمد بن إسماعيل حي وأنه غائب مستتر في بلاد الروم. ومعنى القائم عندهم أنه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة وينسخ بها

شريعة محمد (ص)، وان محمد بن إسماعيل من أولي العزم، وأولو العزم عندهم سبعة.  
- ان جميع الأشياء التي فرضها الله تعالى على عباده ومنها نبيه محمد (ص) وأمر بها لها ظاهر وباطن،  
وان جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة امثال مضروبة وتحتها معان هي بطونها  
وعليها العمل.

- أقرروا حصر ممتلكاتهم في بيت المال وسنوا التشريعات التي تحدد صلاحية الفرد وتبين حقوقه ضمن  
المجموع وضمنوا حياة العاجز والعاطل والعامل والصانع والفلاح.  
- استحلوا استعراض الناس بالسيف وقتلهم وأخذ أموالهم والشهادة عليهم بالكفر.  
- زعموا انه يجب عليهم ان يبدأوا بقتل من قال بالإمامة ممن ليس على قولهم وخاصة من قال بإمامة  
موسى بن جعفر وولده من بعده.

- قسموا المجتمع إلى أربع طبقات وهي:

الأولى: طبقة الشباب بين عمر 15 - 30 عاما ويسمون الأخوان الأبرار الرحماء.  
الثانية: وتشمل من كانوا بين 30 - 40 وهم الرؤساء وذوو السياسات ويسمون الأخيار الفضلاء.  
الثالثة: وتشمل من كانوا بين 40 - 50 من العمر وهم أصحاب الأمر والنهي ونصر الدعوة.  
الرابعة: وهي مرتبة من يزيد عمرهم على الخمسين سنة وهي أعلى في نظرهم، ويطلق عليهم طبقة  
المريدين، ثم المعلمين، ثم القادة، ثم المقربين إلى الله.  
- قالوا: بان محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين الذي حكاه الله في كتابه وان الدنيا اثنتا عشرة جزيرة في كل  
جزيرة، حجة، وان الحج اثنتا عشرة، ولكل داعية يد يعنون بذلك ان اليد رجل له دلائل وبراهين يقيمها.  
- حرما زيارة القبور وتقبيلها.

- ان النبي (ص) انقطعت عنه الرسالة في حياته في اليوم الذي أمر فيه بنصب علي (ع) للناس بغدير خم  
فصارت الرسالة في ذلك اليوم في الإمام علي (ع) وان النبي (ص) بعد ذلك كان مأمورا لعلي محجوبا به.

### نهايتها

بعد ان قتل رئيس القرامطة أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي سنة (301 هـ) تولى ابنه أبو طاهر سليمان  
الجنابي أمر القرامطة في البحرين فأراد ان يستولي على البصرة فغزاها مرارا وأشد غزواته سنة (311 هـ)  
فقد سار إليها في (1800) رجل ودخلها وقتل حاميتها وأقام بها (17 يوما) وحمل ما قدر عليه من المال  
والنساء والصبيان وعاد إلى هجر، ثم توجه إلى طريق الحج فقطع الطريق على الحجاج ونهب القوافل حتى  
مات أكثرهم جوعاً وعطشاً فكتب إليه المقتدر يطلب منه ان يطلق من عنده من الأسرى فاطلقهم وطلب منه أن  
يوليه على البصرة والأهواز فلم يجبه المقتدر إلى طلبه فسار إلى الكوفة وتغلب على عسكر الخليفة.  
- في سنة (339 هـ) أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة وقالوا: أخذناه بأمر وأعدناه بأمر، وكان بجكم  
قد بذل لهم في رده خمسين ألف دينار فلم يجيبوه وردوه الآن بغير شيء في ذي القعدة، فلما أرادوا رده حملوه  
إلى الكوفة وعلقوه بجامعها حتى رآه الناس ثم حملوه إلى مكة وكانوا أخذوه من ركن البيت الحرام سنة (317 هـ)  
وبقي عندهم (22 سنة).

### المصادر

- 1- عارف تامر، القرامطة (بيروت - لبنان، دار الكتاب العربي).
- 2- مصطفى غالب، الحركات الباطنية في الاسلام (بيروت - لبنان، دار الكتاب العربي).
- 3- مصطفى غالب، اعلام الاسماعيلية، (بيروت - لبنان، دار اليقظة العربية، 1964 م).
- 4- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، (بيروت - لبنان، دار صادر، 1385 هـ. ق - 1965 م).
- 5- الغزالي، ابو حامد، فضائح الباطنية (القاهرة، مصر، المكتبة العربية، الدار القومية، 1964م).
- 6- ابن الجوزي، عبد الرحمن، تلبيس ابليس (بغداد - العراق، مكتبة الشرق الجديد، ط2، 1982 م. 1402 هـ. ق).
- 7- اليماني، احمد بن يحيى، ترجمة محمد جواد مشكور، المنية والامل في شرح الملل والنحل (طهران - ايران  
مؤسسة الكتاب الثقافية).
- 8- ابن كثير، البداية والنهاية، (القاهرة - مصر، دار الحديث، 1992 م، ط1).
- 9- د. محمد اسماعيل، الحركات السرية في الاسلام (بيروت - لبنان، دار القلم، ط1، 1973م).
- 10- الاشعري، علي بن اسماعيل، مقالات الاسلاميين (دار النشر فرانزشتاينر بفسبادن، ط3، 1400 هـ -  
1980 م).



11- المقريري، تقي الدين بن ابي العباس احمد بن علي، الخطط المقريرية (القاهرة - مصر، مكتبة الثقافة الدينية).

12- وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، (بيروت - لبنان، دار المعرفة ط3 1971 م).

13- بوجينا غيانه، تاريخ التشريع الاسلامي، (بيروت - لبنان، دار الآفاق الجديدة، ط1، 1980 م).

### مذهب النصيرية (علوية سورية)

#### زينب الطلثاني - السليمانية



في جبال اللاذقية وعموم الساحل السوري تنتشر قرى العلوية (النصيرية)، حيث يشكلون حوالي 12% من سكان سوريا..

النصيرية أو العلوية هي فرقة باطنية (عرفانية) اسلامية يعيش جزء من أفرادها في منطقة جبل العلويين (جبل النصيريين) في اللاذقية في سوريا.

هنالك خطأ شائع يخلط بين علوية سورية (النصيرية) وعلوية تركية (القلباشية). بالحقيقة ان اسم العلوية يحمله اساسا علوية تركيا الذين يعودون الى مذهب القلباشية (ذوي الطائيات الحمر)، الذي نشأ في القرن السادس عشر ميلادي في أذربيجان ثم انتشر في جنوب تركيا، ومنه نشأت الدولة الصفوية في ايران التي اعتنقت فيما بعد المذهب الجعفري. اما علوية سوريا، فانهم اقدم بقرون من علوية تركيا، واسمهم التاريخي هو (النصيرية) نسبة الى (بن نصير البصري العراقي) الذي وضع اساس المذهب في بغداد في القرن الثاني الهجري. ان اسم (العلوية) قد اشيع على (نصيرية) سوريا في اوائل القرن الماضي، وهنا حدث الخلط بينهم وبين علوية تركيا. فهم يختلفان في التاريخ رغم التشابه الكبير في تفاصيل المذهب بينهما، ومن اهم النقاط التي تجمعهما هي المغالات في تقديس الامام علي (ع) الى حد تأليهه تقريبا!

ان (النصيرية) حركة باطنية ظهرت في القرن الثالث للهجرة. مؤسس هذه الفرقة أبو شعيب محمد بن نصير البصري النميري (ت 270هـ) عاصر ثلاثة من أئمة الشيعة وهم علي الهادي (العاشر) والحسن العسكري (الحادي عشر) والإمام (الموهوم) (الثاني عشر).

- زعم أنه الباب إلى الإمام الحسن العسكري، وأنه وارث علمه، والحجة والمرجع للشيعة من بعده، وأن صفة المرجعية والبابية بقيت معه بعد غيبة الإمام المهدي (عج).

- ادعى النبوة والرسالة وغلا في حق الأئمة إذ نسبهم إلى مقام الألوهية.

- خلفه على رئاسة الطائفة محمد بن جندب.

- ثم اعقبه أبو محمد عبد الله بن محمد الجنان الجنبلائي 235 - 287 هـ، وكنيته العابد والزاهد، سافر إلى

- مصر وهناك عرض دعوته إلى السيد الخصبي.
- حسين بن علي بن الحسين بن حمدان الخصبي: المولود سنة 260 هـ مصري الأصل جاء مع أستاذه عبد الله بن محمد الجبلاني من مصر إلى جنبل، وخلفه في رئاسة الطائفة، وعاش في كنف الدولة الحمدانية في الموصل وحلب كما أنشأ للنصيرية مركزين أولهما في حلب ورئيسه محمد علي الجلي والآخر في بغداد ورئيسه علي الجسري.
  - وقد توفي في حلب وقبره معروف بها وله مؤلفات في المذهب وأشار في مدح آل البيت وكان يقول بالتناسخ والحلول.
  - انقرض مركز بغداد بعد حملة هولاكو عليها.
  - انتقل مركز حلب إلى اللاذقية وصار رئيسه أبو سعد الميمون سرور بن قاسم الطبراني 358 - 427 هـ.
  - اشتدت هجمات الاكراد والأتراك عليهم مما دعاهم إلى الإستجد بالأمير حسن المكزون السنجاري 583 - 638 هـ ومداومة المنطقة مرتين، فشل في حملته الأولى ونجح في الثانية حيث أرسى قواعد المذهب النصيري في جبال اللاذقية.
  - ظهر فيهم عصمة الدولة حاتم الطوبان حوالي 700 هـ 1300 م وهو كاتب الرسالة القبرصية.
  - وظهر حسن عجرد من منطقة أعنا، وقد توفي في اللاذقية سنة 836 / 1432 م.
  - نجد بعد ذلك رؤساء تجمعات نصيرية كذلك التي أنشأها الشاعر القمري محمد بن يونس كلازي 1011 هـ / 1602 م قرب أنطاكية، وعلي الماخوس وناصر نصيفي ويوسف عبيدي.
  - سليمان أفندي الأذني: ولد في أنطاكية سنة 1250 هـ وتلقى تعاليم الطائفة لكنه تنصر على يد أحد المبشرين وهرب إلى بيروت حيث أصدر كتابه الباكورة السليمانية يكشف فيه أسرار هذه الطائفة، استدرجه النصيريون بعد ذلك وطمأنوه فلما عاد وثبوا عليه وخنقوه واحرقوا جثته في إحدى ساحات اللاذقية.
  - عرفوا تاريخيا باسم النصيرية، وهو اسمهم الأصلي ولكن عندما شكّل حزب سياسي في سوريا باسم (الكتلة الوطنية) أراد الحزب أن يقرب النصيرية إليه ليكسبهم فأطلق عليهم اسم العلويين وصادف هذا هوى في نفوسهم وهم يحرسون عليه الآن. هذا وقد أقامت فرنسا لهم دولة أطلقت عليها اسم (دولة العلويين) وقد استمرت هذه الدولة من سنة 1920 إلى سنة 1936 م.
  - محمد أمين غالب الطويل: شخصية نصيرية، كان أحد قادتهم أيام الإحتلال الفرنسي لسوريا، ألف كتاب تاريخ العلويين يتحدث فيه عن جذور هذه الفرقة.
  - سليمان المرشد: الذي شجعه الفرنسيين وأعانوه على ادعاء الربوبية، كما اتخذ له رسولا (سليمان الميده)، ولقد قضت عليه حكومة الإستقلال وأعدمته شنقاً عام 1946 م.
  - جاء بعده ابنه مجيب، وادعى الألوهية، لكنه قتل أيضاً على يد رئيس المخابرات السورية آنذاك سنة 1951 م، وما تزال فرقة (المواخسة) النصيرية يذكرون اسمه على ذبائحهم.
  - ويقال بأن الابن الثاني لسليمان المرشد اسمه (مغيث) وقد ورث الربوبية المزعومة عن أبيه.

الشيخ عبد الرحمن الخضر



هنالك تيار قوي بين علوية سوريا مدعوم من قبل الحكومة،  
لربط العلويين بالمذهب الجعفري الاثنى عشري في النجف..

## الإختلاف مع الشيعة

يتفق العلويون مع الشيعة عامة بالرواية التاريخية لمرحلة الرسول وما بعد الرسول، ولكنهم يختلفون بالنظريات الدينية والتفسيرات القرآنية، ويزعمون أنهم يعرفون النصف الآخر من الحقيقة الظاهرة بالتواتر عن الأئمة المعصومين.. أكثر ما يركز عليه العلويون هو أهتمامهم بالعقل، حيث يرمزون بالعقل للرسول الكريم (ص). أهم النظريات:

1- التقمص أو التجايل: وهي تعني أن الإنسان يعيش حيوات متتالية مختلفة يختبر فيها مختلف الظروف من الغنى والفقر والقوة والعجز والإسلام والمسيحية وغيرها.. وأن الروح قد تخلق في الذكر وقد تخلق في الأنثى. نظرية التقمص هذه هي الإجابة الأساسية لمبدأ العدالة الإلهية، كما تسمح بقبول الأديان والمذاهب الأخرى على أساس أن الإنسان سيتجايل مرات عديدة أخرى وقد يصبح علوي فيما بعد. وتكثر الأحاديث بين أوساط العلويين عن قصص التقمص التي تشاهد في القرى والتجمعات، حيث يزعمون صحة ما يرويه الأطفال من ذكريات لحيوات سابقة عاشوها.

2- الحجاب: يرى العلويون أن ما يسمى حالياً بـ الحجاب ليس فريضة إسلامية، فهو نوع من الحشمة المحببة التي تظهر تعفف المرأة وطهارتها، ويرون ضرورة في الصلاة ولكنهم لا يجبرون النساء على ارتداء الحجاب.. ويملك العلويون تفسير من القرآن الكريم يدعمون بها رأيهم ويفصلون بين الآيات المنزلة بحق نساء آل بيت الرسول وبحق باقي نساء المسلمين.

3- الظاهر والباطن: يعتقد العلويون أن للأمور ظاهر وباطن وأن روح العبادات مختلف عن كونها حركات فيزيائية ينفذها الإنسان بعناية وتكرار، ويعتقدون أن بواطن الأمور تورث من الأئمة المعصومين حسب قولهم ويردها الله لمن يشاء من عباده المصطفين بالبصيرة والعقل..

4- الدعوة للدين: لا يدعي العلويون للمذهب العلوي أو يحاولون نشره كما تفعل معظم الفرق، ويقولون إن الدخول بالمذهب يتطلب الإنتقاء الإلهي بخلق الإنسان في أسرة علوية بعد تطور الروح ورفيها في أجيال متعددة.. يعتقد العلويين أن الدعوة للدين والفتوحات الإسلامية انتهت على عهد الرسول، ولا يجوز القيام بالحروب على الآخرين من أجل نشر الإسلام، فهذه مهمة الرسل والرسول الكريم كان خاتم الرسل، وينتظرون ظهور المهدي الذي يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً بعد أن تملأ جوراً وظلماً.

5- الكرامات يؤمن الكثير من العلويين بالكرامات التي يمنحها الله للخصوص وتظهر على شكل ظواهر إعجازية غير مألوفة عند بعض الأولياء، كالقدرة على الشفاء من بعض الأمراض مثلاً.

## عقيدتهم

يصف العلويون أنفسهم بأنهم امتداد للإمامية الإثناعشرية إلا أن أفراد بعض الفرق الأخرى يكفرونهم لتقديسهم علي بن أبي طالب مع الرسول محمد. ولقلة الأدبيات العلوية، تبقى العلوية من المعتقدات المبهمة لحرص الطائفة على بقاء مطبوعات الطائفة ضمن نطاق ضيق من التداول.

وقام الإمام الشيعي اللبناني موسى الصدر بالاعتراف بالعلوية على أنها فرقة من فرق الإسلام عام 1974.

أن تقديس النصيرية للإمام علي (ع) يشبه إلى حد بعيد تقديس المسيحية للنبي عيسى (ع)، حيث يعتبروه صورة الله على الأرض.

- يعتقد بعضهم أن علياً يسكن السحاب بعد تخلصه من الجسد الذي كان يقيدته وإذا مر بهم السحاب قالوا: السلام عليك أبا الحسن، ويقولون إن الرعد صوته والبرق سوطه.

- يعتقدون أن علياً خلق محمد صلى الله عليه وسلم وأن محمداً خلق سلمان الفارسي وأن سلمان الفارسي قد خلق الأيتام الخمسة الذين هم:

- المقداد بن الأسود ويعدونه رب الناس وخالقهم والموكل بالرعد.

- أبو ذر الغفاري: الموكل بدوران الكواكب والنجوم.

- عبد الله بن رواحة: الموكل بالرياح وقبض أرواح البشر.

- عثمان بن مظعون: الموكل بالمعدة وحرارة الجسد وأمراض الإنسان.

- قنبر بن كاذان: الموكل بنفخ الأرواح في الأجسام.

يتصف المذهب العلوي عموماً بالغموض وبالسرية، فعلى عكس مذاهب أخرى تسعى لجذب الأفراد وحثهم على التحول إليها، نجد المذهب العلوي يرتبط بمنطقة جبل النصيريين جغرافية محددة على الساحل السوري ولا توجد مؤسسة رسمية تعمل على نشر المذهب والتبشير به. يقوم مجموعة من الرجال على حفظ الأدبيات العلوية ومنعها من التداول بين غير العلويين. وعندما يبلغ الصبيان عمر 15 أو 16 سنة،

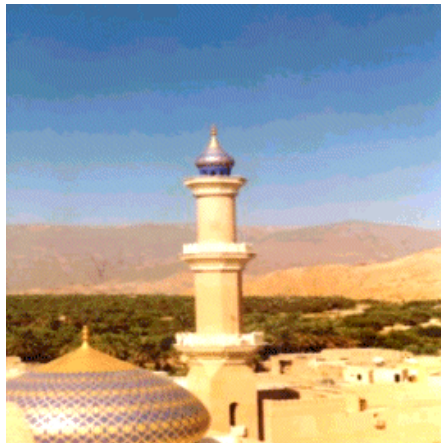
يخصصون سويغات من اليوم لتعليمهم العقيدة العلوية، ويترك الاختيار للصبيان إن أرادوا الاستمرار في التعمق في الامور الدينية والارتباط مع احد المشايخ للتوغل في امور الدين. تدعي بعد المصادر أن النصيرية جعلوا علياً إلهاً، وقالوا بأن ظهوره الروحاني بالجسد الجسماني الفاني كظهور جبريل في صورة بعض الأشخاص. - لم يكن ظهور (الإله علي) في صورة الناسوت إلا إيناساً لخلقه وعبده. - يحيون (عبد الرحمن بن ملجم) قاتل الإمام علي ويترضون عنه لزعمهم بأنه قد خلص اللاهوت من الناسوت ويخطئون من يلعنه.



### الواقع الاجتماعي و الفكري

نتيجة سرية التعاليم في الطائفة النصيرية , فإن معظم أفراد الطائفة لا يتلقون أي تعليم ديني الذي يبقى محصوراً على مجموعة صغيرة من المشايخ المأتمنين على أسرار العقيدة النصيرية , كما يقال أن من عقيدتهم عدم تعليم النساء أي عقائد دينية لعدم انتمائها على أسرار. كل هذا يجعل معرفة النصيريين بالتعاليم الدينية عامة محدودة و مقتصرة على ما يأخذونه و يسمعون من هنا وهناك , و غالبيتهم الآن تأخذ فقهها من المذهب الجعفري مذهب الإثني عشرية , انتماء النصيريين لطائفتهم أصبح أقرب للانتماء إلى العشيرة أو القبيلة باعتبار الطائفة مركز قوتهم و دعمهم أكثر من أن يكون انتماءً لعقيدة دينية. ومن أشهر العلويين في سوريا عائلة الأسد الحاكمة، بالإضافة إلى عدد من رواد الفكر والكتاب والمفكرين السوريين، كالشاعر أدونيس و الشاعر بدوي الجبل و الشاعر سليمان العيسى والمؤلف المسرحي سعد الله ونوس والمناضل ضد الفرنسيين وتحرير سوريا الشيخ صالح العلي.

### الاباضية



11/11/2019

1

$$\left( \begin{array}{c} \text{ } \end{array} \right)$$

93

21

( )

||

[illegible]

||





## لها وجود في العراق



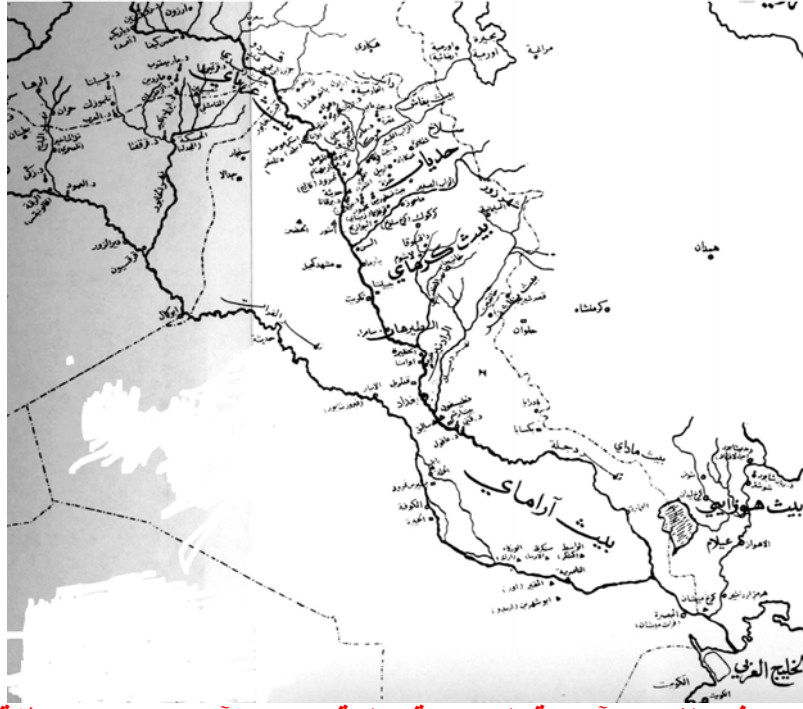
( )

( )

( )

## المسيحية العراقية

سميرة فادي - بغداد



العراق في الفترة الآرامية المسيحية (كلمة بيث، بالآرامي، تعني منطقة)

في اوائل القرن السادس قبل الميلاد سقطت (بابل) وهي آخر عاصمة لدولة عراقية مستقلة. حينها سيطر الايريانيون على (بلاد النهرين) وراحوا يتبنون بالتدريج الميراث الحضاري العراقي، وابسط مثال تبنيهم لـ (يوم نيروز) الذي كان يوما مقدسا عراقيا بأسم (حاجتو - يوم الحج)، وهو اليوم الاول من السنة العراقية الجديدة التي تبدأ في اول ايام المنقلب الربيعي، وفيه يعود (تموز - اله الخصب الذكوري) الى الحياة ليخصب (عشتار- الهة الخصب الانوئي) وتعود الخضرة والحياة الى ربوع النهرين.

منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى القرن السابع الميلادي، أي خلال اكثر من الف عام، استمر العراق تابعا للدول الاجنبية، واصبح ساحة للصراع بين القوتين الاساسيتين في المنطقة حينذاك: القوة الايرانية والقوة الاوربية (اليونانية ثم الرومانية ثم البيزنطية)، ولكن الهيمنة الايرانية كانت هي الاقوى والاكثر استمرارا. ولم تنتهي هذه الحالة إلا بالفتح العربي الاسلامي.

ان هذه القرون الطويلة المضطربة تشبه كثيرا تلك الحقبة التي عاشها العراق بعد سقوط بغداد وتحوله الى ساحة للصراع الايراني العثماني، حتى الفتح الانكليزي وقيام الدولة الوطنية.

اما بالنسبة للعراقيين خلال تلك القرون التي اعقبت سقوط بابل، فانهم قد فقدوا الكثير من ميراثهم الحضاري العريق، مع فقدانهم لاستقلاليتهم السياسية. لكنهم تمكنوا من الحفاظ على خصوصيتهم الثقافية والدينية رغم كل الضغوطات الحضارية الايرانية والاوربية. فهم بقوا متمسكين بلغتهم الآرامية (السريانية) التي هي امتداد للغتهم السابقة الاكدية (الآشورية البابلية)، وكذلك حافظوا على خصوصيتهم الدينية، حيث بقوا على (ديانة الخصب) (السومرية البابلية الآشورية)، حتى القرن الثاني الميلادي. بعدها تحولوا بغالبيتهم الى المسيحية، بل انهم صنعوا مذهبهم المسيحي الخاص بهم وهو (المذهب النسطوري).

انتشرت الكنائس المسيحية في جميع انحاء بلاد النهرين واصبحت مدينة (المدائن) مقر الكنيسة النسطورية العراقية الرسمية ومقر المرجع الاعلى (الجالثيق)، واطلق عليها (كنيسة بابل)، لكن المؤرخين المستشرقين من ذوي النوايا السيئة يفضلون ان يطلقوا عليها (كنيسة فارس)!



وقد عان المسيحيون العراقيون من اضطهاد الدولة الايرانية بسبب اصرارهم على نشر المسيحية في ايران بحيث تمكنوا من نشرها حتى في داخل البلاط وعائلة الشاه. بل ان اللغة السريانية العراقية أصبحت اللغة الثقافية الاولى في الامبراطورية، وانحصرت اللغة البهلوية في الجانب الاداري. لهذا بدأ كسرى الأول منذ عام 98 ميلادي حملة اضطهاد واسعة، تواصلت خلال قرنين لاحقين، حيث قام الملوك الفرس من أبناء كسرى وأحفاده وقوادهم بمواصلة حملات التنكيل والاضطهاد والقتل خلال قرون. وتعتبر الفترة الواقعة بين عام 339-379 ميلادي من اكثر عهود الاضطهاد المسيحي حيث سميت بفترة الاضطهاد الأربعيني، حيث دامت اربعين عام، ابان فترة الملك سابور الثاني..

رغم الاضطهاد، تمكن المسيحيون العراقيون من ابداع أدبا لاهوتيا وفلسفيا رائعا، فقد بدأه طاطيان المولود في بلاد اشور في أوائل القرن الثاني للميلاد / بالدياطسرون/ وهي ترجمة الأنجيل الأربعة بالسريانية مضمونها وما أضافه عليها ثم تلاه مليطون السرديني وبرديصان ومدرسته بنهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث، وقد برز من اشهر المؤرخين وكتاب السريان في القرنين الثالث والرابع "مار افرام السرياني"، الذي خلف مجموعة ضخمة من الأعمال الأدبية والدينية والفلسفية والتاريخية من شعر ونثر، وقد أرّخ حوادث حصار نصيبين من قبل الفرس شعرا من عام 350-370م كما كان قد أقام أكاديمية في نصيبين ثم هجرها إلى الرها بعد أن استولى عليها الفرس وأسس هناك أكاديمية أخرى، ويبلغ ما تركه مار افرام من اثر ثلاثة ملايين من الأسطر شملت مختلف نواحي الحياة.

وأثناء الانشقاقات المذهبية قدم السريان أدبا رائعا في جميع مناحي الحياة وبالأخص خلال المجادلات الدينية التي جرت بين النساطرة واليعاقبة، وقد كان للمدارس التي انشئوها في كل من نصيبين والرها وجنديسابور وقنسرين، دور كبير في نبوغ الادباء والعلماء الكبار مثل يعقوب النصيبيني وبار صوما ونرسي ويعقوب البرادعي، ومن العلماء سرجيس الرأس عيني وغيره، ومن كتاب التاريخ يشوع العموني وتاريخ الرها للمؤلف المجهول ويوحنا الافسسي وزكريا المدلل.



في العهد الآرامي في ظل الاحتلال الايراني، تحولت المدائن الى عاصمة المسيحية العراقية وفيها (كنيسة بابل) ومقر المرجع الاعلى(الجتليق)..

## الحيرة المسيحية

لقد تعودت وجهة النظر القومية، اختصار تاريخ العراق منذ سقوط بابل حتى الفتح العربي الاسلامي، أي أكثر من ألف عام، بتاريخ (مدينة الحيرة) و(دولة المناذرة) فقط! بينما الحيرة وسكانها لم تشكل سوى جزء بسيط من سكان العراق آنذاك. ولكن في كل الاحوال يمكن اخذ مجتمع الحيرة كنموذج مصغر من عموم المجتمع العراقي.

كان للحيرة، في الوسط قرياً من النجف، دورها في توطيد المسيحية في غرب العراق ونشرها بين القبائل الرحل من عرب و آراميين، بل نشر المسيحية والثقافة العراقية الى الجزيرة العربية والحجاز على الاخص. مما ساعد على تقبل المسيحية العراقية، ان النسطورية كانت مخالفة للكنيسة البيزنطية والكنيسة السورية، وهذا عموماً مريح للدولة الساسانية الحاكمة. انتشرت النسطورية عن طريق عدد من ملوك الحيرة وزوجاتهم وعوائلهم.

ولمنزلتها المسيحية أيضاً صارت الحيرة داراً لرفات عدد من الجثالة العظام في تاريخ الكنيسة الشرقية، منذ القرن الخامس الميلادي وحتى بعد دخول العرب المسلمين إلى العراق بفترة طويلة، منهم: داد يشوع (456)، بابوي (484)، آفاق (496)، حزقيال (581)، ايشوعياي (595)، كوركيس (681) وإبراهيم (850). وأصبحت ملجأً للجاثليق الذي كان مركزه المدائن غالباً، ففي الأزمات الطارئة بين المسيحية والملوك الساسانيين، يضطر إلى تركها، فحدث أن غادر (ايشوعياي الأول الأرمني) (582-595) إلى الحيرة، والاجتماع بالملك النعمان بن المنذر، وهو أبو قابوس، وكان المنذر قد تنصر حديثاً سنة 593، وصار يعد نفسه من حماة المذهب النسطوري، وأصبحت الحيرة، حاضرة ملكه، من معاقل هذا المذهب، وهناك وافقت المنية الجاثليق، فتولت شؤون دفنه هند الصغرى أخت النعمان. ومن المفارقات أن أختي المنذر الثالث (512-554) هند الصغرى ومريم كانتا مسيحيتين مع والدتهما (وقد تعاونن جميعهن في تأسيس دير شهير)

أهلت المسيحية، وهي خارج السلطة، الحيرة لتخليها عن شريعة سلفها اليهودية والأديان المحيطة بها، التي تقرر قطع اليد ورجم النساء وقتل المرتد واخذ الجزية والتدخل بشؤون الناس الخاصة، من تحريم وتحليل المشارب والأطعمة، في أن تكون دوحة للعلم والثقافة والعمران، يضاف إلى ذلك ما ورثته من حضارة بابل، فالإنسان الحيري هو بابلي بالأصل، لذا (كان العباديون أكثر أهل الحيرة ثقافة، حذق بعضهم الصناعات، ودرس بعضهم العلوم، وفاق بعض آخر في اللغات، فحذق العربية وتعلم الفارسية، وكانوا يتقنون في الغالب لغة إرم، بحكم تنصرهم، واعتبار النصارى لها لغة مقدسة، لأنها لغة الدين، لذلك كان لهم وجه ومقام في الحيرة، ولهذا السبب اختار الفرس تراجمهم، ومن كان يتولى المراسلة بينهم وبين العرب من مسيحيي الحيرة). ومن الحيرة امتدت الصلات بين قریش والعراقيين، فانعكس ذلك فيما بعد على ما بين الإسلام والمسيحية، عبر الصلات التجارية، فكان بالحيرة (سراة نصارى اشتركوا مع سراة قریش في الأعمال التجارية، مثل كعب بن عدي التتوخي، وهو من سراة نصارى الحيرة، وكان أبوه أسقفاً على المدينة، وكان يتعاطى التجارة، وله شركة في التجارة في الجاهلية مع عمر بن الخطاب في تجارة البز، وكان عقيداً لهم).



مدينة الكوفة ومعها النجف ورثتا مدينة الحيرة التي كانت معقلاً للمسيحية العراقية



## الفترة العربية الإسلامية

عندما فتحت الجيوش العربية الإسلامية العراق في القرن السابع الميلادي، وجدت امامها حوالي سبعة ملايين عراقي، لغتهم الثقافية والدينية هي (السريانية)، بما فيهم الجماعات العربية في امانة المناذرة في الحيرة. اما من الناحية الدينية فأغلبهم الساحقة تابعين للكنيسة النسطورية، وهناك اقلية من اتباع الكنيسة اليعقوبية (السورية السريانية) وكذلك اليهود والمندائية (الصابئة) ..

لقد رحب المسيحيون العراقيون بالفاتحين المسلمين، إذ كان للصراع الدائر بين الروم والفرس تأثير سلبي كبير على حياتهم المادية والدينية، وهذا ما أدى إلى كره السريان ويأسهم من كلتا الدولتين، فكانوا يطمحون إلى التخلص من هذا الاستبداد بأية وسيلة كانت، لذا عندما جاءت الجيوش العربية الإسلامية عام 637 م إلى بلاد النهرين ورحب بهم العراقيون أملاً في التخلص من واقع الظلم والاستبداد الذي ذاقوه من قبل الفرس والروم مئات السنين، وقد حصلوا فعلاً على عهود بالأمان من قادة جيوش المسلمين ومن الخلفاء.

وقد استعان العرب المسلمون بالسريان وبالأخص الشرقيين مثل سمعان بن الطباخين وغيره في ترتيب أمور الدولة وتنظيم الأجهزة الإدارية وتنظيم الحياة الاجتماعية والثقافية والعلمية ومن أشهر علماء السريان الذين أتحفوا الإنسانية بعلومهم حنين بن اسحق وأبي بشير ويوحنا بن جلاد ويحيى بن عدي والكندي وآل بختيشوع وغيرهم، الذين ألفوا وترجموا ونقلوا مختلف العلوم من طبية وفلكية وعلمية ومن اللغات السريانية واليونانية والفارسية إلى اللغة العربية أتحفوا المكتبة العباسية بمصنفاتهم وعلومهم، ولم يدم هذا الازدهار الثقافي بسبب فقدان العرب السلطة وسيطرة الأجانب عليهم وحتى بيت الحكمة (المكتبة العباسية) كان يديرها السريان الشرقيين وان وظيفة طبيب الخليفة كان يشغل دائماً من قبل طبيب سرياني.

إن علماء السريان وأدبائهم على اختلاف مذاهبهم قضوا أكثر من مائة عام في ترجمة العلوم القديمة من السريانية واليونانية والفارسية إلى العربية وبفضل جهودهم وأوضاعهم العلمية والثقافية.



مسيحيون من جنوب تركيا (أعالي بلاد النهرين) هاربون من المذابح

## الفترة المظلمة

وقد كان لتدهور سلطة الدولة العربية الإسلامية وغزو التتار والمغول للعراق دور كبير في اضطهاد السريان، وقد عانوا الأمرين من جراء الظلم والاضطهاد والتدمير وتخريب الأديرة وحرق المصنفات والكتب الدينية والتاريخية، وبالرغم من اضطراب حبل الأمن في مناطق سكنى السريان فقد ظهر بعض العلماء المشهورين من أمثال يوحنا المعدني وميخائيل الكبير وأبي الفرج ابن العبري وموسى بن كيفا ويعقوب ابن الصليبي والقرداحي وعبد يشوع الصوباوي والرهاوي المجهول وداود الفينيقي وغيرهم، وقد كان لهم دور كبير في نشر الثقافات الأدبية والفلسفية وعلوم الطب والرياضيات والهندسة وغيرها، وقد نشر هؤلاء مختلف الكتب والمقالات الدينية والفلسفية التي كان لها دور كبير في نمو الوعي الفكري في عصر الظلمات.

وان كانت الأحداث التاريخية التي مر بها السريان قاتبة غير مدونة بشكل كامل وذلك لكثرة الاضطهادات والمآسي التي عانوها أو أن ما دون منها اتلف واحرق بسبب المحن التي ألمت بهم خلال هذه الفترة. لقد سال لعاب الاستعمار الأوروبي من اجل نهب خيرات وثروات الشرق فحاول بشتى الوسائل أن يجد له موطئ قدم في هذه المنطقة، فكان أن أرسل المبشرين منذ عام 1550م ليبشروا بمذاهبهم المختلفة، فكان لكل دولة

مبشرية المختصين بها حيث كانوا يحصلون أيضا على فرمانات من الحكومة العثمانية تسمح لهم بنشر مبادئهم الدينية بين المسيحيين ضمن سلطاتها. فكانوا يمارسون كافة وسائل الترغيب والترهيب بحجة العودة إلى الدين الصحيح. وللعلم فإن هؤلاء المبشرين لم ينشروا مذاهبهم تلك إلا بين المسيحيين فقط أي أنهم لم يفكروا بإهداء غير المسيحيين لهذه المبادئ القويمة التي يدعون لها، فكان أن تحولت هذه المذاهب الدينية إلى بسمار جحا. كلما رأت إحدى الدول الأوروبية إن مصلحتها الاستعمارية تضررت في الشرق كانت تتدخل بحجة حماية المسيحيين التابعين لها (أي المنتمين إلى مذهبها الديني). وبالطبع فإن هذا كان يخلق ردود أفعال عكسية لدى شعوب المنطقة ضد المسيحيين ومن قبل الدولة العثمانية أيضا وكانوا يدفعون ثمن السياسة اللانسانية التي كانت تتبعها الدول الاستعمارية الأوروبية باتجاه الشرق، دون ذنب إلا لكونهم من دين تلك الدول. ليس هذا فقط بل إنه في كثير من الأحيان كان يلجأ بعض المبشرين إلى نشر الفتنة وتآليب الأكراد (جيران المسيحيين في شمال العراق وجنوب تركيا، ضد المسيحيين الذين لا يقبلون بمذهبهم الديني للضغط عليهم أو إرغامهم للجوء لطلب مساعدتهم ولقبول مذهبهم الديني وهذا ما حصل في عدة مناطق وبالأخص في هيكاري وأورميا. وقد قام المبشرون الكاثوليك بشتى الوسائل لتحقيق غاياتهم فكانوا يشترون ذمم البيكات الأتراك والشيوخ الأكراد لكي يقوم هؤلاء بتحطيم ومحو الآثار السريانية من معابد وكنائس في مناطقهم. ولم تقف المآسي التي عاناها السريان عند هذا الحد فقط بل إن ما زاد الطين بلة أيضا انقسام المذاهب الدينية أيضا إلى عدة أقسام، نسطرة وكاثوليك ويعاقبة، هذا عدا المذاهب البروتستنتية للمبشرين الأمريكيين التي جاءت بعدئذ لتزيد الانقسام والتجزئة فيما بينها من جديد. من امثلة الاضطهاد الذي عانوه، انه قد بلغ عدد القتلى والضحايا من السريان في جنوب تركيا اوائل القرن العشرين، أكثر من 150 ألف من بلادهم عدا الذين سبوا من الأطفال والنساء بالإضافة إلى تدمير ممتلكاتهم وتهجيرهم من بلادهم، كما بلغ عدد الذين هاجروا أيضا أكثر من مائة ألف هاموا على وجوههم خارج الوطن من الاضطهاد وهروبا من الظلم.



بلدة مسيحية في شمال الوطن

### التبشير الكاثوليكي والبروتستانتي

تعد مدينة الموصل من المناطق المهمة بالنسبة للمبشرين المسيحيين بسبب كثرة أبناء الطائفة المسيحية فيها، إذ عد القرن السابع عشر الميلادي بداية للإرساليات الغربية، فانطلقت الإرساليات الفرنسية تحت رعاية وتنظيم (مجمع التبشير بالإيمان) في روما، فأرسلت لتلك الغاية بعثات تبشيرية متواصلة منذ أواسط القرن السابع عشر الميلادي ومنها إرسالية الآباء الكرمليين الذين كانوا يترددون على مدينة الموصل. ففي عام 1622 أنشأ في روما تنظيم يدعي (مجمع انتشار الإيمان) غايته نشر التعاليم المسيحية الكاثوليكية في الشرق بصورة خاصة، وكانت مدينة بيروت وحلب المركزين الرئيسيين التي ترسل منهما الإرساليات التبشيرية، فانطلقت إلى العراق وإلى الموصل بعثات تبشيرية مستفيدة من الأقليات المسيحية الموجودة لإنجاح عملها.

كما أن الفرنسيين بداوا نشاطهم في العراق منذ أوائل الحكم العثماني، ولكن لم يكن نشاطهم يلفت النظر، ولذلك تركوا المبشرين الكبوشيون، فالدومنيكان الكاثوليك يعملون دون أن يتعرض لهم احد، وكانت مهمتهم الأساسية تحويل اكبر عدد من الطوائف المسيحية إلى المذهب الكاثوليكي.

سعى الكبوشيون في إقامة مركز لهم في الموصل، وأسسوا أول نواة كاثوليكية عام 1636 م، بهدف تحويل النساطرة من مذهبهم الشرقي إلى المذهب الكاثوليكي إلا أن العلاقة التي تربط الكبوشيون بالدولة العثمانية اعترها التدهور، مما أدى إلى غلق دارهم في بغداد، وإغلاق مركزهم في الموصل، وانتقالهم إلى ديار بكر. ونتيجة للجهود المبذولة آنذاك ازداد عدد المتكثلكين، مما دفعهم إلى الاعتقاد بأنهم قادرين إلى الامتناع عن دفع الرسوم المستحقة عليهم للدولة، فسعى بطاركة القوش النساطرة وبطاركة ماردين اليعاقبة لكبح جماح ذلك التيار الديني المعزز بحماية الفرنسيين، وعمدوا إلى استخدام سلطاتهم الإدارية والقضائية وتوسطوا لدى الحكام، وكانت تهمة تعاون الكاثوليك مع المبشرين الأوربيين (الأجانب) كافية لإنزال العقوبات بهم، فاضطر الكبوشيون إلى هجر مراكزهم في الموصل عام 1724م، ويمكن القول أن مدة حكم الجليليين في الموصل تعد مدة تقدم التبشير الكاثوليكي في شمال العراق.

وقد تمكن الكبوشيون من تكوين أول نواة كاثوليكية لهم بعد تلك المدة في مدينة الموصل من النساطرة الذين أطلق عليهم تسمية (الكلدان) عام 1750م، وبذلك انتعشت الكتلة من جديد في مدينة الموصل، وعملت من أجل تحقيق أهدافها، وفي عام 1750م نجح الأبوان الإيطاليان فرنسيس طوريني، وعبد الأحد يلشيني، في فتح مركز للأباء الدومنيكيين في الموصل، وسهل مهمتهم كاثوليك الموصل الذين كانوا على علاقة حسنة مع الوالي الجليلي، وتصديهم للفرس مع المسلمين عام 1742م. انتشرت الكتلة في الموصل، بعد إن كان عدد اسر الكلدان الكاثوليك في الموصل عام 1747م لا يتجاوز العشرات، فأصبحت في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي (1000) أسرة كلدانية. كما دخل النشاط البروتستانتي في الموصل وضواحيها على يد جرانت. أرسلت الجمعية الإنكليزية جرانت مبشراً لها عام 1843م، وقد صاحبه النجاح في عمله بين الطوائف المسيحية وبمساعدة القنصل البريطاني، الذي وضع كل امكانياته لكسب السريان اليعاقبة والنساطرة والكلدان إلى الكنيسة الانجليكانية. وأصبح واعظاً، وموضع ثقته، واحترامهم في ذلك الوقت، إذ طلب منه قساوسة النساطرة أن يبني لهم مدرسة لتعليم الصبيان، فاستغل حاجتهم وأشاع بين الأكراد أن البناية قلعة حربية وان النساطرة يستعدون للهجوم على الأكراد، مما دفع الأكراد إلى أن يهجموا على مقر البطريرك الاثوري واحرقوه، فازدادت الفتنة بين الاثوريين والأكراد، حتى تدخلت السلطات البريطانية بحجة حماية الاثوريين، ووجهت وزارة الخارجية البريطانية عام 1857م كتاباً إلى السفارة البريطانية في القسطنطينية بصدد حماية الاثوريين، وكان غرضها الأصلي إيجاد الخلافات بين أبناء الشعب العراقي.

ولعل الأدوار التي اتخذت في استمرار التبشير لم تقتصر على كرسي الكنيسة فحسب، وانما بفتح أبوابه عن طريق الواجهات المدرسية، والمطبعة التي فتحت في الموصل، كما انه لم يقتصر العمل على الجانب الثقافي بل تعداه إلى الجانب العلاجي، وبخاصة عندما اجتاحت الكوليرا مدينة الموصل عام 1863 - 1865م، كما أن الإرساليات التبشيرية قد مارست نشاطات اجتماعية مختلفة لخدمة مبادئ الدول التي أرسلتها.

لقد ساهم النشاط التبشيري الأمريكي في مدينة دهوك، التي كانت تابعة إدارياً إلى لواء الموصل في إرسال المبشر (كمبرلاند) الذي كان يدعو المسلمين علناً للدخول في الدين المسيحي، مما أدى إلى قتله من قبل سليم اغا بيسفكي من أهالي دهوك عام 1938م.



كنيسة البروتستانت السبتيين في بغداد

### التنوع المذهبي والعرقى للمسيحيين

من ناحية الاصول التاريخية والجغرافية والمذهبية، فأن المسيحيين العراقيين ينقسمون الى خمسة اقسام:

1- الكلدان الكاثوليك: ويشكلون القسم الاكبر من المسيحيين، ويقطن غالبيتهم في بلدات الموصل وعموم شمال العراق، مثل تكليف والقوش وعينكاوا. كذلك لهم حضور واضح في بغداد والبصرة. وكان الكلدان في الاصل على المذهب النسطوري حتى القرن التاسع عشر، ولكنهم تحولوا الى الكاثوليكية بتأثير عمليات التبشير الاوربية. ويتكلمون بلهجة خاصة قريبة الى السريانية العراقية الفصحى.

2- الآثوريون النساطرة: وهم من اتباع الكنيسة النسطورية العراقية، وغالبيتهم قد نزح الى بلدهم الاصلي العراق من المناطق المحاذية للموصل في جنوب تركيا، والتابعة تاريخيا وسكانيا الى بلاد النهرين. لكنهم اضطروا الى النزوح بعد المذابح التي تعرضوا لها في اواخر القرن التاسع عشر واول القرن العشرين، على ايادي الاغوات الاكراد والعسكر الاتراك، والتي كلفتهم مئات الالاف من القتلى والمشردين، وكذلك كلفت الارمن معهم حوالي مليون ضحية. ويختلف الآثوريون عن الكلدان، من ناحية المذهب، وكذلك من ناحية طبيعتهم الجبلية، بالاضافة الى لهجتهم الخاصة المشتقة ايضا من السريانية. وهناك من يعتقد ان تسمية (الآثوريين) ليس لها علاقة بـ (الآشوريين)، بل هي مشتقة من (التورانيين) أي (الجبليين) بالسرياني.

3- السريان الأرثوذكس (اليعاقبة) وهم اتباع الكنيسة السورية، وعادة يقطنون في مدينة الموصل ويشكلون عموما نخبة حضرية متميزة. وبعضهم تحول الى الكاثوليكية في القرن التاسع عشر، وسموا أنفسهم السريان الكاثوليك.

4 - الارمن: ويعود اصلهم الى بلاد ارمينيا في منطقة القفقاس التي تقع جغرافيا عند اعالي بلاد النهرين، ومنها ينبع نهري دجلة والفرات. وقد ظل الارمن على علاقة تاريخية عميقة مع العراق وظلت هجراتهم اليه طيلة التاريخ. وقد تعرض الأرمن أثناء الحرب العالمية الأولى لمذابح كبيرة في جنوب تركيا، انجزها الاغوات الاكراد واشرف عليها العسكر الاتراك. وقد اجبروا على الهجرة وانتشروا في سوريا وأقطار المشرق العربي ومنها العراق، وكان عدد من دخل منهم العراق (350000) ألف نسمة، لكنهم مع الزمن قد هاجروا الى الخارج، ولم يتبقى منهم غير بضعة عشرات من الآلاف يقطنون في الموصل وبغداد والبصرة. وينتمي القسم الأكبر منهم إلى المذهب الأرثوذكسي، وقليل منهم إلى المذهب الكاثوليكي.

5- اتباع الكنائس البروتستانتية: وهم عدة كنائس مختلفة، مثل الكنيسة الانجيلية والكنيسة السبئية، وغيرها. وهم عموما من السريان العراقيين الذين تحولوا الى البروتستانتية في العصر الحديث، بتأثير الكنائس البروتستانتية الانكليزية والامريكية. وهم اقلية من النخب المدنية المتميزة في الموصل وبغداد.

### — مصادر:

- رحلات سبستيانى الى العراق / مجلة المورد 1980/9 بغداد.

- تاريخ نصارى العراق/ رفائيل بابو اسحق / 1948 بغداد.

- نزهة المشتاق / يوسف رزق الله غنيمه / 2001 القاهرة.
- كتاب اليوبيل المئوي السادس/ مار بهنام الشهيد / 1990.
- يزداندوخت الشريفة الأربيلية ج 1 - ج 2 / سليمان الصايغ / 1935 الموصل.

### الكنائس والأديرة العراقية

د. علي ثويني - السويد



كنيسة عراقية تعرضت للتفجير من قبل الارهابيين

أصابنا الأسى ونحن نتابع الإرهاب المجنون وهو يعيش فساداً، فيعد أن قتل الأبرياء في العتبات المقدسة، نجده اليوم يفجر حقه الأعمى في بيوت الله من كنائسنا العراقية، بما يثبت مثل كل مرة أن تخطيطه الأعمى قد أخرجه من سوي العقل ولبيب المنطق، بعد أن تجرد نهائياً منذ أول جريمة أقتترفها من الأخلاق والدين. ونقرأ من رسالته الدموية هذه العداء السافر لكل ماهو عراقي، وإسلامي وإنساني، فالمسيحيون أخوة في الوطن ونظراء في الخلق، ولم نجد من حل قتلهم من الأولين والآخرين، وأن كنائسهم كانت وستبقى عهدة في رقابنا إقتداء بالعهد العمرية لنصارى القدس، وأن رسولنا الكريم أستقبل نصارى نجران في المسجد النبوي الشريف وأرسل أول مهاجريه الى النجاشي النصراني.



اطفال يصلون في كنيسة محروقة



لم يع هؤلاء الظلاميون أن النصرانية لم تأت من روما قطعاً، ولم تطأ أوربا إلا بعد ثلاثة قرون من الويل والثبور كان قد أصاب النصارى والموحدين من أهل الشرق. ولم تلد اليونان يسوعاً حتماً وإنما كانت الناصرة وبيت لحم والقدس. ولم تكن المسيحية إلا وحدانية إسترسلت في أرض كنعان، من وحي إبراهيم ونهل أور العراقية، وحملت في ثناياها نتاج تراثنا الروحي التوحدي، الذي وطأته منذ البشارة، بعد أن حل بها الحواري (توما) بحسب روايات الكلدان وخاصة (يوسف السمعاني) فأن إنتشار المسيحية في العراق جاء على يده وكذلك (برتلماوس)، وثلاثة مبشرين (أدي) وتلميذه (أجي) و(ماري) وترجع الروايات كون الأول أحد تلاميذ السيد المسيح(ع).



**نساء يبكين كنائسهن المحروقة**

وعلى خلاف مسيحيي الشرق في دول الجوار الذين عانوا من الحروب الطائفية الأهلية، فأن مسيحيي العراق كانوا متآخين مع أخوتهم في الطيف العراقي. وماحدث للأشوريين من مذابح على يد بكر صدقي في بواكير العهد الملكي، لم يكن إلا موقفاً قومياً مسيئاً، أخذته السلطة الملكية وأستغلها صدقي نفسه، بعيداً عن أية دلالات طائفية نائية عن قاموسنا الاجتماعي. ولم نسمع عن أحزاب مسيحية سابقة أو تدخل للكنيسة في الشأن السياسي أو ممارسة لإنقلابات عسكرية بالرغم من أن الكثير منهم تبوأ مناصب عسكرية سامية. وقد أستثمرت سلطة البعث حربها ضد إيران لمغازلة الغرب حينما شرعت بمعاودة بناء الكنائس أو صيانتها، بما أوحى أنهم سلطة متفتحة تحارب سلطة متحجرة. وحدث أن أستغل أسمهم جزافاً في إستجداء بيانات التعاطف الغربية خلال سنوات الحصار في التسعينات، وأستغل أسم طارق عزيز وبعض أقطاب السلطة المباداة ذلك، ولم يكن إلا محض مكيدة أريد منها الإيحاء بأن هؤلاء طابور للغرب في العراق. وربما يكون هذا قد ترك أثراً في نفوس رعاي القوم وجهالهم وسفهاءهم، حينما أنطلقت عليهم المسوغات، وجعلهم في التسعينات يصبون جام غضبهم على أخوتنا النصارى ويضطهدونهم بمبرر (الحملة الإيمانية) الواهية التي كانت من أمهات الدجل البعثي.



وفي أخبار التاريخ نجد أن نصارى العراق لم يشكلوا شريحة خاصة متفوقة، بل كانوا أكثر عراقية، ونجدهم قد عانوا من مناقات السياسة. وظلموا من الساسانيين والبيزنطيين، وتذكر أحداث التاريخ أن سابور (شاهبور) قد قتل منهم 160 ألف، خلال حكمه الطويل.

وكان النصارى قبل الإسلام يتكلمون اللغة السريانية (الأرامية) وبعضهم في الحيرة يتكلمون العربية إضافة الى السريانية، اما الفارسية (البلهوية) فكانت محصورة فقط بالجهاز الاداري الحاكم. اما طبقاتهم، فهم أما سكان مدن، أو فلاحين أو رعاة في البوادي. وأعتنقت قبائل عربية المسيحية ومنها أباد وكندة ولخم. ومن أكثر من وردت مناقبه من العراقيين (حنا الكسكري) الذي بنى أول دير في البرية، وكسكر التي ينتمي إليها هي في موضع (قلعة سكر) اليوم. ومنهم من أكتسب حظوة كما هو حال القديس (سمعان القديم) المولود عام 360م الذي تكلم عنه (تاودوريس) أسقف قورش ونسب إليه كرامات كما لحق فيما بعد بالمتصوفة المسلمين، ونقل أن زوجة الملك (أردشير) قد شفت من مرض عضال بشفاعته، جعلها تطلب من زوجها الكف عن إضطهاد مسيحيي العراق..

ومن أهم الشخصيات التي تركت أثرها في التاريخ العراقي (مارية التغلبية)، ولقبت بماء السماء، لركة طباعها ودمائتها، وحتى أن ابنها المنذر الثالث (513-562م) لقب بإبن ماء السماء، وإبنه سمي بعمر بن همد (حكم بين أعوام 562-574م). وهمد هذه تركت أكبر أثر في ديرها الذي مكث ردحا من الزمن بعد الإسلام. وهي همد بنت عمرو بنت مجر الكندي، كما ذكر ذلك ياقوت في معجمه. ولها قصة مع سعد إبن أبي وقاص، وكذلك المغيرة بن شعبه الذي خطبها لما تولى الكوفة، فردته ردا جميلا وماتت على رهبانيتها. ويحكى عن عمرو أنه قتل في ثماله نديميه المقربين عمرو بن مسعود وخالد المظلل، وأقام على قبريهما غرايبب أو طربالين وهي برج عال أو (مسلة) عظيمة، لم نجد لها اليوم أثرا.

وأنشئت الأديرة في أواخر القرن الرابع في أطراف العراق، وقادها عراقيون ربطوا بين الإيمان والعلم (الفكر العرفاني أو الغنوصي). ويمكن أن يكون (أوكين) العراقي هو من نشر الرهبنة في منطقة الجزيرة وعموم العراق، ومن تلامذته الراهب (يونان أو يونس) الذي شيد دير مار يونان في الأنبار، وكذلك دير (يونس) القابع في الموصل. ومن الجدير ذكره أن يونس هذا كان طبيبا وفيلسوبا، ووصل إلى الزهد والنقش بمحض أفكاره، التي يمكن أن تكون من تأثير البيئة نفسها التي أظهرت الزهد والتصوف الإسلامي فيما بعد ولاسيما على مذهب رابعة العدوية البصرية. كما تولى الراهب (عبدا) بناء دير كبير في (درقان) بعد أن حصل على رخصة من حاكم (المدائن) (ثموز)، ثم بنى تلميذه (عبد يسوع) دير الصليب ودير (باكسايا) وآخر على الفرت.

وفي القرن الخامس ظهر القديس (ماروثا) الذي شافى ابنة (أردشير الثاني) فجعل أباهما يسمح لهم بنشر النصرانية بين العجم، وقد بني بسببها أعدادا كثيرة من الأديرة في العراق، وطفق العراقيون في بناء الأديرة في كل الأنحاء وأشهر ما وردت أخبارها: دير (أشموني) قرب بغداد ودير (الزندورد) الواقع في منطقة المربعة في الرصافة في شرق بغداد ودير (ذرتا) غربي بغداد ودير (سابور) غربي دجلة، ودير (سمالو) ودير (الثعالب) قرب بغداد عند منطقة الحارثية في الكرخ، ودير (مديان) على نهر كرخايا (الخير اليوم) في كرخ بغداد، وكذلك (دير مار جرجيس) قرب بغداد، ودير (كليشوع) المجاور لمقبرة الشيخ الصوفي معروف الكرخي في الكرخ و(دير سمالا) الواقعة في منطقة الشماسية (الأعظمية اليوم) ودير (باشهرا) بين بغداد وسامراء (معناها بيت أو مدينة القمر)، ودير (السّهوسي)، ودير (مارقثيون) و(دير سرجيس) قرب سامراء، ودير (العاقول) بين المدائن والنعمانية، ودير (العجاج) على تخوم منخفض الثرثار، ودير (القياره) عند الموصل ودير (باعربا) بين الموصل والحديثة على دجلة (معناه بيت أو مدينة الماء)، و(دير ميخائيل)، ودير (الخنافس) على تلة تشرف على دجلة على تخوم نينوى، ودير (الخوات) في عكبرا، ودير (كوم) عند الموصل، ودير (يوسف) و(دير مار إيليا) شرق الموصل، ودير (الأعلى) بالموصل على جبل مطل على دجلة في قلعة باشطابيه قرب المستشفى الجمهوري اليوم، ودير (ملكيساوا) فوق الموصل ونجد (بيت عذري) المعروف بجبل القوش الذي احتفظ ببعض الصوامع المنقورة في الجبل وعددها 400، والتي تذكر بالهيئات الأولى للعمائر المسيحية، ونجد كذلك على تخوم القوش شمال الموصل (دير هرمزد)، وبني كذلك (دير السيدة) الذي يعتبر من أكبر ديارات الكلدان وبنائه الحالي بني عام 1858. وللكاثوليك السريان يوجد (دير مار بهنام) الواقع جنوب شرقي الموصل. ومن أهم ديارات السريان وأقدمها (دير مار متي) الواقع على جبل مقلوب شرق الموصل، والذي يعود الى المئة الميلادية الرابعة. والظاهر أن منطقة الموصل قد احتفظت بجل الأمثلة مع وجود أديرة أخرى بالقرب من مدينة بلد، ودير (ماري) عند سامراء، ودير (مار يوحنا) قرب

تكريت، ودير (الجرعة) بالحيرة، ومن أشهر الأديرة العراقية هي الثلاثة التي شكلت قلب مدينة الكوفة، وأهمها دير هند بنت المنذر بن ماء السماء. وآخر في النجف بين قصري أبي الخصيب والسدير، وديري (الأسكون) بالحيرة، وثمة دير قرب واسط ودير (هزقل) عند البصرة ودير (الدهدار) بنواحي البصرة، ودير (الأبلق) في الأهواز. ومن المحتمل أن يكون (قصر الأخيضر) أحد تلك الأديرة التي تغير حالها وأضيفت لها الملحقات الإسلامية وطبعت هويتها، كما أكدته المس بل عام 1911. وما زال لغط يدور حول (قلعة بازيان) قرب السليمانية، وكل الدلائل البحثية تشير إلى أنها دير عراقي محض وليس قلعة كما يدعي بعض المدعين، بما يؤكد وسع إنتشار ذلك النوع من العمائر في العراق القديم.



دير مار متي في الموصل

وذكر اليعقوبي في مؤلفيه التاريخ والبلدان بصدد سامراء: (كان في سر من رأى متقدم الايام صحراء من أرض الطيرهان لاعمارة فيها وكان بها دير للنصارى بالموضع الذي صارت فيه دار السلطان المعروفة بدار العامة). ويكرر ذلك كل من الشابشتي حين يذكر (دير السوسي) و(دير مرمار) جنوب سامراء وياقوت نقلا عن البلاذري وأكد أسمه (دير مر جرجيس) وعين موقعه شمال مدينة بلد بـ 15 كلم، وكذلك (دير عبدون) في المنطقة نفسها.

والدير يعني البيت الذي يتعبد ويقطن ويتعاش فيه الرهبان. والكلمة واردة من كلمة (دار) السامية، والجمع أديار والديراني صاحب الدير ويقال دير وأديار وديران ودارة ودارات وديرة (ما زالت تستعمل في الجنوب العراقي والجزيرة والخليج).

ومابني من العمائر المسيحية في الحواضر والمدن والقرى فيعتبر كنيسة، وظهرت ملامح أولى الكنائس والأديرة في العراق على سجية العمائر في نوعيها البابلي في المناطق الرسوبية، والأشوري في مناطق التلال والجبال. وأقدم الكنائس العراقية كما ورد في بعض المراجع السريانية هي (كنيسة كوشي) العظيمة التي أقامها (مار ماري) في المدائن (سلمان باك)، التي كانت تعتبر مركز (المرجعية النسطورية) الملقب بالجنثليق (كنيسة بابل). وفي الفترة العباسية انتقلت المرجعية الى بغداد بعيد تأسيسها. ومنذ القرن الثاني الميلادي، طفق العراقيون في إشادة كنيسة في كل قرية ومدينة، من شمال العراق حتى أقصى جنوبه. وكل منها كنيت بأسم قديس أو سميت بتذكاري ديني. وقد اكدت الحفريات التي قامت بها البعثة الألمانية في أطلال (سلمان باك) وجود آثار كنيسة فيها، وذهبت الى تقدير إنشائها الى المائة السادسة للميلاد.

وأقدم الكنائس الباقية اليوم تدعى (الطاهرة الفوقانية) وتقع شمال شرقي الموصل، على مقربة من (باش طابية) على ضفاف نهر دجلة، الذي كان فيضانه وبالا عليها، بالرغم من الترميمات وأخرها الذي جرى عام 1743. وتكتنف الموصل كذلك كنيسة (شمعون الصفا) في محلة مياسة التي يعتبرها البعض أقدم كنيسة عراقية باقية منذ القرن الثالث الميلادي.

ويمكن إعتبار بغداد من أهم المواقع التي شغلتها العمارة المسيحية قبل تأسيسها الإسلامي عام 762م، حيث للتسمية الأرامية (بيت غدادو) أي بيت الغنم أو المرعى، ربما يؤكد صفتها الأولى الذي يعتبر أحد ما ذهب إليه الباحثون. وقد وجدت الكنائس في غربها (الكرخ) ثم انتقلت إلى رصافتها تباعا، وأقدمها التي كانت بجوار بغداد المدورة في محلة (المنطكة) حاليا، وكذلك في (محلة العقبة) المعروفة اليوم (محلة الشيخ صندل) كما

سكنوا في (محلة قطفتا) وهي محلة المشاهدة الحالية. ومن أكبر كنائس بغداد كانت على تخوم المشهد الكاظمي اليوم شمال بغداد في محلة (البحية) الحالية، وتطورت هذه الكنيسة حتى أصبحت مجمعا كنسيا أو ديرا كبيرا جاء وصفها لدى المسعودي، وذكرها ياقوت الحموي واصفا إياه (حسن العمارة، كثير الرهبان، وله هيكل في نهاية العلو)، وعلى تخومه (موقعه اليوم مدينة الحرية) كانت (بيعة سونايا)، ثم صار يدعى بـ (الدير العتيقة). وبعد إنتقال العراقيين النصارى إلى الرصافة متماشين مع توسع بغداد اللاحق، وما حل في الكرخ من خراب بعد الفتن وحروب الأميين والمأمون، حيث انتقلوا إلى شمال المدينة (الاعظمية اليوم) بما كان يدعى (الشماسية) منحدرًا من أسم (شماس) وهو القس النصراني، حيث يقول ياقوت فيها: (الشماسية منسوبة الى بعض شماسي النصارى، وهي مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد، وإليها ينسب باب الشماسية (باب المعظم) وفيها كانت دار معز الدولة البويهى.. وهي أعلى من الرصافة ومحلة أبي حنيفة). وفي (دار الروم) (حاليا حي صليخ)، كانت قد أنشئت أهم الكنائس (بيعة درب دينار) التي بقيت قائمة حتى العام 1333م إبان الدولة الإيلخانية. وكانت تقع هنا أكبر كنائس المشاركة في دار السلام وهي (بيعة السيدة مريم)، وقد ذاع صيتها في البلدان لما احتوته من رسوم إيقونية كان يمكنها أن تنقل لنا ملامح عن فنون مدرسة بغداد في الرسم على الحيطان (الفريسكو)، من الحضارات الرافدية. وقد بقيت محلة في ذلك الجانب تدعى (رأس الكنيسة) تقع قرب الميدان اليوم، حتى حلول التغييرات المعاصرة في بنية بغداد الحضرية.

واليوم توجد الكثير من الكنائس في أرجاء بغداد تتبوأ كنيسة الأرمن موقع الصدارة في (الباب الشرقي)، وهي حديثة البناء ومبنية على الطراز الأرمني التقليدي. ومن أكثر الكنائس قدما وهيبه هي (كنيسة اللاتين) أو (السيدة العذراء) الواقعة في الشورجة على شارع الخلفاء مقابلة لمسجد الخلفاء المحتضن لمنازة (سوق الغزل) في حي صباغ الآل. بنيت هذه الكنيسة بين أعوام (1860-1871). وكان يلتقي في هذه الكنيسة وما الحق بها الأب العالم أنستاس الكرملّي بطلابه وأحبابه من كل الملل، حتى وافاه الأجل ودفن في باحتها. وقد مرت تلك الكنيسة بويلات كثيرة كان أكثرها إيلا ما إحراقها من قبل الجيش التركي ضمن ما حرق عند إنسحابه من بغداد بعد خسارته الحرب العالمية الأولى. وأعيد ترميمها عام 1920، واستمر حالها مترنحا حتى أستملكها الحكومة العراقية عام 1956، حيث بقيت حتى العام 1966 عندما اغلقت لمدة عقد من الزمان، حيث وهبتها الحكومة العراقية عام 1976 للأقباط المصريين الذين بدأ عددهم يتزايد في بغداد حينئذ.

وعلى العموم فإن عمارة الكنائس العراقية وتاريخها يستاهل من الباحثين الخوض فيه وإثرائه بالبحث والتدوين والرسم، والتحليل والمقارنة. وأملنا أن لا يكون رد فعل بعض الأخوة أكبر من الفعل الشنيع للإرهابيين، ويلصقوا الأمر بالإسلام الحنيف، أو يتخلوا عن عراقيتهم الخالدة.

### الصابئة المندائيون



حامد نعيم - ميسان

الصابئة أو المندائيون، من الديانات العراقية القديمة، وهناك من ينسبها الى بقايا الديانة العراقية القديمة القائمة على تقديس الخصب والماء والكواكب السيارة. وهم يعدون بعدة مئات من الآلاف ويقطنون تاريخيا في جنوب العراق خصوصا في مناطق الاهوار وكذلك في الاحواز (التابعة حاليا لايران). وهم ينتشرون كذلك في المدن



العراقية الكبرى وبين الجاليات العراقية في الخارج. ولغتهم السائدة هي العربية، لكن لغتهم المقدسة الاصلية هي الآرامية العراقية(الشرقية)..

### تسميتهم

يطلق عليهم المندائيين أو الصابئة المندائيين حيث اشتقت كلمة المندائيين من الجذر (مندا- او مندع) و الذي يعني باللغة المندائية المعرفة أو العلم أما كلمة الصابئة فهي مشتقة من الجذر (صبا) والذي يعني باللغة المندائية اصطبغ، تعمد، غط أو غطس في الماء و هي من أهم شعائرهم الدينية و بذلك يكون معنى الصابئة المندائيين أي المصطبغين أو المتعمدين العارفين لدين الحق أو العارفين بوجود الخالق الأوحد الأزلي. بعض علماء اللغة اختلف في أصل كلمة الصابئة وأرجعها إلى الجذر العربي (صبأ) والذي يعني خرج وغير حالته لكنه لم يلق تأييداً واسعاً نظراً للعثور على آثار مندائية قديمة تدعم الأصل الآرامي المندائي. تدعو المندائية للإيمان بالله ووحدانيته ويسمى بالحي العظيم أو الحي الأزلي حيث جاء في كتاب المندائيين المقدس كنزا ربا أن الحي العظيم أنبعث من ذاته وبأمره و كلمته تكونت جميع المخلوقات والملائكة التي تمجده و تسبحه في عالمها النوراني كذلك بأمره تم خلق آدم وحواء من الصلصال عارفين بتعاليم الدين المندائي وقد أمر الله آدم بتعليم هذا الدين لذريته لينشروه من بعده.

### الأنبياء

يؤمن المندائيون بعدد من الأنبياء و أن الله قد أوحى لهم بتعاليم المندائية وهم: آدم، شيت بن آدم (شيتل)، سام بن نوح، يحيى بن زكريا (يهيا يوهنا).

ولكن اسمهم ارتبط بالنبي ابراهيم الخليل الذي عاش في مدينة اور السومرية - مدينة الهة القمر نانا - منتصف الالف الثالث قبل الميلاد، وكان ابراهيم عليه السلام أول من نبذ الاصنام ودعا لرب واحد عظيم القدرة اطلق عليه السومريون اسم [ لوغال - ديمير - آن - كي - آ ] ملك الهة ما هو فوق وما هو تحت [ رب السماوات والارض]. آمن الصابئة المندائيون بتعاليم ابراهيم واحتفظوا بصحفه ومارسوا طقوس التعميد التي سنها لهم واستمروا عليها الى يومنا هذا. وقد هاجر قسم منهم مع النبي ابراهيم الى حران والقسم الآخر بقي في العراق، وقد عرفوا فيما بعد بـ [ ناصورايي اد كوشطا ] اي حراس العهد الذين أسسوا بيوت النور والحكمة [أي - كاشونمال ] - بيت مندا او (بيت المعرفة) فيما بعد - على ضفاف الانهار في وادي الرافدين لعبادة مار اد ربوثا (الله - رب العظمة)، واتخذوا من الشمال (ابائر) الذي دعاه السومريون ((نيبورو)) قبلة لهم لوجود عالم النور (الجنة).

كما ارتبطت طقوسهم و بخاصة طقوس التعميد , بمياه الرافدين فاعتبروا نهريها ادگلات وپورانون (دجلة والفرات) أنهاراً مقدسة تطهر الارواح والاجساد فاصطبغوا في مياهها كي تتال نفوسهم النقاء والبهاء الذي يغمر ألما د نهورا (عالم النور) الذي اليه يعودون.

ورد مفهوم الاغتسال و التعميد في العديد من النصوص المسمارية حيث كتب الشاعر السومري في مرثية مدينة اور: ((شعب الرؤوس السوداء ما عادوا يغتسلون من أجل اعيادك، اناشيدك تحولت الى أنين، مدينة اور مثل طفل في شارع مهدم، يفتش لنفسه عن مكان امامك)).





## الكتب الدينية

للصابئة المندائيين العديد من الكتب المقدسة وهي:

- الكتاب المقدس (كنزا ربا): ويعني الكنز العظيم و يعتقدون أنه يجمع صف آدم وشيت وسام ويقع في 600 صفحة وهو بقسمين: الأول، ويتضمن سفر التكوين وتعاليم "الحي العظيم" والصراع الدائر بين الخير والشر والنور والظلام وكذلك هبوط "النفس" في جسد آدم ويتضمن كذلك تسبيحا للخالق وأحكام فقهية ودينية. الثاني، ويتناول قضايا "النفس" وما يلحقها من عقاب وثواب.
- كتاب (دراشة أد يهيا): ويعتقدون أنه تعاليم وحكم ومواعظ يحيى بن زكريا.
- كتاب (الأنفس): ويقولون أنه يضم قصة هبوط النفس في جسد آدم.
- كتاب (آدم بغرة): وهو شرح لجسد الإنسان عندهم.
- كتاب (القلستا): وهو تراثيل طقوس الزواج عندهم.
- كتاب (الناني): وهو كتاب الصلاة والأدعية عندهم.
- و 24 ديوانا متنوعا.

## أركان الديانة

ترتكز الديانة المندائية على خمسة أركان هي:

- التوحيد (سهدوثا اد هياي) و هي الاعتراف بالحي العظيم (هياي ربي) خالق الكون.
- حيث جاء في كتاب المندائيين المقدس كنزا ربا { لا أب لك و لا مولود كائن قبلك و لا أخ يقاسمك الملكوت و لا تؤام يشاركك الملكوت و لا تمتزج و لا تتجزأ و لا انفصام في موطنك جميل و قوي العالم الذي تسكنه }.
- التعميد أو الصباغة (مصبتا) يعتبر من أهم أركان الديان المندائية وهو فرض واجب ليكون الإنسان مندائيا ويهدف للخلاص والتوبة وغسل الذنوب والخطايا والتقرب من الله. ويجب أن يتم في المياه الجارية والحية لأنه يرمز للحياة والنور الرباني. وللإنسان حرية تكرار التعميد متى يشاء حيث يمارس في أيام الأحاد والمناسبات الدينية وعند الولادة والزواج أو عند تكريس رجل دين جديد. وقد حافظ طقس التعميد على أصوله القديمة حيث يعتقد بأنه هو نفسه الذي ناله عيسى بن مريم (المسيح) عند تعميده من قبل يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان).
- الصلاة (براخا) وهي فرض واجب على كل فرد مؤمن يؤدي ثلاث مرات يوميا (صباحا و ظهرا وعصرا) وغايته التقرب من الله. حيث ورد في كتابهم المقدس {وأمرناكم أن اسمعوا صوت الرب في قيامكم وعودكم وذهابكم ومجيئكم وفي ضجعتكم وراحتكم وفي جميع الأعمال التي تعملون }

ويسبق الصلاة نوع من طقوس الاغتسال يدعى (الرشما) وهو مشابه للوضوء عند المسلمين حيث يتم غسل أعضاء الجسم الرئيسية في الماء الجاري ويرافق ذلك ترتيل بعض المقاطع الدينية الصغيرة. فمثلا عند غسل الفم يتم ترتيل (ليمتلى فمي بالصلوات والتسبيحات) أو عند غسل الأذنين (أذناي تصغيان لأقوال الحي).

- الصيام و له نوعان: الصيام الكبير (صوما ربا) وهو الامتناع عن كل الفواحش والمحرمات و كل ما يسيء إلى علاقة الإنسان بربه و يدوم طوال حياة الإنسان. حيث جاء في كتابهم { صوموا الصوم العظيم ولا تقطعوه إلى أن تغادر أجسادكم، صوما صوما كثيرا لا عن مأكلا ومشرب هذه الدنيا.. صوموا صوم العقل والقلب والضمير }. ثم الصيام الصغير وهو الامتناع عن تناول لحوم الحيوانات وذبحها خلال أيام محددة من السنة تصل إلى 36 يوما لاعتقادهم بأن أبواب الشر مفتوحة تكون عندها مفتوحة على مصراعيها فتقوى فيها الشياطين وقوى الشر لذلك يسمونها بالأيام المبظلة.

- الصدقة (زدقا) ويشترط فيها السر وعدم الإعلان عنها لأن في ذلك إفساد لثوابها وهي من أخلاق المؤمن وواجباته اتجاه أخيه الإنسان. حيث جاء في كتابهم { أعطوا الصدقات للفقراء واشبعوا الجائعين واسقوا الظمآن واكسوا العراة لان من يعطي يستلم ومن يقرض يرجع له القرض } كما جاء أيضا { إن وهبتم صدقة أيها المؤمنون، فلا تجاهروا إن وهبتم بيمينكم فلا تخبروا شمالكم، وإن وهبتم بشمالكم فلا تخبروا يمينكم كل من وهب صدقة وتحدث عنها كافر لا ثواب له }.

يتجه الصابئة المندائيون في صلاتهم ولدى ممارستهم لشعائهم الدينية نحو جهة الشمال لاعتقادهم بأن عالم الأنوار (الجنة) يقع في ذلك المكان المقدس من الكون الذي تعرج إليه النفوس في النهاية لتتعم بالخلود إلى جوار ربها، ويستدل على اتجاه الشمال بواسطة النجم القطبي.



**الدرفش المندائي، وهو رمزهم الديني ويتكون من صليب وعليه قميص النبي يحيى(ع)**

### **المحرمات**

**وقد ذكرت هذه المحرمات بشكل واضح في كتب المندائية المقدسة:**

- التجديف باسم الخالق (الكفر) / عدم أداء الفروض الدينية / القتل / الزنا من الكبائر المؤدية إلى النار / السرقة / الكذب، شهادة الزور، خيانة الأمانة والعهد، الحسد، النميمة، الغيبة، إعطاء الصدقة والتحدث بها، القسم الباطل / عبادة الشهوات / الشعوذة والسحر / الختان / شرب الخمر / الربا / البكاء على الميت ولبس السواد / تلويث الطبيعة والأنهار / أكل الميت والدم والحامل والجراح والكاسر من الحيوانات والذي هاجمه حيوان مفترس / الطلاق (إلا في ظروف خاصة جدا) / الانتحار وإنهاء الحياة والإجهاض / تعذيب النفس وإيذاء الجسد / الرهينة.

### **حول اصل الصابئة المندائيين**

**حيدر رضا - بغداد**



إن دراسة تاريخ الصابئة المندائيين هو جزء من دراسة تاريخ العراق العريق. فتواجد الصابئة منذ قرون طويلة في جنوب ما بين النهرين واللغة التي ينطق بها الصابئة المندائيون هي اللغة الآرامية بلهجتها الشرقية ويتكلم الصابئة المندائيون اللغة المندائية وهي إحدى اللغات السامية المشهورة في الزمن القديم وهي اقرب إلى السريانية من غيرها ويعتقد المندائيون إن لغتهم هي التي يتكلم بها سيدنا ادم عليه السلام. ويعتبر دين الصابئة واحد من أقدم الأديان، حيث يؤمنون بان كتابهم المقدس ((الكنزاربا)) يتضمن الصحف الاولى التي نزلت على آدم ويسمى ايضا ((سيدرا ادم)).

وقد اختلف المؤرخون في أصل الصابئة المندائيين ونشأة دينهم ومصادره الأولى اذ يؤمنون بالله الواحد الأحد وبأنبيائه، كذلك يؤمنون بالنبي ادم عليه السلام وشيت وسام بن نوح وإبراهيم الخليل وأخيرا بالنبي يحيى بن

زكريا (يوحنا المعمدان) وهو آخر انبيائهم. ويتجه الصابئة المندائيون في صلاتهم وفي ممارسة شعائهم الدينية نحو جهة الشمال وذلك لإيمانهم بأن عالم الأنوار في هذا المكان المقدس من الاكوان. أما في صلاتهم فيعتقدون إن سيدنا ادم عليه السلام كان يصلي سبع صلوات في اليوم، واستمرت عندهم هذه الصلاة حتى ظهور النبي يحيى (ع) الذي جعلها ثلاث مرات.

أما كتبهم المقدسة فاهمها الكنزاربأ أي الكتاب المقدس (الكنز العظيم) يحتوي على صحف ادم (ع)، كذلك على بدء الخليقة والتطورات التي حدثت للبشر وفي صفات الخالق وفي الوعظ والإرشاد. أما الكتاب الثاني (ادراشا اديهيا) أي تعاليم النبي يحيى (ع).

فمن هم المندائيون؟ ومن أين أصلهم ونشأتهم؟ وما هي حقيقة ديانتهم؟ وما هي عقائدهم وطقوسهم وشعائهم الدينية؟ وكيف يتعبدون؟ أرجو أن أوفق في الإجابة على هذه الأسئلة من خلال هذا البحث.

### أصول وتسمية الصابئة المندائيين

تواجد الصابئة المندائيون منذ القدم في جنوب ما بين النهرين , واللغة التي ينطقون بها هي اللغة المندائية الآرامية بلهجتها الشرقية.

والمح الكثير من المؤرخين المسلمين إن معتقدات الصابئة المندائية برزت في بابل أولا. وقد تمخض البحث في منشأ المندائيين عن نظريتين الأولى: إنهم من سكان ما بين النهرين القدماء وإنهم ورثوا الكثير من الميثولوجيا البابلية ولكنهم تأثروا باليهودية بحكم تجاورهم مع اليهود التي كانت تسكن ما بين النهرين, وقد تأثروا بالمسيحية من خلال الاحتكاك بالنساطرة المسيحيين.

أما النظرية الثانية فيرى البعض إن منشأهم كان في الغرب، في منطقة البحر الميت(فلسطين) أو في شرق الأردن حيث كانوا يمارسون شعيرة التعميد هناك.



### الصابئة المندائية وبلاد النهرين

لقد أشار العديد من المؤرخين إلى إن معتقدات الصابئة المندائية برزت لأول مرة في جنوب ما بين النهرين. فقد ذهب هنري لايرد عالم الآثار البريطاني الذي أسهم في الكشف عن الآثار الآشورية إلى أن الدين الآشوري في أيامه المبكرة الأولى وقبل أن تمسه التأثيرات الفارسية وغيرها (هو امتداد للدين البابلي) كان صابئي المنحى (1).

ولكننا نرى إن الصابئة المندائية تمتد إلى ما قبل ذلك وبالتحديد إلى العهد السومري، ولدعم هذه النظرية نقوم بمقارنة بين الدين الصابئي والسومري. فكلا الديانتين تعظمان الماء وتضعانه في منزلة عظيمة.

فقد كان في الزمن السومري اله اسمه (آيا) اله المياه وهو يجلس في مقصورة من الماء الجاري. وترى الليدي دراور إن البركة الطقسية ذات العلاقة بـ(آيا) اله المياه كانت تشكل جزءا من العقائد السومرية في (ايريدو) المدينة. وقد بحث الأب (بوروز) (مشاكل من ابسو, روما 1932) واستنتج بأنه لم يكن مبزل سوائلا كما اقترح سابقا, بل لا بد انه كان حوضا أو بركة, وأشار إلى أن بعض أسماء شعائير(ابسو) في (لاكش) تشير إلى برك متصلة بقنوات أو ما يشابهها (2).

إن طغيان الماء في الشعائر والطقوس الصابئة المندائية يمثل تمسكا قويا بأصل ديني بعيد يعود إلى العهود السومرية. فيعتقد الصابئة المندائيون إن الإنسان عندما يموت تنقل نفسه إلى العالم الآخر. هناك تحاسب النفس وتوزن أعمالها فإذا كانت الحسنات كثيرة تصعد إلى عالم الأنوار أما إذا كانت السيئات أكثر فانها تذهب إلى (المطراثي) وهي رحلة تمر بها النفس بسبع محطات (عواالم الحساب).

الحالة نفسها نجدها عند السومريين فهم يرون إن الإنسان عندما يموت تذهب روحه إلى العالم الآخر وتجتاز هذه الروح البوابات السبعة ثم تذهب إلى مستقرها في العالم الأسفل(3). كما إن هناك تقليد ديني مندائي يتضمن إطلاق اسم ديني على الصابئي بالإضافة إلى اسمه المعلن , ويستعمل هذا الاسم في طقس التعميد والمناسبات كالزواج والوفاة وغيرها. وهو يسمى بـ (الملواشة) وهو اسم ديني حيث ينسب الفرد إلى أمه. إن هذا التقليد هو تقليد سومري حيث كان يطلق أسماء على رجال الدين. حيث يعتقد بان ممارسة السحر الأسود أو الضار يسري على الاسم الديني وليس على الاسم المعلن , وكان الكهنة يتحاشون الكشف عن أسمائهم الدينية لكي لا يتعرضوا إلى أخطار السحرة والأعداء(4). كما وتأتي جذور الصلة بين الديانتين الصابئية والمندائية والديانة البابلية هو أن كلا الديانتين تقدسان الشمس باعتبارها قوة للخير.

كذلك فان الديانتين تنزلان الماء منزلة عظيمة فكان سكان ما بين النهرين ترى أن الماء يدخل في كل جانب من جوانب حياتهم. وقد ظل سكان بلاد الرافدين يقدسون الماء ويضعونه بمنزلة عظيمة فاعتبروه أداة للتطهير. لقد كان من تقاليد الطقوس اليومية للمعبد البابلي أن يجري غسل تماثيل الآلهة, ورش المعبد بالماء الطاهر(5). أما بالنسبة للصابئة المندائيين فالماء هو مصدر الحياة ذاتها. ففي الوضوء أو ما يسمونه بـ(الرشامة) التي تجري عند النهر الجاري يقول المندائيين (أبرخ يرد نه آدميه هبي مشبه ماري كشطة سنخون). وتعني (تبارك الماء العظيم ماء الحياة سبحان الهي احفظ عهده) كذلك يقولون في الوضوء (مللين ابلالي اد زيوه وازهي طن بصري دنهور) وتعني (لينطقا بكلام النور وليكن ضميري نقيا مؤمنا بالصلاح)(6). وكذلك يطهر المندي سنويا وفق طقوس خاصة بالماء.

ويلتقي الصابئة المندائيون بالبابليين بلباس التعميد الأبيض (الرسطة) لدى المندائيين باللباس الأبيض الذي كان يرتدونه الكهنة في بابل(7). ويحرم المندائيون حلق اللحية وشعر الرأس كذلك البابليون رغم إن عامة الصابئة لا يتقيدون بهذا التحريم اليوم, إلا إن رجال الدين منهم ملزمون تماما بهذا التحريم فهم يتركون لحاهم وشعر رؤوسهم.

أما في حالة الوفاة فيعتقد الصابئة إن نفس الميت لاتصعد إلى السماء إلا بعد مرور ثلاثة أيام على الوفاة وخلال هذه الأيام الثلاثة تظل النفس تحوم ما بين القبر وبيت الميت وبعد الأيام الثلاثة تأخذ سبيلها إلى السماء. نفس الصورة نجدها لدى البابليين. فروح الميت عندهم تبقى تحوم ثلاثة أيام بعد إيداع جثمانه القبر(8).



**التعميد في الماء من اهم طقوس الصابئة**

يثار هنا تساؤل, هل كان الصابئة المندائيون قد تأثروا بشكل مباشر بأفكار الجماعات البابلية التي كانت تجاورهم, أو أن يكونوا هم ذاتهم من بقايا البابليين وطوروا معتقداتهم من خلال تفاعلهم مع الجماعات اليهودية وغيرها التي كانت تجاورهم, أو أن يكونوا من الجماعات الآرامية التي طورت أفكارها ومعتقداتها بعيدا عن هذه التأثيرات. ويذكر ابن النديم في الفهرست, أنهم من بقايا الجماعات اليهودية التي كانت تقطن جنوب العراق كالحسج. ويقول عبد العزيز الثعالبي في الصابئة هي ديانة(عازيموس) الأول, كان في القديم من أعظم الأديان انتشارا في العالم وكان منشأها في العراق وكعبها حران, وهي في الأصل دين الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر. اثبت التاريخ أن العرب كانوا يدينون بديانة قريبة الى لصابئة منذ القرون الأولى, وقد اتخذوا الهياكل وسموها البيوت, وجعلوها معابد يقدسونها ويدينون بها. ويدل على ذلك إنهم كانوا يسمون أنفسهم عبيدا لها, كقولهم عبد شمس, وعبد المشتري وغيرها(9) وفي الحقيقة إن الصابئة المندائيين يرفضون عبادة الكواكب. فعندما نشر احد المؤلفين (عبد الرزاق الحسني) كتابا حول الصابئة المندائيين اعتبرهم عبدة كواكب فأثار

حفيظة رجال دينهم. فقدم الشيخ دخیل الى بغداد يحمل معه كتابهم المقدس الكنز العظيم(كنزاربا) يتلو منه امام المحكمة بوجود مترجم يترجم أمام الشهود من السفر المقدس نصا يرفض عبادة الكواكب ويظهر انهم يعبدون الله.

تقول الليدي دراور (في الحقيقة إن الصابئين لا يعبدون الأجرام السماوية غير إنهم يعتقدون بان النجوم والكواكب تحتوي على مخلوقات حية هي أرواح ثانوية تابعة لأمر ملك النور(ملكا دنهورا) وإنها تتحكم بمصائر البشر , ويصاحب هذه الأرواح الخيرة أضدادها من الأرواح الشريرة ففي فلك الشمس (شامش) ينتصب شامش الخير النافع رمز الخصب والخضرة ومعه الروح الشريرة المهلك(ادوناى)مع أرواح نورانية حارسة أخرى(10).

فالصابئيون يوجهون دعاءهم للأرواح الخيرة النورانية فقط وليس لتلك التي تخص عالم الظلام. ويقول المندائيان نعيم بدوي وغضبان رومي (الصابئيون طائفة عراقية قبل أن تكون أي شي آخر , بل إننا كما نشير طقوسها صلة الحاضر بالماضي البالي الاكدي والنبطي في العراق) (11).



### الصابئة المندائيون وطوائف البحر الميت

هنالك من يقول أن الصابئة من سكان فلسطين, وإنهم هاجروا منها بسبب الاضطهاد الذي لحقهم على أيدي المؤسسة اليهودية الرسمية ومن قبل الحكام الرومان.

يبدون ان ثمة علاقة بين الصابئة والاسينيون, وهم طائفة روحانية(صوفية) كانت موجود في فلسطين قبل الميلاد, ويحسبها بعض المؤرخين على اليهود والبعض يعتبرها غير يهودية.

الاسينيون يؤمنون بالفضيلة المطلقة, ويستقبحون الشهوات فهم لا يتزوجون ويتبنون أطفال غيرهم وملكية الجميع مشتركة عندهم ولايتبايعون وإنما يتقارضون قدر حاجتهم ويلبسون الألبسة البيضاء. يلتقي الاسينيون والمندائيون في طقوس التعميد حيث يتعين أن يرتدي الملابس البيضاء ويفعل المندائي الشي ذاته عند التعميد. إذ يرتدي ملابس بيضاء تعرف بـ(الرسته).

كما تلتقي الطائفتان في نظرتهما الثانوية تجاه الظلام والنور والخير والشر وهي ثنائية شاعت بتأثير التعاليم البابلية(12).

اما بالنسبة للعلاقة بين الصابئة والحسح, وهو موضوع أثاره ابن النديم في كتابه الشهير الفهرست الذي أشار إلى العلاقة بين الصابئة المندائيين والحسح حيث يقول إن (هؤلاء القوم كثيرون بنواحي البطائح(جنوب العراق) وهم صابئة البطائح يقولون بالاغتسال ويغسلون جميع ما يأكلونه ورئيسهم يعرف بالحسح)(13).

ووجد أتباع الحسح في شرق البحر الميت وهي فرقة فلسطينية قريبة الى اليهودية. وقد اتخذت من التعميد ركنا أساسيا في طقوسها الدينية. وكانت دعوتهم تقوم على التمسك بالشريعة اليهودية , وممارسة الختان , والتقييد بأحكام السبت.



إن التماثل ما بين الصابئة المندائية وأتباع الحسح هو التعميد فكلا الطائفتين تمارس التعميد كتطهير من الخطايا، لكن الطائفتين تختلفان في عدة أمور: فالحسح يلزم بالختان فيما تحرمه المندائية. والأولى تتشدد بالتمسك بيوم السبت فيما الثانية بيوم الأحد ومن وجهة نظري هناك اختلاف كبير بين الصابئة المندائية وطوائف البحر الميت (الاسينيين وأتباع الحسح) فالثانية هم من الطوائف اليهودية والعلاقة بين اليهود والصابئة عدائية، وخالف الصابئة اليهود في أكثر عقائدهم، فعيدهم الأحد لا السبت، وإذا كان الختان فرضاً على اليهود، حرمة العقيدة الصابئية دينياً، وتعد من قام به خارجاً عن الدين، أما خروج النبي موسى(ع) من مصر ونجاته من فرعون فهو نصر يهودي، ولكنه يمثل فجيرة ومأتما عند الصابئة بسبب غرق المصريين ونجاة موسى(ع) وقومه. ويقيم الصابئة بتلك المناسبة التي يطلقون عليها (عاشورية) المآدب التأبينية، والفاحة (لوفاني) على أرواح المصريين الذين غرقوا في البحر الأحمر حينما كانوا يلاحقون نبي اليهود موسى(ع)(14). يشار في هذا الموضوع إلى أن المندائيين كانوا متواجدين في مصر ذلك الوقت.

### الصابئة الحرائية

سميت بالحرائية نسبة إلى بلدة حران. قال القاضي أحمد الشهير المعروف ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان وإنشاء الزمان إن حران مدينة مشهورة في الجزيرة تقع على نهر بلباس أحد روافد نهر الفرات وذكر ابن جرير الطبري في تاريخه أن هاران ابن عم إبراهيم الخليل (ع) وأبو زوجته سارة عمرها أي بناها فسميت باسمه هاران وقيل إن لإبراهيم (ع) أخا اسمه هاران أبو لوط هو الذي بناها.

وذكر قوم أنها أول مدينة بنيت بعد الطوفان وكانت منازل الصابئة وهم الحرائيون نسبة إلى محل سكنهم حران ليس إلا. (15) قال ابن النديم: قال أبو يوسف أيشع القطيعي النصراني في كتابه في الكشف عن مذاهب الحرائيين المعروفين في عصرنا بالصابئة: (أن المأمون اجتاز في آخر أيامه بديار مضر يريد بلاد الروم للغزو فتلقيه الناس يدعون له وفيهم جماعة من الحرائيين وكان زيهم إذ ذاك لبس الأقبية وشعورهم طويلة بوفرات كوفرة قرة جد سنان بن ثابت فأنكر المأمون زيهم وقال لهم من انتم من الذمة؟ فقالوا: نحن الحرائية. قال: أنصاري انتم؟ قالوا: لا، قال لهم: أفلكم كتاب أم نبي؟ فجمعوا في القول فقال: فانتم إذن الزنادقة عبدة الأوثان وأصحاب الرأس في أيام الرشيد والدي وانتم حلال دماؤكم لاذمة لكم. فقالوا: نحن نؤدي الجزية. فقال لهم: إنما تؤخذ الجزية ممن خالف الإسلام من أهل الأديان. الذين ذكرهم الله عز وجل في كتابه ولهم كتاب وصالحه المسلمون على ذلك، فانتم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء فاختاروا الآن أحد الأمرين: أما أن تنتحلوا دين الإسلام أو ديناً آخر من الأديان التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه وإلا قتلتم عن آخركم، فاني قد أنذرتكم إلى أن أرجع من سفرتي هذه فان انتم دخلتم الإسلام أو في دين من هذه الأديان التي ذكرها الله في كتابه وإلا أمرت بقتلكم واستئصال شأفتكم). ورحل المأمون يريد بلد الروم فغيروا زيهم وحلقوا شعورهم وتركوا لبس الأقبية وتنصر كثير منهم ولبسوا زنانير وأسلم منهم طائفة وبقي منهم شرذمة بحالهم وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى أنتدب لهم شيخ من أهل حران فقيه فقال لهم: قد وجدت شيئاً تنجون به وتسلمون من القتل. فحملوا إليه مالا عظيماً من بيت مالهم أحدثوه منذ أيام الرشيد إلى هذه الغاية أعدوه إلى النوائب فقال لهم: إذا رجع المأمون من سفره فقولوا له نحن الصابئون فهذا اسم دين قد ذكره الله جل اسمه في القرآن الكريم فانتحلوه فانتم تنجون به وقضى إن المأمون توفي في سفرته تلك بالبدنزون فانتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت لأنه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة.



**الموصل.. في شمالها تقع مدينة حران الشهيرة وهي الآن تابعة الى جنوب تركيا..**

فلما اتصل بهم وفاة المأمون , ارتد أكثر من كان تنصر منهم , ورجع إلى الحرانية فطولوا شعورهم حسب ماكان عليه قبل مرور المأمون بهم على أنهم صابئون ومنعهم المسلمون من لبس الأقبية لأنه من لبس أصحاب السلطان ومن اسلم منهم لم يمكنه الارتداد خوفا من إن يقتل فأقاموا متسترين بالإسلام فكانوا يتزوجون بنساء حرانيات ويجعلون الولد الذكر مسلما , والأنتى حرانية. وهذه كانت سبيل كل أهل ترعوز وسلمسبين , القريتين المشهورتين العظيمتين بالقرب من حران أي منذ نحو عشرين سنة.(16)

لقد رفض الكثير من المندائيين الاعتراف بأن موطنهم الأصلي هو جنوب العراق واعتقادهم أنهم جاءوا من الشمال وقد يكون هذا الرفض وذلك الاعتقاد راجعين إلى سبب ديني، وهو اعتقاد المندائيين بأن الشمال موطن الأسلاف الإلهيين وأنه مصدر النور والمعرفة... يستقبلونه في صلاتهم ويتوجهون إليه بعد مماتهم وأما الجنوب فهو مصدر الشر والظلام جاء في الكتاب المقدس ((كنزا ربا)). إن عوالم الظلام تقع في الأرض المنخفضة في الجنوب وأولئك الذين يسكنون في الشمال هم بيض البشرة... أما أولئك الذين يسكنون في الجنوب فهم سود البشرة ومظهرهم قبيح كالشياطين (17)

وقال البروفيسور أوليري في سياق حديثه عن صابئة حران: (إن قصة الحرانيين مع المأمون ماهي إلا محاولة لتفسير كيف أصبح الحرانيون يسمون بالصابئين وهو أسم نعرف الآن أنه لايعود لهم. إن الصابئين الحقيقيين كانوا في الجنوب العربي لا علاقة لهم بحران, إن المندائيين في جنوب العراق أهل معمدي الآباء المسيحيين الأوائل , والكتاب الربانيين الذين حصلوا على اسم (المتعمدين) من تطهرهم المستمر المتزمت , كانوا يسمونه بالآرامية (بالصابئين) من أصل الفعل (صبا الآرامي) بمعنى يغطس ويتعمد وكان المندائيون هؤلاء معرفيين (غنوصيين) ولم يكن أهل حران معرفيين بل كانت لهم هياكل مكرسة للكواكب مما جعل الخلط بينهم وبين المندائيين ممكنا ومن المحتمل أن تكون الأفلاطونية الحديثة الحرانية قد امتزجت بالعقائد المعرفية (18).

وقال الأستاذ عباس محمود العقاد عن الصابئين (أنهم السابحة من السبح والاستحمام في مياه الأنهار) (19). وليست العلاقة بين الصابئة المندائيين والحرانيين مجرد تسمية تجمع بينهم. إن هناك فرقا في الدين كبيرا بين صابئة حران والصابئة المندائيين وأورد بعض الاختلافات فيما بينهم:

1- اختلافهم في بناء المعابد: يسمي المندائيون معبدهم بـ (المندي) وهو عبارة عن كوخ من القصب منصوب على شاطئ نهر جار أو نبع ماء جار حي وباب المندي متجه نحو الجنوب ومحرا به نحو الشمال لاعتقادهم انه المكان الذي يحكم فيه على أعمال الناس بالصلاح أو الفساد يوم القيامة. ومعابد المندائية خالية من إي تمثال أو صنم لتعظيمهم الماء الحي الجاري. وفي المندي يمارسون صلواتهم العلنية بعد تعمدهم بالماء الجاري وفيه يعقدون قران زواجهم وفيه يقدمون القرابين في الأعياد. جاء في كتاب الكنزا ربا: (كل من صنع تمثالا أو صنما أو جسما ليعبده من دون الله تكتوى شفاهه ويداه بنار حامية ويتمنى الموت ولكن الموت لايدركه). بينما بنى الحرانية معابدهم الحجرية على الطرز المعمارية للمعابد الوثنية الرومانية وأقاموا فيها هياكل وتمائيل للكواكب السبعة وفيها يمارسون صلواتهم بصورة سرية. (20)

2- اختلافهم في الدفن وتوجيه القبور: فالمندائيون تتجه قبورهم شمال – جنوب وللقبر في الأعلى شكل دائري ويوجه الوجه باتجاه الشمال ويضعون في فمه حصاة صغيرة أو قليل من التراب ويدفن مع الميت خاتم العمادة

(لرجال الدين). أما الحرائيون فقبورهم تتجه غرب – شرق ويكون الرأس باتجاه الغرب والوجه نحو الأعلى باتجاه الشمال الشرقي ويدفن مع الميت متاعه وثيابه وخاتمهم وخواتمهم عليها تماثيل منحوتة على حجارة صغيرة (ومعظم فصوص الخواتم من العقيق) ولقبور الحرائية شواهد طويلة على شكل تماثيل. وفي كلا الديانتين المندائية والحرائية لا يظهرون الحزن على الميت. فاللطم والبكاء محرمان. (21)

### الهوامش

- 1- عزيز اسباهي - أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية ص 55
- 2- الليدي دراور - الصابئة المندائيين ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي ص 219
- 3- نائل حنون - عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة ص 86
- 4- خزعل الماجدي - أصول الديانة المندائية.
- 5- الليدي دراور - الصابئة المندائيون ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي.
- 6- الليدي دراور - الصابئة المندائيون ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي.
- 7- الليدي دراور - الصابئة المندائيون ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي.
- 8- عزيز اسباهي - أصول الصابئة ومعتقداتهم.
- 9- محمد عمر حمادة - تاريخ الصابئة المندائيين دار قتيبة.
- 10- الليدي دراور - الصابئة المندائيون ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي.
- 11 - مقدمة المترجمين - الصابئة المندائيون.
- 12- عزيز اسباهي - أصول الصابئة ومعتقداتهم.
- 13- النديم - كتاب الفهرست , تحقيق رضا - تجدد.
- 14- تاريخ الصابئة المندائيين, محمد عمر حمادة.
- 15- الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين العرب البائدة - تأليف عبد الفتاح الزهيري.
- 16- الفهرس للنديم - (مصدر سابق ذكره).
- 17- مجلة الطيف المندائي - العدد الأول 2004 ص 20
- 18- الصابئة المندائيون - مقدمة المترجمين.
- 19- نفس المصدر.
- 20- الصابئييين الأمة المقتصدة في التوراة والإنجيل والقران - تأليف د. احمد حجازي السقا.
- 21- نفس المصدر.

### اليزيدية

اسعد علي السنجاري - بغداد



الطاووس، وهو رمزهم الديني ويرتبط بـ (جبرائيل) الذي يعتبرونه رئيس الملائكة وهذا الرمز ايضا يذكر بـ(تموز) اله الخصب الذكوري العراقي

اليزيدية طائفة عراقية أصيلة مركزها السكاني الأكبر في سنجار غرب الموصل. لقد عانى اليزيدية مثل اخوتهم الشبك، من المناورات السياسية للقوى القومية من أجل احتسابهم عليها. فتارة تم اعتبارهم عرب اقحاح وتارة أصل الاكراد وتارة من أصول تركمانية وتارة من بقايا الآشوريين. والحقيقة انهم مثل الشبك، هم جميع هؤلاء بنفس الوقت. أي ان اليزيدية استقبلت في داخلها الكثير من الجماعات العراقية التي تقطن شمال الوطن، حسب الظروف والاحداث التاريخية.

ينتشر اليزيدية في العراق اساسا حيث يشكلون نسبة 80% من مجموعة اليزيدية في الشرق الاوسط، وعددهم الآن في العراق صعب التقدير، وتتراوح التقديرات بعدة مئات من الآلاف، ويقطنون اساسا في سنجار غرب الموصل، مع بعض مناطق دهوك مثل لالش. كذلك يقطن اليزيدية في سوريا وتركيا وإيران وروسيا ولهم جاليات قليلة العدد في لبنان. وهم مرتبطون جميعاً برئاسة البيت الأموي..



نساء يزديات

### أصل عقيدتهم

الطائفة اليزيدية مثل معظم الطوائف الصغيرة في العراق وعموم الشرق الاوسط، لها جذور قديمة تعود الى الاديان القديمة، لكنها مع الزمن اتخذت شكلا اسلاميا بعد انتشار الاسلام في المنطقة. من الواضح ان اليزيدية لها جذور تعود الى (ديانة الخصب) العراقية القديمة المنتشرة في بابل وآشور وسومر. وبحكم الوضع الجبلي في شمال العراق الذي يساعد على العزلة نوعا ما، فإن سكان هذه المنطقة بقو محافظين على ديانتهم العراقية الاولى، مع الاضطرار الى اكتساب بعض من المعتقدات الجديدة الوافدة، وبالذات من العرفانية (الغنوصية) ومنها (المانوية) العراقية، القريبة الى الديانة المندائية. ومع انتشار المسيحية في شمال العراق اخذت هذه الطائفة بعض من تقاليدها. ولكن انتشار الاسلام في شمال العراق اثر بشكل كبير وحاسم في هذه الطائفة ومنحها عمقا اسلاميا واضحا بل حتى تسميتها (اليزيدية) كانت بمعنى اسلامي، حيث انها مرتبطة بـ(يزيد بن معاوية) الخليفة الأموي المعروف.

عندما انهارت الدولة الأموية في معركة الزاب الكبرى شمال العراق سنة 132هـ هرب الأمير إبراهيم بن حرب بن خالد بن يزيد إلى شمال العراق وجمع فلول الأمويين الذين تشتت جيشهم قرب الموصل، داعياً إلى أحقية يزيد في الخلافة والولاية، وأنه السفيناني المنتظر الذي سيعود إلى الأرض ليملاها عدلاً كما ملئت جوراً. يعتقد ان مؤسس العقيدة اليزيدية هو الشيخ عدي بن مسافر الذي ولد بين سنتي 1073 و 1078 في القرية اللبنانية بيت فار (وتعرف حالياً بخربة قنقار) الواقعة على المنحدر الغربي لوادي البقاع، والده مسافر بن اسماعيل يصل بنسبه الى الخليفة الأموي مروان بن الحكم أما والدته فهي يزده ولا يزال ضريحهم موجوداً في البقاع اللبناني.

عاش الشيخ عدي بداية حياته في بغداد بعد ذلك هاجر الى شمال العراق واستقر في خرائب دير مسيحي في منطقة لالش شرق الموصل (حاليا في دهوك). وقد أدى تقشفه وصومه و خوارقه الى انتشار شهرته فبسط نفوذه في المنطقة بأسرها وكرس بقية حياته لهداية الناس وارشادهم الى ما فيه خيرهم وقد ترك وراءه بعد وفاته نصوصا تفسر نظريته.

طلب من قومه أن يخلفه بعد وفاته ابن عمه أبو البركات الذي لم يكن أقل ورعا وزهدا وتقوى منه واعتبر عامة الناس ذلك الطلب كإشارة إلى تكريس القيادة الدينية والدنيوية في عائلة أبي البركات فكرسوها وتوارثها الأبناء الى يومنا هذا.

يقع قبر الشيخ عدي في ناحية شيخان الواقعة على مسافة 48 كلم في شمال شرق الموصل والطائفة اليزيدية تجله وتحج إليه وتتوسله في قبره تقبل نذورها وتحقيق أمانيتها.

ولليزидيين مزارات أخرى كمزار الشيخ شرف الدين قرب قرية دنية ومزار الشيخ أبي القاسم في بردحلي ومزار الشيخ شمس في بشتكير ومزار الشيخ بيرزكر في بلدة سنجار.

#### وهناك شخصيات معروفة قد لعبت ادوارا في تكوين اليزيدية، منهم:

صخر بن صخر بن مسفر: المعروف بالشيخ أبو البركات رافق عمه عدياً وكان خليفته ولما مات دفن بجانب قبر عمه في لالش. كذلك، عدي بن ابي البركات: توفي سنة 615 هـ / 1217 م خلفه ابنه شمس الدين أبو محمد المعروف بالشيخ حسن: المولود سنة 591 هـ / 1154م وعلى يديه انحرفت الطائفة اليزيدية من حب عدي ويزيد بن مسافر إلى تقديسها والشيطان إبليس، وتوفي سنة 644 هـ / 1246م بعد أن ألف كتاب الجلوة لأصحاب الخلوة وكتاب محك الإيمان وكتاب هداية الأصحاب وقد أدخل اسمه في الشهادة كما نجد اليوم عند بعض اليزيدية. ثم الشيخ فخر الدين أخو الشيخ حسن: انحصرت في ذريته الرئاسة الدينية والفتوى. بعده شرف الدين محمد الشيخ فخر الدين: قتل عام 655 هـ / 1257م وهو في طريقه إلى السلطان عز الدين السلجوقي. أعقبه زين الدين يوسف بن شرف الدين محمد: الذي سافر إلى مصر وانقطع إلى طلب العلم والتعبد فمات في التكية العدوية بالقاهرة سنة 725 هـ.

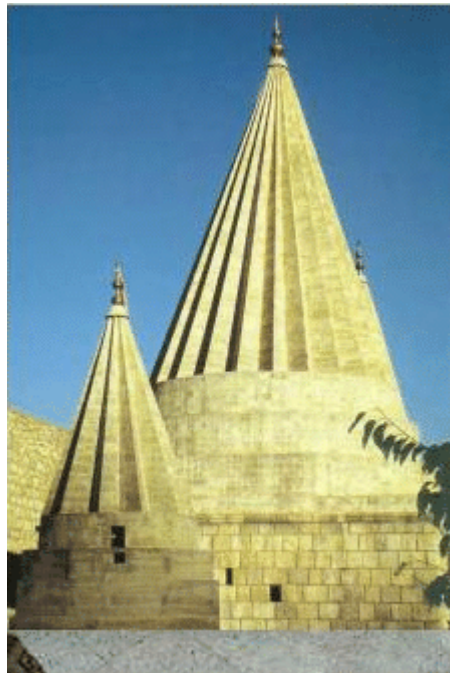
ظهر خلال ذلك الشيخ زين الدين ابو المحاسن: الذي يرتقي بنسبه إلى شقيق أبي البركات، عين أميراً لليزيدية على الشام ثم اعتقله الملك سيف الدولة قلاوون بعد أن أصبح خطراً لكثرة مؤيديه، ومات في سجنه.

- جاء بعده ابنه الشيخ عز الدين، وكان مقره في الشام، ولقب بلقب أمير الأمراء، وأراد أن يقوم بثورة أموية فقبض عليه عام 731 هـ ومات في سجنه أيضاً.

- استمرت دعوتهم في اضطهاد من الحكام وبقيت منطقة الشيخان في العراق محط أنظار اليزيديين، وكان كتمان السر من أهم ما تميزت به هذه الفرقة.

- استطاع آخر رئيس للطائفة الأمير با يزيد الأموي أن يحصل على ترخيص بافتتاح مكتب للدعوة اليزيدية في بغداد سنة 1969م بشارع الرشيد بهدف إحياء عروبة الطائفة الأموية اليزيدية ووسيلتهم إلى ذلك نشر الدعوة القومية مدعمة بالحقائق الروحية والزمنية وشعارهم عرب أموي القومية، يزيديي العقيدة.

- - وآخر رئيس لهم هو الأمير تحسين بن سعد أمير الشيخان.



معبد اليزيدية في سنجار



## بعض معتقداتهم

- يعتبرون (طاووس ملك) هو (الملاك جبرائيل) (رئيس الملائكة)، لهذا هم يقدسون رمز طاووس من النحاس بحجم الكف المضمومة وهم يطوفون بهذا التمثال على القرى لجمع الأموال.
- وادي لالش في العراق: مكان مقدس يقع وسط جبال شاهقة تسمى بيت عذري، مكسوة بأشجار من البلوط والجوز.
- المرجة في وادي لالش: تعتبر بقعة مقدسة، واسمها مأخوذ من مرجة الشام، والجزء الشرقي منها فيه - على حد قولهم - جبل عرفات ونبع زمزم.
- لديهم كتابان مقدسان هما: الجلوة الذي يتحدث عن صفات الإله ووصاياه والآخر مصحف رش أو الكتاب الأسود الذي يتحدث عن خلق الكون والملائكة وتاريخ نشوء اليزيدية وعقيدتهم. ولكن هذه الكتب غير مدونة وإنما محفوظة شفاهياً.
- الشهادة: أشهد واحد الله، سلطان يزيد حبيب الله.
- الصوم: يصومون ثلاثة أيام من كل سنة في شهر كانون الأول.
- الزكاة: تجمع بواسطة الطاووس ويقوم بذلك القوالون وتجبي إلى رئاسة الطائفة.
- الحج: يقفون يوم العاشر من ذي الحجة من كل عام على جبل عرفات في المرجة النورانية في لالش بالعراق.
- الصلاة: يصلون في ليلة منتصف شعبان ويعتقدون أنها تعوضهم عن صلاة سنة كاملة.
- الحشر والنشر بعد الموت: سيكون في قرية باطط في جبل سنجار، حيث توضع الموازين بين يدي الشيخ عدي الذي سيحاسب الناس، وسوف يأخذ جماعته ويدخلهم الجنة.
- يترددون على المراقدة والأضرحة كمرقد الشيخ عدي والشيخ شمس الدين، والشيخ حسن وعبد القادر الجيلاني، ولكل مرقد خدم، وهم يستخدمون الزيت والشموع في إضاءتها.
- يحرمون التزاوج بين الطبقات، ويجوز لليزيدي أن يعدد في الزوجات إلى ست زوجات.
- الزواج يكون عن طريق خطف العروس أولاً من قبل العريس ثم يأتي الأهل لتسوية الأمر.
- يحرمون اللون الأزرق لأنه من أبرز ألوان الطاووس.
- يحرمون أكل الخس والملفوف (الكرنب) والقرع والفاصوليا ولحوم الديكة وكذلك لحم الطاووس المقدس عندهم لأنه نظير لطاووس الملائكة، وكذلك لحوم الدجاج والسمك والغزلان ولحم الخنزير.
- يحرمون حلق الشارب، بل يرسلونه طويلاً وبشكل ملحوظ.
- إذا رسمت دائرة على الأرض حول اليزيدي فإنه لا يخرج من هذه الدائرة حتى تمحو قسماً منها اعتقاداً منه بأن الشيطان هو الذي أمره بذلك.
- كانوا يحرمون القراءة والكتابة تحريماً دينياً لأنهم يعتمدون على علم الصدر فأدى ذلك إلى انتشار الجهل والأمية بينهم مما زاد في انحرافهم ومغالاتهم بيزيد وعدي وإبليس.
- يعتقدون أن الرجل الذي يحتضن ولد اليزيدي أثناء ختانه يصبح أخاً لأم هذا الصغير وعلى الزوج أن يحميه ويدافع عنه حتى الموت.
- اليزيدي يدعوا متوجهاً نحو الشمس عند شروقها وعند غروبها ثم يلثم الأرض ويعفر بها وجهه، وله دعاء قبل النوم. وهذا موروث من ديانة الخصب العراقية التي كانت تقدر اله الشمس (شمس)..- لهم أعياد خاصة مقارنة لأعياد المسيحيين، كعيد رأس السنة الميلادية وعيد المربعانية وعيد القربان وعيد الجماعة وعيد يزيد وعيد خضر إلياس وعيد بلندة.
- يحترمون الدين المسيحي حتى أنهم يقبلون أيدي القسس ويتناولون معهم العشاء الرباني ويعتقدون بأن الخمرة هي دم المسيح الحقيقي وعند شربها لا يسمحون بسقوط قطرة واحدة منها على الأرض أو أن تمس لحية شاربها.
- أخذوا عن النصاري ((التعميد)) حيث يؤخذ الطفل إلى عين ماء تسمى (عين البيضاء) ليعمد فيها، وبعد أن يبلغ أسبوع يؤتى به إلى مرقد الشيخ عدي حيث زمزم فيوضع في الماء وينطقون اسمه عاليا طالبين منه أن يكون يزيدياً ومؤمناً (بطاووس ملك) أي إبليس.

- - يشبهون الشيعة باحترام (البراءة) وهي كرة مصنوعة من تراب مأخوذة من زاوية الشيخ عدي يحملها كل يزدي في جيبه للتبرك بها، وذلك على غرار التربة التي يحملها أفراد الشيعة الجعفرية. وإذا مات اليزيدي توضع في فمه هذه التربة وإلا مات كافراً.



رجال الدين اليزيدية

### أهم اعيادهم

يحتفل اليزيديون في ربيع كل عام (الذي يبدأ في أول أربعماء من نيسان)، بعيد رأس السنة الذي يمثل أحد اعيادهم الموروثة من (يوم حجتو) أي (يوم الحج) وهو عيد الربيع العراقي أيام آشور بابل، والذي اقتبسه الإيرانيون بأسم (عيد نيروز). في عيد الربيع الذي يستعد له اليزيدية قبل فترة طويلة ويقومون بتزيين أبواب بيوتهم وصدورهم بشقائق النعمان التي تنتشر بكثرة في البراري من أجل هذا العيد.



من طقوس اليزيدية

وهم يعتقدون، أن الملك جبريل الذين يطلقون عليه اسم "طاووس ملك" هو "انبعاث من ذات الله وملازم الله في حفظ العالم من الشرور يستمد قوته من الله الذي لا شريك له". ويؤمن اليزيديون أن الملك جبريل نزل على الأرض في يوم صائف أول أربعماء من نيسان حسب التقويم الشرقي، لذلك يحتفلون بعيد رأس السنة في هذا اليوم. وهذا يشبه إلى حد مطابق إلى احتفال العراقيين القدماء بيوم عودة تموز إلى الخصب إلى الأرض. وهناك تشابه كبير بين اسمي (طاووس وتموز) ..

وإلى جانب عيد رأس السنة الذي يسمونه "سرى صالي"، يحتفل اليزيديون بعيد كبير ثان هو "عيد الجماعة" الذي يستمر أسبوعاً أيضاً في أكتوبر/ تشرين الأول طبقاً للتقويم الشرقي. وفي هذين العيدين الرئيسيين وغيرهما من الأعياد الصغيرة، يقوم اليزيديون بأداء الصلوات من أجل أن يعم السلام في الوطن. ويرتدي اليزيديون في العيد أجمل ملابسهم ويتبادلون التهاني ويعقدون حلقات الرقص ويقومون بالمآدب. كما يقومون في هذا العيد الذي يستمر أسبوعاً بتقديم الذبائح وزيارة قبور موتاهم. ويخرج الآلاف من اليزيديين رجالاً ونساءً وأطفالاً إلى العراء لتبادل البيض المسلوق الذي طلي بألوان زاهية.

ويقومون كذلك بزيارة معبدتهم الرئيسي في لالش الذي يقع شمال مدينة الموصل بحضور "أمير" الطائفة ورجال الدين لإقامة الصلوات تشكل أحد المحاور الكبرى لهذا العيد. ويستمر العيد سبعة أيام حيث يرتبط

"بوجود سبعة ملائكة وسبع سموات وسبع طبقات للأرض". وهو بالحقيقة متأني من احتفالات العراقيين بالكواكب السبعة المعروفة.

#### المصادر

"الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة.

"اليزيدية لسعيد الديوه جي.

"اليزيديون حاضرمهم وماضيهم لعبد الرزاق الحسني.

"اليزيديون ومعتقداتهم لسامي الأحمد.

"اليزيدية وأصل عقيدتهم لعباس العزاوي.

#### الشبك

د.فاطمة حسن الشبكي - انكلترا



هنالك تشابه كبير بين مشكلتي (الشبك) و(اليزيدية)، من ناحية تعرضهم لعمليات الضغط والتشويه، من اجل احتسابهم على طرف قومي معين. تارة تم احتسابهم على الاكراد، وتارة على العرب، وتارة على التركمان، بينما الحقيقة انهم جميع هؤلاء بأن واحد! (الشبك) مجموعة عراقية اصيلة لكنها صعبة التحديد من الناحيتين العرقية والمذهبية. فهم ليسوا طائفة محددة ولا قومية معينة، بل يمكن القول انهم مزيج من الاثنين بصورة تقريبية ومعقدة. يصح القول انهم نوعاً من الاتحاد العشائري، الذي ضم خلال قرون، العديد من الجماعات العراقية التي مرت وعاشت في شمال العراق: اكراد وعرب وتركمان، بل حتى مسيحيين سريان. انهم منذ قرون عديدة يقطنون في عشرات القرى جنوب شرق الموصل.

يعتقد ان تسمية (شبك) متأنية من (تشابك) اصولوهم ومعتقداتهم واختلاطها.. فتجد بينهم من ينتسب الى عشائر طي والجبور وجحيش العربية، كما تجد منهم من ينتسب لعشيرة البيات التركمانية والى عشيرة الباجلان الكردية، وكل عشيرة من هذه العشائر تعزى بأنتسابها وأصلها، غير أنها تعزى بأنتسابها للشبك. وتتفاوت التغييرات والاحصاءات حول عدد نفوس الشبك منها التقديرات الانكليزية القديمة التي عدتهم بعشرة الاف نسمة وفي احصاء عام 1947 قدر عددهم مع الايزيديين بثلاثة وثلاثين الف نسمة. وفي احصاء عام 1977 بلغت نفوسهم 75-85 الف نسمة. ذكر السيد ثامر عبد الحسن العامري في الجزء السابع من موسوعة العشائر العراقية ص224 أن الشبك وحدة عشائرية يبلغ تعدادها 250 الف نسمة وهم يتكلمون لهجة تتألف مفرداتها من اللغات التركية والفارسية والكردية والعربية وتسمى (اللهجة البيجوانية) وأن عشيرة البيجوان(الباجلان) الموزعة في محافظة نينوى اختلطت خلال حقبة زمنية طويلة مع عشيرة الشبك فأطلق على العشيرتين (الشبك والبيجوان).

استوطنوا قرى صغيرة شرق الموصل في الشمال، ويسكن الشبك في المناطق الممتدة من تلغفر والموصل مروراً بكركوك وصولاً الى خانقين، وتعتبر دراويش، قره تبه، باجربوع، بازواية، طوبرق زياره، خزنة تيه، منارة شبك، طيراوه، علي رش، طوبراوه، كورغريبان، كبرلي، باشبيته، تيس خراب، ينكيجه، خرابه سلطان، بدنه، باسخره، شيخ امير وبعويزه من أهم مناطق انتشارهم. يقطن الشبك الشيعة وهم الغالبية،

### قرى الموصل التالية:

خزنه تبه، طيراوه، دراويش، بدنه صغير، بدنه كبير، نوران، بابيوخت، علي ره شه، زهرة خاتون اما الشبك السنة الشافعيون فهم في القرى الموصلية التالية: باربعة، عمر قابجي، خرسباد، سماقية، بعويزة، اوطة هزاب، باجربوع، فاضلية، خويت له، ديرك، وتنحدر هذه القرى من عشيرة باجلان التركمانية.



غالبية الشبك من اتباع المذهب الجعفري

### عقيدتهم

يدين الشبك بالدين الاسلامي، غالبيتهم من المذهب الشيعي الجعفري، وفيهم كذلك من المذهب السني الشافعي أيضاً وخصوصاً بين الباجلان. ليس صحيح ما يشاع عنهم انهم يستبدلون الحج الى مكة المكرمة بالحج الى العتبات المقدسة في كربلاء والنجف. فان الشيعة منهم وكذلك السنة، يحجون الى مكة المكرمة ويتبركون كذلك بزيارة العتبات المقدسة في كربلاء والنجف لا يختلفون في ذلك عن جميع الشيعة أو السنة في العراق.

يقترّب تنظيمهم الاجتماعي من مراتب الصوفية ويسمى رجل الدين الناشيء (المريد) وهو يرتبط روحياً بشخص أعلى منه مرتبة دينية يسمى (المُرشد)، والمرشدون يرتبطون بمرجع أعلى يسمى (البير). ومن العادات التي يتسمون بها، النذب والتوسل بالإمام علي(ع) في الازمات والامراض. وأكثر أسمائهم شيوعاً، هي: حسن وحسين وجعفر وصادق وحيدر ومهدي وخديجة وفاطمة وزينب وكلثوم وغيرها من الأسماء التي يعتبرونها مباركة ويتفاءلون بتسمية أبنائهم بها.

من كتبهم المقدسة، كتاب الكلبنك واسمه مركب عنوانه من كلمتين: (كل) أي زهر و(نبك) أي صوت. وتنطق هذه الكلمة احياناً في العربي الى (كليند)، وهي القصائد التي نظمها شعراء الشبك وشيوخهم باللغة التركمانية الجفكائية في مدح آل البيت. اما اقدس كتبهم الدينية كتاب مخطوط بالتركية يسمى (بويوق - الأوامر) وهو الكتاب المقدس لدى الشبك الذي يحتوي على حوار بين الشيخ صدر الدين والشيخ صفي الدين في آداب الطريقة (العلوية - القزلباشية) الذين يسكنون أذربيجان وتركيا. ويكثر الشبك في كتابهم المقدس (الأوامر) من الاستغاثة في انكارهم وأورادهم بذكر اعداد الثلاثة والخمسة والسبعة والاثنى عشر والأربعة عشر والأربعون وكل عدد يرمز إلى أمر ديني مقدس. فالثلاثة الله ومحمد وعلي، والخمسة هم الرسول محمد (ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) ويسمون أصحاب الكساء، ويرمز العدد سبعة إلى درجات ومراتب الصوفية وهي: المنتسب - المريد - الدراويش - البير - البابا - القلندر - الرند - القطب. أما الاثنا عشر فيرمز إلى الائمة المعصومين فيما يرمز الرقم (14) إلى المعصومين إضافة إلى الرسول



(ص) وابنته فاطمة الزهراء (ع) والأربعون هم الأبدال أو الواصلون وهؤلاء لا يعرفهم الناس ولا يرونهم لأنهم رجال الله وجند الله.

ومن عقائدهم الخاصة الاحتفال ببعض الليالي المقدسة مثل ليلة رأس السنة، وهي عندهم الليلة الأولى من شهر كانون الأول، والاحتفال بليلة التعاذر أو التواضع (المغفرة) وتكون ليلة الجمعة لحل النزاعات، حيث يرأس البابا الاحتفال الذي له مراسيم خاصة يقوم بها اثنا عشر شخصاً، أولهم البابا أي الشيخ وهو رأس الشبك يسبقه البير ثم الرهر وهو الدليل ومقامه أدنى من البير ثم حامل الجراغ أي حامل المصباح أو الشمعة ثم حامل الكنيسة ويتولى كنس دار البير ثم السقا الموكل بسقاية المجتمعين وأربعة خدم وبوابان يلانمان باب دار البير ثم ليلة الاعتراف وفيها ينشد البابا (الكلبك) أو التراتيل الخاصة بالاعتراف ويجاريه الرهر ذلك ذلك. كل من أراد الدخول إلى طريقتهم الصوفية ينبغي عليه أن يفتش عن شخص ليصاحبه هو وزوجته ليكونا أربعة مدة أربعين أو سبعين يوماً ضمن مراسيم خاصة.

يتشفع الشبك عند الأئمة المعصومين ويزورون المراقد المقدسة ويحتفلون بمناسباتهم الدينية لكن لهم مواسم خاصة مثل زيارة مرقد العباس في قرية العباسية ومرقد حسن فردوش في قرية الدراويش ومرقد زين العابدين في قرية علي رش، وكذلك رجم قبر عبد الله بن زياد في موقع شرقي الموصل وهي مراسيم خاصة. يقيم الشبك مراسيم عاشوراء العامة ويصوم فريق منهم التسعة أيام الأولى من محرم وبعد انتهاء اليوم العاشر يحرمون على أنفسهم اكل اللحم مدة ثلاثين يوماً أخرى.

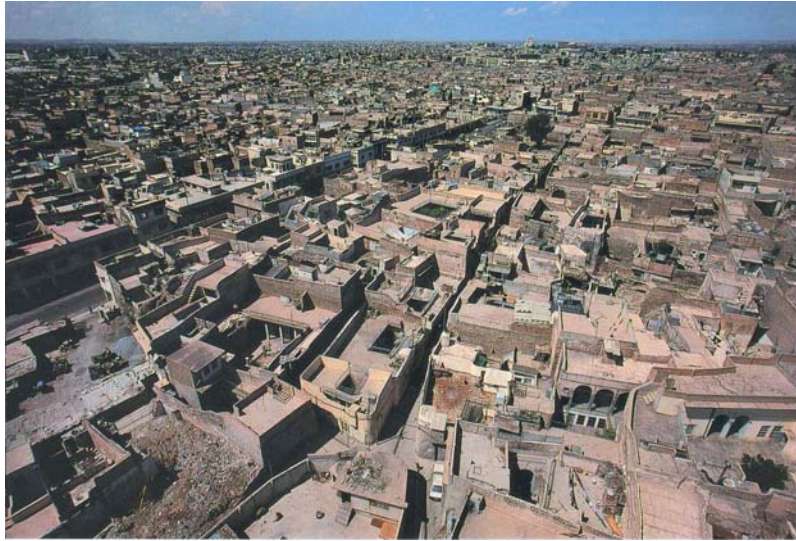
الشبكي لا يرى مولوده مباركاً ما لم يبارك له البابا ويدع له بالخير ويقرأ له (الكلبك)، وعن مراسيم الزواج فإن البابا أيضاً هو الذي يتولى العقد ويحضر الأفراح في بيت العروس حيث تضرب الدفوف ويرقص المجتمعون على شكل حلقة وتمسي محلياً رقصة الجوبي أو الدبكة ويندر أن يطلق الشبكي زوجته حتى لو ابتليت بمرض عضال لا يرجى شفاؤه ويظل الشبكي ملازماً لزوجته.

وفي حالات الوفاة يحضر البابا في دار الشبكي ويقوم هو بغسل الميت أو رجل تقي وورع ويكفن على وفق عادة المسلمين وبعد دفنه في مقبرة القرية يضع أهل الميت طعاماً يوزع بين فقراء القرية. أما بصدد الزواج بالعلوية يؤمن الشبك بأن العلوية المنحدرة من الاصلاب الطاهرة مقدسة بسبب نسبها، لذلك فلا يجوز لغير العلوي ذي النسب الصحيح أن يتزوج علوية.

ومن أهم عاداتهم النذب والتوسل بالامام المرتضى والأئمة الاثني عشر والاربعين والخمسة والثلاثة خاصة في شدة المرض وفي المواقف المحرجة والشبك يتفعلون بتسمية ابنائهم بأسماء الأئمة الاثني عشر ويعتقدون أن الفتى والفتاة المسمى بأحد أسماء آل البيت بركة في الدار ورحمة لهم، يدفع الله بهذا الاسم السوء ويبعدهم المكروه فأكثر أسمائهم حسن، حسين، جعفر، صادق، حيدر، مهدي، خديجة، فاطمة، زينب، كلثوم إلى غير ذلك من الأسماء التي يعتبرونها مباركة. ولشيوخ الشبك اعلام ترفرف على بيوتهم ويرفع العلم الاسود في شهر محرم الحرام مشيراً إلى المآتم والحزن ويبداهم اكف مصنوعة من البرونز والحديد يجولون بها في الضياع في ايام معدودة فيتهافت عليها الشبك يقبلونها ويتبركون بها، ويسمى الكف (كف العباس) يقصد به الشهيد ابو الفضل العباسي (ع) حامل راية الامام الحسين في واقعة كربلاء وهذه العادة موجودة في الفرات الاوسط ايضاً.

كانت الامية شائعة بين الشبك سابقاً، وكان معظمهم كان لا يحسن القراءة والكتابة باستثناء بعض الشيوخ اي الددة او البير او المرشدين، وكانت اداب الشبك الذي هو من نوع الادب الديني محصوراً في هؤلاء الناس فقط. كان ذلك خلال الربع الاول من القرن العشرين، ولكن بحلول منتصف القرن الماضي تم فتح المدارس الحكومية في كل قرية من قرى الشبك وتم تشييد الجوامع وبعض الحسينيات في معظم قرى الشبك، واصبح المجتمع الشبكي مجتمعاً مثقفاً مواكباً للمستجدات العصرية الحديثة وبرز بينهم مثقفون وأطباء ومهندسون.





**الموصل.. حيث تنتشر قرى الشبك..**

### **تقاليدهم**

- من عادات وتقاليد الشبك التي لا تخرج عن حظيرة عقيدتهم، الاحتفال ببعض الليالي المقدسة وهي:
- 1- ليلة رأس السنة، وهي من الليالي المقدسة وتكون في الليلة الاولى من شهر كانون الاول (يناير) من كل سنة ولهم احتفال خاص بها، ويجوز ان يكون الاحتفال به في العشر الايام الاولى او العشر الثانية منه.
  - 2- ليلة التعاذر أو ليلة التواضع التي يعقد فيها الشبك اجتماعات خاصة في ليالي الجمعة وذلك لازالة الاحقاد والبغضاء من قلوب الشبك واحلال الحب والسكينة فيها يغفر المتباعدون بعضهم لبعض ويصطلحون فيها، ولها مراسم خاصة يقوم بها اثنا عشر شخصا برئاسة البابا البير، ويعتبر الاجتماع في ليلة التعاذر من الاجتماعات المقدسة، والاثنتا عشر شخصا هم رمز الاثني عشر معصوما من أئمة الشيعة وهم: البير، البابا أي الشيخ وهو الرأس عند الشبك، الرهر وهو الدليل وله مقام ادنى من مقام البير، حامل الجراغ أي حامل المصباح أو الشمعة، حامل المكنسة ويتولى كنس دار البير المعد للاجتماع السقاء الموكل بسقاية المجتمعين، اربع خدام وبوابان يلزمان باب دار البير.
  - 3- ليلة الاعتراف، وهي الليلة التي يتقدم بها الشبكي الى البابا فيعترف له بخطايا وذنوبه وفيها ينشد البابا (كلنبك) الخاص بالاعتراف وقد يجاريه في الانشاد الرهر. وقد اقتبس الشبك عادة الاعتراف بالذنوب من البكتاشية فصارت جزءا من تعبدتهم، كما انهم اكتسبوا عادة التناول من البكتاشية ايضا.
  - 4- مراسم الدخول في الطريقة وهي مراسم خاصة يقوم بها البابا ويساعده على ذلك الرهر (الدليل أو المرشد). وكل من اراد الدخول في الطريقة الصوفية يسمى صوفيا يجب عليه ان يفتش عن شخص اخر ليعاشره ويصاحبه هو وزوجته ليكونا اربعة لمدة اربعين يوما أو سبعين يوما.
  - 5- زيارات مرقد الائمة، يقصد الشبك الائمة الاثني عشر الذين يقدهم الشيعة الامامية ويعدونهم ائمتهم المكرمين المعصومين فينذرون لهم النذور ويقدمون بأسمائهم القرايين ويتغنون بالقصائد (كلنبك) بآثرهم وكراماتهم ومعجزاتهم تقربا اليهم وطلباً للشفاعة منهم. وللشبك مواسم عامة ومواسم خاصة لزيارة المرقد والعقبات المقدسة، ومواسمهم العامة هي عين مواسم الشيعة الامامية كيوم عاشوراء ويوم مرد الرأس، ويوم الخامس عشر من رجب وكذلك الخامس عشر من شهر شعبان يوم ذكرى مولد الامام المهدي الغائب المنتظر. اما مواسمهم الخاصة فهي زيارة مرقد العباس في قرية العباسية ومرقد حسن فردوش في قرية الدراويش ومرقد زين العابدين في قرية علي رش ورجم قبر عبد الله بن زياد في موقع شرقي الموصل.
  - 6- العشرة الاولى من محرم الحرام حيث يقيم الشبك المناحات والمآتم فيكون وينوحون ويلطمون ولهم في ذلك اهازيج خاصة وتسمى مراسيم عاشوراء حزنا على الحسين الامام الشهيد، ويرتدي فريق منهم السواد ويصومون تسعة ايام عاشوراء الاولى، وبعد انتهاء اليوم العاشر يحرمون اكل اللحم على انفسهم مدة ثلاثين يوما اخرى، وفي اليوم العاشر يهييء الموسرون منهم طعاما لفقرائهم فاذا طلع اليوم العاشر عليهم وقفوا في قراهم أو في المزارات المقدسة في علي رش وبير حلان صفوفا رجالا ونساء واطفالاً يلطمون وينوحون وييكون.

## مصادر

- أحمد الصراف، الشبك، بغداد 1945، ص 90 - 91.
- الأديان والمذاهب بالعراق، رشيد الخيون، منشورات الجمل، كولونيا 2003.
- الشبك.. مزيج فريد لتلاقح الحضارات والتأثير المتبادل بين الشعوب، ادهام عبدالعزيز الولي، صحيفة الزمان، العدد 1540
- د. شاكر خصباك، الاكراد - دراسة جغرافية اثنوغرافية - بغداد 1973.
- فون هامر، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الرابع.
- الصوفي، احمد علي، خطط الموصل، الجزء، ص 3، م. ام الربيعين، الموصل 1953.

## يهود العراق

نادر ساسون خضر - لندن



### النبي العزيز في جنوب العراق

الديانة اليهودية، بصورة ما، تعتبر ديانة عراقية أولاً، ثم فلسطينية ثانياً. والسبب، لأن التأسيس الفعلي لهذه الديانة تم في (بابل) وان (التوراة، الكتاب المقدس) اليهودي، قد كتبه فعليا اليهود المقيمون في بابل، حيث استلهموا اولاً تراثهم الشفهي الفلسطيني الذي جلبوه معهم من فلسطين، ومزجوه مع تراث الديانة العراقية (البابلية) وأساطيرها المعروفة، مثل اسطورة الطوفان وقصة موسى، وآدام وحواء. اما كتابهم التشريعي (القانوني) في (التلمود البابلي) الذي كتبوه ايضا في بابل مستلهمين الثقافة القانونية العراقية ومن اهمها (شريعة حمورابي).

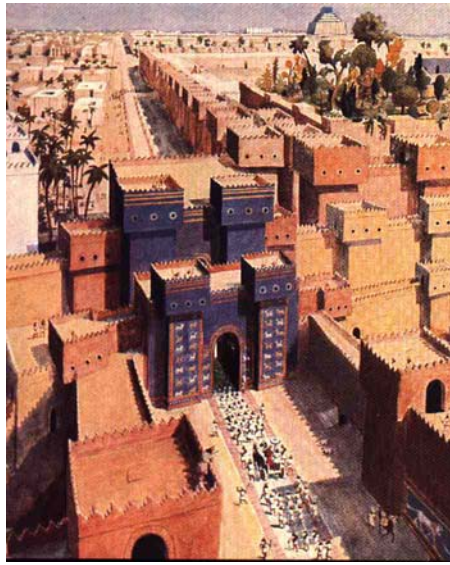
في بابل ظهر نبيهم حزقيال المعروف بـ (ذي الكفل) ويزور قبره المسلمون واليهود في المدينة المسماة باسمه الى اليوم في الجنوب. وفي العراق كذلك، جمع (عزرا) اسفار التوراة، ومات في العراق، وقبره في مدينة (العزير) في الجنوب، يرعاه المسلمون واليهود معا. كما ان (التلمود البابلي) يعتبر الاكثر صحة من التلمود المقدسي، وكان جزء من جهود المدارس اليهودية التي أسست في جنوب العراق منذ القرن الثاني للميلاد. كما أسست معابد وبنيت مراقد يهودية كحال قبر (النبي ناحوم) في قرية (القوش) المجاورة للموصل أو (يوشع) الكاهن في الكرخ.

### تاريخ يهود العراق

تعتبر الطائفة اليهودية في العراق من أقدم الطوائف اليهودية في العالم، إذ يرجع أصلها الى القرن السادس قبل

الميلادي، من الاسرى الذين جلبهم (نبوخذ نصر) من فلسطين بعد سقوط دويلاتهم. وقد اتت بعد ذلك هجرات يهودية مستمرة من فلسطين الى العراق.

قام كورش الفارسي للعراق بالقضاء على دولة (بابل) سنة 538 ق.م التي كانت آخر دولة عراقية، وكانت بقيادة السلالة الكلدانية، و يعتقد بأن لتعاون اليهود مع كورش في فتح بابل من جهة وتحريض زوجته اليهودية الجميلة من جهة ثانية ورغبته في مد رقعة الدولة الفارسية وتكوين امبراطورية مترامية الأطراف من جهة ثالثة أثراً كبيراً في سماح كورش لليهود بالسكن في فلسطين لمن أراد منهم ذلك. هكذا جاءت القافلة الأولى برئاسة (زر بابل) مؤلفة من 42360 شخصاً و 7337 عبداً و تبعهم بعد ذلك جمع غفير. إلا أن العائدين لم يكونوا كل اليهود، إذ فضل غالبيتهم العيش في العراق بعد ان تيسر لهم رغد العيش. وبذا يمكن القول بأن يهود العراق تألفوا من أسرى أولاً و مهاجرين طوعية ثانياً؟، ثم أخذ عددهم حتى بعد قدومهم لفلسطين في عهد كورش، يزداد مع مرور الزمن و مما ساعد على ذلك ما كانوا يتعرضون له من اضطهاد في فلسطين على يد أباطرة الرومان فكانت بيئة العراق بمثابة متنفس لهم يفدون إليها من وقت لآخر فراراً من ظلم الرومان و طمعاً في حماية الفرس وهكذا تكونت جاليتهم وأصبح لهم كيان في العراق.



بابل، حيث استوطن اليهود وابدعوا توراتهم وتلمودهم..

### في العصر الاسلامي

لقد اعتبر الاسلام (اليهودية) ديانة توحيدية نبيها موسى المرسل إلى بني إسرائيل، والذي تكلم إليه الله في طور سيناء، حيث أوحى له التوراة التي حرفها اليهود في وقت لاحق. لذلك لقي اليهود في عهد الدولة العربية الإسلامية كل اهتمام و تقدير وعوملوا معاملة جيدة بل أن بعضهم ارتقى مناصب مرموقة في عهد الدولة العباسية. وصار رأس الجالوت بفضل أهمية العراق رئيس الطائفة اليهودية في العالم أجمع واستفاد اليهود من جو التسامح والرعاية، فلمع منهم العديد من العلماء والأطباء والحرفيين والخازنين، ورجال المال، وكان منهم الطبيب فرات بن شحاتا وحسداي بن أسحق. وقد ازدهرت معابدهم في عهد الخليفة المعتضد خصوصاً أكاديمية سورا التلمودية، ولمع من الأبحار والعلماء سعديا بن يوسف المعروف بسعديا الغيومى وهارون بن يوسف وغيرهما.

و قدر عدد اليهود في عهد الخليفة المستجد العباسي عند زيارة الرحالة اليهودي بنيامين القطيلي لبغداد سنة 566 هـ - 1170 بأربعين ألفاً في بغداد وحدها يعيشون بأمان وعز ورفاهية، وكسبوا مركزاً مالياً ممتازاً وكانوا يتمتعون بالحرية الاقتصادية وحرية الدين فكانت لهم مدارسهم وكنسهم و لقي حاخامهم الأكبر كل تعظيم واحترام. لذا يمكن القول بأنهم تمكنوا في العهد الإسلامي في اكتساب ثقة الخلفاء والقادة العرب ونالوا حقوقهم المدنية والدينية ومارسوها بحرية مطلقة.

و لما زالت دولة بني العباس على يد المغول ذاق اليهود كما ذاق كل العراقيين الأمرين على يد الغزاة المغول. استمرت أحوال اليهود وغيرهم من العراقيين تسوء تحت ظل المغول. كذلك في زمن الاحتلال الفارسي، إذ واجه اليهود اضطهادات، حتى انتهت سيطرتهم على العراق عام 1638 حين جاء الاتراك، وبدأت اوضاع

اليهود العراقيين تسير في طريقها الى الافضل. وقد اعتبر اليهود دخول السلطان التركي الى بغداد " يوم معجزة "، واستطاعوا خلال فترة الحكم العثماني (1638 - 1917) أن يمارسوا امور حياتهم بحرية تامة، واتسعت الطائفة وتعاظمت وعاش افرادها جنباً الى جنب مع مسلمي العراق الذين كانوا يرون انفسهم مسؤولين عن حماية جيرانهم وأصدقائهم من اليهود.

برزت مكانة اليهود خلال الفترة الاخيرة من الحكم العثماني - في مجال التجارة والاعمال، وكان رئيس صيارفة الوالي المعروف باسم " صراف باشا " يهودياً، واشتهر من بين هؤلاء الصيارفة ساسون بن صالح بن داود الذي تقلد هذه الوظيفة اعواماً طويلة. قدر الرحالة (بدر) تكسرا في زيارته للعراق سنة 1604 - 1605 عدد اليهود تقديراً مبالغاً به حين قال بأنه يتراوح بين 20 - 30 ألف بيت. و قدر عدد الأسر اليهودية في بغداد مطلع القرن التاسع عشر بنحو (2500) أسرة يهودية، و صار اليهود ممثلين في مجلس المبعوثان بعد إصدار الدستور العثماني سنة 1876 م.

وقد انتشر يهود العراق في المدن والقرى العراقية ولا سيما بغداد والموصل والبصرة وكركوك، وكانوا يقومون بالاعمال الاقتصادية المختلفة، وكانت لهم علاقات تجارية وثيقة بالهند وايران. وازدهر هذا الدور إثر افتتاح قناة السويس في مصر عام 1868، وتعاظم دورهم في اعقاب الاحتلال البريطاني للعراق بعد الحرب العالمية الاولى عام 1919.

وقد ترك كثير من يهود بغداد منذ القرن الثامن عشر موطنهم واتجهوا الى الشرق الأقصى من أجل التجارة وتوزعوا في كالكوفا وبومباي ورائجون وسنغافورة وهونج كونج. ونال بعضهم جنسيات أجنبية إنجليزية وفرنسية وقدموا خدمات كبرى للدولتين كما عمل غيرهم كوزراء لدى أفراد المغول في الهند. وقد شكل يهود بغداد في الهند طبقة مترفعة عن يهود الهند الذين يسمون بني اسرائيل ويعدون من الملونين بينما كان يهود بغداد يعتبرون انفسهم مساوين للحكام البيض (الاوربيين) في الهند.

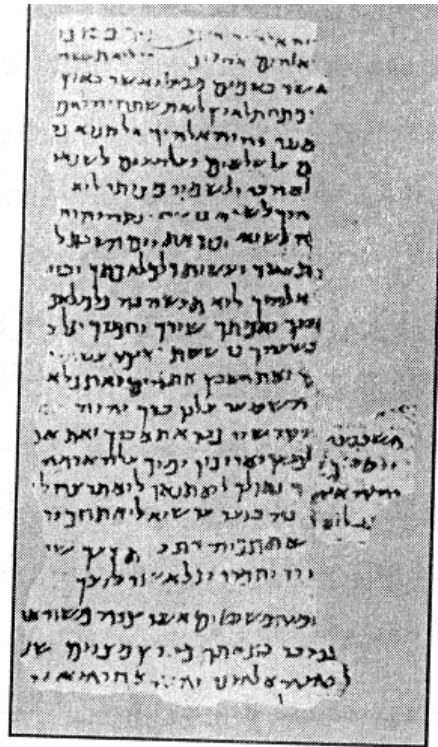
وقد بقيت هذه الطوائف تعتبر الطائفة اليهودية في بغداد المركز الروحي والديني رغم أن عدد أفرادها أصبحوا مستقلين سياسياً واقتصادياً وقد ساعدتهم ثروتهم التي جمعوها على إعانة يهود العراق وغيرهم من يهود الشرق بإنشاء المدارس والمؤسسات الخيرية والمعابد.

وتولى العديد من يهود العراق رئاسة المصالح الاقتصادية والمكاتب الحكومية، وكان لهم بنوك عديدة منها بنك زلخة وبنك كريدية وبنك إدوارد عبودي وغيرها، كما احتكروا عدة صناعات كالابسطة والاثاث والاحذية والاشباب والادوية والاقمشة والتبغ والجلود وغيرها واحتكروا استيراد بعض السلع مثل منتجات شركة "موبيل أويل" الامريكية، كما عملوا في معظم المهن الحرة كالطب والصيدلة والصحافة والطباعة. وبلغت مساهمة يهود العراق في الحركة الاقتصادية اوجها قبيل الحرب العالمية الثانية، إذ كان اكثر من نصف الاعضاء الثمانية عشر بغرفة تجارة بغداد من اليهود وكان من بينهم الرئيس والسكرتير. في عام 1948 اجبر عشرات الآف من اليهود على مغادرة منازلهم وتمت مصادرة اموالهم الغير منقولة التي وضعت تحت اشراف دائرة الاموال اليهودية.

وفي 1950/3/9 صادق البرلمان العراقي على قانون يقضي بالسماح لكل يهود العراق بالهجرة - ان ارادوا - بشرط التنازل عن الجنسية العراقية وعن كافة ممتلكاتهم.

وفي عيد الفصح اليهودي عام 1950 كان الخروج من العراق والذي حمل اسم عملية " عزروا ونحميا " ولم يبق من اليهود سوى خمسة آلاف فقط من بين 120 ألفاً تقريباً. او ما يقارب 600 اسرة يهودية. صدر عام 1952 القانون الذي يسقط عنهم الجنسية.





### الوصايا العشر بالخط الآرامي العراقي، من القرن الثالث.م

#### الديانة اليهودية

تعتبر عقيدة (العودة الى الارض الموعودة) حجر الزاوية في الديانة اليهودية. فيما ان هذه الديانة بالاساس تبلورت بصورة واضحة بين اليهود المنفيين في بابل، فأنها قدست فكرة (المنفى) والعودة الى الارض الموعودة. "إرص يسرائيل"، أي (أرض فلسطين)، هي "أرض الرب"، التي تفوق في قدسيتها أي أرض أخرى. وهي الأرض التي سيعلن منها (المسيح المخلص) بداية العصر الألفي آخر الزمان، وهي التي تحرم الشريعة اليهودية العودة إليها قبل مقدم المسيح. وكل يهودي مؤمن، في كل مكان وزمان، يعتبر عودته الى تلك الأرض (الموعودة!) من اهم الواجبات الدينية الملقة على عاتقه. رغم ان العقيدة الحقيقية، تطالب بالعودة فقط بعد (ظهور المسيح المخلص)، وليس قبله. لكن الحركة الصهيونية نجحت بتغيير هذا المعنى وفرضت فكرة العودة منذ تكوين دولة اسرائيل.

اما بالنسبة لاسم (اليهودية)، فإنه امتزج بين المعنى الديني والمعنى الاقوامي. ظهر مصطلح (اليهودية) للمرة الأولى في العصر الهيليني (القرن الثالث ق.م) تمييزاً بين عقائد وممارسات اليهود، والعبادات الاخرى الموجودة في الشرق الأدنى. وأول من أشار إلى عقيدة اليهود باليهودية هو المؤرخ اليهودي المتأغرق يوسيفوس فلافيوس، وذلك بالمقارنة مع "الهيلينية": عقيدة أهل مقاطعة يهودا مقابل عقيدة سكان مقاطعة هيلاس. فالمصطلحان بدءا اسمين جغرافيين قبل أن يشيرا إلى النسقين العقائديين.

يرى الدارسون أن "اليهودية" كمصطلح لا يشير إلى النسق الديني للعبرانيين قبل تدوين العهد القديم أثناء الهجرة الأولى إلى بابل 578 ق.م، أي بعد موسى بمئات السنين، واستمر التدوين حتى القرن الثاني قبل الميلاد، في وقت أصبحت فيه العبرية لغة ميتة لا تستخدم إلا في الطقوس الدينية، بينما أصبحت الآرامية لغة اليهود. لذا، قد يكون من الأفضل الحديث عن "عبادة يسرائيل" في المرحلة التي تسبق بناء الهيكل وتأسيس المملكة العبرانية المتحدة عام 1020 ق.م، وعن "العبادة القربانية المركزية" بعد تأسيس الهيكل وحتى هدمه عام 70 ميلادية، واليهودية بشكل عام لما بعد ذلك.

نظرا لظهورها المبكر، ولتمثلها عناصر من الحضارات في فلکها، تتسم اليهودية بتجانس أقل مما هو في حالة الديانات التوحيدية الأخرى، خاصة بعد سقوط الهيكل، واختفاء أي مركز ديني أو زمني لليهودية (أو اليهود)، وأصبحت اليهودية تركيباً تراكمياً لطبقات عدة الواحدة فوق الأخرى. وبالمقارنة مع العقائد الأخرى، تتسم التقاليد الشفوية اليهودية بسلطة تجعلها "شريعة شفوية" تفوق "الشريعة المكتوبة"، أي التوراة، أهمية. وبالرغم من وجود ميراث توحيدي قوي في اليهودية، إلا أن الافكار العرفانية استمرت في الزيادة مع الزمن. كما أن تأثير الصهيونية كان من الكبر لدرجة خلطت عند الكثيرين بين الصهيونية واليهودية، بالرغم من أن



الصهيونية قامت على يد الملحدين بالأساس، ولا يزال التيار الصهيوني الإثني العلماني يشكل أقوى التيارات في الحركة الصهيونية.

الكتب المقدسة والدينية: أولها كتاب (التوراة) وتعني (التراث)، وفيه مجموع حكاياتهم وتراثهم الشفاهي. يشير اليهود إلى الشريعة اليهودية بكلمة "التوراة"، بينما تعني "هالاخاه" (الالواح) القوانين أو التشريعات الخارجية تحديداً، وإن كانت دلالتها تمتد أحياناً لتشمل الشريعة ككل. ويفرق اليهود بين "الشريعة المكتوبة"، وهي الواردة في أسفار موسى الخمسة وباقي العهد القديم، والشريعة الشفوية، أي شروحات الحاخامات التي سجلت في التلمود وغيره من الكتب، مثل كتب القبالة.

يليه (التلمود) وتعني (التلمذة)، ويحوي التلمود الشريعة الشفوية، وهو سجل للمناقشات التي دارت بين الحاخامات في الحلقات التلمودية عن القضايا الفقهية (هالاخاه)، والوعظية (آجاده). وباعتباره سجلاً للمناقشات كتب على مدى قرون، يحوي موضوعات تاريخية، وتشريعية، وزراعية، وأدبية، وعلمية... يختلف التلمود الفلسطيني عن التلمود البابلي في أن الجماراه في الأخير أكثر شمولاً، بينما يتطابق نص الجماراه في الاثنين. تتعادل في اليهودية أهمية الشريعة المكتوبة (التوراة والأنبياء والكتب) مع أهمية الشريعة الشفوية (اجتهادات الحاخامات المجموعة في التلمود). كما ظهرت لاحقاً كتابات القبالة التي سيطرت لاحقاً على الفكر الديني اليهودي.

### اليهود العراقيون في اسرائيل

نادر ساسون خضر - لندن



عائلة يهودية عراقية في اوائل القرن العشرين

سامي ميخائيل، ساسون سومبخ، يهودا شنهاف، سامي زبيدة، يوسي يوناه وشمعون بلاص، هؤلاء كتاب يهود من أصل عراقي ترعرعوا معظمهم في العراق، ونشأوا بين أزقة بغداد وعلى ضفاف دجلة والفرات. تتلمذوا على يد معلمين عراقيين فأخذوا عنهم الروح العراقية والحس الوطني والشعور بالانتماء إلى الوطن الأم، العراق. حول هذا الانتماء دارت قصصهم التي سردها وذكرياتهم التي استرجعوها في ندوة عقدت في فيينا أخيراً تحت شعار "تذكر بغداد". أما حياتهم الأنية ففيها شيء من "الازدواجية" الكامنة في أن "الوطن الأول هو عدو الوطن الراهن" كما أوضح سامي ميخائيل الذي عني بالوطن الأول العراق وبالراهن اسرائيل. أولئك الرواة هم "نموذج" من فئة معينة من يهود العراق المثقفين الذين غادروها مع عائلاتهم "قهرًا" وقسراً إبان تأسيس دولة اسرائيل. فمنهم من استقر فيها ومنهم من رحل عنها إلى مكان آخر ومنهم من ولد فيها فنشأ اسرائيلياً من أبوين عريبيين يهوديين المذهب.

وفي محاولة للبحث في أبعاد التاريخ المشترك لليهود والعرب في العراق انكب هؤلاء اليهود الذين جاؤوا من تل أبيب ونيويورك ولندن، والتفوا مع الباحث الفلسطيني عباس شبلق والكاتب العراقي خالد القشطيني،

على مناقشة هذه المسألة في جلسة "حميمية" أعادت بغداد إلى ذاكرة اليهود وغير اليهود عبر حكايات كامنة في مخيلة تتأمل بغداد من بعد وكأنها مكان مرئي بالعين المجردة، وما هي في الواقع إلا موقع جغرافي على الخريطة غيرت معالمه وحياة أهله أحداث متعاقبة يمتزج فيها ألم الواقع بأمل المستقبل.

"الحديث عن الحاضر ودراسة المستقبل وإمكان العودة إلى العراق توجب الحديث عن الماضي"، هكذا فسر يوسي يوناه البروفيسور في قسم فلسفة السياسة في جامعة بن غوريون في النقب وأحد أبناء الجيل الثاني، للـ"الحياة" السبب الرئيس لاختيار مثل هذا التوقيت لتذكر بغداد.



النبى ذو الكفل، الذي يقده العراقيون، مسلمون ويهود

كيفية هجرة يهود العراق إلى فلسطين كانت من أهم المحاور التي تناولها المؤتمرون. فالمزراحيم، أي اليهود الشرقيون، لم يشكلوا في البداية جزءاً من المخطط الصهيوني، الذي كان في جوهره شكلاً من أشكال الاستعمار، إلا أنه إثر حرب 1948 وبعد الإعلان عن قيام الكيان الصهيوني رسمياً توجهت أنظار القيادة الاسرائيلية الى يهود العراق، خصوصاً بعد إحجام ملايين اليهود الأوروبيين عن تلبية نداء الهجرة إليها. وأمام هذا التجاوب الهزيل من يهود العالم للنزوح إلى أرض الميعاد لم يجد الصهاينة بداً من "اجبار" أتباع موسى واکراههم على مغادرة العراق. وبالفعل بدأ عملاؤهم بالقاء القنابل على المراكز اليهودية في العراق مثيرين بذلك الهلع في نفوسهم. ولعل أقسى الحملات ضدهم كانت حادثة الفرهود عام 1941 التي تكللت بالنجاح وأرغمت عدداً غير يسير على حمل حقائب السفر التي سمح بأخذها وعلى مغادرة الوطن في اتجاه تل أبيب ليواجهوا مصيراً مجهولاً يشبه ربما مصير اللاجئين الفلسطينيين، الذين أرغوا أيضاً على ترك أملكهم وراءهم، كما عبّر عباس شبلق. ولخص شبلق، الخبير في قضايا يهود العراق، تجربته كلاجئ فلسطيني عربي يقطن الآن لندن وتجارب أبناء الطائفة اليهودية، واصفاً إياها بالوجه الآخر لما عاشه، وبكلمات مثل "الفقدان والضياع والاقتلاع أو الاجتثاث والرفض".

روايات الرحيل من بغداد إلى "أرض الميعاد" التي "تلاها" الحاضرون اختلفت تفاصيلها وخلفيات أحداثها إلى حد كبير عن الاتجاه القصصي العام الوارد من اسرائيل، إذ وصفت الهجرة الجماعية بأنها كانت في أساسها عملية نقل أو استيراد للبشر مارسها ونسقها قادة الحركة الصهيونية. فيهود البلاد العربية لم يعانون حينذاك أي مشكلة سوى الظلم الاستعماري الذي كانت تعيشه بلادهم. وعاش آنذاك المسيحيون واليهود والمسلمون جيراناً وأبناءً حي واحد يتبادلون الدعوات في ما بينهم. "فدائرة أصدقائنا كانت تتسع لتشمل اليهود، فضلاً عن أن النظرية القائلة بأن اليهود واجهوا العنصرية من خلال فرض حظر الإقامة في أحياء معينة غير صحيحة"، كما أضاف الصحافي العراقي خالد القشطيني، متابعاً أنه "ما زال يذكر تماماً حي الأعظمية الذي جاورت فيه مدرسة ومعبد يهوديان جامع الإمام الأعظم". وأفاد ساسون سوميخ استاذ الأدب العربي في جامعة تل أبيب في تصريح لـ"الحياة" أن اليهود كانوا من أكثر الفئات المتأثرة بالعرب والثقافة العربية، إذ تعود جذورهم في العراق إلى أكثر من 2500 عام على الأقل وهو الموضوع الأساس الذي تناوله سوميخ في كتابه الأخير "بغداد أمس" سارداً فيه سيرة عائلته اليهودية العراقية الأصل كنموذج لإحدى هذه العائلات العراقية القديمة.

الوطن الموعود كان غريباً على هؤلاء منذ اللحظة الأولى لوصولهم إليه. يقول سامي ميخائيل وهو يهودي عراقي هاجر إلى اسرائيل بعد عام من تأسيسها: "عندما وصلنا إلى مطار بن غوريون فوجئنا بالسلطات الصحية تستقبلنا برشات من مادة (د د ت) لتعقيمنا وقد شعرنا بأننا جراثيم!".

الغربة استمرت واتسعت وأخذت شكلاً عنصرياً نتلمسه من كلام تلك المجموعة من الأصدقاء القدامى الذين وحّدهم الحنين إلى الوطن الأول الحاضر دوماً في العقول والأنفس "واجهنا اضطهاداً ثقافياً وعرقياً لم نكن نتوقعه" يؤكد شمعون بلاص للـ "الحياة" ويضيف: "شعرت بالاختناق الثقافي، فلا الأدب كان أدبي ولا اللغة لغتي، بل كل شيء في إسرائيل كان يخدم ايديولوجية معينة. كان العالم بالمختصر مزيفاً ومنقولاً من عوالم أخرى". ويتابع بلاص مسترسلاً: "كان علينا أن ننسى لغتنا الأم ونتعلم لغة أخرى في شكل فج، ومن أراد منا أن يعمل لم تكن أمامه فرصة متاحة لذلك إلا من خلال الأعمال البسيطة مثل الفلاحة والعمل في المصانع على رغم أن كثيراً منا كانوا من حملة الشهادات ومن أصحاب المؤهلات العلمية. كنا نستشعر ببساطة أن المجتمع يقوده ويقرر فيه يهود آخرون قدموا من أوروبا".



**المرحوم مير بصري، من أبرز المؤرخين العراقيين،  
ومن اواخر اليهود الذين بقوا متمسكين بعراقيتهم..**

ويبرز الجانب المأسوي في البحث عن الهوية الحقيقية من خلال التجربة التي عاشها يوسي يوناه البروفيسور في علم فلسفة السياسة في جامعة بن غوريون في النقب وأحد أبناء الجيل الثاني، ورواها للـ "الحياة" موضحاً أن التعرف على الثقافة العربية بالنسبة اليه هو بمثابة تعويض عن سنوات من النقص عاشها: "كانت هناك فجوة عميقة في طفولتي حتى أنني لم أستطع يوماً أن أفهم قصص جدتي التي لم تكن تتقن سوى العربية في حين لم أكن أتقن أنا إلا العبرية. واهتمامي بأصولي وباللغة العربية، التي اعتبرت مسبقاً لغة العدو والشعوب المتخلفة، لم ينم إلا حين نضج الوعي السياسي عندي، ما جعلني أندفع إلى مقاومة هذه الأفكار في شكل جذري والاعتراف بثقافتني". وبحسب يوسف، الاسم العربي ليوسي، فإن السلام بين العرب واليهود لن يتحقق إلا من خلال اندماج الثقافات بعضها ببعض.

أما الفكرة السائدة التي تحملّ الدول العربية مسؤولية إجبار اليهود العرب على ترك أملاكهم والنزوح من دونها فهي في نظر بروفيسور علم الاجتماع في جامعة تل أبيب يهودا شنهاف "حقيقة مفتعلة تهدف إلى حماية إسرائيل من حق الفلسطينيين المطالبة بالعودة إلى وطنهم أو بأية تعويضات عن ممتلكاتهم المتروكة".

خلطت الندوة بين الماضي بأحداثه والواقع، وبين السياسة والثقافة. وكان في اليوم الثاني تعريف بمؤلفات المحاضرين وعروض سينمائية وموسيقية ومنها عرض فيلم وثائقي يصور حياة بعض اليهود العراقيين تحت اسم "أنسى بغداد"، بحضور مخرج الفيلم الشاب العراقي سمير جمال الدين الذي يعيش في سويسرا وبعض الشخصيات التي ظهرت فيه كسامي ميخائيل. وفي الختام قدمت فرقة موسيقية إسرائيلية أتت من تل أبيب معزوفات وأغاني شعبية عراقية قديمة، عكست ألحانها وكلماتها واقع "التشاؤل" الذي يستشعره الجميع في المنطقة! (عن جريدة الحياة 18-7-2004)



صورة تهكمية نشرتها محطة الجزيرة، تصور يهودي عراقي وخلفه العلم العراقي

أخذ الحلم اليهودي بالعودة الى (الارض الموعودة) يأخذ طابعا عمليا وخطيرا، بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني في مدينة بال بسويسرا في آب 1897 برئاسة الأب الروحي للصهيونية (ثيودور هرتزل). بعدها أصبحت تحركاتهم محط أنظار العرب والمسلمين، كما أصبحوا محط الشكوك والريبة لذا أصبح مجيئهم الى فلسطين مثار شك الكثيرين لا من العرب بل من الترك أيضاً وعلى أعلى المستويات خاصة السلطان عبد المجيد الثاني (1876-1909).

بعد ان يأس (هرتزل) مؤسس الحركة الصهيونية، من اقناع (السلطان العثماني عبد المجيد) بالسماح لليهود بالهجرة الى فلسطين حاول ان يحصل على موافقة الحكومة البريطانية على اسكان مهاجرين يهود في العريش و شبه الجزيرة وقبرص يزحفون نحو فلسطين بعد ذلك خاصة وان مصر وقتذاك كانت تحت السيطرة البريطانية منذ 1882. وقد عرض هرتزل فضلاً عن مشروعه هذا مشروعاً آخر على اللورد روتشيلد يكاد يكون مستقلاً عن المشروع الأول لكنه غير متناقض معه، خلاصته إنشاء مستعمرات يهودية في العراق. ومن الجدير بالذكر أن الإشارة الى خطة استعمار العراق لم تكن اشارة عابرة أو عرضية، فقد كتب هرتزل في 4 حزيران 1903 الى عزت باشا رئيس الوزراء العثماني الجديد يذكره بالوعد الذي قطعه على نفسه للمنظمة الصهيونية بالسماح لها بايجاد مستعمرات يهودية في العراق و في لواء عكا عن طريق فتح الباب أمام الهجرة اليهودية، إلا أنه رغم موافقة هرتزل التي جاءت على اتمام الصفقة على مزيد من الأراضي وحمل السلطان على اضافة منطقة حيفا وضواحيها في فلسطين الى أرض العراق وتضمن ذلك كله في تصريح يعلنه الامتياز لقاء كفالة الديون العثمانية وتغطيتها، فإن المحاولة باءت بالفشل إذ تقاعست الدولة العثمانية عن وضع ما عرضته سابقاً موضع التنفيذ لما رأت من خطورة متوقعة تسبب لها الكثير من المشاكل ليس مع العرب أهل فلسطين وحدهم بل مع الدول الاستعمارية التي قد تستغل هؤلاء اليهود لمصالحها الخاصة المتناقضة مع مصالح الدولة العثمانية وما قدر يجره ذلك من أخطار على بنية الدولة الخاصة وان تعاطف كثير من سياسة أوروبا ودولها الاستعمارية كانكلترا بخاصة قد ولد هذا الشك وتلك الريبة في النفوس العثمانية فسحبوا ما عرضوه سابقاً إلا ان هذا الرفض العثماني لم يقلع الفكرة الصهيونية باستعمار العراق والزحف منه الى فلسطين نهائياً. حين ترأس اسرائيل زانكول المنظمة اليهودية الاقليمية عام 1909 فكر بأن بلاد ما بين النهرين هي الأرض الصالحة لإنشاء وتكوين المستعمرة الصهيونية. يقول فريتز غروبا، وزير ألمانيا المفوض في العراق بين 1932 و، 1939 ثم في أيار 1941 بأن بعض المنظمات الصهيونية الانجليزية والفرنسية حاولت عدة مرات ان توطن في العراق مجموعات من الفلاحين اليهود من اوربا الشرقية لاتساع الأراضي ووفرة الماء في العراق مع قلة السكان الذين يقومون بزراعتها



و في سنة 1907 اوفدت " جمعية التوطين اليهودية I C A التي مقرها لندن وتتعاون تعاوناً وثيقاً مع الاليانس ايزرائيليت في باريس، اليهودي الفرنسي نيغو الى بغداد لدراسة موضوع التوطين وقد بقي ينيغو أربعة أوخمسة أشهر في بغداد، وأعد تقريراً أبدى فيه رأيه في امكانيات التوطين وكان مؤيداً له، وقد اقترح ان يبدأ توطين اليهود في أراضي قاسم باشا صهر عبد المجيد الثاني في شمال بغداد، واقترح توطين خمسين ألف يهودي روسي وبولوني فأيد المشروع وزير مالية تركيا جاويد بك وهو يهودي دخل الإسلام ولكن السلطان عبد المجيد رفضه، و يظهر أن مبعث خوفه إنما يتضمن خشيته من أن تمتد اطماع الصهيونيين، الى العراق أيضاً ولا شك ان عبد المجيد لم يكن مخطئاً في مخاوفه وإذا طالب اليهود بفلسطين التي تركوها قبل ألفي سنة فمن الممكن أيضاً ان يطالبوا أيضاً بأراضي ما بين النهرين التي كان فيها طائفة يهودية كبيرة أيام الأسر البابلي.



يهودي عراقي هاجر حديثاً الى اسرائيل

لقد كانت اطماع الصهاينة في العراق معروفة منذ ظهور المنظمة الصهيونية العالمية، ومنذ ذلك الوقت بذل الصهاينة كثيراً من الجهد وكثيراً من المال فسيطروا على الاقتصاد العراقي واشتروا مساحات شاسعة من الأراضي في المدن للبناء وفي الريف وامتد نفوذهم حتى الى المناطق الجبلية من شمال العراق في منطقة دهوك حيث اشتروا أخصب الأراضي هناك كما اشتروا أراضي زراعية في محافظات (الوية) القادسية (الديوانية) وذي قار (الناصرية) وبيسان (العمارة) كما اشتروا كثيراً من أراضي بغداد وبالذات ناحية الكرادة الشرقية وحاولوا شراء الأرض في ضاحية الاعظمية.

ولكن اهالي الاعظمية أدركوا ما يببته لهم اليهود الصهاينة فقاوموهم مقاومة شديدة مما أدى الى اخفاق الصهاينة في الاعظمية حيث نجوا في مناطق أخرى من مدينة بغداد، وحين كان اليهود الصهاينة يرحلون عن العراق بعد عام 1948 (1950 - 1951) كانوا يقولون علناً " سيأتي اليوم الذي نعود فيه للعراق لاستعادة املنا " وقد أعلن موشيه ديان يوم 6 حزيران 1967 وهو يوم حتلال القدس " لقد استولينا على اورشليم ونحن في طريقنا الى يثرب وبابل، وهذا يدل بلا شك على اهمية العراق بالنسبة للحركة الصهيونية مطامعها تحقيقاً لحكم إسرائيل الكبرى، الممتدة من النيل الى الفرات فضلاً عن وجود عدد كبير من اليهود في العراق وبنسبة عالية خاصة في اطلالة القرن العشرين مما كان مشجعاً لهرتزل واساطين الفكر الصهيوني والمنظمة الصهيونية لطرح مثل هذا المشروع خاصة بعد أن باء مشروع الهجرة الى فلسطين واستيطانها بالفشل بسبب رفض السلطان العثماني له اضافة الى وفرة خيرات العراق وقربه من فلسطين بحيث يمكن اعتباره محط رجل للحركة الصهيونية تزحف باتجاه أرض الميعاد على حد زعمها ولكن قيام حكومة الاتحاد والترقي وما لقيته الحركة الصهيونية من تساهل على يدها بخصوص الهجرة إلى فلسطين مضافاً الى ذلك التعاون الصهيوني - البريطاني قبل وأثناء الحرب العالمية الاولى (1914 - 1918)



وصدور وعد بلفور في 1917 / 11 / 2، دفع المنظمة الصهيونية الى صرف النظر عن العراق والتوجه نحو فلسطين مباشرة.

### **الفصل السابع** **الملف التحليلي**

التسامح والحوار بين المذاهب والاديان..



### **المحبة والتسامح لدى شيخ التصوف (ابن عربي) ..**

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه دان  
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان  
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجّهت ركانبه فالحب ديني وإيماني

(وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) (القرآن الكريم)

توقيع ميثاق شرف سني شيعي



بغداد 25 شباط 2006: وقع رجال الدين السنة والشيعية ميثاق شرف بينهم حرم بموجبه الدم العراقي يدين تفجير قبة الامامين علي الهادي وابنه الحسن العسكري وجميع الاعمال التي استهدفت جميع المساجد. ووقع الميثاق مساء اليوم /السبت/ في جامع ابوحنيفة وفي الاعظمية اربعة أعضاء من هيئة العلماء المسلمين في العراق /سنية/ وأربعة من رجال الدين من التيار الصدري الذي يتزعمه الزعيم الشيعي الشاب مقتدى الصدر وبحضور ممثلين عن مكتب التيار الخالصي. وقال الشيخ عبدالسلام الكبيسي عضو هيئة العلماء المسلمين "مهما تكالبت على العراق قوى الشر والعدوان وحيكمت من مؤامرات تريد للشعب العراقي ان ينزلق الى الفتنة الطائفية وتبقى القيادات الدينية واعية لهذه المؤامرات، ولا تريد لشعبها ان يدخل في المزايدات تحت تأثير أي اجهزة خارجية، تريد التحاكم في دماء المسلمين وأموالهم ومقدساتهم ويبقى الانسان عزيزا علينا ومن اجل ذلك اجتمعنا هنا لكي نقول كلمة الفصل الى ابناء العراق بجملة من النقاط ومن خلال لجنة من التيار الصدري وهيئة العلماء المسلمين

وبحضور الاخوة في المدرسة الخالصة". وأضاف الكبيسي "تقرر ادانة العمل الاجرامي الذي استهدف مرقدي الامامين الجليلين علي الهادي والحسن العسكري في سامراء".

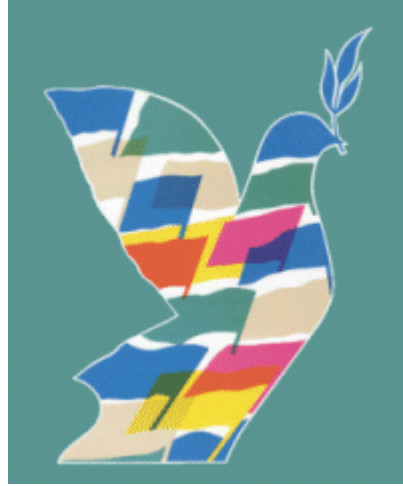
من جانبه قال السيد حازم الأعرجي ممثل التيار الصدري "بناء على مناشدة الشيخ الكبيسي الى السيد مقتدى الصدر، اوفدنا من قبله لكي نوكد لابناء الشعب العراقي أننا نعيش في هذا البلد متسالمين شيعة وسنة، ولايمكن ان نتفرق مهما كانت المؤامرات ومهما كان حجم التدبير الخارجي ومهما طرحت من اجندات ولذلك اتفقنا ان نقف وقفة التلاحم، وقفة الوحدة التي طالما بنت العراق، ولايمكن ان يبنى العراق بالتفرق بل يبنى بالاتحاد والالفة والمحبة ولذلك ادنا جميعا العمل الاجرامي الذي استهدف الامامين الجليلين". وأضاف "كما ادنا جميع الاعمال التخريبية التي استهدفت بيوت الله، ونعلن ادانتنا لكل الاعمال الارهابية وتكفير المسلمين عموما وندين الذين دعوا من خلال الاعلام في اثارة الفتنة الطائفية والتحريض الى ما يؤدي الى الحرب الاهلية، ونؤكد وجوب حرمة الدم والعرض وحرمة البيوت والمساجد والحسينيات ومراقدة الائمة مع وجوب ارجاع جميع المساجد الى اصحابها الشرعيين، ونطالب بتعويض جميع المتضررين من احداث الفتنة". واكد على تشكيل لجنة من التيار الصدري وهيئة علماء المسلمين والمدرسة الخالصة لتقصي الحقائق وبيان اسباب الفتنة والعمل على استئصالها وكشف الجناة وتقديمهم الى العدالة. واعلن عن البراءة من الاعمال التخريبية التي طالت مقدسات المسلمين ومقدساتهم وقال "نحمل قوات الاحتلال مسؤولية كل ما يجري في العراق من فتن طائفية وارهاب مقيت ونطالب بخروجه او جدولة انسحابه". وأوصى ابناء العراق بالتكاتف والتآلف لتفويت الفرصة على الاعداء المتربصين بدين الله مؤكداً على وحدة المسلمين وكونهم امة واحدة مهما اختلفت طوائفهم.

وبعد توقيع الاتفاق ادى الجميع صلاة المغرب سوياً في جامع ابي حنيفة، وقد أم الصلاة الشيخ عبدالسلام الكبيسي.

وخرجت تظاهرات حاشدة في عدد من المدن العراقية بعد صلاة الجمعة تدعو الى الوحدة الوطنية وعدم الانجرار الى حرب اهلية بعد الاعتداءات. وفي الموصل تظاهر قرابة 500 شخص في منطقة برطيل شمال شرق المدينة بدعوة من مؤسسات شيعية واخرى سنية للتنديد بتفجير المرقدين والدعوة الى وحدة الصف وعدم الانجرار وراء حرب طائفية.

وانطلقت التظاهرة من امام مكتب مؤسسة "شهيد المحراب" التابعة للمجلس الاعلى للثورة الاسلامية (شيعي) يتقدمها رجال دين شيعة وسنة. وفي الحلة تظاهر اكثر من 3000 شخص بعد صلاة الجمعة الموحدة في جامع الهيتاويين في مدينة الحلة الذي دعا خطيبه الشيخ محمد فاتح (سني) في الخطبة المشتركة التي تقاسمها مع الشيخ جاسم الكلابي (شيعي) الى "وحدة المسلمين والرد على كل عمل تخريبي وتفويت الفرصة على اعداء الاسلام والحفاظ على وحدة الصف". وفي الكوت تظاهر المئات من العراقيين بعد صلاة الجمعة منددين بالاعتداء على ضريح الامامين والاعتداءات على المساجد. وطالب الشيخ مظفر البطاط ممثل مكتب الصدر في الكوت "الحكومة العراقية باعطاء الفرصة للتيار الصدري لحماية المقدسات" ودعا خلال خطبة الجمعة الى "نبذ الطائفية". كما اقيمت صلاة موحدة في جامع الكوت الكبير وسط المدينة. وفي العمارة تظاهر اكثر من 15000 الف عراقي بعد صلاة الجمعة منددين بالعمليات التي استهدفت الضريح والاعتداءات ضد المساجد ورفعوا لافتات كتب عليها "الشيعية والسنة كالحسن والحسين" و"المرجعية تدين الارهاب بكل اشكاله والوانه".

وفي كربلاء دعا الشيخ عبد المهدي الكربلائي ممثل السيستاني في خطبة الجمعة في الصحن الحسيني الى "التعايش السلمي والاخوي ونبذ العنف للحفاظ على وحدة الشعب". وقال "اننا ندرك طبيعة هذه الجريمة وما سبقها من جرائم ونعلم انها ليس من (فعل) السنة بل من العدو المشترك للشيعية والسنة". وفي البصرة تظاهر اكثر من عشرة آلاف من الاهالي تلبية لنداء المرجعية الشيعية في النجف الاشرف بالقرب من جامع الابلة وسط البصرة رافعين لافتات تطالب "بجلاء المحتل وتشكيل الحكومة الجديدة وبأسرع وقت ممكن".



عيرني أحد الأخوة المغاربة بأننا العراقيون (خالوطه)، ويعني خليط غير هجين من الملل والنحل، تأكيداً لما يشيع اليوم عن التناحر الذي أملتة الفرقة بين الفرقاء والمتحاصسين. ولم يعي الرجل بأن وجود فسيفساء بشري في بقعة ما من أرض الله، يعني تراكما تاريخيا ملموساً، دون الحاجة لتأكيدة في المدونات أو الحفريات. والأهم ما لا يفهمه الرجل الحصيف، بأن الذات العراقية مسجاة على التسامح، حتى تداعى أمرها إلى فسيفساء وتلاوين برج بابل، وضمت إلى صدرها الرحب الجميع دون تفريق أو تفريط.

نسمع أخبار مؤلمة عن سحق فئات الوطن الواقعين بين حجري رحة الأقوياء، ويشمل الأمر جموع المسيحيين والصابئة في جنوب العراق، واليزيدية والشبك والكاكنية في شماله، فمثلاً من ضمن ألف عائلة صابئية في المجر الكبير، لم يبق منهم غير ثلاثة، والأمر كذلك يتجسد في سوق الشيوخ الذي كان المندائيون يشكلون به مائه وخضرته ومبرر وجوده، والحال عينه ينطبق على مسيحيي سهل نينوى ومن مكث في شمال العراق منهم.

لقد أشاعت يد (القوى الدينية المتطرفة) في البصرة والعمارة فتكا بهؤلاء، فعنفتم أملاكهم وسرقت متاجرهم وأقفلت كنائسهم ومعابدهم، مما دعاهم للهجرة عنها وترك تلك الأوابد كالحة وحيدة اللون، مجردة من زهواؤانهم البهيج. وهاهم نصاراناً وصابئتنا ويزيديونا وفئاتنا العزيزة، يملئون الشتات والمنافي، بما يعني أن العراق سوف يفرغ من وجودهم إلى الأبد بما لم يحدث في تاريخه البتة، والذي سيكون مثلبة وعيباً وندبة عار وتركة كالحة على كاهل أجيالنا القادمة.

ثمة مغالطة لغوية رامزة وغامزة، حينما نكني هؤلاء بـ (أقليات)، والتي نتمنى نبذاها في قادم الأيام، من ضمن آليات المواطنة التي تلغي تصاعدياً صفات الأكثرية والأقلية الدينية والعرقية الرائجة، والمتاجر بها في تنمر وتحد، مثلما رأينا إحصاءات جزافية ودعائية شتى. وإذ نحبز أن ندعوا هؤلاء (فئات الوطن)، فهم بنا ومعنا ومنا يشكلون حالة أكثرية عراقية مطلقة. وفي الجانب العلمي الواقعي نعتبرهم بقايا أهلنا القدامى، حينما كان أجدادنا أخوة فسلك كل منهم مسلكه الديني ثم اللغوي، بحسب مكان تواجده، مثلما هو ديدن البشر، ويحدث حتى اليوم، حينما يعتنق الاخوة الأشقاء أديان أو أفكار شتى بحسب الأهواء والإقتناع، ويمكن في تلك الحثثيات علم الأنثروبولوجيا (الأجناس) دليلنا وفيصلنا. فلا يمكن إثبات نسب وصفاء جنس وأصول أي عراقي إطلاقاً، فثمة الأشقر والأسمر والأصفر في الشمال والجنوب على حد سواء، وثمة أخوة في نفس البيت يختلفون شكلاً فيما بينهم، وهو ما يدل على الأصول المشتتة للنوع العراقي، ويزيدنا فخراً ويكسبنا رفعة تصاعدية في التحسن الموروثي (الجيني)، الذي تسعى إليه أمم شتى اليوم.

ثمة منزلق وهابية نحو الإحتراب العرقي والديني يتحكم بخيوطه ويروج له أعداء الأمة العراقية من داخلها أو خارجها. وقد أشار المرحوم هادي العلوي، في بداية التسعينات أن ثمة ورقة أخيرة سيلعبها البعثيون عندما

تغرب أيامهم هي الورقة الطائفية، حينما كانت سلطة البعث تترنح بعد حرب الكويت والانتفاضة الشعبانية. وقد لمسنا منذ الأيام الأولى للتغيير الذي جاء به الأمريكان هجومات أستهذفت الكنائس حصرا قبل الجوامع، والفاعل حتما هو المستفاد، ويقتصر مدى تلك المصلحة في جهات قومية ودينية وخارجية تروم العبث بمصائر أهل البيت العراقي. هؤلاء يبحثون عن مآربهم في إشاعة حالة من القلق ودوامة من ضياع النصاب الأمني، والحث على الهبوط النوعي الأخلاقي للإنسان، الذي يعود تطبيقه برأينا الى إنقلاب 8 شباط 1963.

ومن تلك القوى تكني نفسها اليوم (مقاومة)، وهي محض فلول بعثية وسلفية منحدرة تروم خلط الأوراق، تعطي لنفسها مبرر محاربة أمريكا (المسيحية جدا)، لكنها تقتل الأبرياء من أهلنا دون وازع أو رادع مستغلة غياب سلطة الدولة، وبعيدا كل البعد عن الأمريكان. وأتذكر في هذه الشجون رد فعل المرحوم أبي إبان تذبيح البعثيين لشرفاء العراق بعيد إنقلاب 8 شباط، بأن العراقي لا يذبح من يخالفه الدين والعقيدة، فكيف سالت للبعثيين أنفسهم القتل على خلفية الخلاف السياسي، الذي هو أدنى شأننا من الخلاف العقائدي الروحي. ثم حدث أن أشاعوها لأربعة عقود حتى سقوطهم المدوي قبل ثلاثة أعوام.

ويمكن أن تكون للنزعة القومية مبررها في طرق الجانب الطائفي كورقة من ضمن سياقات دجلية وترويجية واهية، سمعناها من جهات قومية متعددة وفهمنا فحواها. ففي شمال العراق مثلا، فإن القوى القومية الكردية لديها كل المصلحة بإخلاء القرى النصرانية من أراضيها، كي تخطى من مالكيها الأصليين وبذلك يتم الاستحواذ عليها، ثم تضم الى (الأقاليم) و(الفدراليات) الموعودة، وتشرعن وتدجل من ضمن منظومة المسلمات والبديهيات الرائجة اليوم وتعتبر أمر واقع لا مراء فيه. وقد تجسد الأمر في الإنتخابات، وما فضيحة سهل نينوى إلا خير دليل عليها. وما يروج (دعائيا) بالإهتمام والعناية، لا يشكل إلا ذر الرماد في العيون.

لقد خدمت ثورة الاشوريين منذ أن أستباحها بكر صدقي (قوميا) منذ العام 1925 بحجة الدين وهو منه براء. والأمر عينه حصل لليزيديين على يد سعيد حمو، أما مصاب السريان والأرمن وحملات التطهير العرقي ضدهم، فلم تتم على يد الأتراك إلا قيادة وتمويلا، أما نحرهم فتم بأيادي قومية (أغواتيه) كردية، يتحاشى (المثقفون) الحديث عنها، لكن أنبرى الكردي الدكتور كمال سيد قادر لسردها واقعيًا، فرمي في غياهب السجن.. لم يكن العروبيون إلا أسوء من جميع التوجهات القومية، فقد أشاع الملكيون جرما بالأقوام والفئات بنزعة عروبية متراكبة ومعقدة. لكن الأمر اتخذ إبان تسلط الشموليين البعثيين أبعادا منظمة. لقد حثت الممارسة البعثية ذوي المواهب الوصولية في الطفوح إلى السطح، وأستعملوا صيغ الكيد والضغائن و(كتابة التقارير) وسيلة للقضاء على فئات دينية بعينها. لقد قرب البعثيون العناصر الهزيلة من كل طبقات الناس وفئات الوطن الدينية والعرقية، ليتاجروا بأسمائهم. فطفق أسم أشخاص لا يمتون بالفضيلة الدينية بصلة أن تبوؤا المناصب ومنهم مثلا طارق حنا عزيز وعبدالرزاق عبدالواحد، حينما تداعى أسمهم وبالأعلى الملة التي قدموا منها. ودليلنا أن تلك الفئات عانت وسحقت ثم تشنت مثل جموع العراقيين دون فرق يذكر.

لقد أمسى الفكر القومي (بأنواعه) وبالا على سليقة وتلاوين الفسيفساء العراقية، وتداعى الى مانحن عليه اليوم. ولو كانت السلطة الملكية (متنورة) بما يكفي في إختيار صفة المواطنة أو (القومية الوطنية) على المنهج الفرنسي وليس (القومية العرقية) على منهج فخته الألماني، لكان عمر الدولة العراقية أمكث وأطول، ولكان نصابها واقعيًا، فلم تهمش فئات على حساب أخرى الذي تداعى إلى الإنعطافات الكبرى في مسار العراق الحديث. وثمة مفارقة غريبة في هذا السياق بأن القوتين المحتلتين الإنكليزية 1917 والأمريكية 2003 اختارت للعراق النوع (العربي والطائفي) حلا ومنهجا في بنوية الدولة العراقية، وكأنهم في ذلك رسموا مستقبلا ملغوما لأجيال أهل بيت النهرين، كما حدث في سقوط الدولة العراقية الأولى بعد ثمانية عقود من تأسيسها، غير مأسوف عليها.

نرجع التسامح الديني إلى البنية الفلاحية للحياة العراقية، حيث أن الفلاح يحتاج إلى من يساعده في تراتبية العملية الإنتاجية، ولديه مردود وفير من المنتج بما يكفي ويزيد عن حاجة الجماعة، وهكذا أمسى لا يفرط بأحد لحاجته إليه، وتداعى الأمر إلى أن يهادن ويتسامح معه ويتحاشى الخلافات والقطيعة، كي تستمر عجلة الإنتاج التي تعتبر بحد ذاتها غاية الحياة. وإذ نلمس الأمر في التكامل والانسجام بين الصابئة والمسلمين في الجنوب العراقي مثلا. والأمر برمته يقع على نقيض البداوة التي لجأت بسبب شحة المردود في بيئة الصحراء المجدية إلى التصفية الجسدية، التي كانت تلغي عن طريقها منافسا في العيش. وبذلك أمسى البدوي لا يتسامح لكي يستغلها سببا في شطب وإفناء الآخر كمنافس في العيش، وتعذر بالشرف الرفيع حينما مارس وئد الإناث مثلا، وهو في حقيقته عملية حد من الظاهرة التكاثرية في المجتمعات كون المرأة سببها. لذا جاءت الأديان مكرسة لروح الحضارة على حساب البداوة، وتبنت التسامح والصفح، على السنة الحضارية والفلاحية، ونجد



الإسلام قد أنتقد الأعراب في القرآن صراحة، وهي بحد ذاتها تجسد روح الصفح التي سجي عليها العراقيون من قبل إبراهيم(ع)، والتي جاءت مشتركة في الديانات الإبراهيمية التوحيدية.

العراقيون يزهون إختيالاً بأنهم الوحيدون ملل ونحلا يتزاوجون فيما بينهم، دون عائق أو مانع. والعراقيون يكفهم فخرا أنهم لم يحدث في تاريخهم الطويل نزاعاً دينياً واحداً، وحتى لو حدث ذلك سنجده من تداعيات سياسية خارجية، أو صراع بين دول الجوار والعالم التي تغذي التناحر الداخلي، حيث لا يملك العراقيون في حيثياتها ناقة ولا جمل. ولم نسمع ولا مرة أن حدثت تصفيات على خلفية دينية مثلما حدث بين نصارى ومسلمي حلب أو بين دروز ومسلمي ونصارى الشام عام 1863 بما دعي في حينها(طوشة النصارى)،التي كانت سبب في الإخلاء الأول لنصارى الشرق إلى العالم الجديد، أو حتى ماحدث في الحرب الأهلية اللبنانية الأخيرة التي كان جوهرها ديني. وهو يحاكي ما حدث مع نصاراننا(لاسيما الآشوريين)،حينما هجروا،وتجمعوا في ديترويت ابتداءً من ثلاثينات القرن العشرين.

أن حروب السلاجقة والبويهيين ثم العثمانيين والصفويين وبعدهم القجريين كانت سياسية محضة، أملتھا مصالح الدولتين بالهيمنة على خطوط التجارة (خط الحرير) الذي يخترق أراضيها، أكثر من إنشغالهم باختلاف الفقهاء والمفتين بالدين. ولم تكن يوماً مذهبية بين التشيع والتسنن،كما يروج لها فهي كانت قبل الإسلام بين اليونان والبرثيين ثم تحولت بين بيزنطة وساسان، على نفس المبرر الاستحواذي،ودون تشيع أو تسنن،واليوم تحولت بين تركيا وإيران بالرغم أن دولة تركيا الحديثة علمانية.

وما يحز بالنفس أن هؤلاء المتناطحين جعلوا من أرض العراق ساحات وغى وتصفية حسابات مصلحة، وراموا جر أهل بيت النهرين إلى مآربهم،فأمسى بشهادة كل المؤرخين مدعاة وحدة لأهل هذا البيت.وحدث أبان الصراع بين العثمانيين والصفويين أن يحيى السني الشيعي والشيعي السني. ونقل المؤرخون موقف عالم الدين الشيعي الذي أفتى بأن السنة هو الموالون للإمام علي ولايجوز قتلهم،كي يقطع الطريق على قرار الصفويين بذلك. وعندما حل العثمانيون اعتبروه عميلاً للصفويين فأعدموه، رحمة الله عليه.

وفي القرن التاسع عشر تذكر أخبار العالم (السني) ابو الثناء محمود شكري الألوسي،كيف كان يزدرى السلفيين والوهابيين ويعتبرهم مشعوذين ومارقين،وكان يتهم عليهم في مجالسه وخطبه ومقالاته. وبالرغم من سمعة السلفية التي ألصقت به جزافاً، فإن أقرب مقربيه كانوا من أهل التصوف والتشيع.

وإذا أردنا أن نسرد قصص العامة وخواطر الناس بصدد نزعة التسامح يجدر أن تجمع في دائرة معارف، وتدرس في المدارس وتلقن. أتذكر مثلاً والدي،كان دائب التذكر لجاره اليهودي (أبو الياهو) الذي سفرته السلطات العراقية عام 1951، ولم يعد يسمع عنه،بالرغم من المحبة التي جمعتهم. وكان يردد (ياترى هل يتذكرني أخي أبو الياهو مثلما أتذكره).

كتب الصحفي ماجد عزيزة في إحدى خواطره (لأدري إن كان جدي لوالدتي سيكرر على مسامع جدتي (رحمهما الله) وصيته الشهيرة وهو يستعد لمغادرة بيتنا في الموصل القديمة منتصف الخمسينات من القرن الماضي، حينما كان يوصيها في شهر رمضان بأن تبتعد عن طبخ الأغذية التي تنبعث منها رائحة المقلبات، كي لا (يشمها) الصائمون من جيراننا المسلمين. أقول لا أدري إن كان سيكرر ذلك عليها في الوقت الحاضر لو كان حياً، وهو يشاهد ويرى ويلمس، ما يحدث لبيوت الله المسيحية في العراق. ونذكر اقدم من ذلك ما ورد في موسوعة العراقية ماريا تريزا الأسمر (مولودة في تليف عام 1804)، حيث دونت في موسوعتها التي تقبع اليوم في قبوات المكتبة البريطانية، بأن أبوها عاقب أخيها الأصغر، كونه صعد على النخلة في البستان وصاح (الله أكبر)، ومبرره أن ذلك يثير حفيظة أخوته المسلمين ويجرح مشاعرهم.

ولدينا في سيرة الفنانة التشيكية (أمل بورتر) شجون ونوادر، حيث أبوها أنكليزي وأمها مسيحية عربية،وكان خوالها عربيون حتى النخاع، حتى أن أحدهم وأسمه جورج سمى ابنه (محمد). و تذكر كيف أن أمها المرحومه لولؤ، وهي ثاني امرأة عراقية تحصل على إجازة سياقة عام 1931 بأنها كانت لا تأخذهم إلى الطبيب حينما يمرضوا وهم صغار حتى سنوات الصبا والشباب، حيث كانت تلبس عبائتها، وتركبهم السيارة وتذهب بهم إلى ضريح الإمام (موسى بن جعفر) (ع) في الكاظمية طلباً من لدنه شفاة عند ربه، وشفاءً لأولادها. وكتب لنا السيد علاء مهدي بأن السيدة والدة زوجته،وهي عراقية أرمنية، كانت قد اعتادت زيارة مقام الإمام موسى الكاظم بصورة دورية تنفيذاً لنذر أو للإستقراب والتودد بحسب الظرف المحيط بها.

ومن المعلوم أن الكثير من نصارى العراق ويهوده ومندائييه، يذهبون لزيارة العتبات المقدسة في الكاظمية وسامراء والنجف وكربلاء، مثلما يذهب المسلمون لزيارة (ذي الكفل) و(العزير) (ع) التي يعتقد الكثيرون

أنها حكرا على اليهود، والكل يذهبون إلى خضر الياس في بغداد. ويتذكر الأستاذ أبو نمير نهاد سليم، كيف أنه ورفاقه من الصابئة والمسلمين كانوا يتبركون بقبر السيد عاشور (توفي عام 1957) في العمارة-منطقة الماجدية، وهو أحد السادة الشيعة.

ومن الجدير ذكره أن والد الأديب موسى الخميسي، لم تستطع الجارفات من الإقتراب من قبره لأزالته في الدور، حتى أجبرهم الأمر إلى احترامه وعزله وتسييجه، وجعل الأمر أهل الحي من المسلمين يتبركون بروضته. ويخبرنا موسى كذلك بأن أمه الصابئية المندائية كانت تمنعه وأخوته من أكل سمك (الجري) الذي يرفضه الشيعة. وقد سألها يوما عندما نضج عن فحوى هذا المنع، فأخبرته بأن سمك الجري مكروه لأنه (خبط الماء من أمام الإمام علي) (ع) كما تتناقله العامة. ويقول أننا كنا نسترسل معها مزحا (مالك أنت والإمام علي.. لخطر الله) فتجيبهم (لا يمه شلون.. جا هذا أبو الحسن ياهو مثله).

ولنا تجربة شخصية مع أختنا (عروبة بابيزيد الأموي) اليزيدية، وهي تردنا مع أخواتي التي تجمعهما صداقة حميمة من زمالة جامعية. حيث كانت تحب زيارة الإمام موسى بن جعفر (الكاظم) (ع) الذي يقع على تخوم حينا. وكانت كثيرة الدعاء والترجي وطلب العون في حضرة (باب الحوائج) الإمام أبو الجوادين.

حضرنا مرة حفلة تعميد طفل أحد أصدقاءنا المسيحيين في كنيسة في ستوكهولم. فرافقنا والدتي، وجلسنا نرقب طقوس الشمس وهو يعمد الطفل، وإذا بالمرحومه والدتي القادمة من هور العمارة، تتذرع إلى الله وتقرأ سور من القرآن. فسألتهم مبطن: ماذا تفعلين يا أمي؟، فقالت دعني أقرأ آيات الله في بيت الله.

وربما تكون جهات الموصل محكا محضا للروح للعراقية، فمحيطها وشعاب تلالها وجبالها مكامن للثراء الروحي العراقي، وينقل القاصي والداني الألفة والتعاضد بين تلك الجهات على الميزان الأخلاقي، الذي يتسابق الجميع لتجسيده، لأعطاء صفة القدوة الحسنة. والحال عينه يتجسد في كركوك وبرجها البابلي العراقي، حيث كان قدرها أن تكون بوتقة يلتقي في أحيائها الجميع على المحبة العراقية.

ويعرف سكان القشل ببغداد في الخمسينات شابا اسمه (طوبيا) نصراني عراقي كل أصدقاءه من غلاة الشيعة، وكان محبا لهم مثلما هم يبادلوه. حيث كان يشتري قبل كل عاشوراء (دشداشة) سوداء وتجده دائما يتصدر مواكب عزاء الإمام الحسين (ع) في الحي، وكان أول الناهضين للطم معهم. وقد كان جل رفاقه ممن يفضل أن يصبغ (دشداشته) بلون أسود، لضعف الحال، بالرغم من أن العرف الاجتماعي كان يعتبر الدشداشة السوداء الجديدة تكسب صاحبها أجرا أكبر، مما دفع بطوبيا يكون سباق لكسب الأجر بشفاعة سيد الشهداء

أجزم في تلك الشجون بأن ثمة الكثير من الخواطر التي يحملها كل منا، وأتمنى تدوينها عن تلك الروح المتسامحة التي غرسها الله في سجايا أهلنا الكرام. وإذ أتمنى أن نظهرها للملئ ونذكر بها الجميع ونعتد إفتخارا بأننا أمة لم تقتل بسبب دين أو عرق أو مذهب حتى وطأنا شيطان البعث فشتت شملنا. وإذ نجزم أن أي ترويح قومي عنصري أو ديني طائفي تنهجه قوانا السياسية، هو محض إنزلاق وجهالة جديدة، بما يزيدنا نأيا عن سوي روحيتنا وعقليتنا العراقية المسترسلة منذ غابر الأزمنة، ويفرزها مع الوقت بأنها محض أداة طيعة موجهة لمصالح أعداء العراق والباحثين عن فناءه والاستحواذ عليه. سوف تنال تلك القوى لاحقا النقد والازدراء الذي أمسى مصير كل من أراد للعراقيين تناحرا طبقيا أو قوميا واليوم طائفيا.



كل المهتمين بالشأن العراقي، يرون ان أسباب قيام الفوضى وعدم الاستقرار، نابعة من هشاشة مشروع الدولة، وانعدام السلطة الوطنية. ويعد الافتقار الى الإجماع أو التوافق على المشروع الوطني العقلاني، الواعي لمخاطر ما تتعرض له البلاد والعباد، من محن وكوارث، واحداً من أكبر التحديات حالياً. ومن أهم سمات المشروع الوطني، تجاوزه للطرح الطائفي والقومي والمناطقية، وهو حجر الأساس في إعادة البناء للمجتمع والوطن، وليس البحث عن دور قيادي لهذا العائد من المنفى، أو ذاك المقيم في الداخل. وبموجب تأكيد مختلف القيادات الإسلامية العراقية، وعدم سعيها لتشكيل دولة دينية، ولأن الحياة السياسية لم تستكمل بعد، تشكل العلاقة بين الدين والدولة العراقية المنشودة، إحدى أهم مفردات برامج ونظم التنظيمات السياسية. وبطرح مفهوم «العلمانية المؤمنة» للتداول في الوضع السياسي والاجتماعي الجديد، لكي يتبلور أكثر، عبر توفير مناخات حاضنة له، ولإشباعه نقاشاً وتعميقه بين الأطراف المختلفة. والعلمانية المؤمنة تأتي كحل وسط، بين توجهات الإسلاميين والعلمانيين، بشكل يحفظ الهوية العربية الإسلامية، ويقدم سلطة عصرية تعتمد الأساليب، والآليات الديمقراطية أساساً للحكم، وتمنع وصول الدكتاتورية.

العلمانية المؤمنة، هي إنهاء للتوجه الإقصائي أو الإلحادي للعلمانية، بعكس ما تنبأه علمانيو الشرق الإسلامي من تلازم الإلحاد، أو استبعاد دور الدين في الحياة العامة. فالعلمانية المؤمنة، كما يُعرفها الأمام الراحل الشيخ محمد مهدي شمس الدين، هي أن «تفسح للإيمان الديني مجالاً ومكاناً، ليس في هيكل السلطة، ولا في هوية النظام، ولا في مجال التشريع، وإنما من حيث الاعتراف بالإيمان الديني واحترام الأديان». وهذا النوع من العلمانية نجد تجسيده في الدولة اللبنانية، ومعظم دول الغرب الأوروبي حالياً. وقد يشغل الدين في بعض هذه الدول، حيزاً أكبر في الحياة العامة من التعريف المتقدم.

العلمانية في أحد تعاريفها الجديدة، هي حرية المعتقد على الصعيد الفردي، تسمح بممارسة الشعائر الدينية جماعياً، لأي كيان اجتماعي، مهما صغر أو كبر، متمتعاً بقدر واف من الاستقلالية عن سلطة الدولة. وهي لا تعني مواطن بلا دين، أو مجتمع بلا دين، وإنما تعني دولة وسلطات حاكمة لا تتحاز لدين أو أقلية عرقية، أو طائفة أو مذهب. ولا تدعو العلمانية المؤمنة الى فصل الناس عن دينهم، لكنها تنشئ سلطة لإدارة دولة حديثة، تقوم على مبدأ التعددية الثقافية والدينية والسياسية، تجد انعكاساً لها في هيكل السلطة.

من صفات هذه العلمانية انها تقوم على المواطن الفرد، وليس الحزب، أو الطائفة، أو القومية، أو العشيرة. ومثل هذا الاعتماد، يزيل مخاوف الجميع. ويفتت التعصب والولاء الضيق. ويعزز الهوية والوحدة الوطنية. ويحق بذلك للسلطة إنشاء مؤسسات دينية تعطيها دوراً مهماً، للتعامل مع الدولة والمجتمع الأهلي، ويجعل دور المؤسسات مهماً في المشاركة، في تحمل المسؤولية عن كيان أي جالية في المجتمع. وهذا ما يُحجم الى حد كبير، مقولة إقصاء الدين عن الدولة. ويمنح الحرية الواسعة في التحرك، لأي مجموعة دينية، تتعايش مع الآخرين مهما كانوا، بوثاق وسلم اجتماعي على أساس أن الوطن يتسع للجميع.

والعلمانية المؤمنة تعني حياد الإدارة والسياسة الحكومية، بما يتعلق بعقائد الناس، أفراداً وجماعات. وتعني بشكل آخر استقلالية الوظائف العامة في السلطة.

والدولة لا تجعل من الدين أمراً ثانوياً، بل تطلق حرية تحركه في أوساط المجتمع، كونه رابطة بين الإنسان والكون وخالقه، وكذلك بين البشر جميعاً، وتعدّه كمنظومة أخلاقية مترابطة. وللدين دور فاعل يحمي الإنسان من الانزلاق نحو الانحراف والجريمة ويصون الفرد. فالدين علاقة سمو وتصعيد روحي، تحتاجها المجتمعات. وينظر إليه كمعين لا ينضب، لإنتاج القيم والمعنويات الضرورية للحياة. وتسمح بتكوين أحزاب دينية سياسية. وهذا ما يفسر دعم الدولة للمشاريع، الهادفة لتطوير الإنسان وتنمية قدراته وفعاليته.

فالعلمانية الجديدة، هي تشريعات تُستمد من حركة الواقع الاجتماعي، أياً كان هذا الواقع، تستهدف قضاء حاجات الأفراد، وتحقيق أكبر قدر ممكن من المصالح الحياتية المشروعة، وهي تشريعات تخصصية تخص العموم، وقد تكون من نفس تشريعات المعتقد الديني السائد في المجتمع، فهي لا تخالف التقاليد والأعراف، ويراد منها تحقيق أكبر قدر ممكن من العدالة.

أما تعريف العلمانية بأنها فصل للدين عن الدولة، فهو قديم. كما روج له علمانيو الشرق الإسلامي، بدعوى إقصاء الدين عن واقع الحياة. فعادوا الناس لدرجة تحولت لفظة العلمانية إلى شتيمة تثير الاشمئزاز والاستفزاز، وترسخت مخزونة في ذاكرة مواطنينا كنظام للدولة المعادية للدين، رغم أنه لم يتحقق الفصل الكلي بين الدين والسياسة حتى في الدول التي تسود فيها العلمانية القديمة. فالكنيسة تكتظ بالمصلين وتحثي بهم، وهي تحكم وتنظم شؤون اتباعها، ولها سلطة في الاعلام والرأي العام، وتستشار في صياغة القوانين والتشريعات وحتى السياسات العامة.

السلطة العلمانية بتعريفها الاقصائي، ظلت جامدة، وأسيرة الماضي وتجلياته، كما نجدها في فرنسا والدول المقتدية بعلمانياتها كتركيا مثلاً. تهتز من حجاب فتاة في المدرسة أو موظفة حكومية. فرنسا الدولة الوحيدة في الاتحاد الأوروبي تنمرس خلف الواجهة العلمانية القديمة، لتحارب النزعة الفطرية للثنين عند الإنسان. فتحولت العلمانية الفرنسية إلى دين جديد، له اتباعه ومنظوره، وانتهجت طريق الأيديولوجيا. يتسم أعضاؤها بالتطرف أو اللا تسامح والكره والاستهزاء لكل ما هو ديني، ومعاداته بشكل سافر.

بدأنا نرصد تحولاً عند اسلاميين نحو مبادئ سائدة في النظم العلمانية، على أساس إعادة قراءة جديدة للنصوص الدينية والتوسع في فهمها. اقتنع الإسلاميون بأن تلك المبادئ هي إنسانية وحيادية وعالمية، وقابلة للتأقلم مع أي مجتمع كالتعددية بأنواعها، والبرلمانية، والدستورية، واعتبار الديمقراطية ووسائلها آلية يدار بها الحكم والسلطة، والقضاء المستقل، واللجوء إلى الاعتراف بالآخر، والايمان بالحوار كوسيلة لفض الإشكاليات مع الآخر المختلف، وتحريم العنف، والمجتمع المدني، ودولة القانون والمؤسسات... الخ.

والعلمانية المؤمنة أخيراً، هي إطار تنظيمي يدير السلطة السياسية، ويحفظ شرعية الدولة، باعتبارها لكل المواطنين، وتفعل حقوق الإنسان وحرياته، كحرية الاعتقاد، ومنها الإيمان الديني، كما تحفظ حقوق الاقليات من هيمنة الأكثرية، وتبعد التسلط الطائفي أو القومي أو المناطقي أو العشائري. إنها وسيلة لتأكيد التعايش المشترك بين كل مكونات المجتمع العراقي، بدون طغيان طرف على آخر، أساسها المواطنة.

### التسامح الديني مطلب إنساني

عقيل عيدان / الكويت

[ayemh@yahoo.com](mailto:ayemh@yahoo.com)



إن ما يجب تسليط الضوء عليه أن أهمية التسامح الديني تتمثل في كونه ذا بُعد وجودي، أي أنه ضروري ضرورة الوجود نفسه. ولتوضيح ذلك يمكن الالمام إلى أن سُنّة الوجود قد اقتضت أن يكون وجود الناس

على الأرض في شكل تجمعات بشرية، وهي وإن اتفقت في ما يجمع بينها من وحدة الأصل والحاجة إلى التجمع والحرص على البقاء والرغبة في التمكن من مقومات الحياة والسعي في إقامة التمدن والعمران والثوق إلى الارتقاء والتقدم فإنها قد تباينت في ما تتفرد به كل مجموعة من خصوصية عرقية ودينية وبيئية وثقافية. وقد صرح القرآن بهذه الحقيقة الوجودية فقال: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا}.

لقد أكدت الآية ما كان قد توصل إليه الحكماء والفلاسفة من قبل وأثبتته الواقع التاريخي المشاهد من أن الإنسان مدني بطبعه، بمعنى أنه لا تتحقق حياته ولا يبني كيانه ولا تكتمل ذاته ولا يكتسب ما تصبوا إليه قدراته إلا داخل وسط اجتماعي متشابك فيه الخير والشر، وفيه التحائب والتباغض، وفيه التجانس والتنافر، وفيه الأنا والأنا الآخر.

فالإنسان ابن بيئته، فهي التي تنشئه وتكونه وتلونه، وهي التي توفر له ما تملك مما يفي بحاجاته الأساسية، كما أنها هي التي تكفيه مع ما تقدس من شعائر وتطبعه بما تقدر من عادات، وهي التي تاقلمه بشكل يجعل ما هو من متعلقات ذاتيته يتناسق مع روحها العامة وينسجم مع ما لديها من غاية مشتركة. من ذلك، نتبين أن التنوع بين الناس أفراداً وجماعات ما كان انحرافاً ولا شذوذاً ولا مروقاً، بل كان من طبيعتهم البشرية ومن أصل خلقتهم الأدمية، فهو ظاهرة ضرورية اقتضتها الفطرة الإنسانية واستلزمها النشأة الاجتماعية.

إنه تنوع في الطبائع والأمزجة والمواهب والميول والمؤهلات والطموحات. وإنه تنوع في أنماط الممارسات الاعتقادية وتباين في التمثلات الطقوسية وتغاير في التجليات السلوكية وتمايز في المنطلقات الفكرية. وإنه تنوع إيجابي فيه ثراء وخصوبة وتلاقح، يحفز على الاضطلاع بالمسؤوليات الثقالة، ويدفع إلى جعل الوفاء بالحاجات النفسية والعقلية والوجدانية والاجتماعية والحضارية واقعاً مرئياً وخياراً متاحاً أمام القدرات والكفاءات.

وقد ألمح القرآن إلى ضرورة هذا الاختلاف النمطي، وإلى حتمية وجوده حتى يتمكن كل فرد وكل مجتمع من العيش حسب ما لديه من إرادة وحرية واختيار وبالطريقة التي يهواها ويرتضيها {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين}.

وهكذا نلاحظ، أن الغاية من اختلاف الناس إلى شعوب وقبائل وتنوعهم إلى ثقافات ومدنيات إنما هو التعارف لا التناكر، والتعايش لا الاقتتال، والتعاون لا التناطح، والتكامل لا التعارض، وبات واضحاً أن أهمية التسامح الديني تتمثل في كونه ضرورياً لضرورة الوجود نفسه.

مما تقدم، نتبين أن قيمة التسامح الديني تتمثل في كونه يُقر الاختلاف ويقبل التنوع ويعترف بالتغاير ويحترم ما يميز الأفراد من معطيات نفسية ووجدانية وعقلية ومخيال، ويقدر ما يختص به كل شعب من مكونات ثقافية امتزج فيها قديم ماضيه بجديد حاضره وروية مستقبله، هي سبب وجوده وسر بقاءه وعنوان هويته ومبعث اعتزازه.

من الواضح أن قيمة التسامح الديني تتمثل في كونه يقتضي التسليم المطلق - إعتقاداً وسلوكاً وممارسة - بأنه إذا كان لهؤلاء وجود فلاولئك وجود، وإذا كان لهؤلاء دين له حرمة فلاولئك دين له الحرمة نفسها، وإذا كان لهؤلاء خصوصية ثقافية لا ترضى الانتهاك فلاولئك خصوصية ثقافية لا تقبل المسّ أبداً. من الجلي أن التسامح الديني يُعد أرضية أساسية لبناء المجتمع المدني وإرساء قواعده، فالتعددية والديموقراطية وحرية المعتقد وقبول الاختلاف في الرأي والفكر وثقافة الإنسان وتقدير المواثيق الوطنية واحترام سيادة القانون، خيارات استراتيجية وقيم إنسانية ناجزة لا تقبل التراجع ولا التفريط ولا المساومة، فالتسامح - إذن - عامل فاعل في بناء المجتمع المدني، ومشجع على تفعيل قواعده.

وهكذا، نستخلص أن التسامح يستوجب الاحترام المتبادل، ويستلزم التقدير المشترك، ويدعو إلى أن تتعارف الشعوب وتتقارب، ويفرض التعامل في نطاق الدائرة الموضوعية من دون المساس بدائرة الخصوصية من غير إثارة لحساسيتها، وانتهاك لحرمة ذاتيتها، وهي دائرة تبادل المعارف والمنافع والمصالح الشراكة الفاعلة التي يعود مردودها بالخير على الجميع.

موقف الأديان من التسامح الديني

من البديهي أن الأديان بحكم إنتمائها إلى السماء، فإنها لا تأمر إلا بالخير والحق والصلاح ولا تدعو إلا بالبر والحب والرحمة والاحسان، ولا توصي إلا بالأمن والسلم والسلام، وما كانت يوماً في حد ذاتها عائقاً أمام التبادل والتلاقح والثقاف ولا أمام التعايش والتعارف والحوار، وإنما العائق يكمن في الذين يتوهمون أنهم



يتملكون الحقيقة المطلقة ويستغلون الأديان في أقدار الناس ومصائرهم، تلك المهمة التي أبى الله تعالى أن يمنحها لأنبيائه الأخيار.

إن الإسلام من جهته يعترف بوجود الغير المخالف فرداً كان أو جماعة ويعترف بشرعية ما لهذا الغير من وجهة نظر ذاتية في الاعتقاد والتصور والممارسة تخالف ما يرتأيه شكلاً ومضموناً. يكفي أن نعلم أن القرآن الكريم قد سمى الشُّرك ديناً على الرغم من وضوح بطلانه، لا شيء إلا لأنه في وجدان معتنقيه دين. ومن هنا، فإن جريمة المشركين لم تكن في إعراضهم عن الإسلام، وإنما في كونهم رفضوا أن يعيش دين جديد بجوار دينهم، فقرروا محققه واستنصاه من الوجود.

هذا وقد أوصل بعضهم الآيات الواردة في شأن احترام الأديان الأخرى واحترام خصوصيتها واتباعها إلى أكثر من مائة آية موزعة في ست وثلاثين سورة.

ولم يكتف القرآن بتشريع حرية التدين، بل نجده قد وضع جملة من الآداب، يمكن عداها بيداغوجية للتسامح الديني، فقد دعا المسلمين إلى أن يكونوا لغيرهم موضع حفاوة ومودة وبر وإحسان. قال تعالى: { لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبرّهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين }.

وإتساقاً مع تلك الدعوة إلى حسن التعامل، نرى القرآن يحذر أتباعه وينهاهم عن سبّ المشركين وشتيم عقائدهم، { ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم }. يشير مضمون الآية إلى كونها تلقين مستمر المدى حيث أوجب الله تعالى في كل زمان ومكان الالتزام بهذا الأدب وعدم شتم غيرهم وعقائدهم.

والواقع أن المرء إذا نظر إلى تلك المبادئ المتعلقة بموضوع حرية التدين التي أقرها القرآن بموضوعية، لا يسعه إلا الاعتراف بأنها فعلاً مبادئ التسامح الديني في أعرق معانيه وأروع صوره وأبعد قيمه. والصحيح أن الإسلام لم يكن وحده في اشتماله على مبادئ التسامح، فالمسيحية التي تقول أنجيلها.. • لقد قيل لكم من قبل أن السن بالسن والأنف بالأنف، وأنا أقول لكم: لا تقاوموا الشرّ بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداك فأعطه ازارك ومن سخرك لتسير معه ميلاً فسر معه ميلين.

• من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان.

• عاشروا الناس معاشرة إن عشتم حنوا إليكم وإن مثم بكوا عليكم.

هي بدورها تتضمن مبادئ التسامح في أجلى صوره، بل إنه تسامح يبدوا أحياناً فوق الطاقة.

الصحيح كذلك أن اليهودية تدعو إلى التسامح فإذا نظرنا إلى مثل هذه الوصايا..

• كل ما تكره أن يفعله غيرك بك فإياك أن تفعله أنت بغيرك.

• اغتسلوا وتطهروا وأزِيلُوا شراً أفكاركم (...). وكفوا عن الإساءة. تعلّموا الاحسان والتمسوا الانصاف.

وهكذا بات واضحاً أن التسامح الديني مطلب إنساني نبيل دعت إليه الأديان كافة دون استثناء، وكيف لا تدعو إليه وقد أرادته الحكمة الإلهية واقتضته الفطرة الإنسانية واستوجبتة النشأة الاجتماعية وفرضته

المجتمعات المدنية وتحتّمه ثقافة العولمة وما تحتاج إليه من قيم حضارية ومدنية نبيلة. والمهم أيضاً، أن

الإشكال ليس في الأديان ذاتها وإنما هو كامن في عقم إفهام بعض القائمين عليها ولا زالت المفارقات بين

المبادئ والممارسات الواقعة هنا وهناك لا تُحصى. أليس هناك إجماع على أن الإسلام صالح لكل زمان

ومكان ومع ذلك فإننا نجد من التفسير ما لم تحرص على شيء حرصها على إظهار الإسلام في شكل لا يقدر

على تطبيقه إلا من ألف العيش في مغاور جبال أفغانستان ؟

ألم يكن هناك إجماع على أن الإسلام دين ينبذ الغلظة والفضاضة والجفاء ويحض على اللين والرفق

والسماحة والتيسير ويامر بالتحابب والتوادد والتراحم والتآلف ويعترف بوجود الآخر ويُقر حقه في التدين

ويقدّر اختياره ويدعو إلى احترام ما ارتضاه من خصوصية وإلى التعامل معه بلطف وإحسان وينهى عن

سبه والتحرش بدينه، ولكن هل لدى الخطاب الديني المتشجج من براعة سوى إمطار المخالفين من داخل

دينه وخارجه بالقذائف الجارحة التي لا تحصى ولا تُعد ؟ إن التسامح الديني يتطلب الاحترام المتبادل

ويقتضي التخلي عن الأساليب الدوغمانية والإقصائية.

إن الأقوال من قبيل.. الحروب المقدسة والحروب الصليبية، نحن وحدنا على طريق الحق والخير، وغيرها

شرير وفساد، كافر، ملحد، مهرطق، لائكي، علماني.. وغيرها، لغة لا يستسيغها التعامل المدني الراهن

(اليوم)، ومع ذلك قد استعملت حتى من قبل من كنّا نعدّهم حضاريين. وعلى كلّ فإنها تنتمي إلى صراع حالك

من التاريخ. وإذا كانت الغاية من دراسة التاريخ البحث عما وقع فيه من إيجابيات، أليس حرياً بنا أن نتأسي بما حصل فيه من تجارب مُشرقة ؟

لقد أفادنا التاريخ بأن المسلمين قد انفتحوا – أيام عطاءهم الحضاري وازدهارهم الثقافي – على معارف وعلوم وثقافات، وحرصوا على أن يفهموها ويستوعبوها ويستفيدوا منها، حتى أن التاريخ يؤكد أنهم ما استطاعوا أن يُقيموا حضارتهم التي أقاموها إلا بعد اطلاعهم واستفادتهم مما وجدوا لدى غيرهم. وقد شرع ذلك الانفتاح الكوني الذي سلكوه الأبواب على مصاريعها أمام التعرف والتقارب والتبادل، وعزز الأدوار الايجابية الفاعلة التي كانت تؤذيها تلك المناظرات التي كانت تستقطب – عبر بيوت الحكمة التي تنافس أولو الأمر في تأسيسها – العلماء من مختلف الأديان، وقد أقبل المسلمون عليها بتلقائية وقصد، وقبلوا فيها شرط الالتزام بعدم الاستدلال على مقولاتهم لا بالكتاب ولا بالسنة نزولاً عند رغبة مناظريهم من اليهود والنصارى وحتى من البوذيين والمجوس وغيرهم تمسكاً بالعقلانية وتحقيقاً للموضوعية وتطبيقاً للمنهجية العلمية التي ترفض الخطب التقريرية والمقولات المعلبة الجاهزة.

وعلى كل، فإن المفارقات ليست مبرراً إطلاقاً سواء كانت صادرة من الشرق أو من الغرب، ومهما بلغت تداعياتها من فداحة لم تكن مدعاة لليأس والاحباط بقدر ما هي حافز قوي يدعو قوى الخير في العالم إلى تفعيل قواعد المجتمع المدني حتى يكون لها موقع من العولمة ثابتاً ومكيناً. ثم إن العولمة لا تكون إرهاباً لمستقبل أكثر اطمئناناً وأشد تضامناً إلا ببلورة القيم الكونية وتفعيلها واتخاذها المنطلق المرجع. ولا يتيسر هذا إلا بتضامن مبادئ الأديان النبيلة، وتعاون جهود الثقافات الواعية القادرة على خلق فكر حضاري يتوارى – أمامه مذموماً، مدحوراً – كل خطاب يُشوّه المقدس، ويغتال العقل ويُصادر الحرية ويجذب إلى الخلف ويتنكر للحدث ويحاول عبثاً أن يلفت التاريخ إلى الوراء. إن الحرص على خلق عالم جديد خال من حقد العنصرية العرقية، وبغضاء التطاحن الديني هدف كوني نبيل يتطلب مبادرات جادة وفاعلة. يبقى أن القيم الكونية تحتاج إلى تضامن نضال دؤوب، وبرغم ما يُعيقه من صراع كرية تطفح تداعياته البشعة على سطح الساحة العالمية، فإنه ليس بعزيز ولا مستحيل على المؤسسات التربوية والثقافية والعلمية والجمعيات الحكومية وغير الحكومية في العالم إذا تأسست أهدافها واتفقت منطلقاتها وتكاتفت جهودها.

### في ظلال مدينة الإمام المهدي

ماجد أحمد السامرائي / انكلترا

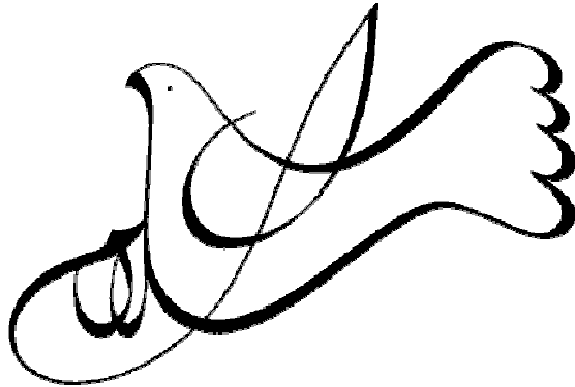


كنت وما زلت من أشد المتمسكين بالدعوة للانتماء للوطن وليس للطائفة أو العشيرة أو العرق سواء في مشاريع العمل السياسي أم وضع الحلول لأزماته. ولكن الظرف الاستثنائي الحالي وانغراق بلادنا بعاصفة النار والفوضى ومسلسل التفخيخ الذي يستهدف المدنيين الأبرياء بتدبير قوى الإرهاب ومن بينها تنظيمات القاعدة، وما تنفذه العصابات المتعددة المصادر من هذه الجهة أو تلك، واختلاطها المتعمد بمقاومة المحتل، يجعلني من

بين الذين لا يجدون حرجاً بالتعبير عن الانتماء لمدينتهم والولاء لها عندما تتعرض لعدوان مسلح غير عادل مثلما تواجهه حالياً مدينة سامراء.. هذه المدينة التي تحتضن بقديسية وكبرياء واعتزاز ثري الامامين علي الهادي والحسن العسكري رضي الله عنهما، وتتطلل بغيبة الإمام المهدي المنتظر وهي الوراثة لمكانة الحضارة والمدنية كعاصمة عريقة للدولة العباسية. ولقد ظلت عبر الأزمان كما غيرها من مدن العراق كالنجف وكربلاء والبصرة والموصل عصية علي الطامعين ومستهدفي الهوية. لم تمض سوى شهور قليلة على سقوط نظام صدام، وانتهاء أقسى فصول استبداد وظلم الدكتاتور بحق أهلها ورجالها الذين رفضوا الخضوع لسياساته وتمردوا عليها بمختلف الوسائل وأكثرها جرأة التآمر المنظم على نظامه من أجل إقامة الديمقراطية في العراق. بعد أن افتتح مسلسل العقوبات بإعدام الشيخ عبد العزيز البدري. والغدر بأقرب الناس إليه عضو القيادة عبد الخالق السامرائي الذي كان له الفضل بإدخاله للحزب. ولقد عبر أهل المدينة عن عدم ولائهم لصدام ولسلطته عندما اختاروا مقاطعة زيارته لمدينتهم، وكان جزاءهم العقاب الجماعي بسجن الوجهاء والنافذين السياسيين وإعدام كواكب من نخبهم العسكرية والمدنية ومن بينهم العضو القيادي المعارض علي عليان حيث اتهموا بمؤامرة قلب نظام حكم صدام عام 1996، وبإهمال الخدمات المدنية الانسانية في بلدتهم، وتحويلها إلي مدينة أطلال.. كان أهل سامراء يتوقعون أن يعاد الاعتبار لهم وان ينصفوا علي صمودهم، لا أن يتعرضوا لأبشع فصول مجزرة دموية في ظل تشجيع واستشارة بعض من الأهل والأقارب تلبية لأغراض ذاتية كان الأفضل بهم الحصول على منافعها من ميادين تجارية أخرى كثيرة وليس بمقايضتها بدم أبناء الجدة. لقد تمادت قوات الاحتلال والمتحالفين معها في قصف دور سكن المواطنين الأبرياء بالطائرات دون رادع إنساني، ووصل الأمر إلى منع الأطباء من تقديم الاسعافات الأولية للجرحي وتركهم يموتون نزفاً، تحت مبررات واهية لا تصمد أمام الواقع كتفويض شعار (التطهير المناطقي) خدمة لسيناريو أكثر تطرفاً مما دعا إليه وزير الدفاع الأمريكي رامسفيلد الذي طالب بانتخابات تستثني المناطق الملتهبة، سيناريو يدعو إلى انتخابات شاملة بعد تطويع تلك المدن بالنار. والاستمرار بمسلسل القتل حتى يوم الانتخابات إن كان هناك لها موعد، وهذا الحقد ليس له تفسير سوى الانتقام ممن ما زال محتفظاً بهويته العروبية و متمسكاً بقيم الكرامة والعزة والولاء للوطن التي تتعاضد داخل النفوس في فترات الغليان ضد ممارسات القتل والعنف الجماعي، لأن من يريد البحث عن مقاتلين لديه طريق واضح وهو التعقيب الأمني عبر قوات الشرطة والحرس الوطني، وليس بدخول الدبابات الأجنبية على أشلاء المدنيين. وكأن رسالة رواد القتل تدعو إلى ترك ردود الفعل تتعاضد في النفوس حتى تُجرّ البلاد إلى حرب طائفية لا سمح الله. تحت أهداف تأمين شراكة السلطة عبر انتخابات مدبرة تلغي مكوناً واسعاً من مكونات العراق الاجتماعية، هو المكون العروبي، وتهميش القوى السياسية الممثلة لذلك. أوقفوا نزيف الدم عن أهل مدينة سامراء والنجف وبعقوبة والموصل.. فمن يريد أن يكسب السلطة عبر حمامات الدم، فهو خاسر، حتى وإن استقوى بقوة الأجنبي التي لا تدوم. وأمامكم مثال صدام ما زال حياً، حيث لم يصمد في النهاية أمام إرادة العراقيين.

### من المسؤول عن الخطاب الطائفي في العراق ؟

قاسم محمد جبار



مع تزايد الكم الهائل من منافذ الاعلام يوما بعد اخر تتزايد سخونة التصريحات المنفلتة التي تستبطن احيانا وتظهر احيانا اخرى نزعة محورها العزف على وتر الطائفية على الرغم من حرص الساسة او الكتل السياسية التي يمثلونها على عدم اظهار هذه النزعة لكي لا يتهمون بالطائفية الا ان الثقافة الطائفية يبدو ان هناك من يغذيها وصولا الى حرب طائفية بل هناك رأي يقول ان الحرب الطائفية قائمة في العراق وان كانت غير معلنة.

فمن هو المسؤول عن تصعيد وتيرة الخطاب الطائفي وماهي العوامل الكامنة التي تحرك هذا الشبح الذي يطل بين الحين والآخر بقرنيه على العراق.

من المناسب ان نفهم ابتداءً الفرق بين حقوق الطائفة وبين الطائفية وبمعنى ادق الفرق بين الانتماء المذهبي من جهة والسلوك الطائفي من جهة اخرى فالحقوق الطائفية هي التي تحدد حقوق هذه الطائفة او تلك وتتبنى الدفاع عنها بشرط ان لا تتضمن تجاوزا على حقوق الطوائف الاخرى أو تأخذ اكثر من حقها والا انقلبت الى الطائفية ذات الدلالات والمضامين السلبية، وعلى هذا الاساس فمن حق اصحاب الهويات الاخص (ضمن الوطن الاشمل) ان تتبنى الدفاع عن حقوق الطائفة بغض النظر عن حجم تلك الجماعة أو الطائفة ووزنها ضمن المجموع الكلي للوطن، وهذه مسألة والاخرى ان القراءة الواقعية للمشهد العراقي بل وأي بلد اخر لا يمكن غض النظر عن وجود هذا الواقع وأي تفكير آخر يحاول ان يعاكس هذه الواقع فهو ضرب من الخيال ولون من المثالية غير موجودة في أي مجتمع وهناك فرق بين الادعاء بانكار المشكلة وعدم وجودها في حقبة ما تحت ضغط نظام يمارس الطائفية بدون استخدام مسمياتها وبين وجودها الذي انتقل من القوة الى الفعل بعد زوال اسباب كبجه اضافة الى بروز عوامل تغذيه، ولا بد قبل الخوض في الاسباب والعوامل والجهات التي تقف خلف تصعيد الخطاب الطائفي في العراق، من التعرف على العوامل المساعدة التي خلقت الجو العام المساعد على بروز ظاهرة الخطاب الطائفي الاعلامي ويمكن اجمال هذه العوامل بالمد الاعلامي الهائل والانفتاح عالميا على مختلف القنوات الاعلامية العربية والعالمية نتيجة لرفع الحواجز التي كانت تحول دون الاندماج والاطلاع على مختلف التوجهات الاعلامية في العالم عبر الفضائيات وشبكة الانترنت ومحليا من خلال التوسع الهائل في المشهد الاعلامي العراقي حيث شهد العراق بعد سقوط النظام موجة هائلة من الاصدارات على مستوى الصحف التي فاق عددها الثلاثمائة مطبوع وعشرات المجلات العامة والمتخصصة وقرابة العشرين فضائية (والعدد مرشح للتزايد) وكذلك التلفزيونات المحلية ومحطات البث الاذاعي، وينبغي هنا التوقف عند حقيقة تتعلق بالاعلام العراقي وهو انه غير مملوك للدولة وتقف وراءه في الاعم الاغلب جهات ومؤسسات تمثل بشكل عام توجهات سياسية محددة وهذا مايدعو الى التأمل في هذه النقطة بالذات فيما يتعلق بموضوع الخطاب الطائفي في العراق اذ انها خاضعة لسياسة الجهة المالكة وتتأثر بما تمليه عليها ارادة المشرفين عليها , وسنقتصر في الحديث عن الاسباب التي تقف وراء تصاعد وتغذية الخطاب الطائفي على المحاور التالية:

### **التوصيفات الاعلامية لوسائل الاعلام:**

الاعلام الغربي يختلف في تصوراتاه واهدافه عن الاعلام العربي المحلي وكذلك يتباين في الاساليب، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان المؤسسات الكبرى الصانعة للاعلام هي المصدر الاول تقريبا للاعلام المحلي الذي يتسم بشكل واضح بالنزعة الاستهلاكية وهو في اكثر الاحيان ليس اكثر من صدى لما تردده وسائل الاعلام الغربية وتغطيها للاحداث المحلية فليس مستغربا ان نسمع بحدث محلي او شان سياسي عراقي يكون مصدره الاول احدى وكالات الانباء الكبرى العاملة في العراق، وليس ذلك مانريد ان نناقشه بقدر مانريد فض الالتباس الحاصل بين اسلوبين في الاداء ومنهجين في التعامل مع القضية العراقية وبالذات التوصيفات الاعلامية التي حين تستخدم في تلك الوسائل (اذا افترضنا نزاهتها) فان الغاية منها هو التعريف من خلال التوصيف سواء كان تعريفا من خلال الطائفة او القومية وهي موجهة لقاريء لايعلم الكثير عن البلد الذي وقع فيه الحدث، ومايرد من توصيفات في وسائل الاعلام تلك هي مجرد شروح، ولكن الكارثة تحل حين ينتقل الخبر او التغطية من المصدر الى الاعلام العربي ثم المحلي من دون التخلص من تلك التوصيفات الطائفية، وهنا لايمكن باي حال تنزيه بعض وسائل الاعلام العربية والمحلية عن الغايات من ايراد هذه التوصيفات ان لم تكن هدفا وغاية وسياسة لذلك الاعلام، بل ان المشكلة ان يتحول هذا التوصيف الىاسس عمل وسياقات عمل معتمدة لدى الاعلام المحلي، وقد سرى هذا التقليد الى وسائل اعلام عراقية محترمة ولها وزنها وحضورها ومع القول بعدم القصد فان النقل والأخذ من المصادر الاخرى وبدون تدقيق هو السبب وراء ظهور هذه الحالة

في الاعلام العراقي حيث تؤخذ التقارير والاعبار جاهزة من شبكة الانترنت او من المصادر الاخرى بدون رقابة تخلصها مما علق بها من توصيفات طائفية.

### **الفضائيات والكتاب والتحليلات:**

غذت بعض الفضائيات النفس الطائفي بشتى الوسائل التي وقعت يديها من اساليب تنتظر الى الحدث من زاوية خاصة أو توصيفات سبق الحديث عنها أو برامج مخصصة للنفخ في نار الطائفية واستضافة الكثير ممن تطلق عليهم عناوين (كاتب أو محلل سياسي) ليثبت سمومه في الجسد العراقي من خلال هذه المنابر الجاهزة، كما ان الفتاوى التي انتقلت من السر الى العلن ولم تكن تلقى رواجاً الا لدى القلة من المتشددین والتي تطورت الى سلاح يشهر بوجه الطوائف الاخرى المختلفة معها ليستبيح الدم حتى ضمن اطار الدين الواحد، وعلى خلفيات تاريخية واجتهادات فقهية لاترقى الى مستوى من النضج المعترف به.

### **دور السياسة في تغذية الخطاب الطائفي**

لا يخفي ما للسياسة من دور بارز في تغذية الخطاب الطائفي لاسباب يعود البعض منها الى التحشيد الجماهيري أو الشعبي لمصلحة حزب معين لم يجد غير التحصن بالطائفة سبيلاً للوصول الى كسب ودهم والاستحواذ على اصواتهم، اضافة الى المنحى الطائفي عند التأسيس بل ان مشروعه السياسي قائم على اسس طائفية لايمكن اخفائها، سيما وان المبرر الجاهز هو التخلص من الاضطهاد المضاد من قبل الاخرين وهذا ما حملته الكثير من العناوين والواجهات السياسية.

وهذا هو الشق الاول من الموضوع والشق الاخر منه يمكن استقصاؤه على مستويين، الاول اقليمي حيث تقف دول باكملها او تتخذ من حجة الدفاع عن فئة او طائفة لها امتدادات اثنية او عرقية او طائفية سبيلاً لحقن المزيد من الاحتقان الطائفي لتحقيق مكاسب خاصة، والمستوى الاخر متعلق بالمشروع الغربي في المنطقة والاستفادة القصوى من وجود التعددية الطائفية من خلال استثمار هذا التعدد بما يصب في النتيجة النهائية لصالح مشروعاتهم الخاص.

اما الاسباب الاخرى فان هناك العديد والكثير مما يمكن الحديث عنه وحسبنا ان المقال ينبه الى بعضها ويثير التساؤل حول المسؤولية المشتركة للتخلص من الخطاب الطائفي في العراق.

### **الحوار بين المذاهب والاديان مطلب اسلامي..**

آية الله السيد محمد حسين فضل الله/ بيروت



لم يعد بالإمكان – في هذا العصر – تقوقع الذات عن الآخر، إذ أصبح تشابك العلاقات الإنسانية، وما تواجهه من تحديات تجاه قضايا مشتركة، يفرض على الذات ان تدخل في الحوار، من أجل المصلحة العامة التي تجمع بين البشر، بطريقة وبأخرى.

وفي هذا المجال، نجد أن الواقع المعاصر الذي بدأ ينفذ يديه من الدين، أي دين، بفعل حركة الحضارة المادية التي تنير في الذهنية العامة للإنسان الكثير من المفاهيم المادية البعيدة عن الله والايمان، هذا الواقع يؤكد ان مسألة الحوار بين الأديان ترقى الى مستوى الضرورة التي ينبغي ان تقابل بالجدية اللازمة. نحاول ان نطرح عدة نقاط أساسية، نعتبرها منهجية في جدية أي حوار، خصوصاً اذا كان في مستوى حوار أديان ينبغي لها أن تحكم حركة الإنسان من مبدئه الى آخرته.



1- لا إيمان دون حوار: في النظرة الإسلامية، لا إيمان من دون حوار، لأن الإيمان يبدأ من حديث الإنسان مع ذاته، في حركة التفكير الداخلي، حيث يدور الجدل بين احتمال واحتمال، وفكرة وفكرة، بين النفي تارة والإثبات أخرى، حتى يتكامل صنع الإنسان لعقيده، التي تتحدد على ضوء قناعاته بما يرى أنه يمثل الحقيقة.

وإذا كان الحوار الذاتي السابق يدور في عالم العقيدة، فإن ثمة حواراً داخلياً آخر، يتمحور حول تركيز التزام الإنسان الديني واستقامته عليه، وذلك عندما يدور التجاذب بين منطق العقل ومنطق العاطفة، وبين نقاط الضعف ونقاط القوة، أمام كل المثيرات والمغريات التي تدفع الإنسان إلى ما يضاد قناعاته، على مستوى العمل.

وبكلمة موجزة: إن الإيمان ينطلق من حركة حوار تديره الذات مع نفسها، هدفه هو الوصول إلى وحدة الإنسان في قناعاته العقيدية والتزاماته الفكرية والعملية، فلا يبقى يتحرك في ازدواجية تجعله يتحرك بين الشيء ونقيضه، في عملية اهتزاز فكري وحسي وعاطفي، ما يسلبه الطمأنينة والأمن والاستقرار الذي يحتضن الإيمان.

2- الإيمان حركة في العقل: إن المنطق المتقدم يجعلنا نصل إلى حقيقة دينية أصيلة، وهي أن الإيمان حركة في العقل، وليس فوقه، حتى الماورائيات الغيبية، لا بد من رصد وجودها وإثباتها بالعقل أولاً، وإن كان العقل لا يتمتع بالقدرة على معالجة ما فيها من مفردات، لأنه لا يملك وسائل اكتشافها ذاتياً. تماماً كما هي الفلسفة، قد لا تستطيع من خلالها معرفة كنه الجوهر، ولكنك تستطيع أن تشير إليه.

إن الإنسان مؤمن بما يعقل، ولو في بعده الإثباتي، لأن العقل هو الميزان بين الحقيقة والخيال والوهم، وقد ورد في أدبياتنا الإسلامية - على نحو المثل -: "لما خلق الله العقل، قال له: أقبل، فاقبل، ثم قال له أدبر، فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي، ما خلقت أعز عليّ منك. أما إني إياك أمر وإياك أنهى، وبك أثيب وبك أعاقب."

3- فهم الدين بشريّ: مع الإذعان بأن الأنبياء معصومون عن الخطأ في تبليغ رسالتهم، كما أن فهمهم للرسالة ينطلق على عين الله سبحانه وتعالى، إلا أن فهم الدين لا يمثل إلا وجهة نظر المجتهدين في تلمس حقائقه الموضوعية، ما يجعل من الطبيعي أن نجد الاختلافات الاجتهادية في فهم الدين، والتي تمخضت عن مذاهب لم يسلم منها أي دين، وقد قال تعالى في القرآن الكريم: (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم).

على ضوء ذلك، وما تقدم من مسألة خضوع الإيمان للعقل، فإن للدين - المنتج اجتهادياً - وجهة ثقافية يمكن لأي إنسان أن يتخصص فيها، ويدخل في حوار حولها. ولذلك، نجد أن الفكرة التي تقول بأن المسلمين أعرف بإسلامهم من غيرهم دائماً، وإن المسيحيين أعرف بمسيحياتهم من غيرهم دائماً، وأن اليهود أعرف بيهوديتهم من غيرهم دائماً، وهكذا سائر الأديان، هي فكرة غير علمية وغير دقيقة، لأن نقاش الفكرة الدينية، في بعدها الثقافي، كنقاش أي فكرة، يخضع للموازين العلمية في الاستدلال على صحتها أو خطئها، والتي تركز إلى منهجية إنسانية عامة، ومفردات ثقافية معرفية تمثل أدوات مقارنة الموضوع. ولعل ما أوجب ذلك النوع من احتكار أتباع كل دين لدينهم، هو الخلط بين البعد الثقافي للدين والبعد الطقوسي العبادي، مما ليس إلا مجال بحثه.

ما نود الإشارة إليه في هذه النقطة، هي فكرة الاحتكار المعرفي للدين، من شأنه أن يفوت على الحقيقة فرص التلاقح الفكري، عبر الحوار، الذي يفتح فرص الاطلاقة على أكثر من وجهة نظر في فهم الحقيقة، ما قد يشكل جزءاً في معرفتها، يمكن - في النهاية - أن تتكامل الأجزاء في تشكيلها بصورة واضحة المعالم، بدلا من استغراق كل فريق في جزء يحسب أنه تمام الصورة.

ولعلنا نلمح هنا عظمة المنهج الحوارية الذي ركزه القرآن الكريم للنبي محمد(ص)، وهو قوله تعالى: (وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين)، حيث لم يطرح المحاور صوابية فكره وخطأ الفكر الآخر، بل على أساس فكرة مطروحة يتساوى فيها احتمال الخطأ والصواب، ما يعزز من فرص إدارة الحوار بأكبر قدر من الموضوعية العلمية التي تنشد الحقيقة من موقف حيادي، دونما أي تعقيد أو تهويل.

ولذلك، نجد أن الحوار يمثل نوعاً من التفكير بصوت مسموع أو مقروء. هذا هو جوهر دعوة الأنبياء للناس، والتي تريد منهم أن يدخلوا في مناقشة جدية لما يطرحونه من أفكار، في الوقت الذي كانوا يواجهون الفكر بالسباب والسخرية والاضطهاد والأفكار المسبقة.

4- لا محرمات في الحوار: إذا خالصنا الى ان الايمان هو فعل حوار عقلائي، فمن الطبيعي ان لا يكون هناك محرمات او مقدسات في الحوار. وقد لمسنا هذا الامر في القرآن الكريم الذي ذكر كل المفردات التي اتهم بها النبي محمد (ص) في شخصه ورسالته، ثم عالجها بكل جدية وموضوعية: هل هو مجنون أم عاقل؟ ساحر أم نبي؟ كاذب أم صادق؟ قرآنه من صنع البشر أم إلهي؟ ولذلك، فإن على أي حوار – إذا كان ينشد الموضوعية والعقلانية – ان لا ينطلق من مسابقات قداسوية، فإن التقديس ذاته لا بد ان يدل عليه العقل، بالدليل والبرهان.

5- تكامل الأديان: في المفهوم الاسلامي، تمثل الرسالات السماوية حركة تكاملية تصاعدية في بناء الحضارة الانسانية، أساسها التوحيد: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره). ولذلك، كان كل دين مصداقاً للدين السابق، ومكملاً لما فرضت الظروف تعديله أو تغييره. وعلى هذا الأساس كانت نسبة الدين الى الله واحدة، وقد قال تعالى: (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا واليك المصير). وهذا ما يفترض – بالضرورة – وجود مقاصد مشتركة للأديان، لا بد للحوار من أن يخدم تلك المقاصد الرسالية الدينية العامة، والتي تقدم – بدورها – خدمة جليلة للحضارة الانسانية، في وقت بقي فيه الحوار بين الأديان على السطح، وفي إطار المجالات التي تمنع من التحرك بواقعية.

6- أسس الحضارة: نرى ان الحضارة في بعدها الانساني تقوم، في امتدادها الفكري والعملية، على أساس العناصر التالية :

أ- احترام الانسان للانسان. وفي هذا المجال، ركزت الأديان جميعاً على الكرامة الإنسانية، إذ كان الهدف من كل الرسالات السماوية هو هداية الانسان الى الطريق المستقيم الذي يرتفع بمستوى إنسانيته الى أن يكون أفضل من الملائكة في طهرها وصفائها. وقد قال الله سبحانه في القرآن الكريم: (ولقد كرمنا بني آدم).  
ب- تفاعل البشر في طاقاتهم ونتائجهم، والذي يمثل سيرورة طبيعية لوجود الانسان على الأرض. وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم).

لا بد ان تخاطب الحضارة، في كل اهدافها وحركتها ونتائجها، في الانسان كل ابعاده، اذ نعتقد ان الانسان يمثل ذلك التفاعل المميز بين المادي والروحي، فهو "قبضة من الطين ونفخة من روح الله". واذا كان الدين نزل لخدمة الانسان، ولم يوجد الانسان لخدمة الدين، فان الحضارة لا بد ان تسير في هذا الاتجاه. وان الحضارة التي تختصر الانسان في بعد واحد هي حضارة تبعد الانسان عن الحياة او تغرقه في اتون الغريزة الجموح.

الايمان بالعقل الذي هو الاساس لصناعة الفكر وابداعه، وانتاج العلم، والذي يتحرك بين مصدرين: التفكير والتجربة العملية. وفي هذا المجال نجد ان الدين لا يتنكر للعلم وابداعه، وقد اكد القرآن الكريم على ذلك في قوله تعالى: "(قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، انما يتذكر اولو الالباب) (سورة الزمر، الآية 9)، واعتبر ان حركة انتاج العلم والمعرفة هي حركة تصاعدية، وهو ما اكده الله سبحانه لنبيه محمد (ص) في قوله تعالى: (وقل رب زدني علماً) (الآية 114). وقد أوجبت الشريعة الاسلامية على الناس ان يتحركوا في خطوط العلم التي يتوقف عليها نظام المجتمع في جميع المستويات. ولو تحرك الناس في علم واحد، لما استطاعوا ان يصنعوا للحياة نظامها. ولذلك كانت حركة انتاج العلم – انسانيا – هي حركة تكاملية التي تتكامل فيها الشعوب والمجتمعات والحضارات.

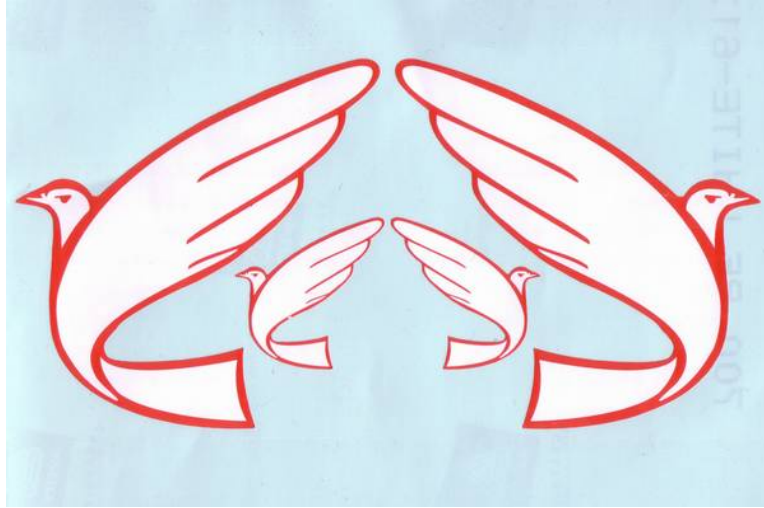
ان القرآن يؤكد على المسلمين ان يأخذوا بالمسالمة العامة مع كل الفئات المسالمة، من كل الناس الذين يختلفون معهم، وذلك بالأخذ بأسباب العدل، في معاملاتهم وعلاقاتهم العامة والخاصة، وبالإحسان اليهم في المعاشرة، وذلك هو قول الله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا اليهم، إن الله يحب المقسطين (سورة الممتحنة، الآية 8)، أما الذين يمارسون العدوان بالقتل والتشريد ومساعدة الاعداء، فلهم وضع آخر، باعتبار أن الامر عندئذ يتمحور حول الدفاع عن النفس، وذلك هو قول الله تعالى: (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ((سورة الممتحنة، الآية 9).

وفي ضوء ذلك، فإن هذا الموقف الدفاعي، مقارناً بكل الآيات التي أمرت بالانفتاح على الآخر، نجد أن مسألة الجهاد في الاسلام ليست مسألة عدوانية قائمة على اساس الاختلاف في الدين او الرأي، بل هي مسألة وقائية في حالة، ودفاعية في حالة أخرى، خلافاً لما يفهمه البعض، حيث يفسرون الجهاد بطريقة سلبية.

ولعل الدراسة الدقيقة لتاريخ الحرب في حركة المسلمين توحى بذلك.  
مع ملاحظة مهمة، وهي أن التاريخ الاسلامي لا يمثل العصمة المطلقة في كل مواقعه، كما هو شأن تاريخ  
سائر الاديان. وعلى أساس ذلك، فمن الممكن أن تقع الاخطاء او الانحرافات عن الخط المستقيم، مما قد  
يعترف به الباحثون المسلمون في دراستهم للحروب الاسلامية في الماضي.

### جوهر الإسلام جوهر المسيحية: مسلمٌ يقرأ الإنجيل

نهاد خياطة



[...] وقَفَيْنَا بَعِيسَى ابْن مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً [...].

القرآن الكريم، سورة الحديد 27

إن جوهر الإسلام هو جوهر المسيحية، وجوهر المسيحية هو جوهر الإسلام، من حيث إن كليهما ينهض  
على أساس تصحيح "الخطيئة الأصلية" المتمثلة في "ابتعاد" الإنسان عن الله - ذلك الابتعاد الذي نجم عن  
نشوء الوعي والإرادة الواعية - وتوهمه "أنه يملك ذاتاً غير ذات الله، وكياناً غير كيانه، وإرادة غير إرادته  
[...]"[1][16].

#### التوبة طريق العودة إلى الله

أما التصحيح فيكون بالعودة إلى الله (التوبة *metanoia*)، على الطريق الذي رَسَمَهُ اللهُ ("الذبيحة" أو  
"القربان" أو "الصَّلْب")، بحيث يعود كحال آدم قبل أن يخطئ. إن هذا ما يسمى أحياناً بـ"الولادة الجديدة"  
أو "الفداء" أو "الخلاص". وأما الطريق الذي رَسَمَهُ اللهُ من أجل الوصول إليه فهو، في الإسلام، التقيدُ  
بشريعة الله: الانتمار بأوامره والانتهاز عن نواهيه؛ وفي هذا: "إسلام" المرء نفسه لله، من حيث إن  
الشريعة تعبير عن إرادة الله. والطريق في المسيحية هو الاقتداء بالمسيح بالسير على طريق الآلام (مخالفة  
نوازع النفس والانتصار عليها من خلال ولادة جديدة أو فداء)، لأن هذا هو طريق الخلاص. وأما الفداء أو  
الخلاص (ونسيمه في الإسلام "النجاة") فهو "الولادة الجديدة" (الانتصار على نوازع النفس) في كلتا  
الديانتين. هذه الولادة الجديدة لا تتم إلا بعد أن يموت الإنسان-الحيوان في كلِّ إنسان، ويولد منه الإنسان-  
الإنسان، ثم الإنسان-الإله، كما يعبرُ نعيمه.[2][17]

وقد عبَّرتُ، إسلامياً، عن هذه الأسرار المسيحية الثلاثة (وهي "التوبة" و"الذبيحة" و"الفداء") بالقول:  
"الخلاص أو النجاة أن يذبح المرء نفسه من خلال قهره كلَّ شهوة في غير طاعة الله، وبهذا "يصلب"

نفسه، ثم يولد ولادة جديدة (فداء أو خلاص)؛ بعبارة أخرى، يتخلّى عن إرادة نفسه ويضعها في إرادة الله (يُسلم نفسه لله). "قال تعالى: "ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه [ذاته] لله وهو محسن [يتجاوز الأوامر والنواهي، باعتبارها حداً أدنى للارتقاء نوعياً، من خلال عبادة الله تعالى عبادةً خالية من غرض: طمعاً في جنة أو خوفاً من نار!]" (النساء 125).

بهذا الصدد يقول نعيمه: "[...] لبّ رسالته [رسالة يسوع] هو التضحية بالذات الإنسانية الموهومة بغية الوصول إلى الذات الكونية التي لا وجود معها لأيّ ذات أخرى." [3][3]18 وفي التجربة الصوفية ما يُشعرنا بهذا التحوّل. يقول أبو القاسم الجنيد في تعريفه للتصوف: "هو أن يُميتك الحقّ عنك [عن نفسك] ويحييك به." [4][4]19

من هنا نحن أمام موت وحياة في علاقة جدلية يرتقي من خلالها الإنسان إلى مستوى أعلى من شرطه البشري الراهن المحكوم بالغرانز؛ وهذا التعريف للتصوف، من حيث هو خبرة جَوّانية، يقترب منه تعريفي للحبّ في غير مكان بأنه "موت المحبّ في نفسه [أو عن نفسه] وانبعثه في محبوبة".

هذا الموت، والانبعث منه خلقاً آخر، خلقاً جديداً، كان في صلب تجربة سيدنا إبراهيم الخليل (ع) عندما همّ بذبح ابنه إسماعيل - أو فنقل، عندما همّ بذبح نفسه، من حيث إن الابن ما هو إلا امتداد لأبيه! - استجابة لأمر الله، أي إسلاماً لإرادته تعالى. وهو أيضاً ما عاناه يوسف الصديق (ع) عندما صدّ عنه امرأة العزيز التي راودته عن نفسه، بعد إذ "همّت به وهمّ بها"، قائلاً: "معاذ الله! إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون" (يوسف 23). استعان بالله على نفسه فنصره الله، مصدّقاً بذلك وعد الله للمؤمنين: "إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم" (محمد 7). وهو نفس ما فعله السيد المسيح (ع) عندما امتحنه الشيطان وعرض عليه أن يتوجّه ملكاً على العالم لقاء أن يسجد له، فكان أن انتهره بقوله: "أذهب، يا شيطان!" (متى 4: 1-11).

وهذا عندي أهم من الصلب الخارجي، من حيث هو صلب لنوازع النفس التي قلما تثبت على حال وتستسلم لإغراء الملك والسيطرة والجاه؛ فهو "صلبٌ داخلي"، على حين أن الموت الخارجي يجد له كثيرين يتحدّونه!

وهو نفس ما فعله سيدنا محمد (ص) عندما رفض أيضاً - وهو نفس موقف السيد المسيح (ع) - ما عرضته عليه قريش من تتويجه ملكاً عليهم، أو تزويجه من أجمل نساء القوم، أو تطييبه إن كان به مسٌّ، مجيباً عمّه أبا طالب: "والله يا عمّ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه!" هكذا أيضاً كان موقف الحلاج (ق) عندما وقف أمام خشبة الإعدام، معلّناً إسلامه لله بقوله: "[...] وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك وتقرباً إليك؛ فاعفر لهم. فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت. فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد فيما تريد!" [5][5]20

وإنما يتحقّق جوهر الإسلام، أو جوهر المسيحية، عندما يقف المرء، من أيّ دين كان، أمام خيارين: أحدهما الله والثاني الشيطان، فيختار الله دون الشيطان: "ألا إن حزب الله هم المفلحون" (المجادلة 22). في مثل هذه المواقف الحاسمة يتعيّن على المؤمن أن يتذكر قوله تعالى: "ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوّ مبين، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم" (يس 60-61).